الأعمال الكاملة:
خيري شلبي

الأمالي

لأبي علي حسن: ولد خالي

سيرة ذاتية شعبية في ثلاث أجزاء

- وثانيها الكومي

سلسلة أعمال خيرى شلبى

الكتاب الثانى

(الكومى)

وثانينا الكومى

أيام الأسبوع سبعة:

الأولة ـ هلت ليالي القمر

نجحت أمي ذات ليلة في أن تتصيدني في حالة رائقة، إذ أن الأمر الذي ودّت أن تحدثني فيه قد يسعدني فأطير في الهواء فرحا، وقد يصدمني فأشكمها في وجهها بقبضة يدي. لكنها أمي يا بوي ولا كل الأمهات، حويطة أشد من حوط المشير ولد أبو عامر يا بوي. تصيدت روقان مزاجي وضحكي على القاصية والليانة فصارت تحكي نوادر وأخبارا ونكتا تمثل خلالها أدوار الهتماوات والأطفال والمغنتين وسباع الليل ـ أي الكلاب، حتى ضحكت وصفّيت الغم كله، وقلت: «كفاك يا أمْ لقد أوجعت بطني من الضحك». فسرعان ما أمرت إخوتي البنات بأن يلفضنها سيرة ويقمن لتلصيق (البجلة) وتبييت الفراخ والتتميم على الأرانب وسد هواء الباب الكبير وخروم العشة حتى لا تجد العرسة منفذا تنفذ منه للدجاج، والحذر من الثعبان الساكن بجوار العشة في أمان لا يؤذى إلا من حاول إيذاءه، إلى أن يأذن الله باستقدام أحد الرفاعية القبض عليه يدًا بيد في صنعة لطافة.

دلفلتني الاطمئنان يا بوي وحدثت بقلبي «نغمشة» مفرحة في انتظار لخبر طيب، وقبل أن أتهيأ لاستماعه يا خال كانت أمي قد

رمت به في جملة واحدة كأنها لاتزال تحكي النوادر والأخبار والنكت. التهيت برهة ثم انتبهت فجأة فصحت فيها: «ماذا قلت يا أمُّ؟» قالت كأنها تخشى من ترديد الخبر مرة أخرى «ألم تسمع!» قلت: «أحب أن أتأكد». قالت بكثير من الحرج وقليل من الفرح المضمر، مشوحة: «يو.. و.. ه .. قلت: إن خرابة يدوّر على أختك سعدية!».

رجعت بدماغي إلى الوراء يا بوى، اعتدلت في قعدتي عدة مرات، شوك في كل موضع صار يشكني في قلبي، صارت كل الدماء في عروقي أسنان شوك تسعى في عروقي تشعل النار في حلقي في رأسي في عيني، ربنا ما يوقعك في ضيقة كهذه يا خال، تحلف اليمين إنها ولا ضيقة القبر!..

«خرابة»؟! «خرابة» بذات نفسه يا بوى؟! يدّور على أختي «سعدية» يريد أن يخطبها ويتزوجها، وهو الذي يستطيع بإشارة أصبع أن يخطفها ويستعملها كخليلة، كجارية دون أن يجرؤ على اعتراض طريقه نفر واحد لا من الناس ولا من الحكومة من التخين للجعيص فيها. أما أنا فلست سوى قشة. ريشة إذا شطع ونفخها طيرها الريح بددًا. الحكومة بجلالة قدرها لم تجرؤ على اعتراضه يا بوى ولم تفلح في الإمساك به يا بوى، فهل أقدر أنا يا غلبان يا مسكين أن أعترضه أو حتى أعترض عليه؟! هذه والله محنة جديدة منيت بها ياحسن يا ولد أبى ضب فهل لم تجد للمحن في الدنيا هدفا تستضعفه سواك؟! لولا تأكدى من حب أمي لوثقت أنها دعت على بألا يجبرني الله ويجعلني أبد الدهر في قلق ووجع دماغ!..

- ٦ -

هي برهة واحدة يا بوى، سرعان ما رأيت نفسي بعدها قد تعصعت وصرت في آخر روقان، اختلست البصر نحو أمي فوجدتها مطرقة إلى الأرض وجهها ملفوف برداء أحمر وليس أسود كالعادة ـ توحي لي به أنه من علامات الفرح والموافقة عندها. قلت لنفسي ولماذا لا توافق يا ولد أبى ضب؟ لقد كان بإمكان «خرابة» أن يفعل ما يحلو له لكنه استرجلك واعتبرك وعمل لك حسابا ووقارًا فجاء يدخل البيوت من أبوابها، رغم أن دخول البيوت محرم عليه منذ سنوات وسنوات باعتباره أحد ستة مطاريد يحكمون الجبل يتسلطنون عليه. قل يا بوى: إنني شعرت بالعزة ملئما، انتفخت في قعدتي وأنتويت الحديث في المهمات على أرض الوافقة. لكن خاطرا ملعونا جرى كحشرة البرص في ركن من دماغي، فاقشعر جسدي من نعومته وزلطته واختراقه نخاعي: كيف تأتّى لخرابة أن يرى أختك «سعدية» يا ولد وهو الذي لا ينزل البلدة قط إلا بتدبير يتم على مدى أيام، ومراقبة مستمرة على طول ليال وفي لحظة لا يعرفها أحد، حتى من رجاله المرصوصين على امتداد الطريق الذي سيرتقيه رائحا غاديامن

الجبل إلى داره ومن داره إلى الجبل والبنادق والمدافع الرشاشة مخبأة في أعشاشها داخل الثياب كالدجاج الراقد على بيض يتكسر، والقذائف العمياء على أهبة الانطلاق بدون تفاهم مع الصدور أو الأكتاف أو الأدمغة أو القلوب فإن نفد الرصاص فالخناجر والسكاكين والسيوف مربوطة على السيقان والزنود والسواعد غير بائنة. هكذا هو كلما نوى رؤية أولاده في يوم موسم أو يوم عيد أو ليلة مفترجة وهكذا زوجته هي الأخرى كلما نوت أن تأتيه في مربضه السري بالجبل تحت نفس الحراسة المشددة!..

فـ «خرابة» يا خال مطرود منذ ما يربو على عشرين عاما، ومحكوم عليه بمائة وخمسة وسبعين عاما من السجن المؤبد والأشغال الشاقة المؤبدة مع أن عمره كله لم يبلغ الأربعين بعد، حيث إنه قتل أرواحا لا حصر لها، في معارك مع أولاد عمه ومع الحكومة، نجح خلالها في ترحيل أبناء عمومته إلى بلدة أخرى، مكتفين شره بالبعاد، ونجحت الحكومة في أن تسكنه الجبل إلى الأبد كبديل عن السجن، لكنها - لرزاخة مخها، لم تفطن إلى أنها عينته إمبراطورًا على الجبل وعلى البلدة كلها. فمن يتحكم في الجبل يتحكم في البلدة. على الدوام: حاكم الجبل هو حاكم البلدة، وإن كان لها عمدية وخفراء يسندهم عسكر ومأمير وحكمداريون ومناليق لا حصر لهم. البلدة، والبلاد المجاورة كلها تحب «خرابة» لأنه حماها من لصوص ومن عائلات متجبرة كثيرة كبيرة فطارد

اللصوص حتى محاهم، واستبقى أرجلهم، فتوبهم وضمهم لرجاله، فصاروا من خلصائه، أما العائلات المتجبرة فكسر أنفها، يفرض عليها الفرضة تدفعها عن يد وهي صاغرة: تقول سبحان الله والحمد لله. اسمه «خرابة»، لكنه سخي جواد على رجاله يخطب لهم أجمل الفتيات وأغنى الستاتير يكلف لهم ولهن أعراسا داوية حافلة يرقص فيها الخيل ويرتع القوم على المزمار والطبل البلدي ليالي بطولها حتى الصباح، لهذا تمنى كل شبان البلدة أن يكونوا من رجاله يا بوي، ولو جئت للحقيقة لقلت إن شبان البلدة كلها بالفعل من رجاله، يخدمون تحت إمرته أو إمرة زوجته، أولاده صحابه، حتى من يشاع عنهم أنهم من رجاله، لهم في صدور الناس مراتع وفي قلوبهم مدافئ وفي رحابهم خيرات. ويل لمرشح الدائرة، إذا لم يتصل بـ «خرابة»، وينسق معه كل شيء؛ على المرشح أن يتنكر حتى في زي امرأة خليوصة ويسلم نفسه لرجال «خرابة»، ليجد نفسه بين يوم أو أكثر قد التقى بامرأة مثلها أو كهلا طيب القلب أو شحاذا غليانا أو درويشًا أبله يتكلم معه باسم «خرابة»، كلاما لا ترد فيه سيرة «خرابة»، على الإطلاق ولا شيء يتعلق بأمره. إنما هو كلام عن الانتخابات والعائلات والأحزاب مما يتكلمه عموم الناس في كل مكان دون أن يثيروا شبهة ولا قبلة، ولكن المرشح يعرف بعد لحظة الانفضاض والانصراف أن هؤلاء الذين قابلهم كانوا«خرابة» بذات نفسه. والمرشح مهما كان شريرا لن يكون غبيا أبدا فيبلغ عسكر الشرطة والمباحث ليقيموا كمينا للقبض على «خرابة»، لأنه لو فقد عقله، ففعل ذلك، فإن مذبحة

سيعلو أوارها في الحال، يكون هو أول ضحاياها من أول بادرة شك تُشتَمّ ريحتها في المحيط الجبلي كله. ولذا يفعل المرشح ذلك وهو يمني نفسه برضاء «خرابة» ليفوز بالتزكية، فلو فاز - ولابد أن يفوز ما في ذلك ريب - فآه ثم آه على التعميم الذي يحل على كليهما ويفيض على أهل الدائرة. النائب يتعهد بينه وبين نفسه بالعهد الذي قطعه على نفسه تلميحا أو تصريحا مع «خرابة» بأن يظل يحمي أهل الدائرة. فكيف يحميها يا بوي؟ يعني أن يظل يحامي عليها ويمنع أرجل الحكومة من النزول إليها أو إقامة نقط ومراكز فيها، ومهما كثرت القرى وتغولت المدن يظل كل مركز شرطة يحتوي على مجموعة كبيرة من البلاد يحار في حكمها الفرس والروم يا بوي، وتظل المدارس مقصورة على المدن البعيدة، حتى لا تصيب القرى بكثير من المتلامضين المتلمسين جلابي المشاكل ووجع الدماغ، هذا هو عين ما كان يطلبه المرشح لكي تبقى دائرته مجرد ضيعة يمتلك ثلاثة أرباعها على الأقل. فمعظم الناس عنده إذن أجراء، وكان «خرابة» يعرف طبعا أن المرشح يخدعه بطلاء القول فكان يلف عليه من وراء لوراء ويطلب وساطته لإدخال أبناء الناس الموسرين سلك المدارس، وثمة شبان كثيرون في الدائرة يدينون لـ «خرابة» بفضل إلحاقهم بكلية المحامين وكلية الدكاترة وكلية المهندسين وبالوظائف:

تومرجية في المستشفيات وكتبة في التفاتيش وملاحظي أنفار في الوسايا. هذا كله لخرابة وحده فما بالك بخمسة مطاريد آخرين عتلأت من حكام الجبل؟!..

«خرابة» هذا كله يا بوي، جاء يخطب أختي «سعدية» فيا لها من آملة كبرى، ولكن كيف بالله يا مسلمين عرف «خرابة» أن لي أختا واسمها «سعدية» بالذات، وأنها جميلة لدرجة تستحق أن يتزوجها على زوجته أمّ أولاده الجدع التي لم تفرط في عرضه قط، ولم تكن أقل شهامة منه! دعنا من هذا، ولكن لا تدعنا من هذه النقطة التي ربما كانت تقبا غائرا يا بوي: كيف تعرّف «خرابة» على أختي؟!..

وهنا غاضت الدماء في وجهي وارتفع دق الطبول في قلبي، لكن أمي كانت أسرع من دقات قلبي، إذ قالت: «كان خرابة نازلا في العيد الفائت في دُغَيْشة الفجر متنكرا في زي درويش عبيط، فرآها خارجة من الدار إلى الترعة تملأ البلاص وهي تتدلع في المشي على راحتها ظنا منها أن الطريق خالية. فرآها، فسحرته، فسأل عنها، فدلوه، فبعث يطلب منا عنوانك في مصر ليفاتحك في أمرها، فاستمهلناه بعض الوقت زاعمين أنك عائد في القريب العاجل!».

الصدق كان واضحا في نبرة الولية يا بوي، فلم أشأ أن أصدقها أو أكذبها، لكنني قلت على سبيل الاختبار وإطالة مهلة التفكير: «وهل توافقين يا أم على أن تزوجي ابنتك على ضرة!» . فوحت بيدها قائلة: «يا خويه! النبي عليه الصلاة والسلام اتجوز أربعة، واحنا في بيك الساعة! ما نبقى من عيلة خرابة! وفي عزوته!» وجدت نفسي أقول لها: «على بركة الله يا أمّ مادمت

تريدين هذا فلا يحق لي أن أمانع! مبروك على سعدية هذا العريس التخين! ولكنني يا أمّ لن أكون من رجاله في يوم من الأيام: فما أظن أن لي لقمة عيش في الجبل بعد أن شفت بعيني حلاوة الدنيا في البندر». قالت الولية بقروخ بال أفزعني والله يا بوي: «ياعالم! يا ترى من يعيش!» لكنني صحت من ورائها في ورع «على رأيك! يا ترى من يعيش!» ووالله كنت في قرارة نفسي قد بدأت بهذا النسب التخين.

الثانية ـ عُرْس القصر

تحلف اليمين يا بوى أن مخى يتبرجل كلما تذكرت أن «خرابة» سيصبح زوجا لأختي «سعدية». الخوف كان يجرى فى مفاصلى، فهذا رجل من عتاة المطاريد، فكيف يتهيأ له أن يقيم فرحا لنفسه كعريس لابد أن يحضر زفته بنفسه أمام القوم كلهم، أنا طبعا لست أقبل أن يدخل على أختى بدون فرح حتى لو وافقت الولية، دخول العروس بدون فرح يحضره الجميع هو سبى واغتصاب وعار، ستكون الفضيحة بجلاجل وشخاليل، ستقول ألسنة السوء إن فى الأمر سرا آخر، ولسوف يؤلفون من عندهم ويلتمسون الأعذار لـ «خرابة»، ولكنهم فى نفوسهم، لن يصدقوا أعذارهم. لا، لا، لا، يا خال، كل شيء في بلدنا مقبول ويمكن تبريره إلا العرس بدون فرح تلعلع فيه الزغاريد وتنقش الطبول صفحة السماء بالنقر ودوائر الأنغام.

لكنه «خرابة» يا بوى والأجر على الله، فالرجل الذى دوخ الحكومة وهزمها لن يعجز بالطبع عن إقامة عرس له. صدق أو لا تصدق يا بوى أن عرس «خرابة» على أختى «سعدية» لم يكن له

ضريب في البر كله، لقد رأيت من الأعراس كثيرا، فلم أجد لهذا العرس أخا. إذ خرجت الوفود من لدن «خرابة» في السر إلى كل أصدقائه ومعارفه وعملائه وكل من يفرض عليهم حمايته وإتاوته، فأبلغوهم خبر الزفاف وموعده بالساعة والدقيقة: ولم يكن من بين كافة المدعوين وغيرهم من يجرؤ - أو يقبل - أن يُنبئ الحكومة حتى يبقى العرس في نظر رائيه مجرد عرس كبير والسلام..

يوم العرس اصطحب رجال «خرابة» من أول الجبل حتى قلب البلد فأحاطوا بدارنا ودار «خرابة» وساحة العرس إحاطة الأسورة للمعصم وأحيط دوار العمدة وداره من غير أن يشعر هو بشيء، وقطعت أسلاك التليفون على الطرقات ليصبح التليفون في دوار العمدة جثة هامدة لا نفع فيها، واتخذ رجال آخرون مواقعهم على كل السكك ومداخل البلدة من جميع الجهات، كل هذا حدث في أول النهار فما كاد العصر ينطق حتى وافانا أهل الزمار والطبل البلدي، ثم أهل الفراشة، فنصبوا السرادق الكبير المهول، وأقاموا منصة لرقص الغوازي بعيدا عن ساحة رقص الخيل، عند خروج الناس من صلاة العصر فوجئوا بزيطة وزمبليطة في الوسعاية أمام دار «خرابة» وأمام دارنا، الطبل يصدح والزمار يزار والخيول الأصيلة ترقص تحت الرجال تفعل الأعاجيب. أما دارنا فقد امتلأت لَمتها بالنساء، وكانت الماشطة قد جلت أختي «سعدية» وجعلت منها عروسا بحق وحقيق، زادتها جمالا حتى خيل لي أنها =

تخرى قابعة من البشر، ولحظتئذ استخسرتها في «خرابة».. ثم عدت فقلت لنفسي: إنه رجل وهي تستاهل!..

راحت طلقات الرصاص تدوي معلقة في سماء البلدة كأسراب العصافير الضئيلة، وكان العريس ذاهبا يستحم في دار خاله قبلي البلد وطلقات الرصاص تزغرد له طوال الطريق بعد صلاة العشاء، انطلق موكب الزفة من دار الخال فلف البلدة كلها ساير داير، تتقدمه المزيكة، وتتقدم المزيكة طلقات الرصاص، «خرابة» في قلب الزفة كالبلية لا يكاد يبين، إذ هو قصير القامة، نحيف الجسد كنصف فرع يابس ورأسه كرأس الهدهد مستطيل مدبب، والعمامة الكبيرة حول اللبدة في عرض كتفيه، ووجهه يطل من تحتها مجرد عينين صقريتين تطلقان رصاصات مشتعلات، ومن تحتها أنف صغير دقيق كبز متكلس فوق راحة يد، والجلابية الكشمير تحتها القطنية، فالصديري، فالفانلة ذات الأكمام، والعطر يفوح من صدره، فإذا رفع يده بالتحية وجدتها صغيرة كيد طفل صغير تكاد لا تبين في فراغ كمه الواسع، تتسدل ثيابه حتى الأرض لتخفي قدميه الصغيرتين..

كانت هذه ثاني مرة أرى فيها «خرابة». أما الأولى فكانت قبل ذلك ببضعة أسابيع، يوم جاء إلى دارنا بليل كي يخطب «سعدية» مني ومن أولاد أعمامي الفقهاء، ويقبضنا مهرها: مائة وخمسين جنيها أخضر من أهيف القد ممشوق القوام. وفوق ذلك، يأمر واحدا من رجاله بتشغيلي حارسا لواحد من معارفه القبط في

بلدة «أبو حجر»، فنفذ أمره ثاني يوم، واستلمت الشغل والعربون. فكان ذلك شيئًا جميلا من «خرابة»، جعلني أحبه وأعرف أن الرجال كرامات وعقول وليست أجسادًا وأموالا..

خرجت «سعدية» من دارنا في زفة كبيرة تتقدمها الدريكة والمغنية، وهذه تتقدمها الزغاريد منافسة لعلعة طلقات الرصاص، حتى وصلنا بها إلى دار العريس التي ابتناها خصيصا في بضعة أيام، أجلسنا العروس في الحوش فوق كرسي عال وبجوارها شقيقتها «هندية»، التي بدت أخطر منها، وبجوارها، من الناحية الأخرى، شقيقتها التالية، وبجوارها ابنة خالتها «فوقية»، وسط حشد من النسوة ترش عليه الملح فلا تسقط منه حبة واحدة على الأرض. والمغنية شغالة والنقوط يرف عليها من كل امرأة وصبي. في نصف الليل وصل العريس فدخل على عروسه والفرح شغال في السرادق رقصا ومغنى ونمرا متوالية من كل صنف ولون. أولاد عمي والبنات يلطون تحت شباك العريس، وأيديهم على قلوبهم، يتعجلون خروج الماشطة بالمحرمة البيضاء، وقد تبقعت بدم الشرف الغالي. صار أولاد عمي الأشقياء يغنون ساخرين «إن كنت غشيم اطلع بره» فما كادوا يتمون غنوة استحثاثه، حتى دوت صرخة سريعة مفاجئة مقطومة، دوت في أعقابها الزغاريد، وانفتح الباب، وخرجت الماشطة فاردة المحرمة بين يديها كالعلم، فانبرى النسوة يغنين: قولوا لابوها الدم بلّ الفرشة! قولوا لابوها يروح بقى يتعشى!».. بعدها خرج العريس لتحية المعازيم وحصر

النقوط، وكان القادمون من صلاة الفجر العائدون من العرس فيسلمون على بعضهم البعض في فرح.

عدّت الليلة على خير يا بوي، وفي اليوم التالي وضعنا أيدينا على قلوبنا وبقيت موضوعة هكذا شهرا كاملا يا بوي و «خرابة» مختفٍ في داره الجديد يعتصر نفسه داخل عروسه ويعلمها نفسه على حقيقتها، وكلما ارتفع صياح في أي مكان في البلدة، جرينا نستطلع الخبر، وفي يقيننا أن الحكومة وصلت وقبضت على «خرابة» من حضن عروسه فلما أصبحنا ذات يوم، ذهبنا كالعادة للصباحية على العروس وجدنا «خرابة» قد رحل. فدخل الاطمئنان قلوبنا وأيقنا في ستر الله.

الثالثة ـ زمن الولاد

جرى القرش فى يمينى يا خال وطابت لى الحياة فى الصعيد حيث الرجل الذى أخدمه يكرمنى أشد الكرم. ولست أعرف إن كان إكرامه لى انبساطا منى أم خوفا من «خرابة». لكننى مشيت فى البلدة مرفوع الرأس منفوخ الصدر يا خال. الناس يشيرون نحوى من طرف خفى قائلين: هذا صهر «خرابة».. فيعتدل السامعون فى الحال يغيرون نظرتهم لى، يختلف تعاملهم معى، سعى إلى مصاحبتى خلق كثيرون، أصبحت أنعزم على الغداء، والعشاء، والأفراح كل يوم فى كل مكان، لا أدخل إلا بعد صلاة الفجر..

من بين من صاحبونى على حس «خرابة» ولد مبدع اسمه «مليّك» وأبوه فلاح من ذوى الأملاك يدعى «يوسف النجار» حلو التقاطيع كابنه مسمسم الملامح، عشرى اللسان رقيق الكلام. الولد كأبيه، ولا خلاف بين الاثنين حتى فى مظهر العمر؛ إذ إنّ الأب يبدو فى سن ابنه مع أن الولد فى العشرين من عمره باليوم والساعة والدقيقة ـ كلاهما يرتدى ثياب الآخر، ولا يمكن لأحد أن يفرق بينهما سواء فى الصوت أو فى الشكل أو فى طريقة الكلام.

الوالد يضع يده على مساحات كبيرة من أراضى طرح النهر فى أزمنة الفيضان، يسهر على زراعتها ليل نهار، وما على الولد إلا السعى فى بيع المحاصيل وطلوع الأسواق للمتاجرة فيها وفى المواشى الصغيرة السن نتاج زريبة كبيرة أنشأها الوالد من شطارته. ولد: ولا كل الولدان يابوى، كريم، سخى، جواد، يكسب كثيرا مع أنه زاهد فى الدنيا، قليل النفقات على نفسه وملذاته، إلا حين أكون معه، فحينئذ يصرف بلا حساب، وهو فى غاية الاستمتاع لرؤية الصحابٍ مسرورين بسببه، كان مؤمنا يؤدى الفرض بفرضه، يفكر فى طلوع الحجاز غير أنه يؤجل السفر إليه حتى يئون الأوان، كما يقول، والأوان فى نظره، أن يكون هو نفسه قد أصبح يثق فى أنه قادر على احتمال مسئولية الحج، التى هى ليست لعبة يشتريها كل من معه المال: تعلمت الصلاة تقليدا له لا خوفا من الله، وواظبت عليها حبا فى أن يربطنى الناس بصاحبى «مليّك» حين يمتدحونه، وما أكثر ما يفعلون.. فكانوا يروننى معه كلما ذهب إلى المسجد لأداء الفريضة، ويرونه معى كلما ذهبت للسهر فى مكان بعيد أشرب فيه الحشيش، غير أنه كان لا يشرب إلا خطفا لأنفاس سطحية لا تستقر فى الدماغ..

بفضله ـ مليّك يا بوى ـ انتقلت دارنا من حال إلى حال، حيث أصبحت طواجن الحليب تعرف طريقها إلى دارنا صباح كل يوم، تحمل سخونة الضروع، حتى صرنا كالفلاحين أصحاب المواشى: نخثر الحليب ليروب، فنحصل على قشدة، وزبد، وسمن، وجبن قريش وكذلك نصنع الفطير المشلتت. قل يا بوى إن صحوبيتى له

«هليّل» ولد «يوسف النجار» صارت حديث الناس كلهم، وعلت على خبر زواج «صباية» من أختي «سعدية».

من طيبة قلبي يا بوي لم أفهم إلا مؤخرا. كنت كالأطرش في الزفة أندهش من اندهاش الناس لهذه الصحوبية إذ كانوا يفتشون عما يكون وراءها من غرض. أما أنا فأسخر من رداءة سعيهم، وأقول في كل مناسبة إن الحب نفسه غرض، حب الإنسان لآخر هو في حد ذاته شيء يقوم في النفس من غير أن تعرف النفس ماذا قام

إلى أن جاء يوم ظهرت فيه الحقيقة يا بوي، إذ فوجئت بصاحبي «هليّل» يعزم نفسه - وأباه - على العشاء عندنا في يوم أختاره أنا قلت مندفعا بكل حماسة «ولماذا لا يكون ذلك الآن يابو العم؟ تظن أننا نعطي نفسنا مهلة نستعد فيها لضيافتك! والله ياخال! طلاق بالثلاثة من ذراعي لتجيش اليوم أنت وأبوك وكل من تهواه مرافقا من العائلة!». قال «انتظرنا ليلة الخميس القادم بعد يومين». قلت: «وماله! يا تلتميت مرحبا». أنبأت الولية أمي بالخبر فاشترت جديا صغيرا شعرته وشوته، واشترت قفصا من الفاكهة من سقط الجناين، وبعد صلاة المغرب يوم الخميس طرق بابنا، ودخل صاحبي «هليّل» ساحبا أباه «يوسف النجار» خلفه، فلم نعرف من فيهم الأب ومن الابن. كنا قد فرشنا وسط الدار كله بالحصير والمساند، فجلسنا جميعا نتحدث في أمور الدنيا وأحوالها. جاءت الطبلية فتوسطتنا، من فوقها الصينية النحاسية الكبيرة - صينية العشاء - وتوالت أطباق الشوربة، والثريد

وأكوام اللحوم المسلوقة والمشوية والمقلية في السمن، فأكلنا حتى بشمنا من التخمة، وجيء بالطشت والإبريق، اللذين استعارتهما أمي من دار عمي الشيخ الكبير في آخر الحارة، فاغتسلنا وحمدنا الله، وقلبنا أيدينا ظهرا لبطن شكرا لله على نعمته، وجيء بالوابور وبعده الشاي، وجعلنا نفرقع السجائر، ونشرب الشاي، ونقول النكت والنوادر ونضحك على الفارغة والملآنة، ومحسوبك، يلهو وفي الباطن، لا حد لانشغالي وقلقي من سر هذه الزيارة في الظاهر وكانت الولية أمي، لذكائها، تروح وتجيء من بعيد لبعيد، تتسقط الأخبار، فتعجلها، كلما أحست أننا رأيناها، وقفت وتكلمت بعض الكلام عن الستر، وأولاد الأصول، وحسن التربية فلهمت أن أمي فقست اللولة، وفسرت هذه الزيارة بأن «يوسف النجار» جاء بولده «هليّل» للحديث في أمر ترفع له الزغاريد مدوية. عندئذ، بدأ الموضوع يدور في دماغي يا بوي، قلت لنفسي أقطع ذراعي إن ما كان «يوسف النجار» قد جاء يخطب أختي «هندية» لابنه الوحيد «هليّل» صاحبي العزيز، وتذكرت أمي في حضور سابق للصعيد زوجت اثنتين من إخوتي دفعة واحدة، زغرودة في ذيل زغرودة، فشيق قلبي في الحال أن هذه الفرحة ستتكرر اليوم أيضا، وأنني في هذه الحضرة سأستمع إلى الزغرودة الرابعة في حوش دارنا، ولن يبقى في الانتظار لأمي سوى زغرودة لي بعد وقت يعلمه الله، حسب شروط القسمة والنصيب يابوي.

رقص قلبي والله من الفرح لأنني رأيت الود والبهجة لائقين على بعضهما آخر تمام. ثم زعلت بيني وبين نفسي يا خال الولد

إذن كان يصاحبني من أجل «هندية» وليس حبا في شخصيتي. كاد الغضب يعصف برأسي، فجاءني خاطر خبيث يوحي على رفض طلبه – إن طلب – احتجاجا على عدم اعتباره لي، حيث كان يجب أن يكلمني من الأول ليعرف رأيي قبل المجيء ليخطب. غير أنني لم أقدر يا بوي، فأنا أحب الولد، وما صدقت أن عثرت على صاحب مثله يعزني ويودني ولا يبخل علي بشيء.

– وأخيرا تكلم يا بوي فإذا به صامت من فرط الخجل

واعتدل في قعدته، وأطرق برأسه إلى الأرض، فبدت عليه الحيرة الكبيرة، وفي كل مرة يشرع في الكلام، ثم يسكت، ويختلق موضوعا آخر يهرب إليه. فلم أطق صبرا يا بوي، وإذا بي أبادره قائلا مع ابتسامة مرتعشة «نفسك في كلام تود قوله»، فإذا به يرفع رأسه صائحًا «نعم والله! عندي كلام مهم جئت من أجله!».

صحت فيه بدوري «قله يا بن العم وإلا فقعت مرارتي!» فاعتدل قائلا في خجل «أصل! صراحة! أنا مكسوف!». رقص قلبي من الفرح، والشك. فشرحت قائلا «إذن دع والدك يتكلم نيابة عنك يابو العم! لماذا جئت به إذن! أليس ليتكلم نيابة عنك يابو العم!».

إذا بالولد «عليّ» يكتم ضحكة في صدره، وإذا بأبيه يبدو عليه الخجل كالفتاة. قال صاحبي «شف يا أبو علي يا صاحبي! الآن تنعكس الآية. افهم قولي! يعني أنا الذي جئت لأتكلم بالنيابة عن أبي» تحجرت الابتسامة على شفتي، ونشف ريقي، قلت. «كيف يا

خال!» قال صاحبي بشجاعة سريعة «صراحة يابو العم! أصل الحكاية أن أبي يطلب القرب منك في أختك هندية!». تنفست قائلاً «أهلا وسهلا! يا مرحب بيه! نوديها لحد الدار!». فانتفض الرجل يا بوي كالملسوع من عقرب، كاد ينطط كالأطفال، يملأ الدنيا زئيطا، ثم قال. «إذن أسمعونا الفاتحة!»

قلت «إهدا قليلاً! فالعريس نفسه ليس فرحا هكذا مثلك!» فإذا بالرجل يمهد حبله في الحال وتنقبض ملامحه، وإذا بصاحبي «علي» يشرح في وجهي بجدية كبيرة. «افهم يا صاحبي! إن العريس هو أبي».

تخشب قلبي يا بوي، قلت «أبوك بذات نفسه! إذن! هو الذي يريد أن يتزوج من أختي هندية!». رد بكل بساطة وقد ازداد جرأة. «وماذا فيها؟! سيدفع المهر الذي تطلبون بدون مساومة». أحدث، والله، أنظر فيهما معا، نظرة عليه، وأخرى على أبيه، فلا أكاد أميز فرقا بين الوجهين، اللهم إلا بعض تجاعيد بسيطة لا يراها إلا من يدقق في وجه الأب، فصرت من شدة اللخمة والحرج أضحك بصوت زاعق، فلما رأيتهما ينظران لي في كثير من الغضب، خفت أن أخسر صاحبي، فصرت أردد «وماله! دحنا يزيدنا شرف! من إدمكم حصة!».

تعثرت ناحلا على أمي المتقرفصة خلف باب القاعة تسمع الحديث. فلما انفردت بها، انفجرت أضحك في عبي، حتى كادت روحي تخرج من الضحك. فرغدتني الوبية، وقالت بصيح غاضب.

«بتضحك على إيه يا ولد؟». قلت: «إنك لم تعرفي العصر يا أم!» قالت منشرحة: «عرفت كل شيء وسمعت كل شيء!». مسحت دموع الضحك وقلت: «فما رأيك إذن يا أم؟». تحلف فيميني يا بوي لن الولية كانت تطيّر برجا من دماغي، إذا بها تقول بكل بساطة: «خير وبركة! هل نطول يا ولد؟ رجل غني وحله هيومه كهذا لا نرضى به؟! فمن نرضى إذن؟». فكرت قليلا وقلت: «يا ولية إنه كبير في السن، وابنه رجل كبير». قالت الولية: «النبي محمد عليه الصلاة والسلام تزوج ستنا عائشة وكانت سنها تسع سنوات وهو في عمر الخمسين؟ هذا الرجل لن يزيد عن الخامسة والثلاثين؟ لقد تزوج وهو صغير فأنجب وهو صغير إنه الآن في عز شبابه ورجولته؟ تعرف يا ولد! لو كان الذي سيخطب ابنتي هو صاحبك فليّل ما فرحت كما فرحت الآن بأن يخطبها أبوه لنفسه! صاحبك طائش مهما صلى وصام؟ قد يتزوج عليها بعد حين، أما أبوه فعاقل وحكيم يفهم قيمة البنت! سيضعها في عينيه ولن يتزوج عليها أبدًا! افهم كلامي ولا تجعله يخرج من هنا إلا مجبور الخاطر».

طب ما رأيك يا خال؟ أمي قلبت كلامها في دماغي بسرعة فوجدته حكيما موزونا مقنعا؟ أي والله يا بوي، هذا ما شعرت به في كلام الولية، فقلت لها: «صدقت والله يا أم». وطلعت على الضيوف أبتسم بصدق هذه المرة قائلا: «مبروك عليك يا عم! عشنا وشفنا الأولاد يخطبون لآبائهم!». وصعرت خدي نحو صاحبي راميا إليه بنظرة غدارة ماكرة وقلت: «أنت إذن كنت تصاحبني من

أجل هذا الغرض يابو العم! تشكر على كل حال! ميتتي لكي يحط ليوك على ظهري ميدخل دارنا يتزوج أعز بناتنا؟ طب يا أخي كنت تعال دوغري من الأول! ما كان هناك داع لأن تلف علي وتصاحبني فأتوهم في نفسي أنني واحد جدير بالصحوبية». فهرب صاحبي من نظري وغرق في بحار من الخجل، والعرق، والاحمرار صارت الابتسامة المجنونة ترتفع وتنخفض على ثغره كصور التليفزيون على أيامكم هذه حين يصيبها الرعاش. وصار يقول: «أبدا والله، يابو العم! أنت أخطر صاحب لي. العكس ما حصل، والله، يا خوي! أبي هو الذي ميلني وحط فرق ظهري من لحظة ما علم أنني صاحبتك. صار يشجعني ويغريني ويمدح لي فيك وفي أعمالك الفقهاء الكبار حتى صورك لي ملاكا نازلا من السماء فأحببتك كل هذا الحب يا حسن! هذه كل المسألة والله على ما أقول شهيدا». فانبسط قلبي من هذا الكلام يا خال، وانفتح للولد أكثر وأكثر، كدت أنهمه باكيا، إذ إنني لم أكن صادقت في حياتي من يصيبني لله مثل هذا الولد. ولما شعرت بسخونة الدمع تتحدر على خدي مسحتها بكم جلبابي مبتسما أقول: «خلاص يا عم! براءة! براءة. براءة». انبسط الرجل هو الآخر آخر انبساط، صار ابتسامة كبيرة تبك الدم وقال: «أتراك وافقت إكراما لي أم للولد الذي جاء معي؟!».

أعتقتني أمي من الرد، إذ بانت قائلة: «من أجلك طبعا يا زين الرجال! يا أصيل! يا سيد الناس!». أسرع الرجل قائلا كأنما

يخشى أن نرجع في كلامنا: «اسمعونا الفاتحة من أجل النبي!»..
فرفعنا أكفنا جميعا، واندمجنا في قراءة الفاتحة بفرحة صادقة.
صدق الله العظيم. حينئذ مال «يوسف النجار» نحوي هامسا:
«شف يا ولدي سأدفع مهرا ضعف ما دفعه خرابة مرتين! افهم
كلامي. لست أتحدى خرابة فهو حبيبي! إنما أنا أحب العروس
وأعرف قدرها!». قلت مع أمي في نفس واحد: «يكفينا شخصك يا
رجل، نحن لا نتاجر ببناتنا!»..

وكان عرس «هندية» أشد من عرس «سعدية» بكثير يا بوي،
حضره كل من يمشي على الطريق. وبقي هذا الزواج حديث البلدة
شهوراً طويلة يا بوي، وحياتك جاءت أختي «سعدية» لتحضر
عرس شقيقتها «هندية» كانت حاملا وبطنها كبيرة. وحينما ذهبت
أختي «هندية» لتحضر ولادة شقيقتها «سعدية» كانت حاملا
وبطنها كبيرة. أما أنا فقد بت أمشي في سبهللة بكامل حريتي،
أضرب عصاي، وأجري وراءها، شاعرا بأنني أخيرا قد تخلصت
من جبل من الهموم كان يكتم أنفاسي. وبأنني قد آن لي أوان
التعيم.

الرابعة ـ يوم الهول

قلت إنني لن أكون من رجال «خرابة» ذات يوم، وقد شهد الله
على قولتي يا بوي، فبقيت مصمما عليها، فأنا أحب الحرية يابوي،
وأتعشقها كالعصافير تتعشق البراح، تدوب في هواه، أب غير
مصرلية، يا بوي «خرابة»، في الأصل، يعشق الجبل عشقا. ومنذ
كان طفلا صغيرا وهو يهرب من أهله إلى الجبل، في الجبل يجد
متسعا لمضاجعة السماء والفتيات الساقطات ورجمه المسروقات
وكل شيء. كان يقدم المطاريد خدمات كبيرة، فيكون لهم مرسالا
إلى نسائهم، أو عشيقاتهم، أو رجالهم المحبوسين في دوار العمدة،
يشتري لهم الطلبات فلا يطلب أجرا عن أي خدمة، فأحبوه
وبشروا عليه حمايتهم. قل إن «خرابة» نشأ وتربى في الجبل، فلما
كتب عليه الحظ الأغبر أن يكون منفيا مطروداً من الحكومة في
الجبل لم يكن في ذلك أي عقاب له، بل إنه لو سجن لهرب من
السجن إلى الجبل، بل لو تركوه حرا في البلاد لهرب من الحرية
وجاء يسكن الجبل، نعم يا بوي، فالجبل غرامه الأوحد، وهو
يعرف كل شبر فيه. يعرف كيف يدخل من هنا، ويخرج من هناك،
دون أن يدري أحد من الراقبين، يعرف كيف يتوه مطارديه توهانا

لا تفوقان منه ولا امتداء إلى الأبد.بعض مطاريديه من المخبرين السريين وضباط المباحث المغامرين ظل يغريهم بمطاردته، سهلاً بهم أمر القبض عليه بعد خطوات قليلة حتى دخليهم إلى عمق سحيق في الجبل يبدو كأنه المغارة وهو مجرد طريق إليها طوله أمدية وتتخلله صخور كثيرة من كل حجم وأتربة، فصخرة لابد من صعودها، وكومة أتربة لابد من خوضها وصخرة أخرى تسد الطريق تاركة منفذا كالبرزخ لا يعبره إلا من كان جسمه كجسم العرسة لكن «حرابة» يسلك فيها كلمح البصر، أما مطاريدوه فقد اعتراهم الصرع والصراخ والحمى والخوف فرجعوا يتخبطون شهوراً، يتعذبون في السراديب، حتى ماتوا، وتعفنت جثثهم، وأكلتها ذئاب الجبل وطيوره الجارحة.

ثمة دين يابوي، لقد ماتت الحكومة كمداً، وسلمت أمرها لله، وحرمت ارتكابها لهذه الفعلة الحمقاء مرة ثانية كل هذا و «حرابة» أيامها مجرد شاب صغير السن لم يلو في الإجرام بعد، كان لا يزال مجرد واحد يعشق حياة الجبل بين المطاريد الذين يطلبونه ويأسرون قلبه بشجاعتهم وتحديهم للحكومة وللعائلات الكبيرة الغنية لم يكن محتاجا يابوي، وهذا هو العجب ثمة دين يابوي، أن أهله من مسروطين كل الاستساط والعمدة كان منهم ذات يوم العمدة كان عمه لزم، وكان «حرابة» مرشحا للعمودية إذا مات عمه تشاء الصدف أن يموت العم ميتة ربانية و «حرابة» سارح في الجبل لا يعلم، فلما وصله الخبر بعد يومين، كانت لجنة العمودية قد طبخت في المديرية لتأكلها عائلة شيخ البلد الكبيرة

بالعدد والأطيان والدواب فما كان من «حرابة» إلا أن ركب حصانه الذي يسميه الأدهم ـ على اسم حصان «عنتر بن شداد» ـ وتمنطق بسيفه وخنجره وبندقيته التي هي في العادة من آخر طراز وصل إلى الجيش المصري. إذ أن سماسرة السلاح وجلابيه لا يهدأ لهم نشاط ما دام في الجيش دفع من المجندين أيديهم قريبة من مخازن الأسلحة نزل «حرابة» يومها من الجبل يتبختر فوق ظهر الأدهم، وخلفه أربعة رجال شباب على أربعة أفراس شداد، كل رجل بفرسه جاء من طرف أحد المطاريد الكبار مجاملة «لحرابة» ومساعدة له على استرداد حقه في العمدية ـ كان قد سبقهم ولد من الأشقياء قام بقطع أسلاك التليفون من مكان بعيد الوقت بعد صلاة العشاء، ولقد كمن الناس في دورهم منكمشين في الدفء وكان العمدة الجديد ـ شيخ البلدة سابقا ـ قد نقل التليفون الأم من دوار عم «حرابة» إلى دواره وجلس بين رهط من أصحابه وأبناء عمومته يشربون الشاي ويتحدثون في أمر جوهري بالنسبة لهم كعائلة إذ إنهم عائلة نقية الدم يا بوي، لو جس واحد منهم على جبل لتفتت عيظ ونكالا، وهم يعرفون ذلك عن أنفسهم حق المعرفة يا بوي، وهم أول من يدركون أن حق الله، كلهم يتمنون زوالهم من الوجود غير أنهم لا يبيتون لذلك، ولهذا كان حديثهم تلك الليلة ينصب على هذه النقطة وحدها، يوصون العمدة الجديد بأن يستقوى ويجمد قلبه وإلا هزأت البلدة به وبهم وضاعت منهم العمدية هدرًا وكان العمدة الجديد ... ذلك

في تلويح واضح بأن الله يفعل ما يريد. إلا وصهيل الأفراس يجلجل في الخلاء أمام الدوار، فترعرعت القعدة وتكومت فوق بعضها تتشاور، وقفز منها من يرى الخبر. ثم عاد، وقال إنه «حرابة» يطلب مقابلة العمدة الجديد ليبارك له. فلما سمع العمدة ذلك استقام عوده من جديد، ومشى الدم في عروقه، فنهض واقفا مظهراً علامات الترحيب والسعادة، ونهض من خلفه بقية الرجال ومضوا وراءه نحو باب الدوار، فاجتازوا الحوش الواسع إلى باب الشارع حيث يقف «حرابة» ورجاله بأفراسهم راكبين. ربك والحق استاء العمدة وانكرر في نفسه من أن «حرابة» لا ينزل عن الحصان في مواجهته لكنه ابتلع غصته وقال «أهلا وسهلا اتفضل يا رجل واشرب الشاي أو تناول العشاء» فقال «حرابة»: «أما الأكل والشرب فقد ملأت به بطنك في غيبتي! وظنت أن الطبخة في المديرية وشرفها الحكمدار بتمريط البصل وغسل اللحم وعصر الطماطم يمكن أن يجعل الأكلة شهية! أو أن يمحيك الله من صاحب الحق الذي أكلت لحمه! لكنني، وحق سكناي في الجبل، لن أدعك تهضم هذه الأكلة الدسمة! فأنا البقية الحية من اللحمة التي أكلتها اليوم مطبوخة! ولو لم تكن غدرا لعفوت عنك وباركت لك حقا! لكنك أثبت غدرك ولؤمك فلم تصبر على جثة عمي حتى تبرد من سخونة الموت في قبرها! فنقلت التليفون إلى دارك، وهو الآن جثة هامدة! وإني لأعرف أنك تعرف أنني رجل ولا كل الرجال. فكيف إذن تجرأت على خيانة الميت وتتجرأ على خيانتي وأنا حي؟!»

ومع العمدة من طوله يا حال، صار ينظر حواليه يستنجد بأي واحد. ارتفع صوت برطمة وطلسمة وصوت رعيق وتهديد من داخل الدار، ورأى «حرابة» شبح بندقية ترتفع ماسورتها من مطلقة مظلمة في حوش الدار تستعد لتنشين عليه بعد برهة قصيرة فسحب في الحال مدفعه الرشاش ونشن على ماسورة البندقية بطلقة طيرتها في الهواء بدنًا، وطيَّرت خلفها صرعها هذللا. ثم حول وجهة المدفع نحو صدر العمدة فأفرغ فيه، وإلى صدور اللي حوله فأفرغ فيهم. صارت الجثث تتساقط وهو يخوض بفرسه فوق الجميع رائمًا غاديا و مدفع الرشاش يصب النار في كل اتجاه، ومن خلفه الفرسان الأربعة يصولون ويجولون في كل من يأتي من عائلة العمدة. فلما نفد سهم الرصاص، جردوا سيوفهم، وانهالوا لحرق الرقاب تقطيعا وتمزيقا. كانوا يفعلون ذلك وهم يلوون أعناق الأفراس لتمضي بهم في اتجاه الجبل، حتى إذا ما تملكوا الخلاء، انفردت أرجل الأفراس عن آخرها تسابق الريح طائرة، حتى اختفت تماما في الجبل. وفي تلك الليلة حصرت عائلة العمدة خسائرها فكان عدد الموتى عشرة رجال أشداء من بينهم اثنان من أولاده وثلاثة من أولاد أخيه والباقي من مؤيديه وحضراته. أما الجرحى وفاقدو الأطراف وذوو العاهات المستديمة فكثير عددهم، وكلهم من عائلة العمدة شيخ البلد سابقا.

حقٌ ماله. «حرابة» كان يعلم ويثق أن البلدة كلها ستكون في صفه كرها في هذه العائلة وحب في شجاعته وهيبة أهل عائلته وكان واثقا لذلك أن شيئا لن يحدث له في هذه المعركة

مذ عدت أياما وأصبحت الجثث متكومة تنتظر مجيء النيابة والحكومة. بعد دفن الجثث والتحقيق مع بعض الخلق ممن شهدوا الواقعة. انطلقت مجموعة من سيارات عالية يسمونها الجيب ترعق بشدة وتتسلق صخور الجبل كالقطط المفترسة وأهل البلاد من فوق أسطح الدور يتفرجون على السيارات وهي تغوص في أحشائه فتختفي في سفوحه وتظهر ثانية على صخوره ومنحنياته يوما كاملا من الصباح إلى المساء دون طائل. فبعضها عاد إلى البندر لاهثا وبعضها لم يعد نهائيا وقد شهد معظم أصحاب السطوح العالية أن ست عربيات دخلت الجبل من كل الاتجاهات فلم يعد منها سوى أربع. وبقيت الحكومة شهورًا تطلق عصابات من الراجلين والراكبين والكلاب الشمامة تلف الجبل تدخله شقا شقا وفي النهاية عادت كلها بخسران كبير مبين مؤكدة - ويا للعجب - أن الجبل ليس يسكنه أحد، لا من البشر ولا من الحيوانات، كيف يا بوي؟ حقيقة الأمر يا بوي أنهم حكموا على الجبل من مظهره الخارجي أقصد من طرقاته السالكة الواضحة أما سفوحه وشعابه وبحاره الجافة وشقوقه ومغاراته السحرية وقلاعه المنحوتة فيه من أيام الفراعين فليس يصل أحد إلى مواقعه وإن وصل بالصدفة فليس يجرؤ على الاقتراب منها، وإذا كان معهم كلاب شمامة ففي أعماق الصخور المسمومة كلاب أبوها ذئب لا تعرف ربها. أما إذا هيأ لهم جنونهم إطلاق الرصاص فسيهال عليهم وابل من النيران من أماكن خفية في قلب الصخور

ثمة ودين ما خال أن العربات الجيب التي لم تعد من الجبل يومذاك بحثت عنها عصابات الأهالي المتصلين بحياة الجبل فعرفوا أن المطاريد قد اعترضوها وأسروها وخبئوها في أماكن سرية ليستخدموها في أغراضهم الخاصة تنفع في جلب المخدرات وتوصيل الطلبات والحرب مع الحكومة.

قل إن الأوضاع استمرت على ذلك حوالي العمر يا بوي، وكانت عمدية البلدة قد انتقلت إلى «هريدي» ود عم العمدة القتيل، فبدأ يسايس الناس، يأخذهم باللين، يقضي لهم مصالحهم، بدون مقابل لكن أهل البلدة، مع ذلك، كانوا يتحسبون للنذالة المتأصلة في نسله، فلا يصدقونه، ولا يثقون به. ولقد ذهب المرسال إلى «مخرلبة» في الجبل بأن العمدة الشاب يسايس الناس في الظاهر، ويدعي الأمانة أما في الباطن فإنه لشر متأصل فيه ينوي الإيقاع بالبلد كلها في قبضة الحكومة، يجعل الحكومة هي اليد التي ينتقم بها، إذ هو يستقبل كل يوم ضيفا أفنديا يقوم هو بإطلاعه على الناس متكلما كلاما غامضا عن «المال» و«نكوس» و«السحرة» و«الجهادية»، وعن أشياء تنوي الحكومة أن تحفرها وتبنيها، أو تشقها، ويلزمها، تبعا لذلك، أعداد وفيرة من الرجال، ومبالغ طائلة من الأموال. فيرتعد الخلق ويدفعون تبرعات ويبرطلون دفاعا عن أولادهم وممتلكاتهم، ودرءا لتهم غامضة قد يتعرضون لها. والعمدة الشاب - حامل ابتدائية الأزهر - فرح بهذه المناظر تحدث أمام دواره ومناظر الخلق يقعون من طولهم أمامه رعبا ورهبا، يتحولون إلى عبيد، يتوسلون ويستجدون الرحمة والرأفة من هذه

الطرابيش المعووجة على ناحية والمستعدة دائما للحكم عليهم بأربع سنين في الزنازين يا حال.

لم تمض ثلاثة أيام على وصول هذا المرسال إلى «حرابة» في الجبل، حتى تهيأ للنزول في اليوم الرابع، فملأ جيوبه كلها بالطلقات النارية، وحمل مدلأس السيف سيفين وخنجرين وربط كل ذلك في ثيابه المحكمة حول جسده رباطا وثيقا لكل شيء جرابه المخصوص. ومثله فعل الفرسان الأربعة الذين باتوا من رجاله بعد أن تنازل عنهم أصحابهم كهدية منهم لـ «حرابة»، الذي سبق له أن خدمهم جميعا خدمات كبيرة يا بوي، ونفذ لصالحهم عمليات لم يكن سواه يستطيع تنفيذها مهما كان جبروته نفسها «حرابة» بقلبه الجامد كأنه يمر على قارعة الطريق للتخلص من ضرورة. الفرسان الأربعة أحبوا «حرابة» حبا شديدا وسهروا على حياته وملذاته بإخلاص، ودربوا له عشرات من الولدان لا حصر لهم جيء بهم بخيول مسروقة من ولايتها ومرباة على الغالي في إسطبلات الجبل العريضة بلا حدود. أما هو فقد أسكن الولدان في دور في البلدة وفي قصور منحوتة في الجبل حسب درجاتهم في القوة وفي الصفاء والإخلاص المتين. بفضلهم كان «حرابة» ينزل الدروب أحيانا إلى البلدة كل سوق ليمشي راكبا فرسه الأدهم مخترقا جمهور الباعة في صلافة وكبرياء لا يهمه أن يدوس الفرس في سوبة بائع نعمة أو يدفع لكعبا متطاوسا فيرميه على الأرض مطقسا، ولو قام وشتم فإن عشرات من أولاد الحلال المشفقين عليه سوف يسارعون بإغلاق فمه وتنبيهه بصفعة لطالقة إلى الدواهي الخطرين الساترين خلف «خرابة» على الدوام على

شكل باعة سريحة وناس عاديين طيبين لكن آه لو احتكوا بك أو احتككت بهم يا بوي. فرصتهم والقبر والمعاد بالله يا حال. بفضلهم كذلك يا بوي كان يذهب مسافرا إلى مصر المحروسة في مولد الحسين بن علي سيد الشهداء وإلى طنطا في مولد البدوي شيء لله يابو عرب وإلى دسوق في مولد الدسوقي شيء لله يا أبا العينين. يمكث في المولد أسبوعه كله على هيئة واحد من الدراويش الصالحين لا يساورك الشك في منظر وجهه البريء المشع ودقنه الخفيفة والمسبحة المتدلية بين يديه كأسلاك الاتصال بينه وبين الذات العلية. شيخ ومن حوله دراويشه يرتعون في معيته، رجل هو ـ أحيانا ـ من المجاذيب السابحين في الملكوت لا بأس. إن للطاريد لا تنقصهم الحيل يا بوي، وحيلهم كلها خطيرة، ولهم في تجمد قلوبهم وبرود أعصابهم بلاط ثابت يمشون فوقه بعزم شديد، دون أن يطرف لهم جفن يا حال. اسألني أنا عنهم يابوي.

كان «خرابة» قد ركب فرسه الأدهم وتلبسته شخصية عنترة بن شداد، فأخذ يصيح ويجمر ويتحسس الحصان فيبرطع في المدى المتاح من الجبل ثم يرتد عائدا ونشطا بحصانه كلاعب الكرة يسخن قبل نزوله للملعب. أما الفرسان الأربعة فقد ركبوا هم الآخرين وأخذوا يصيحون في الولدان الذين سيمشون في الطليعة راجلين أن يسرعوا فالوقت قد حان، والشمس لحظتئذ كانت تلهث في محاولة لاختراق قرصها الأحمر الواقع بين سنامين متجاورين على ظهر الجبل متعاليين متحديين والقرص يصرخ باعلى ألسنة اللهب، والأفق برمته يكاد يتفحم بالسحب

السوداء، ومع ذلك فشرخة الهلال كانت كأصابع للرز واقفة على مبعدة قليلة في بطن الأفق البعيد وكان يتحرك فيبدو مثل الكتكوت ينزع شيئا فشيئا وقشر البيضة كتل من السحب البيضاء المغبرة المتكسرة. لحظتها صاح «حرابة» قائلا «قدامي يا رجال» فهبط فريق من الولدان المسلحين بالمطاوي والسنج والقضبان الحديدية مهمتهم فتح الطريق واستكشاف غوامضه وأسراره للمسارعة بإبلاغ القادمين وراءهم ليسرعوا بدورهم في الارتداد، هؤلاء الولدان مدربون على اكتشاف المؤامرات والكمائن والصبابات يا بوي، ولد روامي يابوي أجارك الله منهم، يقدرون على التصرف النهائي عند اللزوم، إنهاء حياة رجل أو رجلين مصدر شك أهون عليهم من الرجوع خطوة واحدة إلى الوراء.

إن هي إلا برهة وجيزة وهبط فريق من الولدان راكبي الحمير والبغال الحمولة والخيول السريعة العدو مهمتهم حمل الذخيرة الاحتياطية ونقل الرسائل الفورية عند تلقيها في منتصف الطريق من الراجلين المتقدمين. فيكون سهلا على الخيول أن ترتد مسرعة لكي تعطل «حرابة» عن النزول، تهبط به، تسريبه من مكان خفي إلى مكان أخفى، دقائق معدودة وهبط «حرابة» يحوطه الفرسان الأربعة، اثنان على يمينه ويساره، وواحد أمامه والآخر خلفه مباشرة يتلقى عنه أي غدر محتمل. دقائق أخرى معدودة وهبطت فرقة من الخيالة بالكرابيج المخفية أما الطريق من مهبط الجبل إلى المكان المقصود فمحفوف بالعرس المسلح في مظهر خفي. وصل «حرابة» إلى دوار العمدة فوجده قاعدا بين بعض الطرابيش

المعوجة على ناحية ويسهم ثلاثة من الفلاحين، لم يكن «حرابة» يعرف أن هؤلاء الذين يجلس العمدة معهم هم المحضر التابع للمحكمة جاء يحجز على أحد الفلاحين وفاءً لضريبة أو أطيان غرامة من غرامات الحكومة التي لا تفرغ على الدوام تكبل خلق الله بالقيود تحرمهم متعة الدنيا ياحال. أما الطربوش الثاني فإنه مهندس الري الذي جاء يعاقب بعض الناس على اعتداءات وهمية على أراضي الحكومة. وأما الطربوش الثالث فهو لواحد مجهول من عباد الله تعرف به المحضر على مقهى مجاور للمحكمة في المدينة فاصطحبه في هذا المشوار الرسمي، إذ إن وجود أفندي آخر معه يقوي موقفه في نظر الناس ويجعل البرطيل مضاعف لقسمته على اثنين. باختصار جاء به المحضر ليتصب به على الناس لكن سوء الحظ جمع بينهم في تلك اللحظة من أجل الدرهم.

دوار العمدة كانت شبابيكه مفتوحة على البحري، لذا فقد كان «حرابة» وهو مقبل نحوهم ينظر إلى وجوههم ورقابهم. وعلى مبعدة قليلة أعطى الأمر لرجاله بالتوقف، وبأمر آخر توزعوا على الشبابيك مسرعة، ومن خلال فتحاتها الحديدية المتشكلة على هيئة مربعات ودوائر ومستطيلات متداخلة صوب أرواح البنادق على أرواح الجالسين في رقابهم وصدورهم، الذخيرة الحربية متتالية متضاعفة كالمطر يصب نيرانا متلاحقة كبرق الرعد المخيف، فسقطوا جميعا جثثا هامدة. العمدة والثلاثة الطرابيش وخفيران وتملي عليان ونفر أجير، قبل أن تفيق سماء البلدة من دوي الانفجارات النارية كانت الخيول ارتدت مسرعة تكاد حوافرها لا تلمس الأرض، ومن خلفها يلتئم الطريق شيئا فشيئا فيتدفق فيه

الحرام ويتعرف الحرس على بعضهم البعض يدفعون عن بعضهم البعض ما قد يلحق بهم من عدوان متوقع، ثم إنهم صاروا يذوبون في الطريق، بدأ الطريق يصفو من عكارتهم وتأهبت عائلة العمدة للعم الحدود والصراخ وإرسال المراسيل هنا وهناك.

مثلما حدث في القتلة الأولى حدث هذه المرة. حضر طاقم من العربات الجيب والخيول والرجال والكلاب طافوا بأطراف الجبل وبعض أحشائه المتاخمة للعمران شهورا طويلة دون أن يكتشفوا عن شيء دون أن يعثرا على حبالهم أو في قلب الجبل سوقة شعبية كاملة كبيرة وثابتة تباع فيها جميع السلع والمطالب من المأكل والمشارب والملابس والنساء العاشقات فإنها سوق الهوى والمتع وكل ما لا يوجد في أي سوق في أي بلد من بلاد القطر يا خال. إسمع ما أقوله لك وصدقني بدون كلام؛ احذر أن تتبس بحرف، أوصيك والزمان يوصيك أن تشع نفسك من الدهشة عن الدهشة حتى لا يصيبك الخبل. إعلم يا بوي أنني رأيت كل ذلك بعيني رأسي ولمسته بيدي رجلي وبطني وظهري ودماغي وكل عرق فيَّ والله على ما أقول شهيد.

الله وكيل يا بوي، لم يعد من هذه الفرقة الهاجمة سوى نفر قليل. بعدها كفت الحكومة وصمتت، وجاءت الأخبار بأحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة وبالإعدام فبقيت مجرد حبر على ورق سوف تأكله الفيران حقا في دواليب الحكومة في المحروقات الرسمية التي تندفن فيها بعون ربك كل القوانين التي تصدر في مصر المحروسة، نعم يا بوي، فليس يسري القانون في ديارنا إلا

على الغلابة والمساكين وأبناء السبيل، هي هكذا ديارنا منذ عهد آدم وحواء. حاميها حراميها.

عائلة العمدة يئست من العمدية كرهتها حيث لم يعد في رجالها من يصلح لحماية العمدية طلقة لطلقة ورجلا لرجل وجيلا بجيل، فإذا بهم يتقاعسون عن السعي وراء العمدية. فظفرت عائلة «حرابة» فاستردتها بفضل جهود من «حرابة» بذلها في اختيار واحد من عائلة أخواله في بلدة «دير الجبادلة» وهي عائلة عسية مرهوبة الجانب، لكنها والحق يقال في حالها دائما. ولا تتدخل في شئون أحد، اختار «حرابة» خاله «عبدالكريم أبو هميلة» وضغط عليه حتى أرغمه على ترشيح نفسه في البرلمان عن دائرة البلدة وكان الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» مستنيرا وورعا وفيه تقوى حتى لقب بالشيخ مع أنه لم يتعمم في حياته ولم يدخل الأزهر وإن قرأ القرآن وخطب في المسجد مثل أفاضل الشيوخ والفقهاء، وكان الرجل يأنس في نفسه القدرة على النجاح في الانتخابات لحسن سمعته وجانب عائلته المرهوب لكنه كان عزوفا عن الدخول في معارك من أي نوع، ويعمل حسابا لوصية تركها جدهم القديم ـ الذي قيل إنه كان من مماليك السلطان الغوري ـ يوصيهم فيها بأن يبتعدوا عن سوق السياسة فلا يزاولوه طوال عمرهم، لكن الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» تحت ضغط «حرابة» المتواصل قرر ترشيح نفسه بالفعل، بالفعل فاز بالدائرة بجولة انتخابية واحدة قام بها رجال «حرابة» وصبيانه برسائل شفوية لرءوس العائلات، وكل رأس من هذه الرءوس يعلم علم اليقين أنه معرض للخطف ذات يوم، وتهتك الحرمة حتى يدفع الفدية، ولذا ما إن تلقيه رسول «حرابة» حتى

يلتقيه العرج واستمتعة في نفس الوقت إذ إنه سيكون سعيدا غاية السعادة بتلقي رجاء «حرابة» وسيكون أكثر سعادة بتنفيذه

بين يوم وليلة صار الشيخ «عبد الكريم أبو هميلة» بائنا عن الدائرة وارتمت العمدية تحت أقدام «حرابة» فشاطها بقدمه إلى أعلى كالكرة ثم تلقفها بيده وسلمها لابن عمه في حفل كبير، فقد حضر بنفسه حفل تنصيب ابن عمه «عبيدة» على العمدية، والعلم يا بوي هذا الحفل شرفه بالحضور طرابيش تخينة من طرابيش الحكومة لم يفطن أحد منهم ـ أو لعله لم يعلم أصلا ـ بأن هذا الولد المجدع الجالس بينهم منه قدومه وقعدته رغم سخافته هو «حرابة» صاحب أكبر صيت بين مطاريد الجبل، ولم يكن أحد منهم ـ فضلا عن ذلك يابوي ـ يعرف أو يخطر على باله أن «حرابة» هذا الولد المفعوص هو الذي سيدير العمدية والدائرة الانتخابية من الجبل ولسوف يصل صوته إلى البرلمان وربما إلى «أبو عبد الناصر» نفسه فهكذا الحكام يابوي يحاربون اللصوص الكفرة الفجرة لكنهم في داخليتهم في ذوات أنفسهم يحبونهم ويتمنون أن يصيروا من رجالهم، ألم تسمع بذلك اللص الظريف الذي أحبه السلطان وحاربه فلما لم يقدر على هزيمته أتى به وعينه رئيس شرطته؟ جاء السلطان بلص يحارب به اللصوص، والسلطان يحسبها لنفسه فـثلا ليسرق رجل واحد هو رئيس الشرطة خير من آلاف السارقين، وغاية الأمر يابوي أن كل سلطان يريد أن يؤمن ظهره بقوة وهو لن يجد هذه القوة وهذه الحماسة إلا عند عتاة اللصوص والمجرمين ممن يقدرون على سفك الدم دون أن يطرف لهم جفن يابوي. هذه هي الحقيقة يابوي فدعك من أي كلام آخر

الخامسة ـ يوم الفزع الأكبر

ها هو ذا «خرابة» قد صار في عز مجده يا بوي، وفي مقدوره أن يتزوج ابنة أحد الباشوات المصاحبين لخاله «عبد الكريم أبو هميلة» لكنه ـ وياللعجب ـ تقدم ليخطب شقيقتي «سعدية» ولقد اتضح لي وياللعجب أيضا ـ أنه خطبها إكراما لنسب أعمامي الفقهاء أولا، ولجمالها الفريد ثانيا، حيث إنها كانت ذات بشرتين على وجهها يابوي فتحت بشرتها السمراء القمحية بشرة أخرى حمراء كلون الورد تضيء على البشرة القمحية على الدوام، وقال لنا «خرابة» بالحرف الواحد يوم الخطوبة إنه خطب «سعدية» لأنها تجمع بين كرم الأصل وجمال الخلقة وحسن الخلق، والسلوك والسمعة وهذا ما يضمن أصلا كريما لنسله القادم

وبالفعل يا خالي أكرم الله شقيقتي «سعدية» فأنجبت له ولدا وستا جميلين تبارك الخلاق فيما خلق. كما أكرم شقيقتي «سعدية» فأنجبت لزوجها ولداً فرح به صاحبي «عليّ» كأنه ابنه هو

وقد بات من الواضح لنا وللبلدة كلها يا خال أن الحياة في حضن شقيقتي «سعدية» قد طابت لـ «حرابة»، فركن إليها

واستحلافها إلى آخر الحدود، فبات لا يغادر حضنها إلا في أوقات معينة تستلزم وجوده في الجبل، أو حين يبلغه البريد أن في الجو غيمة

إلى أن كان يوم لا رده الله ولا أرانا وجهه ثانية أبدا..

كنا في ساعة القيالة و «حرابة» راقد في حضن زوجته القديمة مدخرا الليل كالعادة لحضن زوجته «صبحية»، إذ جاءه البريد بأن قدامى عربية وحات أرض البندر متوجهة إلى دوار شيخ البلد وهو من عائلة أخرى بعيدة. فلماذا لم يتوجهوا لبيت العمدة؟ الأمر إذن فيه سر غامض وعلى «حرابة» أن يتخذ كامل احتياطاته. لما كان من «حرابة» إلا أن سحب نفسه من حضن زوجته واغتسل بسرعة ولبس ثيابه وأرسل في الحال نفرا من الخفراء النظاميين يتسقط الأخبار خلسة من دوار شيخ البلد. فعاد رسولهم لاهثا يبلغ «حرابة» أن خبر استقراره في البلدة قد وصل إلى الحكومة وأن المباحث جاءت تسأل فقط عن حقيقة الأمر لكن من الواضح أنهم جاءوا للقبض عليه بدليل وصول عربة سوداء محملة بالجنود المدججين بالسلاح!!

كان «حرابة» يتلقى هذا الخبر وهو راكب فرسه ورئه باب الحوش ومن حوله الفرسان الأربعة راكبين، فما إن سمع الخبر حتى أزاح الباب وغمز الحصان فاندفعت به خارجا وانطلقت وراءه خيول مرافقيه فسلكوا الطريق المتجه إلى خارج البلدة

و.. ه يا خالًا واه.

أدركته عربة الشرطة السوداء يا خال، التي اتضح أنها غير الواقفة عند دوار شيخ البلد وأنها كانت كامنة في مكانها هنا تحسبا لخروجه. الجنود كانوا حانقين فأطلقوا على الخيول وابلا من الرصاص، فسقطت بعض الخيول على الأرض ومن بينها الأدهم حصان «حرابة»، فنزل «حرابة» على الأرض يجري متخفيا من حلاوة الروح، فظل يجري وبعض الجنود وراءه وهو يضللهم ويروغ منهم في الحواري الضيقة وبين النخيل حتى وجد أمامه قمينة مبنية حديثا وطوابق الطوب لا تزال خضراء لم تشتعل تحتها النيران بعد.

شاهده الجنود المطاردون وهو ينحرف مستترا بهذه القمينة، فلما لاحقوه، وجدوا ثلاث قمائن متجاورة، تفصل بينها طرق ضيقة، لا تتسع لمرور شخص بينها. وكان من الصعب عليهم أن يعرفوا أي طريق سلك، فلابد إذن أن يكون قد ذاب في الهواء، أو ابتلعته الأرض هكذا صاروا يقولون يابوي، وهم يصفقون كفا على كف.

انشغلوا به فلم يتمكنوا من القبض على أحد من صحابه إذ هربوا جميعا يا بوي. لكن أمر «حرابة» كان مثيرا للغيظ يا بوي وكانوا جميعا كأنهم حبكوا من الخلف، فصاروا نسواناً، وهكذا انتشرت فرق من العسكر راحت تفتش الغيطان والترع وجذوع النخيل، ويقف على كل قمينة طوب نفر من العسكر، وراح نفر آخر يفتش دور البلدة كلها دارًا دارًا وحُشا حُشا وصندوقا صندوقا حتى غطيان الحلل المقلوبة على الأرض رفعوها ونظروا تحتها مفتشين

عن «خرابة». أي والله يابوي فالحكومة حين تغيب تصبح أعمى من الخواجة «بيني»، الذي جاء يوماً ليبيع الماء الصحية في زجاجات، لم يسلم صاحب دار أو أحد المارين في الشوارع من ضربهم. كانت مجزرة والله يابوي، ضرب في ضرب في ضرب بدباشك البنادق وبالكرابيج والسياط والجزم الميري، ضرب غبي أعمى لا يرحم عجوزاً ولا يشفق على مريض، والسؤال يتكرر مع كل ضربة «حرابة فين يا ولد؟» والجواب أيضاً يتكرر. «ما اعرفش! ما اعرفش! ما اعرفش» انضربت البلدة كلها ضرباً مبرحاً لم ينج منه النساء ولا الفتيات ولا الأطفال..

عند الصائن الطوب أمسك العسكر بأحد أصحابها وظلوا يضربونه وهو يقول. ما اعرفش، حتى تعبوا من الضرب، فكتفوه وانهالوا جميعاً عليه حتى لفظ أنفاسه، فانتقلوا إلى رجل آخر من أصحاب القماش وانهالوا عليه بالكرابيج السوداني وهو يقول. ما اعرفش، فلما أوشك يلفظ أنفاسه هو الآخر جاء طفله الصغير يصرخ ويلطم خديه قائلاً للضارب «اترك أبي وأنا أريك مكان خرابة» فتركه وتقدم الطفل فأشار إلى قمينة الرجل الميت وقال. هنا انحسار العسكر ينظرون إلى قمينة الطوب من كل ناحية فإذا هي مجرد بناء مسدود بالطين من كل ناحية. فتعجبوا من إشارة الطفل، وظنوه محتالاً صغيراً يسرح بعقولهم شخط فيه المتدى متلمظ بالأحرمة «فين يا ولد؟». فأشار الطفل مرتعشاً إلى طاقة صغيرة مسدودة بالطين وقال. «هنا». أخذ الضابط يتحسس الطاقة فوجد طينها طرياً، فأشار إلى بعض الرجال أن يزيلوا هذا

الطين. فتقدم نفر من العسكر ونحروه فانفتح في القمينة ثقب كبير يتسع لجسد كجسد «خرابة». وتبين لهم أن «خرابة» لحظة أن كان يجري لحق به الرجل الميت فأمسكه وسرب جسده كالثعلب من الخلف فإذا هو في سرداب طويل معد لحطب النيران التي ستشتعل تحت هذا الطوب، ثم إن الرجل الميت أغلق عليه بالطين في لمح البصر تاركاً ثقوباً خفية يدخل منها الهواء.

نظروا جميعاً في ثقب السرداب فرأوا جسد «خرابة» ممدداً كالثعبان، فجروه حتى أخرجوه، وفي الحال كتفوه، وهم يرعدون كالسماء، في مقابل صراخ منتحب يرتفع أواره في سماء البلدة - شحنوه في عربة الشرطة وجروا به إلى دوار شيخ البلدة الذي كان منذ شهور قليلة قد نجح في أن يركب لنفسه تليفوناً خاصاً من حر ماله - البلدة كلها من خلف العربة تلطم الخدود وتصرخ وتقذف العسكر بالطوب والحجارة وأقراص الجلة الطرية والشتائم المقذعة، والعسكر يهددونهم بإطلاق الرصاص في الهواء ليرهبوا روع الناس ويهيلون عليهم بالطوب حتى نفدت ذخيرة العسكر فاستعملوا العصي الغليظة والكرابيج.

في دوار شيخ البلدة وقف الحكمدار كالزعزوع الأجرودي يبرح ويجيء في فرح شديد، وجهه أصفر كالليمونة وعلى شفتيه الدقيقتين شارب تركي غشيم. العسكر وضعوا «حرابة» أمامه مكتوف اليدين والقدمين فبدا صغير الحجم متشكل لم يتوقعه أحد، بدا صبياً صغيراً غراً نظر إليه الحكمدار بغيظ قائلاً في سخرية «أنت بقى حرابة؟! إنت؟!». فرد عليه «خرابة» قائلاً «ولسه حرابة»

وسأبقى «حرابة»!». فما كان من الحكمدار إلا أن بصق في وجهه يابوي، وقال بغيظ «ماتردش على بالوطني يا ابن القحبة!» فإذا بـ «حرابة» يرد عليه البصقة بأشد منها حتى ملأت وجه الحكمدار وقال «الوطني هو أنت والقحبة هي أمك!». الحكمدار صار ينتفض كالجدي المذبوح يبول في شعور بالخوف. «تشتمني وتبصق في وجهي يالوطني؟» ـ رد «حرابة» على الفور «ما الوطني إلا أنت».

ثمة خفير نظامي كان يقف بجوار «خرابة» حاملا بندقيته ناظرا لا يعرف ماذا يفعل، وإذا بالحكمدار يصرخ فيه قائلا «أفرغ فيه الرصاص ياخفير!» فوقف الخفير ذاهلا يابوي، فتح فمه مرددا كالأبله «هه!»، في حين ينتفض الحكمدار مواصلا الصراخ فيه «إني آمرك أن تفرغ فيه الرصاص». تلجلج الخفير المسكين، ماذا يفعل يابوي؟ صار كالفأر في المصيدة يلتفت حواليه يستغيث بالله في صمت، وأخيرا خلع البندقية من كتفه وتقدم بها نحو الحكمدار قائلا

«لا أقدر ياسعادة البيه! هذه بندقيتكم، خذوها! وهذه ليدتكم أيضا.خذوها!» ووضعهما على الترابيزة ومضى. فصار الحكمدار يضرب في «حرابة» ببوز حذائه قائلا «تشتمني يا كلب!» و «حرابة» يرد عليه قائلا «ماكلب إلا أنت وأبوك» طاش صواب الحكمدار يا خال، نزع مسدسه من خاصرته، وأفرغ في قلب «خرابة» ست رصاصات كومته على الأرض قتيلا

واه يابوي على منظرك يا حرابة وأنت تنتفض في قيدك كالذبيحة من حلاوة الروح والدم ينزف منك على الأرض.

الجنون أصاب الناس كلهم يا خال، فاندفعوا صارخين مولولين، واندفع شيخ البلدة فأمسك بالتليفون وصاح في كل ذعر «يامديرية! أنا قبضت على الشقي المعروف حرابة ولكن سيادة الحكمدار قتله الآن بست رصاصات! إلحقني بي يا مديرية قبل أن تقوم القيامة!» فقفز الحكمدار وانتزع منه السماعة وصار يجعر فيها: «أنا الحكمدار! أنقذونا حالا! أرسلوا لنا قوة كبيرة! البلدة كلها هائجة علينا تضرب فينا بالرصاص حتى اسمعوا!»، وصار يضرب الرصاص بمسدسه في الهواء.

هاج الناس يا بوي هيجانا كبيرا وكانوا يلتمون أمام الدوار في قوة متراصة. من بين هذا الهوان والفوران لفظت الجموع من بينها رجلا رفيع القوام ملثما يضع يده في فتحة سيالته، اقتحم حجرة الدوار ونزع من جنبه من تحت ثيابه مدفعا رشاشا صوبه بسرعة مذهلة في صدر الحكمدار وصب عليه النار فأرداه قتيلا في الحال يتخبط في دمائه. ثم اندفع يجري داخل الدار ليوهم أنه سيختفي في قاعاتها الداخلية وهو في حقيقة الأمر سيهرب من بابها الخلفي المطل على جرن موصول بالحقول البعيدة المتاخمة للجبل.

العسكر هاجوا وماجوا وتدفقوا جميعا على الحجرة ينظرون في أمر حكمدارهم ووابل من الرصاص ينهال عليهم من كل فتحة في الحائط حتى تكومت جثثهم فوق بعضها بما فيهم شيخ البلد الخائن. أما نحن أهل «حرابة»، ونسبه فقد جرينا هنا وهناك نبحث عن ذلك الرجل العظيم الرفيع القوام الملثم الذي أوقع بحكمدار الحكومة وشيخ بلدها وبعض الضباط والعسكر في مقابل «حرابة». لفينا حول الدار، فوجدنا فارس يمتطي ظهر جواده

تقف قرب الباب كأنه ينتظر أحدا ثم فوجئت بعد برهة - ويا للعجب - بامرأة تخرج من الباب الخلفي منكوشة الشعر مصفرة الوجه تكاد من فرط الاضطراب تنكفئ على الأرض يا بوي، بل إنها انكفأت بالفعل ونهضت بسرعة تجري نحو الفارس الواقف بعيدا بحصانه. شئ إلهي جذبني إليها يا خال، فجريت نحوها كشفنا وجهها فإذا هي أختي «سعدية»؟! واه يابوي، أختي «سعدية» كانت هي الرجل الملثم الذي أوقع بالحكمدار؟ واه يابوي كيف أصدق هذا؟ أفيك هذه الشجاعة كلها وهذه المرجلة كلها يا سعدية؟ الله يخرب عقلك يابنت! هل ورثت ذلك من أهلنا أم أن خرابة مصر فيك رجولته عن حق؟

لحقت بها ياخال وأنا من شدة إعجابي بها وشدة خفقان قلبي خوفا عليها أكاد أقبل الأرض التي تجري عليها. حين وصلت إليها عند الحصان استشعرت نفسي جنبها والله يا بوي ووجدتني أتلجلج ولا أعرف كيف أتكلم معها. وحق النبي لأشرف خليقة الله لقد غاب صوتي كما يغيب لحظة أتكلم مع رجل وافر كبير المقام. وكانت هي - شأن كبار المقام - قد أسلمت يديها للفارس الذي أركبها خلفه. وقد ظهر لي أنها ستتجاهلني وتمضي غير عابئة بي. فصرخت بكل عزمي: «سعدية! رايحة فين؟» قالت: «الجبل ياروحي! لم يعد لي مكان سواه؟ سوف أحتل مكان خرابة حتى آخذ بثاره كاملا ممن وشوا به! لا تخشوا علي من شئ فأنا رجل كما تعرف والآن صرت أرجل مما تعرفون!». ثم هزت ساقيها تستحث الحصان على المشي فحركه الفارس فانطلق يسبق الريح في اتجاه الجبل

السادسة - يوم الطوفان

كالمسعور هرولت جريا مولولا أشق الثياب أصوصو في الشوارع للبلدة كلها بخلق الله، المندهل الصارخ المولول. فما يدري أحد غلام يصرخ جاره وعلى من يولول. تقول قامت القيامة يا بوي وتحقق قول عمي الفقيه، إذ انبعث كل مرضع عما أرضعت. أطفال صغار يزحفون على الأرض يصرخون لله ما يغيثهم يا خال، القائم النائمين تدوسهم تجهم وتمضي متعثرة فيضيع صراخ اللحم المدهوس في صراخ عمومي آت من عموم النواحي فيه النواح والصرخات والعراك والضرب والرصاص. خلق كثيرون يروحون ويجيئون في كل مكان من كل مكان إلى كل مكان ولا أحد يعرف ماذا يفعل ماذا يحدث ماذا تخبئ الأقدار. لو رأيتهم لحسبتهم جماعة كثيرة وهم كل واحد منهم في واد يصطدم بأخيه بالحائط بالسائر يدوس فوق ابنه وفراخه وهو لا يدري ماذا يفعل. من حين لحين يدب فيهم ذعر مفاجئ وكبير فإذا هم طوب يجري يتقاذف يتصادم. إذا عربات الكمبوي والكالوري تدخل البلدة مشحونة بالعسكر المسلحين بالعصي والدروع والقنابل والبنادق. وحيث أنت ذاهل في طريقك ناسيا ماذا أنت

وماذا كنت فـدهمك وقوف العربة وتقـافز العسكر منها كـالقرود المتوحشـة تتجمع في سرعـة الطيـور تهجم عليك صـفا واحـدا بالعصي والقنابل والرصـاص، كل واحد من الحلق وحظه يا حال، منهم من مـات برصاصة، ومن لم يمت بحشر رصـاصات، ومن مات برعدة بركس في الجسد، ومن مات من العصة

هجت السـمـاء يابوى وازدحـمت السمـاء بالاصـوات يا بوى، بدوى الزلازل يا بوى، نبـحـت الكلاب في عـواء صـارخ يا بوى، انذعر الحمـام واليمام والغـربان والحدات. لعلعت طلقـات المدافع الرشاشـة تحلف اليمـين يا بوى أنها صبـغـت السمـاء بلون جهنم وارتفعـت ألسنة اللهب في كل الأركان البائنة من خيمة السـماء وكانت أسراب الحمام الملثـات ـ بنفس البلالة المعروفة عنه يابوى ـ تتكفل بنقل بريد اللهب على جناحيـه إلى أحمال القش والحطب، وأقراص الجلة فـوق أسطح الدور، وفي الأجران، وعـلي شـواشي النخيل الجـاف، والاشـجار اليابسـة. وكان صـوت طقطقـة النيران يبتلع كـافة الاصوات يعزل البلدة عن زحـمة السماء حـتى صرنا داخل كرة من النيران الحمراء تنتظر وصـول معجزة إلهية يا حال، والواحد منا ماشي يطوح وجهه يمينا وشمـالا كالفقيه عندما يقرأ تحاشيا لألسنة النار الصغيرة التي كانت تتطاير في الهواء بسـرعة مذهلـة كالريش الملون كـحلوى عرل البنات أو تقـاديتها بـوجهك علقت بخلخالك التي تلبسها يابوى.

الله وكيل يابوى، الحلق أفاقت مرة واحـدة، كيف يابوى؟ أشهد يابوى والله وكيـل أمس ما كنت أراهم يفـيقـون إلا حينما يتـمكن

واحد من حلاق عسكري، واه يا بوى مما يجرى لحظتها تقول كلب أمسك بقطعـة عظم وقبض عليهـا فصـارت هي وعمـره سواء؟ مذ وحق الله مـا رأيته يـاخال، كل الناعسين مـا إن يروا عـسكريا في قبـضة الأهالي حتى يفـيقوا فـجأة ويرتموا فـوقه نهشـا وتمزيقا، يظهـر يا حال أن الأهالي حـين ذاقـوا طعم لحم الحكومة وجـدوه لذيذا فـأصابهم السـعار وركبـهم جنون العوقـان أو فن لوقـان الجمور وقـالت أبلتهم هات يا حـكومة لحمك الطرى الملفوف من دمنا لنأكله ونمرمشه، هات لحمك يا حكومة هات فيمـا أولي بلحم ثوره.

تحلف اليمـين يا حال، أن جمـيع ما كان لـدى أيدي العسكر من سـلاح خطفته الأهالي ـ أما جثث العسكر لواه عليها وعلي ماجرى لها، يعز على الفـائت أن يرى جثة بثياب صفـراء دون أن يمرقها، ولم يعد يميز جثث الاهالي من جثث الحكومة سوى الجزمة الميرى في الأرجل، فكل من وجد الأهالي في قـدميه جزمة مـيرى حملوه وألقوا بجثته في الحرائق التـي صارت متجاورة مندلعة لا أمل في مقاومتها

الله وكيل يا بوى، لو كنت مكاني في قلب هذا الأتون لأيقنت أن البلدة فـانية حيث الكل في عـيـوبة يائسة ولابد أن مـلائكة من السماء اخـترقت خيمـة الجحيم ورشت بخراطيم المياه والبلاليص حتى أطفأت النيران كلهـا، لكننا عدنا من تشردنا العوين في البلاد والغيطان المجاورة لنبـحث تحت أنقاضنا عن بقايا متـاع، فلا نجد إلا بقايا لهب مشتعل وركام سواد متفحم.

السابعة ـ يوم الطلوع من الهديم

الناس أصبحوا يعثرون على ذويهم بالصدفة والله يا بوي. يتصادف أن يكون المجهول ماشيا في دهوله بعد بضعة أيام، لا يعرف أين يذهب بل لا يعرف نفسه فإذا بابنه أو أحد أقاربه يلتقيه على الطريق في بلدة بعيدة فيأتي به. أما أنا فحينما أفقت وانزاحت من رأسي ومن عيني غيمة الجحيم الحمراء المغبرة بدخان أسود، وبدأ الهاتف يجيبني ويقول لي إنني لي دار وأهل يجب أن أسأل عنهم وأعرف المصير الذي آلوا إليه. كنت لحظتها كمشلول في حضن الجبل السفلي بين عشرات من العرايا المجروحين المغلية أجسادهم بالقروح واللهاليب. وكنت أتذكر أنني شاركت في إطفاء الحرائق التي لابد أنها نشبت في دارنا وفي الأخرى. رعلت من نفسي أكثر رعل والله يابوي. جاءتني وارح يودي على قتل نفسي في التو واللحظة قبل أن أعرف أي خبر. تذكرت أن العسكر حين طاردونا جريت مع الداخلين حتى وصلنا إلى أطراف البلدة فقطعت علينا الحرائق طريقنا من كل ناحية. فطردت هذا الهاتف وقلت لنفسي إذا كانت أختي مسعدية، هجمت بعقودها على الحكومة وجندلت عسكرها بجمع رشاش فإنني يجب أن أتحشى عن

نمي وأكون رجلا يستطيع الوقوف أمام الحرائق والأحجار المتساقطة. كنت أجري نحو النار والطريق يلحجني ويلحجط الدخان فأعود إلى الوراء فألاحظ أكثر فأعود ثانية لأدخل حارة يتضح بعد برهة أنها ليست حارتنا.

مكثت على ذلك من الضحى حتى أذان العصر أخبط في البلدة تخبيطا دون أن أعثر لحارتنا على أثر. منظر البلدة قد تغير يا خال إذ أن دورا احترقت بكاملها على الجالسين وغيرت وجه الشارع، ودورا انهدمت فوق دور فسدت الشارع، حواري انسدت من ناحية وتم فتحها من نواح أخرى فنشأت حارات جديدة لم نكن نعرفها. حواري أخرى كان بينها وبين بعضها مسافات كبيرة مشيها في ثلث ساعة أصبحت داخلة في بعضها. التقاني صاحبي «هليل» أجير حلقاتي معفرا ذاهلا وكان هو يجر بعض الجمال المحملة بالطوب. فتركها تمضي إلى وجهتها المعلومة وجرى نحوي يأخذني بالحضن يقول «دوختنا يابو العم الأعمى ربما يدوخك يومان ونحن نسأل عنك في كل مكان! خفنا أن تكون فحمت في الميري مع الذين التهمتهم الحرائق! أو دفنت تحت الهديم! وقلنا لعله هرب مع الذين هربوا من مدافع العسكر وقنابلهم إلى بلاد بعيدة!»

قلت وأنا أبكي من كل عين حفان. «مضى على الحريق إذن يومان ياهوي؟» قال «سلامة عقلك! مضى يومان وليلتان! تعال، تعال». قلت ذاهلا وأنا أمضي معه كطفل عثر على أبيه في غربة

موحشة. «ألا تعرف أين ذهبت دارنا يا مليل يا خوي؟» ضحك بعين دامعة وأشار نحو كومة هديم على بعد حارتين بين بضع جدران تقف وحدها عريانة وقال: «هذه داركم فلا تأمل فيها الآن! خلي عوضك على الله؛ لابد أنه سيعوضك! فكن صادق الإيمان ولا تحزن على ما حدث!». وقعت من طولي يا خال، رميت نفسي على الأرض، صرت أمرمغ رأسي في التراب وأصرخ بعزم ما في من ألم «أمي! أمي! أمي! أمي». قبض «مليل» على كتفي وزعق صائحا: «امسك نفسك يا جدع فأمك بخير وأخوك أيضا بخير وهما عندنا الآن في دارنا! كان أبي عند الحريق قرب دار حماته لعود ليختفي من النيران! فلما شبكت النيران في داركم كان هو أكبر المطفئين وكنت وحدي أطفئ النار التي شبكت في دارنا من الناحية البحرية ولم ينفعني سوى الطلمبة في حوش الدار! منديه بالطشوت والحلل! في ظرف ساعات تمكنا من إزالة أحمال القش والحطب على سطح دارنا ودور الجيران التي لم تلحقها النيران! ولولا أننا هدمنا الجدران فوق الخشب والحطب المحترق ما نجونا! ولقد عاد أبي بحماته وأخيه إلى دارنا؛ وأنا الآن ذاهب بهذا الطوب لترميم الجدران المتهدمة ترميما مؤقتا!»..

تلقف قلبي هذه الكلمات يا بوي، كما تتلقف الأرض الشراقي قطرات الغيث، فاستكن قلبي في صدري قليلا، لكنني بقيت أولول وأشد خلقاتي أكاد أمزق ما على فيها، فلكزني «مليل» قائلا: «لماذا تبكي يا جدع مادام الله نجاك ونجى أمك وأخوتك!» قلت باكيا: «الدار يا مليل! كيف أبنيها من جديد بعدما انهد حيلنا!». قال «مليل» بكل بساطة: «مثلما بنيتموها في الأول تبنيها ثانية بإذن الله!». جعرت من جوف بطني: «كيف يا مليل كيف.. من يده في الله ليس كمن يده في النار!» قال «مليل» وهو يغمزني في كتفي: «الحكومة سوف تساعد الخلق يا جدع أتظن أنها تتركهم هكذا بعد أن بهدلتهم كل هذه البهدلة! الحكومة يجب أن تدفع الطاق عشرة!» صرخت في وجهه بغيظ: «حكومة مادا يابو العم! الحكومة التي تحرقنا لا تساعدنا على القيام ثانية!». قال: «الحكومة لم تحرقنا يا جدع؟ أقصد أقول لك أن الحكومة لم تحرقنا وحدها! الذي أحرقنا بحق وحقيقي هم أهل المشير!» تسمرت في الأرض مرتعشا يا خال! «هناك مشير غيره!» ووضع يده على كتفي يستحثني على السير قبل أن تتفرق الجمال وتضيع من النظر.

لكنني - تحلف اليمين يا بوي - تسمرت في الأرض وشعرت أن شواكيش غليظة تدق فوق رأسي تريد ألا تكف عن الدق إلا بعد أن تغطس رأسي كلها في الأرض كالمسمار في الخشب، قلت لصاحبي بصحيح مرتعش ينتفض بالخوف والذعر: «ما دخل أهل المشير في هذه المسألة يابو العم؛ هل داست لهم بلدتنا على طرف!» قال صاحبي: «اتضح يا جدع أن الحكمدار المقتول أصله من بلدة المشير وعلى صلة قربى متينة به؛ ولهذا كان الحكمدار ملطوخا وفعل ما فعل في حراية وغيها!»..

يوه يوه يوه! المسألة هكذا إذن يابوي!.. قلت وقد اقشعر بدني من الرعب «المسألة مادامت هكذا فرأسنا بعون الله مقضي علينا قل علينا يا رحمن يا رحيم! وهل نحن على مقاس المشير يابوي؟ إنه مأمورا في مركز يستطيع أن ينيمنا من المغرب لو أراد ويصحينا العافية! فأين نروح من المشير يا بوي ومع أهله الذين طلعوا من المنيا وضموا الصعيد كله تحت جناحهم؟»

أردت أن أمشي مع صاحبي لكنني لم أستطع نزع قدم واحدة من الأرض، فصحت في صاحبي بشيء من القوة كأنني اكتشفت أمرا خطيرا غاب عن بال صاحبي. «كيف يا خوي تقول هذا الكلام؟ ألسنا نحن الأسايطة تبع الريس أبو عبد الناصر يا خوي! هل يتجرأ المشير على أهل الرئيس! كيف يابو خاله؟» إن المشير له عائلة كبيرة في المنيا وفي كل مكان في الصعيد؟ أما الرئيس فليس له عائلة! لا في أسيوط ولا في أي مكان غير إخوته الذين يعيشون على مقربة منه». قلت مشوحا في وجهه أنا الآخر «كيف يابو خاله! إننا كلنا أهل الريس وعائلته! مصر كلها أهله وعائلته! وهو لا يرضى أن يحصل ما حصل لنا!» شدني صاحبي من ذراعي في استحقار واستصغار لشأني «ده كلام الجرانين ياجدع! فضك منه. فأبو عبد الناصر مسكين مثلنا كان الله في عونه! ألم تسمع ما يقوله بعض الناس في نواحينا أن المشير هو الذي يسند الريس! ويستطيع نزع الرئاسة منه وقتما يشاء! لكنه لن يفعل لأنه والريس أصدقاء عمر طويل وبين أولادهما حب وغرام!»

قلت «نعم أسمع! لكن الذي يقول هذا الكلام يقوله من تحت لسانه ولا يجرؤ على التصريح به! نحن لا نعرف غير الريس وحده يا أبو خاله! نشكو إليه حالنا وما حل بنا من خراب!» شدني «خليل» صاحبي بقوة قائلا «اشتكي لله فلن ينفعك أحد سواه! لو كانت الشكوى لغيره تفيد لتخطت جثث ووجوه الحكام كلهم بورق الشكاوى! امش ياجدع امش وخليك عاقلا! فأيام الملك والإنجليز لم تذهب ولكن اسمها هو الذي تغير! الأمر له من قبل ومن بعد!»

قلت وأنا أنتزع من الأرض بسهولة «عيب الشكوى لله أنها لا تأتي بنتيجة يا أبو خاله! إن الله عادل وعظيم أي نعم ولكن المصيبة أنه يؤجل كل الحسابات إلى يوم القيامة! فالواجب أن نأخذ حقنا بأيدينا يا أبو خاله! هل نعصي الله؟ إذا سمعني هم عصوه! أقول لك! فليفعل الله بهم! وحين نمثل يوم القيامة أمام الله نقول له يامولانا هم فعلوا بنا كذا وكذا فكان لابد أن نرد عدوانهم بمثله على الأقل وهم أقوياء عنا يامولانا ومهما فعلنا بهم لا نفعل ربع مافعلوه بنا! فإذا لم يصدقنا حلفنا له بالله العظيم وبالقرآن المجيد أننا لم نكذب عليه!»

غمزني في ذراعي غمزة مفاجئة وقال يستحثني على المشي «أهم شيء الآن هو أن تراك أمك وتطمئن عليك أختك هدية!»

مضيت معه بإذعان! وجاءني الهاتف فصحت بسرعة «أولاد حرامية! ماذا حل بهم؟» انفجر صاحبي «خليل» في الضحك كمن

يرى أمامه مسحة. قلت مغتاظا «علام تضحك يا بو العم؟» قال وهو يطبطب على ظهري بحنو وفي صوته شفقة كبيرة على حالي: «لا حول الله يارب! حدث لعقلك شيء يا حسن! جسمك سليم فهل شبكت النار في صندوق دماغك الجواني! » قلت فاغرا فاهي من الدهشة «كيف يابوي؟» قال بجدية تقدير تقول لي أين كنت طول هذا الزمن! قل لي من الذي كان يحكيك في الجبل أو في مكان بعيد كل هذا الوقت؟ كيف تنسى الأمانة التي أوصتك بها أمتك سعدية ساعة نحسها وحين قالت لك خَلّ بالك من العيال؟»

حرقني الكلام يابوي في قلبي عيني تكب الدمع مدرارا على صدري، ولساني العاجز عن النطق يتلوى في حنكي قائلا ـ لقصد محاولا أن أقول. «معك الحق ياخليل؟ معك الحق وحق هذه الليلة ومساها أنني لا أعرف أين كنت دخيت! ماذا فعلت! كل ما في دماغي الآن أنني كنت في قلب حريق يرحف بي من مكان لمكان! عقلي الآن يكاد يكون مشى من دماغي! ألا تعرف أين ذهب ياخليل يا خوي! أيكون قد وقع مني في قلب الهول الكبير ياخليل؟ قلبي يحدثني أن القيامة قامت ياخليل وأننا من أهل الجنة الحمراء؟ قلبي يحدثني أننا ناس طيبون ولهذا نجونا من الهول ونذهب الآن إلى موضع الموازين ليعرفوا ماذا بقي علينا لله من ديون فندفعها أو نأخذها مصاريف حبس في أحد السجون الواقعة في المنطقة الفاصلة بين جهنم والجنة الفيحاء»

قال خليل بسماطة وثقة «عقلك الآن مدفون تحت هديم داركم !». ومصمص بشفتيه متعجبا ثم سحبني فمشينا صامتين

لبرهة طويلة ثم دهمنا الهول الماجئ: عربات مصفحة وعربات إسعاف وزمامير وأجراس تصلصل وخيول يركبها عسكر بطرابيش وبرانيط وطاسات نحاسية. أراد «خليل» أن يحمشني مسحبني قائلا «الحكومة تنقل الجثث من تحت الأنقاض ورماد الحرائق تذهب بها إلى كردون نصبوه خارج البلدة لفرز الجثث! فالجثث التي تفحمت ونمرقت يكومونها على جنب! والجثث التي بقي فيها شيء يدل عليها على جنب! هكذا يفعلون من صبيحة ربنا وهذه الإسعاف طلبوها من البارحة من أجل ناس كانت لا تزال فيها الروح! ربما الآن قد فارقتهم ! ولن يتوب أصحابها من غربة الإسعاف إلا البهدلة والغربة. وقانا الله شر فظاعة غربة الجثة! فهي أشد والله من غربة الروح يا جدع!» وتصعّب «خليل» ومصمص بشفتيه قائلا «ولكن بالله يا جدع؟ مع من ستحقق الحكومة الشاطرة هذه؟ الحكومة أم الطرابيش والأقمطة الصفراء؟ مع من ستحقق هذه الحكومة التي تحوج الطرابيش على ناحية وتحكم بأربع سنين؟ أخذوا جثة حكمدارهم وجثث عسكرهم كلها البارحة ولن يتعرفوا على باقي جثث العسكر التي أكلتها النيران!».

الدموع رجعت تهطل من جديد يا خال فيما صرت أردد «ما قلت لي أولاد حراية أين ذهبوا ودارهم ماذا دهاها؟» مسح دموعه بكمه الواسع وحضنني قائلا «إهدأ وسأقول لك كل شيء!» ثم تحدرت كلماته تحكي لي العجائب. «النار ـ تخيل يا جدع ـ ماجرؤت على الاقتراب من دار حراية ولابد أنها هي الأخرى

تماف وبهذا خشيت بأس خرابة! فاحترمت دياره! والتفت بنفسها
بعيدا عن الجدران الواطئة التي كانت شواشي القش على رأسها
تصطدم بطلقات الرصاص! والعمائم المشتعلة تهوي فوقها
موهوجة! وديار خرابة كما تعلم يحميها ظهر الجبل! إذ هي تقع
حافة بين مجموعة من الدور بناها أصحابها من عائلة خرابة على
مشارف أراضيهم الزراعية فكان الجبل يصد اللهب بصدره! وحين
همدت النيران تماما صباح ذلك اليوم! وبدأت السماء تغسل نفسها
من بطع الجحيم! وسحب الغبار والدخان المحترق! حيث ساعدت
الأشجار العالية التي لا نهاية لها! والزروع الكثيرة على استنشاق
أنفاسها وصار من الممكن أن يمشي الناس في الطرقات! كان القلق
قد وصل بأمك إلى منتهاه فراحت تصوت وتلطم وتجعر طالبة
خبرا عنك وعن أولاد خرابة إذ أن الحريق لم تطرها شيء من
لحظة ما وصلها خبر القبض على خرابة أما لحظة أن وصلها خبر
مصرعه فكانت لحظة الموت للعالم أجمع! ولقد ماتت بالفعل مرات
عديدة! ورنت فيها الروح طالبة أولاد خرابة! فذهبت بصحبة أبي
إلى ديار خرابة وصباح اليوم عن الشروق فالتقتنا زوجة خرابة
الأولى في احتفال كبير وأكرمتنا آخر كرم وغادرت جميع النساء
الغريبات خارجة إلينا متعصبة بالشاش الأسود غارقة في السواد
إلا وجهها الكبير الأبيض كالرغيف الفلاحي المرحرح! بعينين
واسعتين زرقاوين في قلبهما كرتان صغيرتان من سواد الثوب
والشاش والليالي التي قضاها خرابة بعيدا عنها في أعماق الجبل!
كانت جميلة كالبدر ليلة تمامه! قوية كثور معلوف! مسرجلة

كشبح قبيلة! قالت لأمك بكل هدوء واتزان - ناسية أنها أم ضرتها
- وبطوبة الدمع في عينيها وشفتيها كأوراق الورد تشربت
قطرات الندى لتوها: إن سعدية قد أصبحت اليوم في مركز
خرابة بالنسبة لأهله والعائلة كلها! إنها هي التي سبقت كل رجال
العائلة وفتياتها لتمسح عن العائلة عارا لم تكن لتمحوه السنوات
وإن طالت! وكتب على هذه العائلة أن تبقى إلى نهاية العمر
مسموعة حاضرة في الكبيرة والصغيرة! سعدية حققت آمالها
كلهم بصفة الرجولية والشهامة والفداء ستظل في دم الأجيال
تصرخ في العروق إذا كانت امرأة جدكم خرابة قد ثأرت له من
الحكومة نفسها في عقر دارها في أحصن حصين فيها فماذا
ينتظر منا نحن يا رجال ويا شباب؟ هي لقد فاجأت العائلة كلها
بهذا الفعل العظيم وإني لواثقة أن زوجي خرابة حين أحبها
وتزوجها فوقي إنما كان ذلك بوحي إلهي! إن خرابة ليس يختار أي
أحد! من يتزوجها خرابة لابد أن تكون داهية من أعظم الدواهي!
إن سعدية لم تحدثكم عن شروط عقد الزواج الذي تم بينها وبين
خرابة وهو عقد آخر غير الذي قرىء عليكم ليلة العرس. فمن بين
شروطه الاتفاق على تنفيذ الثأر في حضوتها في الحال وأن من
تواتيها فرصة المبادرة بالعملية عليها أن تلبس ثياب خرابة
وشخصيته أبد العمر ولها أن تحتل مركزه تحمل مكانته تمس
محله في الجبل! إني ضحكت لبرهة قصيرة باعتباري أم تعز
أولادها وإنني لنادمة عليها الآن كل الندم! إني لأحسد سعدية قدر
ما أحببتها! لقد سرقت مجدي الذي قضيت العمر أحلم به! أن

أكون أول امرأة تمتطي صهوة الجبل تسكنه بين الطاريد الرجال! سعدية الآن هي الرجل وعيالها في عهدتي أنا؛ هي أمانة لن أفرط فيها لأي سبب من الأسباب. إنهم لابد أن يكونوا عيال حرابة بحق وحقيقي ولن يكونوا كذلك إلا إن تربوا في عهدتي تحت رعايتي أسقيهم أباهم! وأهلاً وسهلاً بك أنت الأخرى يا أم الغالية! والله لو أكرمتني يا أم الغالية وأكرمت روح ابنك تحت ثراه لبقيت معنا في هذه الدار أنت وابنك إلى آخر الأيام!»

فلما سمع «هليّل» وأبوه هذا الكلام الطيب انصرفا على وعد بإحضار جدة الأولاد لكي تراهم وتطمئن بنفسها.

ثم قال «هليّل» وهو يعود بي وراء الجمال إلى الكوعة التي هي دارهم الكبيرة:

ـ «وعلى كل حال فالحمد لله أنك ظهرت لتذهب معنا لرؤية أولاد أختك!»

وكان واضحًا أن دارهم هي الأخرى قد تغيرت.

أبواب الجنة ثمانية

الأولى ـ قيام العجل

استقبلتنا «بهانة» زوجة «حرابة» الأولى ففتحت لنا المندرة الكبيرة وتربعت أمامنا تستقبل وفودًا من الرجال والشبان من العائلة والعائلات المجاورة. جيء بالغداء خروفًا مذبوحًا لتوه، فصرنا نأكل ونتفرج على أولاد أختي يمرحون في الدار لاهين، غير عابئين حتى بوجودنا فاستعجبت والله يا خال، واستعجبت أمي، كما استعجب «هليّل» وأبوه من الولاد الذين قتل أبوهم منذ أيام ونفيت أمهم طريدة إلى الجبل، ومع ذلك يمرحون. مع الأولاد يلعبون يغنون. وأمي ترى ذلك فتزداد إشفاقًا عليهم، وتمسح من عينيها الدموع، لكنها في النهاية مسحت دموعها وصارت تتكلم مع «بهانة» في أمور الدنيا والدين، وألاعيب الزمان، ونذالة الأقدار، وغدر الأيام، وعندما أذنت العشاء قامت لتصلي، فقامت «بهانة» لتصلي خلفها، وقمنا نحن لننصرف فحلفت «بهانة» بطوبة الحزين الغالي، أن أمي لا ترجع معنا وأنها تظل مقيمة في ديار «حرابة» حتى ننتهي من بناء دارنا على الأقل من مهلها

«بهانة» شخصية ليس من السهل تضييع حلفانها يا بوي، كما أنه ليس من الصواب تصغيره وليس من العقل مجادلته في أمر

فغلت دماعها دونه. فسلمت عليها ومضيت فسلمت على أمي وشعرت وأنا أطيل السلام عليها أنني أودعها لغيبة طويلة لا أعرف عنها شيئا بعد لكني سوف أغيب، قلت لها باكيا: «ادع لي يا أم». فانبرت تدعو وهي تقيم الصلاة في نفس اللحظة وتخلط كلام الدعاء بكلام الإقامة.

في طريق العودة، ونحن نلف حول جذع الجبل في سفحه السحيق كان القمر يشجع نفسه على الظهور شيئا فشيئا، وينسحب من فوق شواشي السحاب، لينظر متلصصا، ويعود فيختفي وراء موجات من الدخان الشبيهة بالجبال الرمادية. فلما لم يجد القمر أخطارا في سماء البلدة، أظهر جزءا كبيرا من كتفه، فصرنا نرى القيعان الرفيعة، والصخور المتعلقة، والحفر المتنكرة. والد «هليل» استخلف صخرة كبيرة كأنها أصبع في قدم الجبل، وجلس فوقها، فجلسنا جواره وورع سجايره، وجعلنا ندخن في صمت. وقتها كنت أشعر أن الدنيا تمر أمامي وتدخل معي في حوار ماسخ ثقيل الدم وأن أياما من المحوس تريد أن تتحالف معي على العيش والملح، وكانت الشريحة المتقوسة من كتف القمر تريد أن تواسيني وتكلمني طالعة نازلة مع أمواج السحاب. تخيلتها والله تقول لي: «عيشك مقطوع ها هنا يا حسن يا ولد أبي ضب فارحل فأيام المحوس لن تني تطاردك في هذا البلد وليس أمامك سوى الجبل وأنت يا حلو لست في مقاسه أما مصر المحروسة فهي واسعة لك فيها مسارب ومسح للشقاء فارحل إليها وفج بنفسك».

ميلت على صاحبي «هليل» وقلت له إنني نويت السفر في أول قطار يقف على محطة مصادفة. شهق صاحبي واندهش أبوه وشوح بيده في وجهي غاضبا: «أجننت يا ولدي. خليك معي يا ابن الناس! تشتغل مع أخيك هليل! إنه يحتاج لك في شغله ورزقك ورزقه على الله! بدلا من الغربة في بلاد الله». رفعت ذراعي قائلا بصوت قاطع: «وحق الله والله! لن أبقى في هذه البلدة الخراب ساعة زمن واحدة! وإن كان ولدك ياصاحبي حقا فليسلفني أجرة السكة أردها إليه بعد أيام! وإذا لم يفعل فإني سأركب القطار بدون تذكرة فوق سطحه!». فقام هليل وحضنني وبكى. كان يعرف أن مخي ناشف كالزلطة، وأنه سيتعب من الكلام معي. فقال: «خلاص يا عم! لكن أتسافر هكذا؟» وأشار إلى خلقاتي البالية المشبعة بالفحم والوسخ. قلت: «لقد انهدمت دارنا فوق حوائجنا!» قال: «وثيابك أليست ثيابي! فثيابي إذن ثيابك!» قلت: «طبعا طبعا» قال: «قم معي لعند الدار!» ذهبنا معه إلى الدار فأعطاني ثوبين وقميصين وسروالين وبلغة صفراء عتيقة ولبدة جديدة وخمسة جنيهات بحالها وأوصاني بعدم قطع الجوابات فعاهدته على ذلك وحضنته ثم حضنت والده وأختي «هدية» ومضيت فمضى خلفي «هليل» عازما ألا يتركني وحدي في هذه الساعة المقطوعة. وكان شبح ذراعه المرفوع بالتلويح يتراجع في ظلام الرصيف المنسحب تحت شباك القطار.

الثانية ـ الحضور الباهت

صدق من قال إن الأرض كروية يابوي، وإن الدنيا دوارة. فمن الذي جاء بالواد «بربش» رفيق القمار في «مصر عتيقة» أيام كنت صاحب مقهى إلى قطار الصعيد في محطة «صفط»؟! ما كدت أجلس والقطار ينسلخ من بيوت البلدة ويرتع في مزارعها حتى سمعته ينادي عليّ من الكرسي الملاصق للشباك المقابل. يخرب مخك يا بربش من الذي جاء بك هنا يا ولد ياشقي؟ تعال اقعد هنا جواري. لم أكن أتوقع أن يجيء لكنه جاء ترك كرسيه المجاور للشباك وجاء ينحشر بجواري. كنت أظنه سيتكبر بحكم هذه البدلة الفخيمة التي يلبسها أو على الأقل سيستاء من قولتي «يا ولد» أمام الخلق من الركاب، بدون أن أحترم بدلته ورباط عنقه المحبوك وشعره المصفف الناعم اللامع كحذائه الذي لابد أنه لاشغلة له غير تلميعه. سرى في عروقي شعور متأسف يقول لي إني كان يجب عليّ احترامه أمام الخلق فأكلمه مثلما كنت أكلمه في «مصر عتيقة» قائلا له يا وحيد بيك ـ (الاسم الذي دخل به عليّ أول يوم وينادونه به الرفاق دائما). لكنني عدت فشعرت بالخوف يابوي، شيء إلهي في نفسي قال لي. خل بالك منه يا حسن.

فربما مرافقه يلعب عليك لعبته بهذا الود وهذه النعومة لينشل ما معك أو ينصب عليك نصبة، خصوصا أن قرصته والقبر فأنا أعرفه ولدا يلعب بالبيض والحجر ولكن هو الذي يتحدث باسم زملائه ويرسم لهم ما يفعلون وفي النهاية يسرقهم في لعب القمار بحفنة يد فيها ألف حاو شاطر. وكان يزعم لي أنه صعيدي الأصل. غير أنني لم أكن أصدقه أبدا، لأن وجهه نحيل. أبيض، طويل الأنف، ثقيل الحاجبين، أزرق العينين، مهيب الضحكة، لسانه طري ناعم، وصوته رنان مرن، كأنه مدينة من ألف جني، فكيف يابوي أصدق أنه صعيدي، وليس فيه من المرجلية قلامة ظفر؟ خذ منه كلاما حلوا من هنا لحد الصبح يملأ دماغك فتصدق أنه «بيه» فعلا، وهو في حقيقة أمره لم يفطر بعد، ولم يذق طعم الزاد من أيام عديدة. ولحظة أن تصدقه يكون على الله العوض فيما معك من نقود وجواهر وأشياء ثمينة تستحق البيع أو الرهن، إذ أنه سوف يقودك إلى دارك تسلمها له عن طيب خاطر بل ربما استأمنته برهة تذهب خلالها إلى دارك لكي تحضر له نقودا كبيرة قد يحتاجها. ذلك هو «بربش» الجبار المسجل خطرا في دفاتر الشرطة.

ورغم أني عرفت حقيقة أمره بعد ثلاث قعدات في مقهاي تلك المرحومة بـ «مصر عتيقة»، وبحثت وراءه إذ عرفت اسمه الحقيقي، وحارة درب عجور التي ولد وتربى فيها، لأب ماسح أحذية، وأم تعمل بلانة، فإنه مع ذلك، كان كثيرا ما يحاول أن يبيع لي

البكورة، وأن يلبسني الطرطور، يقرطسني، لكي أعطيه وضعه أمام الحق، حتى يتمكن من النصب عليهم على راحته.

ذلك يا بوي كان أول شلة «مصر عتيقة»، التي بسببها أغلقت المقهى أما «عرولي» ـ ثاني واحد في هذه الشلة ـ فإنه من الصعيد فعلا والصعيدية واضحة عليه وفيه، برغم أنه أوجه من «بريش»، وأجمل وأأنق، يتصوره المرء مثلا من أهل السينما يغير ملابسه باستمرار، فيجيء كل يوم ببدلة جديدة نظيفة، بعكس «بريش» الذي لديه بدلة واحدة يعتني بها جيدا، ويحافظ على نظافتها و«عرولي» كبير الدماغ يابوي. غليظ الملامح، واسع العينين كبيرهما كأنهما لورتي قطن، تطل منهما نظرات صعيدية، تتلصص، تلبد في حلول الدرة، تهجم عليك أثناء الكلام معك، يطق منها الشرر إذا تكلم فبصوت عال رنان، يطلب منك أن تجعل بالله صحبه لحظة واحدة فإن ملته بعد لحظات تعارك معك، فإن تعارج هاج، وأرغى وأزبد، وبرطم وهلفط وبوظ دور اللعب، وربما دفع الورق فبعثره، أو الترابيزة فقلبها، ولسانه الصعيدي الممروح المسطوط لا يكف عن البرطمة والجعجعة تحلف اليمين أنه فلاح صعيدي يتعارك عند الساقية، لكن سريعا ما يهدأ يا بوي أما إذا عرفت خلقه، فصرخت فيه بعنف وأظهرت زعلك، فحينئذ يعتذر بنفس الصوت العالي ويطيب خاطرك مرددا «خلاص يا بوي! خلاص يا بوي حقك عليا!» وكان الظن عندي، أنه ربما يكون من عائلة صعيدية غنية ترسل له النقود بغير حساب، يلعب بها القمار، يشتري فاخر الثياب يعطر كل هذه العطرة حتى أنا صعيدي

أكثر منه يا بوي، ويقع في المطبات بسرعة، لكنني أعرف كيف أخلع قدمي في الحال يا بوي، قبل أن تتغرر في الوحل أو أنكفئ على وجهي. قعدتان ثلاثة جمعت في دماغي بعض كلام مما يتبادلونه مع بعضهم بطريقة السيم المكشوف، فهمت منها أنه ولد مخربش هو الآخر والمخربش يأتي بالنقود من جميع الأبواب. غير أنني لم أكن عرفت بالضبط ماهي هذه الأبواب يا بوي، إنما عرفت أنها كثيرة أمام الولدان المخربشين الذين لا يتقون الله في أنفسهم أو في ذويهم.

الدور والباقي على «بسبوسة»، ثالث واحد في هذه الشلة إنه اسم على مسمى والله يا بوي. أقصرهم قامة، طوله مثل عرضه، مرغد، ملظلظ، كبير الوجه، يمتلئ وجهه بالدم، إلى حد اختفاء الحدود بين الملامح، إذ ترحف خدوده على عينيه، ويضيع أنفه الدقيق في حنك واسع، غليظ الشفتين، عاري الرأس، شعره قصير واقف، لكنه مصفف، مدهون بالزيت، ومعووج قليلا على الجنب اليمين، هو الوحيد فيهم الذي يلبس جلبابا، وجلبابه دائما نظيف وتطبيقة المكواة مرسومة عليه، تفوح منه رائحة خزائن الثياب، مزيج من الطيب والنفتالين، ياقة الجلباب كبيرة وواقفة حول رقبته التخينة الغليظة، الجلباب جيب على الصدر، فيه على الدوام نقود كثيرة مطبقة فوق بعضها، فوقها علبة سجائر هليود لارج، وفي بنصره الأيمن خاتم ذهبي كبير بفص فيروز أزرق، وفتحة الجلباب طويلة واصلة إلى ما فوق السرة بقليل، فانلته البيضاء

ظاهرة من فتحة الجلباب، مثلثة، يظهر من قطعها الشفاف شيئان
كبيران كثديي امرأة ثناية، لدرجة أن القناة الفاصلة بين الثديين
كانت تتوهني أحيانا فأظنه امرأة. وكان هو بطراوة صوته،
ونعومة حركاته، وذبول نظراته، يؤكد لي من طرف خفي أنه
بسكويته، وأن هؤلاء الولد يأكلونه يا بوي. عن شغلته يقول إنه
«معلم». معلم ماذا، في سوق الخضار مثلا، صاحب محل؟ هو
معلم والسلام، معلم معلم، كل عشرين معلما في بعض، مالي أنا؟
المهم أن تدفع لي ما يصير من حقي طرفك. في هذه الناحية لم
يكن يعيبه شيء بصراحة يا بوي، هو الوحيد الذي لم يكن يجادلني
في الحساب، إذا قلت إنني أطلب كذا. وكنت أستطيبه، لكنني كنت
نافرا من طيبته هذه، وكان الشيطان يصور لي أن هذا الولد يقف
في صفي لغرض في نفسه

الوحيد فيهم الذي كنت أحبه بحق وأراه محترما بحق هو الولد
«هندي». كان أرجلهم يا بوي، وبوادر الرجولة تظهر في سمته
النائم الذي بلا نهاية، حيث ينام شاربه المصمصم على شفتين
رفيعتين خلقتا للانطباق على بعضهما، كخشخشة الكيس، ولولا
الشارب الأسود الثقيل ما ظهر له فم، من كثرة انطباق الشفتين
يتصدد ذقنه داخل الفكين. من فوق الشارب يستقيم أنف رفيع
مدبب، ملتحق بجبهة ضيقة، يكاد شعر رأسه يغطيها من أعلاها
ومن جنبيها فلا يبقى منها إلا مساحة عارية كالقطعة الجبن
السمبوكسة التي يسمونها القلمك، إن ضغطت عليها بفوص

إصبعك فيها يلمؤها بالتجاعيد. كانت هذه الجبهة تبقلل تكاد ترسل
بقابيق الرغوة الملونة حين يغضب، أو يتوتر من اللعب، أو من
كثرة الكلام الفاضي معه، إذ تتراح هذه الجبهة إلى الوراء
مسطوحة، لتصعد من تحتها عينان ذكيتان، ليستا في حاجة إلى
لسان يتكلم، إذ هما تقولان كل شيء بغير لتّ ولا عجن. كنت
أعرف أنه ماء من تحت تبن يا بوي، وداهية من دواهي الزمن، هو
أصغرهم سنا، لكن دماغي حكم حال رؤيته أول مرة بأنه أكبرهم
عقلا، أشدهم نصاحة، أكثرهم فصاحة لهذا يا بوي كنت أحترمه
أكثر منهم جميعا وأراعي شعوره عند الكلام معه، وأراعي كذلك
الجد والمصلحة، وقلبي يحدثني أن هذا الولد ربما يكون لي منه
شأن ذات يوم، وربما اتخذته صاحبا وفيا لي في هذه القرية
البعيدة، والذي يزيدني احتراما له يا بوي أنه كان الوحيد بينهم
صاحب عمل واضح، يمكن لك أن تزوره فيه، وتراه وهو يعرق
مثل خلق الله العاملين، شغلته فحام، له في الفسطاط ورشة
يصنع فيها الفحم على يديه، لكي يبيعه سقاطي ومحلات الكباب،
بأسعار مريحة على قد فحمها الجيد، الذي يشيعون أنه يشتعل
بعود الكبريت وهو يكسب كثيرا من هذه الورشة، ويشتغل طول
النهار إلى حد متفحم الوجه، لا يساوي خردلة، لكنه في المساء
يخرج من الحمام أفنديا معتبرا، تهفهف الثياب الثمينة على جسده،
ليصرف كل ما كسبه طول النهار في قعدة القمار

■■■

الثالثة ـ التقا. الزبانية

علبة سجائر بلمونت كبيرة مسطحة رعدتني في صدري برفق، فانتبهت إليها، فرقص قلبي لمرآها، وسكرت رأسي من رائحتها العطرة. كانت يد «بريش» ـ أو سعادة البيه ـ ممدودة بالعلبة، فلمحت في أصابعه الخواتم الذهبية. فتفاءلت خيرا يابوي، وقلت الحمد لله لن يورطني في أي مصيبة، إذ أن حالته متيسرة. سحبت سيجارة ومددت يدي لإخراج علبة الكبريت، فأسرع هو مشعلا ولاعة ذهبية، خطفني صوتها، وسحرتني تكتها والتفاف شعلتها كورقة ورد مستطيلة. أشعلت السيجارة، واستوعبت دخانها في خياشيمي بلذة كبيرة، وقد بدأ الخوف يتسرب مع الدخان. شيء إلهي في نفسي يوحي لي أن مثل هذا الشخص كلما ازداد كرمه كان ذلك مؤشرا على أنه يحكم حولك شباكه الخطيرة. لكن صوتا يشبه صوت أبي صاح في دماغي ساخرا إيش تاخد الريح من البلاط! قلت في نفسي صدقت والله يا من قلت هذا. فلو كان «بريش» ريحا كابسة فأنا البلاط ولن ينوبه مني شيء. ركنت إلى هذا الصوت، فوضعت ساقا على ساق، وصرت أنحى في لذة، ثم تذكرت، فباشرته: «قلت لي ما الذي جاء بك في القطار الصعيدي؟»

قال باسما: «لكي أجعلك تصدق أنني من الصعيد الجواني»، قلت بلهجة ذات معنى غطيته بالطيبة: «كنت في زيارة أم في مهمة؟»، لكزني بكوعه في جنبي لكزة موجهة وقال: «دي ودي»، وكانت لهجته كأنه يقول لي: «اسكت ساكت!»

سكت بالفعل يا بوي. فلما فات بائع السميط اشتريت سميطة وقطعة جبن رومي، وبيضة مسلوقة. وعزمت على صاحبي فقال إنه شبعان ولكن لا مانع من لقمة صغيرة يغير بها ريقه. ثم طوح بثلاثة أرباع السميطة في فمه، وبقطعة الجبن الرومي كلها. فأطبقت بيدي على البيضة، حتى حويت اللقمة في فمي، وطوحت بالبيضة كلها وراءها، وقلت الحمد لله على ذلك. وأشعلت سيجارة لف من علبتي، ومن شدة غيظي على الحركة التي فعلها لم أعزم عليه بسيجارة، فأخرج علبته وأشعل واحدة. وفجأة مر بائع سريح يبيع الخوخ في سلة، فاستوقفه «بريش» واشترى منه ملء كيس من الخوخ، ووضعه في حجري قائلا: «كل يا أبو علي»، ثم حاسب البائع وصار ينتقي ويقضم بشراهة ويستمتني على القضم. فصرت أفعل مثله وأنا نادم على حركتي الناقصة تلك.

جاءت محطة فوقف ناس ودفعوا نحو الأبواب، فخلت معظم الكراسي من حولنا، فانتقل «بريش» إلى الكرسي المواجه. في دقيقة واحدة مرت وفوجئت بالولد «عرولي» يجلس جواري مطبقا على كتفي قائلا: «إزيك يابو علي؟ والله زمان»، ماذا أقول يا حال؟ فرفرت في الأرض من الدهشة. «عرولي» هو الآخر هنا في قطار

الصعيد؟ كيف ياأبوي! هو صعيدي المالركة نعم لكن رؤيته هو الآخر الآن أمر لم يجرؤ على بالي أبداً. صرت أقول هنا ناظراً إلى «بريش» وإليه ماأراهما يبتسمان لبعضهما، لم يكن أحدهما قد سلم على الآخر ياأبوي، فلابد إذن أنهما مع بعضهما من الأول ياأبوي. آن مثلهما ولد مصربش ومتلطم وناصح. صوت في رأسي قال، ولكن غرولي ركب من هذه المحطة! صوت آخر رد قائلا: هما معاً في مشوار واحد يلزم أن يركب كل واحد من محطة. نظرت فيهما من جديد وقلت «عال عال الحالة رائجة كما يبين لي!» لطمني الولد «غرولي» بكفه فوق ناصية رأسي بمزاح قائلا «طول عمرها رائجة معنا ياصعيدي ياففل!» تلقيت اللطمة ضاحكا وقلت «على خيرة الله! ربما يوفقكم». صارا يبتسمان،فأحسست أن وراء هذه البسمة شراً لم ينكشف لي بعد من ولد الفرطوس هؤلاء.

محطة أخرى جاءت فغربلت القطار ممن فيه وألقت فيه بحفنة أخرى من الخلق وإن هي إلا برهة، حتى فوجئت بكل من «بسبوسة»و «عندي» مقبلين نحونا، صائحين في نفس واحد «أهلا أهلا أبو علي! والله مامعقول!». وقفت على حيلي رافعا ذراعي صائحا وقد ركبني فرح مفاجئ: «والله ما معقول صَحّ! والله صح ما معقول! إيه ياولاد الأبالسة! أين كنتم تقطعون في بلاد الصعيد! ألا تعرفون أنني عمدة الصعيد! وكان الواجب أن تأخذوا الإذن مني قبل أن تقطعوا». أخذت الولدين بالحضن وأجلستهما جواري، فصرنا جمعاً، وصرت في قلب «مصر عتيقة» في المكانة التي كنت افتقدتها مقهى، وهؤلاء الولد يلعبون القمار عندي، وأنا

أراقبهم لقبض الكرة على كل دور يلعبونه. انمحى الزمن ياأبوي، واختفت اللحظة التي كنت فيها، وحضر الماضي كله، لكنني طويته بمسحة من يدي على رأسي، وبهرشة عابرة مثلت إلى أن أربعتهم كانوا في مشوار يسترزقون منه، وسرح خيالي بعيداً، صار يتخبط في نواح كثيرة، وفي النهاية اغتظت من نفسي ومنهم ياأبوي، قلت لنفسي هذه نحن في قلب الصعيد لانعرف نكسب مليماً! وسكان مصر القاهرة يجيئون لتكسب من الصعيد؟ ألا لعنة الله عليّ وعلى حظي النحس، هؤلاء الولد لابد أنهم أشطر مني ياأبوي، وأنا معترف بهذا، ولهذا نصبت بيني وبين نفسي أن أكون في رفقتهم علني أعرف كيف أسرق من مصر القاهرة، فمن جاور السعيد يسعد.

جاءني صوت الولد «عندي» من آخر الكرسي يقول: «إيشحالك يابو علي؟ ماذا تشتغل اليوم؟» انشرح صدري والله ياأبوي من هذا السؤال وأجبت «عندي» إذ يسأله. وقلت «والله ياعندي ياخوي أنا الآن أمر والعياذ بالله مأيام نحوس كئيبة الخلقة! لا داعي لذكرها فالشكوى لغير الله مذلة». قال «بسبوسة» وهو يتحسس شنبيه الكبيرين برخاوة وطراوة صوت: «فإلى أين تسافر اليوم ياترى! وراءك مشوار معين؟». قلت: «لا والله يابسبوسة! إنني قاصد وجه الكريم ومن يقصد وجه الكريم لا يضام». قال «غرولي»: «عندك مكان ستتوجه إليه؟». قلت «ماعندي والله ياغزولي سوى الستر». قال «بربش»: «عندك مكان تبيت فيه؟». قلت: «من أين يابربش ياخوي؟ لقد تركت الغرفة التي سكنتها في

اصطبل عنتر منذ بضع سنين! شعرت أن الله لن يكتب لي عيشا في مصر القاهرة ثانية. لكن العبد في تفكير والرب في تدبير! وها أنذا عائد إليها رغم أنفي!»

نظروا جميعا إلى بعضهم البعض وقال «بربش» في لهجة حاسمة: «خلاص. خليك معنا ورزقك ورزقنا على الله». قلت: «أنا معكم من شوشة راسي لحد أظافري!». قال «بربش» وهو يلوح بيديه في برق كبير: «يلزمنا أولا أن نعرفك على رجل مثل السكرة! يعجبك هو ويملأ دماغك!». قلت مشوحا بيدي: «عرفني على الجن الأحمر! الجن الأزرق لو أحببت!». قال: «هو جن أي نعم ما في ذلك شك! أحمر على أخضر! الأحمر له والأخضر لنا!». ثم ضحك فضحكوا كأنهم فهموا. أما أنا فإن الكلمة لعبكت مخي يابوي وعجزت عن فهم مقصده بالفلوزة، فقلت حانقا: «وما الأخضر! وما الدنيا وما الدين!» قال «بربش» اللعين: «ما الأحمر هو هذا» ـ وأخرج من جيب صدره ورقة بعشرة جنيهات حمراء الوجه قانية ـ ثم أضاف: «والأخضر هو هذا» ـ ونزع من جيب البنطلون ورقة من فئة الجنيه خضراء مزركشة مبهجة يابوي.

رقص قلبي ورفرف كالعصفور بجناحين كبيرين، فصرخت قائلا في طرب ونشوة: «أنا مع الأحمر والأخضر والأزرق وكل الألوان الحلوة بالصلاة على حضرة النبي!». فضحكوا جميعا. وكان القطار يدخل ساعتئذ محطة الجيزة، والمدينة تتلبسنا شيئا فشيئا. فلما نزلنا على الرصيف سرت في أثرهم لاهثا، أخشى أن يضيعوا مني في الزحام فتضيع الفرصة من يدي. لم أكن قد

صدقت بعد كل ما قالوه وظننته تلك مجالس فجعلت كعبي في كعبهم حتى غادرنا الرصيف وصرنا في الشارع الموازي له، فإذا هم يتجهون نحو عربية كبيرة كانت راكنة بجوار الرصيف، فتحوا أبوابها وركبوا فاندسست بجوارهم متوقعا أن يضحكوا على سذاجتي ويأمروني بالنزول. بعد برهة جاء سائق عجوز من مكان ما، فركب وأدار المحرك فانطلقت العربية وسارت، وقال «بربش» بلهجة آمرة: «مصر عتيقة يا اسطى». لكن شيئا إلهيا حدثني بأن السائق يشتغل معهم وأنه كان في انتظارهم حسب موعد هذا القطار. لكن «بربش» لا يزال يعتبرني غريبا عليهم فيلبسني العمامة، يفرطسني. لحظتها اعترفت لنفسي أن «بربش» ولد حويط بالفعل ويجب أن أحسب له حسابا، كي لا يوقعني في شر أعمالي.

سارت العربية الأجرة ذات اللونين الأسود والأبيض تخبط يمينا وشمالا، والسائق كالبهلوان يتلوى بها ويتموج، يخطف ويخطف، ولا يستعمل زمارة التنبيه، كأنه يخشى من لفت النظر إلى العربية. شيء إلهي أرعشني وقبض على قلبي بكلابات من حديد، ولقد وقر في ذهني أن العربية لابد يكون فيها ممنوعات خطيرة، أي ممنوعات. وهذه الممنوعات لابد أن يكون هؤلاء الولد قد جاءوا بها معهم من بلاد الصعيد. ظني يقول لي إنها مخدرات، وحسي الصعيدي يقول إنها أسلحة وذخيرة جاءوا بها أو يشحنها من بلاد الصعيد. لكني خيبة يابوي، فأنا لم أر معهم شيئا يمسك باليد، غير أنني لم أفتش شنطهم يابوي، ولم ألحظ فيها جعبة أو انتفاخا.

فلما انتبهت إلى ذلك صرت أتحكك فيمن يلتصق بي، فأيقنت أن
جيوبهم صلبة يا بوي وفيها دمامل كبيرة، قلت ربما يسقي،
ورميت عن نفسي كل قلق، فتحت صدري وأشعلت سيجارة
وكانت «مصر عتيقة» تدخل في حياشيمي وتزحف على صدري
بقراطيس من الضوء المفضض العيني، فرأيته يبعث النكد في روحي
غير أني لما نظرت من شباك العربة ورأيت الخلق يسيرون كالقرود
مهانين متشعلقين في أبواب الأتوبيسات قلت لنفسي حظك من
السماء ياولد أبي ضب، مكتوب لك عيش في «مصر عتيقة» رغم
أنفك وأنفها، آه يامصر عتيقة، دخلتك بالأمس مهيض الجناح
أمشي على قدمين دامغتين واليوم، أدخلك راكبا سيارة بعيدة عن
ضوارب عمدة بلدتنا، وفي عروة من الصحاب، وغداً أحيكك في
مؤخرتك يا بلدة كلها قرع وطبيخ من كل لون.

الرابعة ـ الباب المنهوب

على مشارف الفسطاط، هدأت السيارة، ثم ركنت على
الرصيف، بجوار شادر كبير يمتد على مساحة لا تقل عن ثلاثة
أربعة أفدنة بالراحة يا بوي.

نزل السائق، ونزل الصحاب، فنزلت معهم ومشيت خلفهم
بجوار تيل السرداق المفرود على عواميد من الخشب. فما وصلنا
إلى نهايته دخلنا، لاقانا بقاية هائلة، جدرانها وسقفها من قماش
الخيم، ومملوءة لتمها بضروب من أنواع البراميل، بأشكالها
وأحجامها، والحديد الخردة بأنواعه، وحديد التسليح بكميات
كبيرة، ومراتب عالية، من رصات شكائر الأسمنت كهرم سقارة
المدرج، ورصات أخرى من شكائر الدقيق، وغيرها من أجولة الأرز
والسكر، ورصات كالعمائر الشاهقة من صفائح السمن والزيت
والجبنة والزيتون، وأشياء أخرى كثيرة ليس عندي دماغ
لحصرها، يستغرب المرء كيف توجد كلها، مع كل هذه المنقولات،
في شادر كهذا يابوي. وكل ذلك مغطى بأحمال القش والعيش
والقمح، لكنه نوع من التغطية يظهر المغطى أكثر مما يعميه. حين
ضاعت عيوني وضاع قلبي في هذه الغابة المملوءة بكل هذا الخير

الوفير. رن في صدري صوت يقول إن صاحب هذا الشادر لابد أن يكون الحكومة نفسها، أو أحد مشايخ المسر الكبار ولا غير ذلك يا بوي. إذ كيف يمكن لرجل بمفرده أن يمتلك محرما شديد الوعورة كهذا المحرس يا بوي؟، وعلى عينك يا تاجر هكذا يابوي؟

على أن الولد «هندي» ما أحلاه من رجل، عمرني في جميل عمرة فهمت مقصدها ومشيت بجواره وقد لمت عبي عن النحلة، ومضيت أعتقل الرعشة في ساقي، إذ أيقنت يا بوي أنني موشك على مقابلة داهية من دواهي الزمن وآفة من الآفاوية الكبرى. ظللنا ماضيين مسافة داخل الشادر، ضعف المسافة التي مشيناها بجواره، فإذا بي أرى باب دار على غاية من الرشاقة والأبهة، مطرزا بالمشغولات والمشقات والمقرنصات والدوائر والمثلثات الباب يفتح على الشادر، وسقف الشادر ملتصق بسقف أول تراسينة في الطابق الثاني. لما وصلنا إلى هذا الباب صفق «بريش» في يديه صائحًا «يا حج!» فجاءنا من الأعلى صوت رقيق، رفيع ناعم، مليء بالورع. تعود على التسبيح والتهجد. قال «خشوا يا أولاد» نظرت إلى فوق، فإذا في الترسينة رجل يتسربل بجلباب أبيض نظيف جدا، وطاقية بيضاء من نفس قماش الثوب، الذي بدا أنه من الحرير يهفهف يتطاير حوله. ذقنه طويلة واصلة إلى آخر صدره، لونها ضارب إلى الصفرة والبياض والرمادي تشبه بقايا شعلة من حلفاء محترقة. وجهه سُقُيف، صنيل القسمات كرقعة من جلد غير مدبوغ، مليء بالتجاعيد، والشعر المهوش، المتشعث، القادم من خلف صلعته وفوق حواجبه. ضيق

العينين جدا، لكن شعاعا واضحا على الدوام ينطلق منهما، ستقتنى في كل بقعة في جسدي، أما فمه فلا يكف عن البسملة والبسبسة، من خلال ابتسامة ذابلة، تلمع تحتها أسنان ذهبية وبلاتينية كرز في سماحة، مع هزات من رأسه. «ادخلوا يا أولاد ادخلوا»

دخلنا يا بوي، فإذا نحن في دهليز دار من الدور الأثرية العتيقة، كنت أرى مثلها في مقابر الفراعنة، على بالمصابيح العجرية البارلتية، وينفتح في قلبه منور مخروطي، يشدك للنظر إلى أعلى، فإذا طيرت بصرك شاهدت شبابيك ومشربيات الطوابق العليا كلها ولقد فعلت، فخيل لي أن عيونا من وراء هذه المشربيات ترقبنا. دخلنا بابا واطئا في آخر الدهليز فرد، به باب سلم جميل غاية الجمال يابوي، يهون عليك أن تفرش وتنام على درجاته الرخامية النظيفة اللامعة كأنهم يغسلونها كل يوم باللبن والعطور ما هذا العز كله يا بوي؟ ما الذي يفعله ساكن هذه الجنة له كي ينعم عليه بكل هذا النعيم يابوي؟.

صعدنا بضع درجات، حودنا على بسطة عريضة مربعة، يحفها درابزين من الخشب المشغول بالخرطة على هيئة سيقان وخصور مبرومة، لكن بدون نساء. وقفنا على هذه البسطة قليلا، حتى انزاح باب قصير القامة عريض من الخشب الثقيل، عليه مستطيلات ومربعات تشبه شكل صفحة المصحف بالضبط يابوي، المالق الناطق، حتى الذي يشبه الفواصل على هوامش الصفحات كان مرسومًا أيضا على الباب، ونفس التكورات

«مرقومة»، التي تفصل بين آيات المصحف. فلما دققت النظر يا بوي، وجدت أن سورة يس كلها مكتوبة على ضلفة الباب، من أوله إلى آخره، من أولها إلى آخرها، وعلى سطح الهامش مكتوب ـ بالحفر كذلك ـ أسماء الله الحسنى. أعمامي فقهاء يا بوي، وأنا مع ذلك تعلمت فك الخط من الولد وكيل النيابة الذي كان مسجونا معي في زنزانة واحدة في سجن مصر القلعة، وبيني وبين صفحات المصاحف سابق معرفة. ارتعش قلبي في الحال، رقص، وقع في حبائل شبكة من المشاعر الغامضة، لست والله أعرف إن كانت هذه الرهبة التي سربلتني أساسها سورة يس والقرآن الحكيم وأسماء الله الحسنى، أم أساسها ذلك الرجل الذي انزاح عنه الباب فظهر مقبلا نحونا يغوص قبشبه الرهوبة في وبر السجاجيد الكثيف الشعر، ويخطر حاملا مسبحته اليسر الطويلة السوداء بين بوفيهات وشوفنيرات وبوريهات وترابيزات من كل شكل وكل جسم وكل لون، مبذور فوقها تماثيل صغيرة من الذهب والفضة والعاج والحجر والنحاس، لأشباه رمسيس ونفرتيتي وشيخ البلد، وأخرى لسباع وثعالب وذئاب ووطاويط ونسور وجمارين، وميداليات وأساور، وعلب صغيرة كالتحف، كل ذلك مفرودة على الترابيزة والمسطحات. أما الحوائط كلها فمغلفة بالمرايا البلجيكية التي تعكس كل ذلك. ومن السقف تتدلى تعاليق كثيرة، بسلاسل رفيعة، فيها زخارف ولمبات على شكل بلحات، ومعلقات وكمثريات، وعناقيد عنب.

ركبني الرعاش ثانية يا حاج، فوقفت متسمرا في مكاني، وصحابي يدخلون بجرأة قائلين «ادخل يا راجل». فبدون أن أشعر خلعت البلغة وطويتها تحت إبطي مثلما أفعل عند دخول المسجد. فضحك الصحاب وضحك الرجل حتى اهتز جسده وكاد ينكب على الأرض، ثم سحب من صدره نفسا وقال «كويس كويس! عملت الواجب». استدار ومضى أمامنا ونحن من خلفه نتعثر في وبر السجاجيد الناعم ونخوض في رسوماتها المزركشة فوق ميادين ومآذن وإيوانات ودواير، وقد عجبت والله يا حاج كيف يهون على المرء منا أن يدوس فوق هذه النعمة بأقدامه؟ وقلت لنفسي: ما الذي بقي من الجنة لم يستحضره هذا الرجل إلى هذا المنزل العامر؟ ماذا أبقى هذا الرجل للجنة يا ترى؟ والجنة علام تكون إذن بعد كل هذا؟ هناك إذن خلق من عباد الله أمثالنا أولاد تسعة أشهر، يختطفون الجنة من الله، ويركبونها على الأرض في العمر، مثل هذا الرجل العجيب الشأن. هكذا قلت لنفسي وأنا ماض في ذيلهم، ونظري معلق على مصحف كبير جدا مفتوح، ومركون فوق بوريه كبير معرض الحائط فوقه مرآة، وفيها يمتد المصحف بمصحف شقيق وصفحاته ذات الهامش الوردي المشغول بالزخرفة ومتنه الكريم ملون بأحرف سوداء منقوشة فوقه كالمسابيح، ما إن لامسته، تبركا به، حتى تكشفت أنه من الخشب لمصحف مفتوح على آية الكرسي، وبجواره برواز كبير يلف صورة الرجل سمح الوجه بلحية طويلة، بيضاء، متسقة جميلة الشكل، وزبيبة الصلاة على جبينه تحت حافة الطربوش

المقصير الذهبي تخطف البصر من لمعانها، والابتسامة على الشفتين تكاد تبديك لتكلمك. فرحة أمس ظللت عاوجا رقبتي نحوها، في انتظار أن تكلمني حتى سمعنى الولد «فندي» إلى أنني لو كسرت شيئا هنا ولو صغيرا فعمري كله لن يساوي ثمنها. فاعتدلت وجعلت عيني في وسط رأسي ومشيت في ذيلهم، نخرج من صالة إلى غرفة، ومن غرفة إلى ممر، ومن ممر إلى سلم ضيق نصعده إلى صالة أخرى، نقطعها إلى ممر، فسلم آخر، نهبطه إلى بهو طويل، نعبره إلى باب تحيط به الستائر طبقات فوق بعضها، يزيحها الرجل بحركة من أصابعه فتجرى للوراء ر ر.ر ى

ر نجد أنفسنا في باحة مطلة على السماء المليئة بالآس والقباب والأبراج وأشباح الأشجار، وبسيف عريض النصل يلمع في مدى البصر يترجرج لمعانه تكاد صفحة النصل تتدهور تحت هبوب الرياح لكنها ما تلبث حتى تستقيم حادة، كحلم من الحرير يتراقص بنشوة فوق وفود الرياح. فتلددت من هذا المنظر يابوي، تمتمه منسحرا يابوي، فعرفت أنه نهر النيل، فتلددت أكثر يابوي وقلت لنفسي: هذه هي الجنة من غير إحم أو دستور يابوي، وما علينا الآن سوى انتظار بنات الحور والولدان المخلدين، وأباريق الخمر والعسل المصفى. وإذا نحن في برج فوق سطح المنزل يا حال، مربع مخنوق كالعلبة، له سقف جملون، وحيطانه من الداخل من الخشب السميك، مزركشة بالزخارف بالألوان الساحرة. كل حائط بنصفه شباك مفتوح فأنت ترى أربعة أركان الدنيا، من هنا نخيل، ومن هنا هنا مآذن، ومن هنا أبراج، ومن هنا هنا موكب

النهر، الآتي من الشلال البعيد نسكب عرق جبينه على كل الأراضي لتنبت خيرًا يعم به الخلق، أمثال صاحبنا هذا الذي يحفر على جبينه زبيبة الصلاة. هذا الذي صلى من جن أن يطبع السجود هذه الزبيبة على جبينه، حتى خفت أن يضبطني مراءه أمام الرجل، فانكمشت على روحي، والضحك يزُرُّ على لا يريد أن يتركني في حالي يا خال، لكنهم جميعا انفجروا ضاحكين فقلت ضحك يضحك، فصرت أقذف الضحكات المتدفقة، وهم يرددونها خلفي كالمغناطيس، حتى انهد حيلنا جميعا، وصرنا من فرط الجهد والانبساط نتمايل على بعضنا نتساند، بما فيه لحية الرجل، التي صارت في متناول يدي عدة مرات، أعبث بها كيف أشاء لو أردت لولا أن جسمي كان يقشعر منها، إذ هي تذكرني بفتلة عمي الفقيه وحيرانه اللاسعة. كما تذكرني بملمس الزرحف المشنة

دهورنا التعب يابوي، فرمينا جثتنا فوق شلت منجدة بريش النعام مشغولة بالحرير المزركش بالزخرفة. شيء يشوه العقل يا بوي، شيء لايمسي العطار خرجه بل ينسى الخرج عطاره. الرجل تماسك نفسه، ومسح عينيه بمنديل حرير شفاف، ونسي فجأة أنه منذ برهة كان ذلك الطفل المكروت الشقي، الذي لا أمان لمقالبه، فنظر فينا بجدية شيخ في الثمانين من عمره، وقال: «فتعشوا يا أولاد» ثم نهض في الحال كأنه لا ينتظر منا أي رد. كأنه سيغير رأيه، إذ التفت نحونا بعد أن لبس الشبشب الرومية وقال من جديد كأنه يقرر هذه المرة «ستتعشوا طبعا. وجبا»، ومضى ظهره

النحيل المحدودب قليلا عند القفا ـ من فرط الخشوع لله فقط ـ وساقاه الرفيعتان من خلل الجلباب يخطوان في نزق متعقل، متوازن، وأساور الكلسون القطني تحبك على رسغي القدمين الحافيتين. فلما غاب عن نظرنا سمعنا أبوابا تفتح وتنغلق، ووقع خطوات تهبط ثم تصعد، ثم تهبط على السلالم الخشبية جعجاعة. يتداخل وقع صبيبها في أصداء سالفة. حينئذ قام كل واحد منا فانعطف على شباك وركن إليه، وبعثر نفسه في الريح في الخلاء الفسيح. زاحمني الولد «هندي» على شباكي، لأنه فيما قال يحب منظر النيل مثلي ولا يمل من النظر إليه ويتمنى لو يقضي عمره فيه ولو غريقا. فلكزته بكوعي في عظم وقلت في حسد حقيقي: «نيل إيه وبتاع إيه يابو العم!؟». قال «هندي»: إن دوام الحال من المحال كما قال أهل زمان. فارتعد قلبي رعبا نفذ من صدري إلى الخلاء. وسألته ما هذا الرجل النادر المثال في هذا العصر والأوان من طلطل بسلامو عليكم.

في فحيح يتخلله حروف واضحة كتكتكة التلغراف تفهمها فهامة مجهولة في دماغي، قال لي إن هذا الرجل إن لم أكن أعرفه هو «الحاج أحمد نورالدين السني»، تاجر خردة في الأصل والأساس. لكنه في العرف ابن سوق بشكل عمومي، يتاجر في المواد الغذائية لا بأس، في العملة نفسها لا مانع، في البن اللي لا يصبر، كله ماشي عنده، وربنا ـ يقول هندي ـ راضي عنه آخر رضا، إذ ملكه ثروة لا حدود لها، من بينها هذا البيت الأثري، عن أبيه الذي كان من الأعيان الكبار، عن جده الذي كان قاضيا

للقضاة، عن جده الأكبر الذي كان هو الآخر قاضيا للقضاة في السلطنة القديمة أيام لا أدري من منْ السلاطين والملوك. على أن «الحاج أحمد نور الدين السني» وهبه الله قبولا حسنا عند كافة الخلق. يمسك الحديد والصفيح بيديه، فيحوله إلى ذهب. قلبه جامد. يشتري خرج البيوت، ومخلفات الأسر الكبيرة التي أذلها الزمن النذل وأجلى عنها المجد. بحكم أن «الحاج السني» في الأصل من هؤلاء القوم يابوي، فإنه يفهم قيمة هذه المخلفات التي يتخلى عنها أهلها، لكنه يشتريها بتراب الفلوس. فهو يعرف يا خال أن هذه المقتنيات الثمينة الأنيقة، إن لم يحمها رصيد كبير من البنكنوت الأحمر، تثقل قيمتها، وتصبح كعدمها، فيسهل التخلي عنها أمام احتياجات الجسد والبطون. كما وأن «الحاج أحمد نور الدين السني»، رغم أنه من علية القوم قبل أن يصبح تاجر خردة وتاجر التجار، فإنه قد نزل عن حياة طبقته ظاهريا، ليعيش بين الرعاع والزعر والمراكبية والصعايدة من الصيع والجرابيع وأبناء السبيل، والحرافيش، وحقيقة الأمر يابو العم، أنه بات يعيش حياتين، يعرف أحلى ما في علية القوم من النظام، والأخلاق وترتيب الحياة وتدبير أمورها، وأمور المتطرة فيها، ويتحيل عليهم. وعندما يدخل المزاد ليشتري مخلفاتهم الثمينة، في حالة عوزهم، فإنه يدخل في هيئة معلم جاهل حشاش أنطبع لا يفقه من أمور التحف الثمينة شيئا لا يعي من أمور الفن ولوحاته ومشغولاته أي شيء، لكي تريح نفسك من أي كلام تقوله بشأن قيمة هذه الأشياء وجوهر أصالتها. سيقول لك بصريح العبارة، أنه لا صالح له في

هذا الكلام، ولا قدرة له على فهمه. إنما هو يشتري منك الأشياء باعتبارها أشياء من «مخلفات المستعملة»، وكل مخلف مستعمل فهو خردة، بدون زيادة أو نقصان، وأنه في الأصل طهقان ضيق النفس مما أنت فيه من عوز. ربما يسعر علينا وعلى ولايانا. خذ ما أنت في حاجة إليه بدون بيع ولا شراء عندما يكرمك الله رد لي ما أخذت. وأنت تجد أنه قد شفع القول بالفعل، إذ دس يده في سيالته الكبيرة وأخرجها برزمة كبيرة مطوية من ورق البنكنوت الأحمر القاني، يأخذ في فرها بسرعة. ليتوقف عند عدد معين ينزعه من الرزمة هو على التحديد المبلغ الذي قدره ثمنا لأشيائك. يطويه على بعضه، يخفيه في راحة يده، يقدم لك كفه مقلوبة، قائلا «بركة بالصلاة على النبي». لا تحاول أن تفتح ما أعطيت لتعده وإلا جلبت على مظهرك المهانة، ثم إنك لن تفلح في ثنيه عن هذا المبلغ شعرة واحدة. حتى لو مدحت بنت مرى، سيقسم لك بالأيمان المغلظة وبحق صلاته وصومه وفجره وابنته الوحيدة التي يتمناها من الله أنه مكارمك ومعطيك فوق ما تستحقه البيعة بكثير. وأنها ليست بيعة ولا حاجة إنما هي بركة منك وهذا المبلغ بركة منه. وهو ومصيبه مقصده، وحق جلال الله، شريف. إذ هو يريد – فقط! – أن يفك عسرا! جعلنا الله ممن يفكون عسر الناس. العسر عسر ومن فك عسر الناس فك الله عسره. قل يا رب. رح إلهي ربنا يفتحها في وجهك ويرزقك برزق أولادك. لا تفرقك الأزمة فهي مؤقتة، وهي امتحان من الله يا رجل.

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها   فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وهكذا يأخذك في عشرة دروشة، أوطة في عوق، في حدوتة، في كاني في ماني، تكون عرباته قد حملت الأشياء وربطتها ووقف السائق في انتظاره، ومارة والأخرى من السائق يكون هو قد مد يده مستترا بها يدك غصبا عنك. يسلم عليك ويشد على يدك بقوة صلبة كقوة فارس صنديد على المقبض، وبيده الأخرى يربت على ظهرك مطيبا خاطرك، متمنيا لك صحة وعافية راجيا أن يراك ليطمئن عليك، وعلى أحوالك، وما يهمكش، أي خدمة في أي وقت أنت تأمر، ورقبتي سدادة. لا يغرنك تمسكي في مسائل البيع والشراء فدي مطرة وذي نقرة!.

التفت يابوي لبرهة، فاندهشت، إذ وجدت أن الصحاب كلهم ملتفين فوقنا يتبادلون معنا الحديث في نفس الشباك. فما عرفت والله يا خال متى جاءوا ولا كيف عرفوا أننا نتكلم عن صاحبنا «السني» ولا كيف اشتركوا في الحديث، إذ كل ما أذكره لحظتها أنني و«سيدي» كنا نتهامس في سيرة الرجل، فمتى صرنا نتكلم عنه كلنا هكذا بصوت عال؟ هذا ما يكاد يلحس مخي والله يابوي. «يوبش» وزع علينا دورا من سجاير البلمونت وأشعلها لنا قائلا في صوت خفيض «على فكرة! الحاج السني من الإخوان المسلمين! ولهذا فأهل المدينة كلهم يحبونه» إذ هو رجل يعطف على الغلابة والمساكين! يوزع الزكاة بالهبل! ويشاع أنه من زعماء الوفد الكبار! وهو لا ينفي ذلك بل يتفاخر به كثيرا إذا ما سأله أحد! أما الآن فهو عضو في الاتحاد الاشتراكي على مستوى المحافظة! وعضو

كذلك في مصائب ودواهي كبيرة كثيرة؛ إنما هو محبوب يا أخي
[illegible] شوقي والليثي وزكي رستم؛ مشهور كالخط
ومطيعه؛ في الصبح قد يجلس في غرزة الحشيش بين
[illegible] من اللصوص والنشالين والهجامين يبادلهم بوصة
الجوزة نفساً لنفس لكنه مع ذلك لا يتحرج؛ فهو معروف لكل
الناس ولن يقبض عليه الضابط إذا هاجم الغرزة؛ وفي الظهر قد
يجلس مع أصدقائه على سفرة الغداء يتباحثون في أمور البلد
وسلع تموينها وشوارعها ومجاريها ومساكن إيوائها ومستوطني
مساجدها والمحجوزين في أوتوبيساتها الحرجة؛ وفي المساء قد تراه
في حفل أم كلثوم أو في دارها وربما في داره هو؛ إن عبدالحليم
حافظ صديقه وقد رأيناه كثيراً معه ورأينا هناك وكنا نحدم عليه
وقد عشي في عيد ميلاد شيماء ابنة الحاج؛ أنا مرة رأيت عنده
الكاتب الصحافي المرحوم كامل الشناوي وكان يسهر عند الحاج
كثيراً يلعب الكوتشينة ويقول الشعر ويمسخر في خلق الله؛ مرة
رأيت عنده ـ في هذه القمرة التي تقف فيها الآن ـ مصطفى أمين
وفريد رستم وحسن الإمام وجميل السداوي؛ ومرة أخرى إحسان
عبدالقدوس ونادية لطفي؛ إنه رجل جامد؛ وكل هؤلاء يحسدونه
في خدمات يؤديها لهم أو اتصالاته كثيرة وجامدة؛ أنا مرة
رسلني إلى المطار لأحضر هدية جاءت له من الملك فيصل؛ والملك
الحسن ملك المغرب بعث له السلام في خطابات وكروت المعايدة؛
وله أصدقاء في أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وسقند القرود؛
والسياح يجيئون للسؤال عنه فيسألهم عن صحة أولادهم

وأصهارهم وأهليهم؛ كنت أظنهم يجيئون للفرجة عليه وعلى شكله
التحفة لكنني فهمت بعد ذلك أنه متكلم حريف يسحر السامعين؛
وهو عفريت يا جدع؛ أسمعه يتكلم في التاريخ فأسحر مثلهم من
وفرة المعرفة إشي فرعوني وإشي قبطي وإشي روماني وإشي
إسلامي؛ ساعات يظهر أمامي كالمجنون المحترف حين يتكلم عن
الحميري والسماري والبابلي والآشوري والبلاء الأزرق. ففهمت
أن السياح يتعشقون كلامه خصوصاً وهو يمشي بين الممرات التي
مشيت فيها منذ قليل يا صعيدي يا قحف؛ لقد دست على سجاجيد
يقول الحاج أن السلطان الغوري هو الذي اشتراها ولم يسعده
الحظ بأن يعيش حتى يدوس عليها!».

وهنا قاطعه «بسبوسة» قائلاً بصوت طري من خلل ضحكات
متقطعة مضغوطة، لا نعرف إن كانت ضحكات أم تأوهات
صارخة. «ألا تعلمون أنه من عائلة الشمير؟» ضحكت رغماً عني
قائلاً في انفعال: «كيف يا أبو العم؟ ـ الذي جاء بعائلة عامر
الصعيدية إلى عائلة السمني الصحراوية» قال «بسبوسة»
مستدركاً: «أقصد أنه صهر لعائلة الشمير؛ فابن بنت خالته متزوج
من عائلة الشمير؛ والله أعلم كلها إشاعات في إشاعات ولكن الغريب
أن الحاج لا يكذب ما يسمعه أبداً». شوح «عروقي» في وجوهنا
بأصبعيه اللذين يمسكان السيجارة وقال بثقة تامة وحنق من
جمعنا من غير ميعاد أنكم جميعاً أنفال ترابيس؛ لا تفهمون شيئاً!
الحاج السمني يا هبل ليس اسمه السمني إنما السمني هذه فوق اسمه

تدري نقب جده!». تقرفص «هندي» هامسا: «ليكن الجن الأزرق! إنها دنيا ملأى بالعجب! اللهم أنا أقل خلق الله عجبا. إننا بالنسبة لهم ملائكة أطهار». وقال «بسبوسة» وهو يتحسس بطنه وثدييه: «سمعته مرة يقول إنه من أصل مغربي!». فقال «غزولي» متعجبا: «كان قبل ذلك من أصل يمني». شرح «هندي» قائلا بلهجة مقوس كبير: «تحتاج نسبي لو شرح لك في شرحة مزعج متجلية سيثبت لك أنه يمت بصلة قربى إلى نبينا شخصيا! ولو انشرح صدره قليلا فسيجيء لك بشجرة العائلة العتيقة المبرورة بإطار من الذهب المشغول. يريك صورة منها بحبر حديث مضافا إليها بخط يده خطوط تشبه أوراق الشجر فيها أسماء مكتوبة حديثا يعقبها لقب البك والباشا والعالم العلامة والإمام! يريك كيف أن هذه الفروع تروج من العائلة العلانية، فتلف هذه الأوراق وهذه الأوراق كونت هذه الفروع! يسمعك أسماء في الوريقات تسمعها في الراديو وتقرؤها في الجرائد، يوضح لك أن فلان هذا يقول لأبيه: يا ابن عمتي، وأمه: أم الحاج السني. تقول لأم عدني يكن يا ابنة خالتي!».

تحلف اليمين يابوي أن دماغي صارت كالكرة التي كانت من قبل فارغة من الهواء فجاءه من نفخ فيها بمنفاخ آلي حتى تحجرت وصارت على وشك أن تنفرك من بعضها. أمسكته بيدي حتى لا ينفرط. تنهدت من قعر بطني الدفين، قلت: «أهم من كل هذا يا أبو العم! ماذا يربطكم بهذا الرجل؟».

تبسموا جميعا يابوي، ثم ضحكوا يابوي، وانتهى ضحكهم بشخر ونخير يابوي. فكأن صفائح مياه ساقعة انهمرت فوق جسمي. قلت باسما كالأهبل في الزفة: «علام تضحكون يا ولاد؟». قال «سريش» في لهجة عمر مريحة فيها عمر ومر: «هذا الرجل صاحبنا! حبيبنا! يحب قعدتنا ونحب قعدته!». قلت: «عال عال! كسبنا صلاة النبي!». قال «بسبوسة» مقلدا لهجة الأفلام: «إنه أبوي الروحي يا جدع»، ثم قطع ضحكته المائعة فصارت ترن في صدره فيهتز وتندفق أثداؤه. شعرت أن الشك يثقب كرة رأسي بسن الدبوس. ولم أفهم معنى غمزة «بسبوسة»، فاحتفظت من نفسي والله يابوي، لكنني قلت: «كسب صلاة النبي! نحن مهارنا هل بإذن الله!». وقال «غزولي» وهو يشعل سيجارة: «يقصد بسبوسة أن يقول لك أن الرجل أخ كبير لنا! يوجهنا ويعاوننا! ويساعدنا على المعايش!». قلت: «ربنا يساعدنا جميعا! من قدم خير بيديه التقاه». غير أن «هندي» تربع قائلا في غمز كغمز السواقي في المياه: «الله يكرمه! إنه يروق بالف وبيل ريالنا! ولكن بعد أن يكفرنا من الشغل والتطليم في المشاوير».

ضحك الصحاب وضحكت أنا الآخر يابوي، فعاودتنا كريزة الضحك من جديد يابوي، صرنا نشال ونحبط كاللجاليين السائبين والله يابوي، إلى أن سمعنا وقع أقدام، فكفكف دموع الضحك ورحنا نفرغ أصواتها في صدورنا فتهتز بعنف شديد. فلما اقترب وقع الخطى، جلسنا محترمين مترمتين كل في مكانه فوق

شلته كما التماثيل، وكانت الخطى كثيرة ومتواصلة، تنقطع برهة لتنصت من جديد فتتزايد وتتزايد. ثم انفتح الباب بابوي، ليدخل خادم يرتدي جلبابا أبيض كجلباب الحانوتي ويتلفع بحزام أحمر ويلبس طربوشا على رأسه ويحمل طبلية مهولة الحجم لم أر مثلها في حياتي عند أوسع العائلات. فوسعنا لها ما أمكن فلما وضعها صرنا كالفراخ حولها لا تظهر سوى رقابنا بأكتافنا. تبع الخادم خادم آخر يحمل صينية نحاسية أوسع من دائرة الطبلية فوقها نقوش ورسوم بالألوان مطعمة بالأحجار الكريمة كالعقيق والفيروز والمرجان وعين القط، وضعها فوق الطبلية. تبعه سبع من الخدم والولدان يحملون أطباقا وقوارب وسلطانيات وأكواب وأباريق وملاعق وشوكات مع سكاكين كثيرة لامعة بمقابض مطعمة بالعاج معرفت أنها جميعا من الفضة وأن معلقة واحدة من هذه تساوي الشيء الفلاني، منظرها تحفة بابوي تحت الفرجة عليها وهي طول الأصبع. طست وإبريق من النحاس استقر عند العتبة. ثم توافدت الروائح بابوي، مشويات ومقليات وتخديعات ومحشيات. الولدان كالقوارير، في لمح البصر زحموا الصينية بوليمة تاهت عقولنا فيها يا حال. في أعقابهم وصل الحج «أحمد نور الدين السني»، فانحنى بجوار الباب برهة نزع فيها الأغطية عن بعض الأطباق هاتفا فينا «بسم الله يا أولاد». فإذا بخيرات الله كلها مرمية أمامنا بابوي، ومتاحة، ما عليك إلا أن تمد يدك ولتشبع إلى فيك تحشر في بطنك، وأين هي البطن التي ستتسع لكل هذا النعيم؟ حمام وسمان وبط وكفتة وكباب وشرائح لحم محمرة،

ومهرجانات من سلاطات الخضار والباذنجان والطحينة ناهيك عن الأرز والمكرونة بأنواعها. كُلْ يا ولد أنت وهو بغير كسوف فالدار داركم كما تعلمون، هب للنبي، نزلت على الأكل حتتك بتتك حشرت البطون كالزتابين كالبلاليص، والحاج «السني» لا يني ينتقي ويقتطع ويرمي أمام ملاعقنا وأيدينا وأحيانا في فمنا، رغم ذلك لا ينقص الخير في الأطباق، فيالها من بركة كبيرة. ثم أخذ ضرب الملاعق في ترسانة الأكل يخفت، وقلاعه تسلم واحدة وراء أخرى، إلى أن سمعنا قولة الحمد لله تطلع من حوشنا متذكرينها فرمينا الملاعق ورددناها متراجعين إلى الخلف بظهورنا، وأيدينا مكتفة بجنوبنا لامعة الأصابع بإدام الطعام الدسم. نهض الحاج قائلا تفضلوا فنهضنا جميعا ومضينا خلفه إلى خلاء السطح، فوجدنا حفنة من الولدان واقفين بالطست والإبريق، راحوا يصبون الماء على أيدينا وبعد غسلها، نمسحها نجففها بالفوط، نتكرع بصوت عال لنقول الحمد لله.

في لمح البصر كانت الأطباق قد رفعت والطبلية قد أجليت عن المكان. وتمددت الشلت على راحتها من جديد فتمددت سيقاننا لكن الباب انفتح من تلقاء نفسه، ورحفت ترابيزة زجاجية جميلة على مهل، يدفعها ولد حلو التقاطيع، بهرتنا وبهرنا. تنظرنا فيها فإذا عليها براريض الشاي والأكواب والسكريات جعلها الولد في وسطنا تماما وتركها وانصرف. ليدخل في أعقابه ولد آخر يحمل لفة شمع مطوية، سرعان ما فرشها بجوار الباب وخرج. ليدخل ثانية بعد برهة حاملا طبلية صغيرة محندقة، يضعها فوق

للشمع، يلحق به ولد ثالث في يده وجاك نحاسي كبير فيه فحم
مشتعل مصهلل، وضعه فوق الطبلية وخرج، ليعود بجوزة عبارة
عن جوزة هند كبيرة بها بعض ويرصه من أعواد الورد للجوزة
من الداخل، وضعها مغموسة في قلب دلو كبير مليء بقطع الثلج.
ثم دخل ولد آخر يحمل صينية صغيرة عليها أكوام من الموز
والبرتقال والتفاح والعنب. وضعها في الطابق الثاني من الترابيزة
الفضية أم هجل، ووضع فوقها حزمة من الشوكات والسكاكين
أغراني منظرها بإخفاء ثلاث منها، لولا الرقابة الشديدة عليّ من
زملائي، ذلك أننا جميعا كنا نراقب بعضنا البعض بكثير من الشك
والريبة، وكل منا يريد أن يدفع الشك عن نفسه بأي شكل. تعلقت
نظراتي بالفاكهة برهة طويلة أعاير نفسي بأي تفاحة أبدا تذوق
النعيم. فلما انتبهت وجدت بجواري مباشرة دلوا آخر،
بمجرة الجوزة المرصوصة بالدخان المعسل.

ما كدت أمسك بالتفاحة حتى كانت برصة الجوزة قد أكملت
دورتها لحد عندي. وكان «الحاج السني» قد رمى أمام «بربش»
بقطعة حشيش في حجم كف اليد قائلا «قطع»، فصار «بربش»
المفترى يقتطع إمضاءات كالملاليم الصفراء الكبيرة يفرشها على
الحجر بقطعه، يرص حوله النار كالحمص، إن كان فيك حيل
فشفط وأرني كيف تسفح هذا الحجر، إن فعلت سيصفق لك
«رمية» كحصة الحمص فوق نار الحجر المشتعلة. إنه مفتر في
الشرب كما أعرفه لكن اتضح لي الآن أن «الحاج السني» أكثر

الترابة. إنه ليس يشرب بحماسة شهوانية يابوي، بل إنه يغالط في
الدور أيضا يابوي، ويزعم بشقاوة أن دورا فاته لم يدخن فيه
حجرا كما ينبغي، ويتصادف أن يكون لحظتها قد استلم البوصة
لتوه لتوه، مع ذلك يثير جدلا كبيرا وربما يتعارك ولا يهدأ إلا إن
ولع حجرا زيادة، ولربما رغم أن الحجر كان مكتوما، أو مخسفا،
أو مطفأ النيران، حتى يقول له الولد الساقي بسماجة نعس
زائفة «حد عيره يا حاج»، فيربت على ظهر الولد في امتنان شديد
وزلة زائفة قائلا وهو يتلقف البوصة باليد الأخرى «أيوه يا ابني
الله يكرمك ويعمر بيتك! روح إلاهي يكفيك شر المرض!»، وينفث
الدخان من فمه ومخاريه في تبحلق ولذة مكملا «روح إلاهي
يلهمها في وشك دنيا وآخرة!».

بعد حجارة لا حصر لها، وأصابع موز انسلخت بلا عدد
وبرتقالات وتفاحات وعنبات، وزربت في البطون بغير وعي،
وأكواب شاي اندلقت في الحلوق الصادية. بعد كل ذلك
امتثل «الحاج السني» مرتكنا بظهره للحائط ممدا ساقيه مصالبا
عروقهما قائلا «يعني ما عرفتوميش بالرجل الطيب ده»، وأشار
بكفه نحوي، فهتف «بربش» مشيرا بكفه نحوي «هذا هو حسن
أبوضب؟ صاحب المقهى التي كنا نلعب عليها القمار أيام كانت
تمسكنا الحكومة عنده»، صاح «الحاج السني» في غبطة صبيانية
طويلة كأنه يعرفني معرفة الأخ لأخيه «يه.. يه.. إزيك يا ولد
يابو علي! يا نلتقيت ألف مرحبا! كنت فين يا ولد من زمان!».

حكيت له أمري من طقطق لسلامو عليكم، فاستمع لي كما القاضي يستمع للأبوكاتو في هدوء، ثم ابتسم قائلا «على كل حال أنت حظك من السماء أنت الآن بين إخوتك! غدا تصير الأشياء معدن والحال عال!». ونزع من سيالته بضع ورقات من الأحمر القاني وقال «حسن! خذ هذا المبلغ معك حتى تتيسر لك الأحوال!». تلكأت قليلا وانكمشت على نفسي كما العلق، صرت أقول «متشكر! متشكر يا حاج! ربما ما يلزمناش!». فشخط في بشدة «حسن!»، ولكزني الصحاب كلهم من كل ناحية «خذ يابو علي! إسمع كلام الحاج!». وقال الحاج «صرنا الآن إخوة! ألم نأكل من طبق واحد! لابد أن نصون العيش والملح!». قلت «طبعا! طبعا!» ومددت يدي فأخذت النقود، ودسستها في اللحظة، في جيب الصديري، غير مصدق أن الدنيا ترمي بملسها في حجري، هكذا مرة واحدة يا حال. غير أن صوت «الحاج السمي» زحف متلويا كالثعبان يترصص في أذني بكلمات تقول «أكلنا عيشا وملحا معا يا حسن! فهل تعرف عقاب الله لمن يخون العيش والملح؟». قلت «هو عقاب كبير يابو العم!». قال «هو عند المولى الكريم أن يعجل بعقاب كل من يخون العيش والملح معي! فليس من أحد خان عيشي وملحي أو فكر أن يخون إلا وكان عقابه فوريا بفضل المولى العزيز الجبار عز وجل!».

لعب الفأر في عبي يابوي، شيء إلهي في نفسي قال لي إن الرجل المكروت يهددك من وراء صلقة الباب، فماذا ياترى ينوي

أن يفعل به؟ وكيف لي أن أخون عيشه وملحه؟ يعني ماذا؟ كيف تكون هذه الخيانة ياترى ومع من؟ ذهب الشتات بعقلي يابوي، فشعرت أنني سأسقط من الجنة إلى النار مرة واحدة تحلف اليمين يابوي أن بطني كركبت وسمعت لها دويا كالرعد القاصف، وعولة تشبه سيفون دورة المياه حينما يشدون سلكه فيهدر الماء في فتحة الكنيف، كما تهدر بطني الآن. رن في أذني صوت أمي «مساخلاوة بخبز ثاره». فنظرت إلى «الحاج السمي» وقلت له «المسامحة من جهتي يا حاج! فأنا ولد أصحابك! أصون العيش والملح! أحفظ السر! لا أنجس الماعون الذي آكل فيه! ولا العتبة التي أطؤها! كما أني لا أعض اليد التي تطعمني!». وكنت أراقب وجه «الحاج السمي» وهو يستمع إلى هذا الكلام، فأجده مرتخي الملامح مبتسم الفم والنظرات، والسرور باد عليه من كلامي، ثم إنه قال «أنت على كل حال في مقام ابني! وأنا أحببتك وشعرت أنك أهل للثقة! أحب أن تعرض عليّ كل مشكلة تصادفك! لأساعدك بعون الله على حلها! وأوصيك بالصدق والصراحة معي قدر ما تستطيع! فالصدق والصراحة تكسبني غير أنك بدونها تخسر نفسك كلها!».

ارتعبت مرة أخرى يابوي وتغمص بالي وقلت لنفسي ما الذي يريده هذا الرجل منك يا ولد أبي خبي؟ هل يشغلك عنده في هذا الشادر؟ هل يرسلك في تنفيذ مهمات؟ انتظرت أن يبوح الرجل بشيء يريح بالي فلم يفعل يابوي، فكركبت بطني من جديد وصار

الطعام كحجر الرحى فوق صدري، فخفت أن أتكلم حتى لا أحرف، فسكت تاركا دماغي يستريح على عنقي، وليس يدور فيه غير صورة أمي، وأخي الصغير، وأختي «سعدية»، و«حرانه» و«هليّل» و«بهانة»، يدخلون كلهم في بعضهم كالعجينة، ويخرجون من بعضهم واحدا وراء الآخر. أفقت على الضحك من حولي و«هندي» يلكزني في جنبي صائحا: «ياجدع بطل شخر! الرجل يكلمك وأنت نازل في الشخير! فضحتنا يا جدع!». فرفعت وجهي كالأبلة محدقا فيهم، وهم يتقافزون في الهواء من شدة الضحك. عندئذ نهض «الحاج السني» واقفا يقول: «النوم وجب من يدري!». فقمنا جميعا ومضينا وراءه والولد «هندي» ممسك بي يسندني ويسند نفسه من الضحك الخفي، الذي يرجه رجا، فمارلت في خطو، وصعود فهبوط، وهبوط فصعود، ودخول وخروج، حتى وجدت أننا صرنا في قلب الشادر. فبدأت أتذكر الطريق الذي جئنا منه، وبدأ وجهي من جديد يصافح لفح الجحيم.

الخامسة ـ الباب المضمون

لما خرجنا من فتحة الشادر إلى الشارع العمومي الكبير لفحني الهواء فاسطلت فوق انسطال، وتذكرت العربة الأجرة التي كانت قد جاءت بنا من المحطة فلم أجدها. تحلف اليمين يا بوي أنني انخلف قلبي من صدري من أول ما مشيت في الشارع. جاءني هاتف يقول: إنني خرجت لتوي من الجنة إلى جهنم مجهد لرق. وجاءني هاتف آخر بعده يقول إنني لم أكن بعد دقيقة في قلب الجنة بنفسها كما وصفها الله في كتابه العزيز وأن ما كنت فيه هو حلم الفرحة المفاجئة بسوق الفلال. سألوا الأعمى بعد: تحلم؟ قال: بقفة عيون، وأنا قد حلمت النية بالجنة حتى دخلتها لكنني طردت منها بغير أسباب وصاحب الجنة لم يقل لي ما هي الشجرة المحرمة، وها أنا بالحال قد عدت أمشي شريدا في شوارع «مصر المحروسة». سألت نفسي: أين تبيت ليلة بيتك يا ولد أبي ضب؟ أتذهب إلى صاحبك «مسيحي» ماسح الصرم؟ أم تذهب إلى «معلم مطبولي» وتتركه يغلق عليك المقهى؟ لكن المعلم «شمروس» رماك الآن في سابع نومه

يدى كانت فى جيبى رغم أن الدنيا حر، وسألت نفسى لماذا وضعتها فى جيبى؟ ثم أخرجتها فإذا هى لاتزال قابضة على الأوراق الحمراء، تحسستها فاقشعر بدنى وتأكدت أن الجنة لم تضع من يدى بعد، وأننى يمكن أن أرجع إليها وقتما أشاء إذا أنا دهنت نفسى عسلا أمام هذا الرجل وتركته يتوقنى بلسانه الأريب، إن كان هذا الرجل هو بواب الجنة فإنى إن لم أكل بعقله حلاوة أكون مغفلا كبيرًا يا بوى، إنه لن يكون فزورة أعصر دماغى فى فك عقدتها، سوف أعرف كل ما يرضيه لأفعله وكل ما يغضبه لأمنعه وأعرف مواضع الأكلان التى يستحلى الهرش فيها من جسده فأهرش له فيها بأظافر حنون رقيقة حتى يلهب من النشوة، ذلك لن يكلفنى شيئا يا خال، فليس على الكلام جمرك يدفعه المتكلم ولا يولد الرجال خرسا من الأصل، وليس على أفعال الإنسان من رقيب سواه هو نفسه يفعل ما يشاء.

دهمنا صوت «بربش» صائحا فى خلاء الشارع العريض «وحدى. و. و. ه». هدرنا جميعا فى صوت واحد يهزه الخوف والخشوع «لا إله إلا الله» وضغط «بربش» على كتفى قائلا «حتبات فين يا بن على؟» قلت «والله ما أعرف يا خال» فلطمنى على كتفى «تعال معى» فقال «هندى» «خليه لى فأنا أعزب وأنام وحدى أما أنت فأمك وأخوتك ليس ينقصهم من يزاحمهم فى الجحر الذى تسكنونه فى حى السيدة زينب!» قال «بربش» «حين نصل يكونون قد أخذوا كفايتهم من النوم! فننام أنا وهو» قال

«هندى» «دع الناس فى حالهم» قال «بربش» «وبالمرة سأكلم حسن فى الأمر!» انشدّ قلبى نحوه بخطاف، وطار النوم من عينى، صرت ملهوفا على معرفة هذا الأمر واستحسنت فكرة الذهاب معه رغم أن نفسى تفضّل الذهاب مع «هندى» قال مشيرا لى «سأكلمه أنا فى كل شيء أحسن منك غور فى داهية ومع السلامة!» وشوح للجميع وهو يضع يده على كتفى «مع السلامة يا أولاد! نتقابل فى النهار بكرة على القهوة!» وسحبنى ومضى بى نحو مجرى العيون، فدخلنا فى إحدى الحيوب بين أكوام متراكمة من الدور ذات الطابق الواحد والطابقين، يستطيع المرء أن يسلم - وهو فى الشارع - على من يقف فى شباك الطابق الثانى، أما الجدران فمائلة وغائصة فى الأرض الموحلة الرطبة المليئة بالعفن والمجارى الضاربة (أبحرا وقنوات وبركا) تلتحق بعتبات البيوت.أكوام الدور يقسمها شريط مترو حلوان إلى صفتين من الهديم والركام تتفتح فيها شبابيك وأبواب، من الصعب على العين أن تميز بين الجدران وأكوام الهديم، فكلها متشابهة متضافرة يتساند بعضها على بعض ويعلو بعضها على البعض، ويختفى معظمها فى أكوام الزبالة المالئة المكان ربما بجسة حية.

مشينا كثيرا بجوار شريط المترو ودخلنا فى حارة من الحوارى الضيقة التى لا تتسع إلا لمرور شخص واحد فقط وربما شخصين، لحظتها كان لون الصباح يتسلق أكوام الزبالة ويختلط بألوانها وينتشر فى الحوارى رائحة الفول المدمس الطائب مع رائحة دخان

متحررين في هذه الكهوف. قلت لـ«هندي» مستغربًا: «تسكن في هذه البلدة يا هندي؟». قال: «يا ريت!». إنفرط قلبي، قلت: «يا ريت!؟ تقول يا ريت!؟». التفت نحوي مؤكدًا: «طبعًا يا جدع! من يسكن هنا يعتبر في قلب مصر ويستغني عن الانحشار في الاتوبيسات والقطارات يروح أي مشوار على رجليه؛ وكل الأسواق من حوله قريبة».

تصدع دماغي يا حال كان «هندي» حبطه بحيشه، والذي عطى ورطى أنه قال: «الحلوات جاءت إلي هنا يا حسن! فلا تستهري بهذه البيوت! لو كنت رجلا تعال اسكن هنا في أي عشة بدون أن تدفع ألفا وألفين وثلاثة؛ أنا أجرت ورشتي في العمارة الجانبية بخلو رجل قدره ألفين! وكانت كبيرة وعالية فقسمتها سطحين بالطول جعلت نصفها للورشة والآخر للمعيشة والبيات! ومن يوم أن سكنتها فتح الله عليّ بعد أن كنت أضيع النهار كله في تنطيط من اتوبيس لآخر دون أن ألحق بشيء!». ثم إنه توقف عند دار من طابقين خفيفة الدم يابوي كامرأة سمراء بنت بلد بغمازات في خديها، واجهتها مدهونة بالجير ومكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولها بابان رفيعان من الخشب، أحدهما بضلفتين مقفولتين وفوقهما ترابيس من الحديد بقفل كبير، والآخر بضلفة واحدة. وكلاهما مدهون بالزيت الأزرق. أشار «هندي» إلى هذه الدار وقال: «ما رأيك في هذه المحروسة؟». قلت: «آخر تمام!». أخرج مفتاحا طويلا من جيب بنطلونه ففتح به الباب ذا الضلفة الواحدة ودفعه، فظهر في مواجهتنا سلم واقف مبني من الأسمنت. مد يده في صدع الباب من الداخل وأضاء النور وقال: ادخل. فدخلت صاعدا الدرج، ودخل هو ورائي وأغلق الباب وراءه بترباس سميك متين، وصعد خلفي حتى لحق بي على البسطة، وأخرج مفتاحا آخر فتح به بابا خشبيا ودفعه. فإذا بنا في حجرة كبيرة مدهونة بالجير السماوي ومزدانة حوائطها بصور نساء عارية بالألوان وصور للراقصات والممثلات والمطربات وكل نجوم السينما.

في الحجرة سرير سفري نظيف فوقه ملاءة مربعات كالمناديل المحلاوي، بجواره دولاب طويل بضلفتين من دواليب الموكايت وترابيزة مستديرة من الجريد، وثلاثة كراسي من الخيزران. على الحائط المواجه للسرير تسريحة كبيرة على شكل البيضة. على الأرض كليم مصنوع من بواقي قصاصات الخياطين مما يباع بثلاثين قرشا للواحد بالتقسيط المريح. فوقه وابور (بريمس) وبجمعه أكواب وحلة من الألومنيوم وطبقين من الصاج ومعلقتين ومغرفة، وعلى درج التسريحة راديو من البلاستيك الأخضر ماركة صوت العرب. أول شيء فعله «هندي» حين دخولنا أنه فتحه فصار يوش إلى أن وجدت من بلاد بعيدة جدا موسيقى تشبه موسيقانا، فتركها ومضى يترقص في الغرفة على واحدة ونص وبدون مبرر، فصرت أصفق له وأضحك لكنه بعد برهة شهق وتوقف مستنكرا يقول: «بس! بس! أحسن الجيران في عز النوم».

ثم سحب كرسيا فجلس بجوارى وأشعل سيجارة ورمى بالعلبة نحوى فأشعلت أنا الأخرى واحدة

أنجعص «هندى» مادا ساقيه على كرسى آخر، ونفث الدخان بلذة الحرمان الكبير، وقال: «شف يا حسن يا خوى! أنت وافقت على أن تشتغل معنا! ونحن رحبنا بك لتأكل عيشا معنا!» ثم صمت ليشد نفسا من السيجارة، فسحبت أنا الأخرى نفسا وقلت «طبعا يا هندى يا خوى! ربنا يوفقكم جزاء جميلكم فيّ؛ المهم أن يكون الحاج السنى قد انبسط منى!». فلوح بالسيجارة بجوار رأسه، وظهر عليه الاستغراب وهو يقول: «الحاج السنى ماله ومال شغلنا؟ أنت تشتغل معنا لا مع الحاج السنى» قلت مندهشا «كيف يا بوى! أنتم قلتم لى من المبتدا أنكم ستعرفونى على هذا الرجل فى الأول قبل أن أشتغل أى شغل!». شد «هندى» نفسا عميقا ضيق له ما بين حاجبيه فى خبث واضح، وقال: «عرفناك به لأنه رجل طيب ونصوح، ويعرف الناس من وجوههم؛ ولو قال لنا إنك لست محل ثقة لما شغلناك معنا».

كلام مرتب يا بوى أليس كذلك؟ هذا ما شعرت به على كل حال، فأحسست أن الصقيع يطبق فى حناكى، فصرت أطوح أصبعى يمينا وشمالا بحركة نفى واعتراض مع تأتأة متتالية. و«هندى» ينظر فى مندهشا يقول: «ما تقصد بهذا؟». قلت: «إن رباطكم بالحاج السنى أمتن من هذا يابو العم! إسمى ولد لافف ودائر كما تعرف يا هندى؛ أفهمها وهى طايرة!». قال هندى متهللا

يا جدع! وهل نقول فيها؟ إن الحاج السنى بكل صراحة يعاوننا على المعايش! إن احتجنا نقودا يسلفنا ونردها له بعد ميسرة! وإن توفر معنا شىء يصعب التخلص منه باعه لنا بواسطته أو اشتراه! المهم أنه يفرج عسرنا والسلام! هو كما قلت لك رجل طيب وجده كان قاضى قضاة أحد السلاطين! ومن هنا فإنه يفهم فى المنازعات وفضها وفى أمور المحاكم وقعدات العرب والمصالحات! إنه خبير فى توقيع الغرامات وإرضاء كافة الخصوم على الوجه الذى يرضيهم جميعا! إنه يفصل بيننا فى كل نزاع يقوم بيننا وبين الناس وبيننا وبين بعضنا! باختصار هو يحمينا من أشياء كثيرة ويسعى للإفراج عنا إذا حكم علينا بالمبيت فى الأقسام! ويضمننا عند الحاجة إلى الضمان».

تحلف اليمين يابوى أننى أغمضت عينى وفتحتها فى دماغى فلم أر لهذا الكلام قدمين يمشى عليهما، إنه فى الظاهر كلام زين، لكنه يذكرنى بشرائح الخشب التى يلصقها النجار فى بعضها بالغراء صانعا منها لوحا عريضا لا يظهر موضع اللحام فيه، لكنك لو ضغطت عليه ينكسر. هذا كلام ملتصق فى بعضه بالغراء يا بوى لكننى مضطر لتصديقه، وأنى فلتأكد من أنهم جميعا يعملون عند الحاج «محمد نور الدين السنى» من الباب للطاقة. «خلاص يا هندى خلاص! هذا كلام مليح وإننى موافق على ما تقول!». قال «هندى» وهو يطفئ السيجارة فى غطاء علبة ورنيش معدة لهذا الغرض: «ربنا يخبز لنا العيش جميعا! ثم تمام

حتى تقوى على العمل!». تعجبت والله يا خال وتبرجل مخي وتلعبك، وظننت أنهم ينوون الذهاب بي إلى المورستان، شوحت قائلا «يا هندي يا حوى! أنت للآن لم تقل لي ما العمل الذي سأشتغله محكما». قفز عن السرير منتبها، مشوحا بيديه، مصفق من سماك صعيدي قفل! تظن أننا سوف نجلسك إلى مكتب بقفص قهوة وجريدة صباحية وصاح تتآمر عليه طول النهار! يا بني آدم أنت الآن تعتبر في الشغل! من الآن مشتغل! ولجرك محسوب. قالوا يا خبير يافلوس! قل هذا يصير بالمجان! فاصبر قليلا ترى نفسك في قلب الشغل دون أن تدري!» قلت «ها أنا صابر يا حوى» قال «قم نم لك ساعتين!». قلت «سأنام على الأرض ها هنا» شوح متحدا «نم والسلام في أي جورة تعجبك».

لقيت صرة خلقاتي بجواري، فتعجبت والله يابوي كيف افتكرتها وجئت بها معي رغم أني كنت ناسيها. تبسمت راضيا عن نفسي ورميت صرة الخلقات فوق الكليم وهبطت وراءها فجعلتها مخدة ركنت فوقها رأسي واستبريت اقرأ الفاتحة طلبا للنوم يجيبني من ظلام الاعتكار الذي غير مزاجي مرة واحدة وصدع رأسي. ظل النوم يحاورني وأحاوره ولو كنت أحفظ القرآن لتلوته كله عليه، لكنني ظللت ساعات طويلة أتقلب على جمر النار، حتى فتحت عيني فرأيت «هندي» يحلق ذقنه أمام المرآة واقفا بالفانلة والسروال - سروال المنامة، فتكورت جالسا، فأشار لي

خياله في المرآة إلى كوعة في آخر الغرفة لم أكن تنبهت لها ساعة دخلنا، فقمت ماشيا إليها فإذا هي فتحة باب، يديها على الجنب باب مخلوع، تطل منه فتحة الكنيف، ثمة حوض من الأسمنت مبني في الحائط تحت صنبور، دخلت الكنيف، فصببت بطني من ولائم الأمس واستعدلت ثم قمت فغسلت وجهي بالماء من صنبور الحوض، فحينما لامسني الماء وتفكرت في أمي متوكل على الله خطر لي أن أتوضأ. شيء إلهي في نفسي قال: توضأ يا ولد وصل ركعتين لله يوفقك في طريقك ويرجعك مجبور الخاطر.

أنهيت الوضوء وعدت إلى «هندي» فوجدته قد ارتدى كامل ثيابه النظيفة وحذاءه فظهر أفندي ولا البكوات. سألته «ألا يوجد عندك حصيرة صلاة؟!» وضع كفه تحت أذنه صائحا في اهتمام شديد «ماذا قلت؟!». كررت قولي «حصيرة صلاة» قال «لم؟» قلت «لي» قال في استنكار بالغ «أتصلي؟» قلت «لا ولكنني أريد الآن أن أصلي!» قال بنغمة الشخر «الآن فحسب؟!» قلت نعم! لعله تعالى يوفقنا!» انفجر «هندي» في الضحك والشخر حتى صار كالمجنون وصار يغني «صلى وصام لأمر كان يطلبه! فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما!» ثم سحبني من ذراعي كالمغتاظ قائلا «يا جدع لا تكن عبيطا! أتظن أن الله تدخل عليه هذه الألاعيب؟ أتظن أنك تضحك عليه وتأكل بعقله حلاوة؟ يا لك من بارع! بالك من ولد مفتح! امش يا جدع ولا تجعله يعاقبك بالعصية!» ودفعني من فتحة الباب، صرت أكر على السلم. بعد لحظة كنا في الشارع. نظرت إلى باب الورشة فوجدت أرضه

تليفه. فتحققت أن بابهما ذاك لم يفتح منذ شهور طويلة، وإنها مهجور مكان يستتر به الولد نفسه أمام الخلق حين يقول إنه قسام صاحب ورشة.

وكانت الشوارع الضيقة الملتوية مضاءة بمصابيح الجاز المعلقة على أصداغ البيوت على النواصي والحواديت ـ صادفنا شريط المترو، خرجنا من العين، كسرنا الشطو ماشين بحذاء سور العيون، ثم كسرنا إلى شارع الجمهارة، ومضينا إلى مقهى المعلم «سحلوت»، لنشرب لنا حجرين لزوم الاصطباحة. وقال «هندي» «الساعة الآن الثامنة بعد العشاء! موعدنا مع الصحبة في العاشرة». قلت: «ألا نشق ريقنا بلقمة صغيرة نشرب عليها؟» قال إن مطعم الفول والطعمية مجاور للمقهى

وصلنا إلى المقهى، فأوصى «هندي» صاحب المطعم بأن يرسل لنا صينية فول عليها طلبان، فما كدنا نستقر على الكراسي التي في الحارة حتى جاءت الصينية وفوقها طبقان من الفول وطبقان من الطعمية وأربعة أرغفة وطبق سلاطة خضار وطبق ربيسة الطحينة. دارينا كل ذلك في دقائق، وطلبنا الشاي، وكان «بسبوسة» أول القادمين بجلبابه المكوي، ما إن جلس حتى طلب الدخان فجيء به وبالجوزة والنار والولد الذي سيصلحهما. صار «بسبوسة» يرص الحشيش من قطعة في راحة يده مخفية. وصرنا نشرب إلى أن جاء «فرولي» من بعيد يأكل في رغيف محشو بالكبدة ذات الرائحة النفاذة ويتبادل الشتائم القبيحة مع

كل من يصادفه في الشارع من رجال يعرفهم ويعرفونه، حتى بعض النساء كن يدخلن معه في قافية للتنكيت. ثم جلس بجوارنا يلعن صبيان المقهى وأمهاتهم البغايا، وهم يحتملونه في الظاهر ثم ما يلبثون أن يردوا له الصاع صاعين. بعد ذلك مباشرة جاء «بربش» وقد تغير شكله من بيك محترم إلى مجرد رجل يلبس قميصا وبنطلونا. بمجيئه انفسحت القعدة. فتوالت حجارة المعسل ترف بالعشرات حتى نسفت رءوسنا نسفا. ونظر «بربش» في ساعة يده القديمة الصدئة، وقال «الساعة الآن منتصف الليل!».

فخيم على القعدة دخان القلق وسمعنا صوت مزمار عربية تشبه زمارة الخطر. فنهضوا كلهم ونهضت معهم، وقال «بربش»: «الله وصلناه». وذهب «بسبوسة» يحاسب صاحب المقهى، ومضينا إلى الشارع العمومي في اتجاه عربة كبيرة واقفة تسد فتحة الحارة. نظرت فيها فرأيت على أبوابها وحديدها من كل ناحية كتابة ميزت فيها رقم العربة وحرفين هما: ق ع فلم أعرف ما معناهما يا بوي لكن «بربش» قال: اركبوا. فركبنا. هو و«بسبوسة» بجوار السائق وأنا و«هندي» في قلب الصندوق المستطيل...

انطلقت العربة يا بوي، جوحت واستوت على طريق الكورنيش. فملت على «هندي» وسألته: إلى أين نذهب الآن يا هندي يا حوى؟ قال «متوكل على الله لنشتغل!». قلت «أي شغل يا جدع؟» شرح قائلا في فروغ بال: «ستعرف حالا».

■ ■

السادسة ـ ليلة قاف عين

حوّمت العربة على بر الجيزة، وصارت تضرب في طرق بعيدة حتى اقتربت من عواميد خرسانية تقف في العراء وحولها أكوام كبيرة من حديد التسليح والطوب الأحمر. دخلت العربة بحذاء الحديد وحضّت عليه ثم توقفت. نزل «بربش» و«بسبوسة» والسائق. نزلنا معهم، فجأة هجم كل من «بربش» و«بسبوسة» على خفير عجوز نائم على شكائر الأسمنت وفي حضنه نبوت كتفاه بالحبال ولثماه بلاسته، ونزع «بربش» من حزامه مسدسا رماه لي قائلا «هذه مهمتك يا بلدينا! قف أمام هذا الخفير؛ إذا أظهر أي حركة أو كلمة أو صيحة اقتله في الحال!»

ارتعت يا خال، لكنني نفذت يا خال. أمسكت المسدس بيدي فرحا به، ووزّرت في الخفير أن يكتم أنفاسه، بينما انصرف كل من «بربش» و«بسبوسة» و«هندي» والسائق يرفعون أسياخ الحديد حزمة حزمة، ويحشون صندوق العربة الكبوت حتى امتلأ عن آخره بحوالي عشرة أطنان، وركبوا. فلففت حول العربة وشبطت في جدار الصندوق الخشبي فلحق بي «بربش» وشدني من ثوبي

قائلا ببساطة: «ستبقى أنت هنا! سوف نجيء مرة ثانية وثالثة ورابعة!» تطلسمت عيني يا بوي، وداست قدم عبيطة فوق قلبي، فجاءني إحساس بأنه سينقطع من عروقه فصحت من غيظ ومن وجع: «كيف يا بوي أبقى هنا؟ أهو الملعوب إذن؟» فلطشني بظاهر كفه في نرفزة وضيق هامسا: «هندي» سيبقى معك في حراسة الخفير لحد عودتنا. حطت القدم الثقيلة ثقلها على قلبي فاسترحت بعض الشيء إذ إنهم لن يضحوا بحبيبهم «هندي» من أجل ملعوب يلفقونه لي. مخي صعيدي يا بوي ولابد أن يتفهمني قبل أن يفتح لي أبوابه ومحارمه، هو يفتح لي أبوابه حسب مزاجه الخاص يا بوي، وقسما بالله العلي العظيم يا بوي إنني ما حاولت فتحه مرة وانفتح، بل إنه ليحيرني ويتفنن في تطليع ديني يهزأني بين الخلق. وحينما يتجمع خلق كثيرون لفتحه، لا تنفع طفاشات ولا مفاتيح كأنه شغل بره يا بوي، لا يمكن فتحه بسهولة بحيل اللصوص لصوص البلاد، لكن المضروب ما يلبث حتى ينفتح وحده ذات لحظة فيبين لي الحق من الباطل، وذلك عندما أكون رائق البال، ولا أكون رائق البال إلا عندما أكون رائق المزاج بعد أن أشرب لي حجرين من حشيشة نظيفة عيبة الأصل

فعرفت أن مخي سيتقفل مع «بربش» وهو إذا انقفل يهدد بفضيحة قد تذهب كلنا في رحيلها. فلحقت شجاعتي قبل أن تهرب مني وصالحت نفسي عليها ووليت ظهري للعربة عائدا إلى الخفير. فلما رأيت «هندي» مرابطا بجوار الحقير واثقا من نفسه

يمرح ويجئ حول الخفير واضعا يديه فى جيبى بنطلونه ضاربا الدنيا صرمة كأنه يتنزه. اقتربت منه وسحبته إلى بعيد وهمست فى أذنه «بتاع مين الحديد ده يابو العم؟». همس فى أذنى بهزة من كتفيه «مش عارف والله يا حسن؛ لكن الظاهر إنه قاف عين!» قلت فى غيظ «قاف عين يعنى أيه يا بو العم؟ تتكلمون معى بالسيم والفوازير يتلخبط مخى ويرجرج!» كتم الولد المكروت ضحكة وهمس فى أذنى «يا بنى آدم قاف عين بتاع الحكومة! بدال ما يقولون قطاع عام اختصروا وسموها قاف عين!»

تلعبك مخى أكثر والله يا بوى، صار مثل الكنافة يستحيل تسليك خيوطه من بعضها. لكن عجلة مخى أسرعت تدور وتدور مفكرة وتقول «كيف يابو العم! عربة قاف عين تسرق متاع قاف عين!». الولد المكروت أخذ يضحك ضحكا مكتوما ويشخر بصوت عال، وفى النهاية شرح بيده نحو رأسه مرسلا لى نظرة فيها نفاد صبر وتهديد وضيق. «شف يا بلدينا» إذا كان مخك الصعيدى الثخين سينفتح على هذا النحو! فالأفضل أن تقفله قفلة مسوجرة؛ إن شغلنا يحب الستر يا صاحبى ويحب تقفيل المخ! والصعيدى حين يفتح مخه يجىء لأهله بمصيبة ثقيلة! إذا كنت تريد أن تشتغل معنا يا صاحبى فالواجب أن تقفل مخك وحنكك هذا تخيطه بالدوبارة؛ ولسانك تقطع منه ثلاثة أرباعه؛ ما يجرى علينا يجرى عليك! وحقك تأخذه بالرضا والتسليم دون أن تفتح فمك وإلا ضعت! إسمع كلامى فأنا أحب مصلحتك وأعرف طيبتك وسلامة نيتك!

لكن الشغل معنا كالحمّام دخوله ليس كالخروج منه؛ إن بقيت معنا على الوضع الذى قلته لك الآن تخرج من الحمّام مستحما نظيفا لابسا ثيابك النظيفة منتعشا! وإن فتحت مخك الصعيدى الثخين على هذه الطريقة الصعيدية الثخينة ستطرد من الحمّام عريا مسلوخا من جلدك تتمنى الموت فى كل لحظة؛ وعلى كل حال يا صاحبى أنت مازلت على البر لم تدخل فى الغويط فإن كنت غير واثق من أنك تفعل ما طلبته منك فإننى يمكننى أن أعاونك على أن يذهب كل منا إلى حال سبيله دون أن يصيبك أذى! وتستطيع أن ترد الحاج السنى فلوسه التى سلفها لك!».

انضبط غزلى يا خال، لم أعرف كيف أرد على الولد «هندى» ولقد شعرت أن مزيكة الصدق فى صوته. قلت له «تشكر يا هندى يا حوى! والله عداك العيب وسافر حتى الشلال! أنت الآن نورتنى وأنا ح أبقى معكم أو انصرف لحال سبيلى» ولحظتها كنت أجمع فى دماغى الكلام الذى سأقول له به إننى سأختار الانصراف إلى حال سبيلى وليوفقكم الله ويوفقنى كل فى طريق... لكن لا أعرف يا بوى من الذى صحى صورة أختى «سعدية». لحظتئذ فى دماغى فصار قلبى ينتفض راقصا من الطرب أم من الاضطراب لا أدرى، لكن «سعدية» مشيت فى دماغى لحظتها حاملة المدفع الرشاش ترتدى به الحكومة قتيلة فى لمح البصر تنط كالفارس على ظهر حصان «صراة» لتنطلق مثله إلى الجبل طريدة تصبح مثلما كان شوكة فى جنب الحكومة

دامية. ففي الحال صمت في الولد «هندي» وقد جمد قلبي «أنا معكم يا هندي يا حوي حتى نهاية العمر بإذن الله! ولن أفرط في صحبتكم أبداً!» فسحبني الولد تحت إبطه وطبطب على كتفي وقال «ربنا معاك ومعانا!»، ثم حاصرنا الخفير من كل ناحية.

دقائق وبرقت في حلكة الليل أنوار مقبلة فسحبني الولد «هندي» برفق وتسللنا على أطراف أصابع أقدامنا كي لا يشعر الخفير بانصرافنا فيصيح. دارينا أنفسنا خلف العواميد منبطحين بين شكائر الأسمنت مستلقط الأحجار، ويدي على الزناد مستعدة للضرب في الحال. فلما اشتد النور فجأة، انطفأ فجأة. وكف هدير العربة، وجاءنا صوت بابها وهو يفتح ويغلق، وصوت «بربش» يتنحنح فنهضنا وجرينا إليهم، لأقف بجوار الخفير واضعاً فوهة المسدس في ظهره وينصرف «هندي» للمشاركة في التحميل، حتى امتلأت العربة تماماً، وكان لابد أن أبقى ثانية. وفي هذه المرة كنت أكثر شجاعة. وفي المرة الثالثة كنت أشعره رائحاً غادياً كأنني الخفير الحقيقي. وفي المرة السادسة كنت أنا الذي يصبّر «هندي» ويهدئ أعصابه القلقة إذ أن الفجر كان على وشك أن يشد خيوط النهار وكانت أعصاب «هندي» تنفرط كلما ابيض وجه الصباح في هذه المرة يا حاج وسعت العربة آخر ما تبقى من أسياخ الحديد في قعر صندوقها، وفوقه رصات من شكائر الأسمنت تعلو فوق كابينة السائق بأمتار. وكان عليّ أنا و«هندي» أن نتمدد فوق رصات الأسمنت، فأخذنا نترفق بالعربة من التسلق خوفاً أن تميل

وتسقط في ناحية. وقف السائق ليفعل مثلما تفعل الناس بجوار الخفير المتمدد فوق بعض الشكائر الفارغة مكتفاً ملثماً. سرت عدوى البول فينا جميعاً، فتجمعنا بجواره صفاً واحداً وأخذنا نبول في ثقة واطمئنان، وقال «بربش» مشيراً برأسه إلى الخفير «الراجل ده ما صيَّحش ولا عمل أي حاجة؟!»، قلت متذكراً «تصور يابو العم أنه لم يفتح فمه!». قال «هندي» مؤمناً على كلامي «ولم يتحرك من الخوف!» قال السائق وهو ينفض قضيبه لينثر عنه آخر قطرات البول «رجل طيب ويستحق أن نعطيه حسنة وعلبة سجائر!». قال «بربش» في كرم ظاهر «يا ريت». ثم مد يده فتناول مسدسه مني فشعرت كأنني قد صرت في الريح عرياناً، وتمنيت أن يكون معي واحد على طول الخط إذ موضة المطاوي بطلت هذه الأيام

انحنى «بربش» على الخفير ووخزه بماسورة المسدس في كتفه قائلاً «قوم ياحاج» فصار الخفير يهتز تحت وخز المسدس. فمد السائق يده وأمسك برسغ الخفير وتحسسه ثم أخذ يدمدم «يا نهار أسود! الراجل مات!»

انبرينا نتحسسه من كل ناحية، ونضع أيدينا على فمه وقلبه ونبضه ونفتش في قميصه حتى ينكشف إن كان يمثل الموت ولكن لا حياة لمن تنادي. راح السائق يفك عنه الحبال شيئاً فشيئاً وهو يقف عند فك كل عقدة لينظر ما إذا كان الخفير يخدعنا،

ودبريشه شاهرا مسدسه في وجه الجثة ليودعها به في الحال إذا هي تحركت. لكن العمال كلها انفكت ورمى بها السائق على سطح العربة والحصير جثته هامدة لا حراك فيها. فرعنا عنه اللاسة وشددناه وعربدناها عليه كما كان في وضع نومه قبل مجيئنا، ثم تسلق العربة. وفي أسرع من البرق كانت العربة تنطلق بنا في الطريق، وأنا و«مهدي» مسطوحان كل منا عاش في مذكرته إلى أن توقفت العربة، ونزلوا فنزلنا، ففوجئت بأننا أمام شادر الحاج «أحمد نور الدين السني»، وثمة رجال من ولد عمومتنا يكتفون بالخيش، قد هرعوا لتستيف هذه الحمولة، وكان عرق تحتيق الحمولات السابقة يغمر أجسادهم ويتناثر مع الندى على أسفلت الطريق.

العملية طلعت أحمر أسس يا بوي، وأخر فرفشة، نظافة ما بعدها نظافة. ولم يكن قبلها بطبيعة الحال الولاد - ربك والحق - هاملوس بالجد والمصلحة لم يطمعوا في عرقي وشقاي. نادوا على أمام الحاج السني ليريني - مادمت أنك الخط - حسبة للموازين التي أجراها لهذه «البضاعة» التي اشتراها منا. فلما قال كلمة «البضاعة» التي قيل إنه سيشتريها منا لحساب جمعية خيرية تبني في سبيل الله مساجد ومعاهد نظرت في وجهه جاعلا من عيني محرارين يحرمان عينيه. لعلني أجد خلف هذه البسمة الشقية شيئًا يدلني على الحقيقة الكامنة وراء إنساني عينيه هاتين. وهيناه يا بوي تقول بلورتين صغيرتين لا يمكن النفاذ منهما ولا يمكن سبرهما بل والله يا خال كنت أحس أن بصري ينزلق على

ومعدنين صلبتين ولست أشك يا بوي أنه قد شعر بتعبي من جراء ولعه. صرف عينيه متعمدا ووضعهما في الورقة التي أمامه، وخط بالقلم الكوبيا خطا تحت المجموع الكلي عن حمولات ست جاءت بها العربة، وتحتها مجموع وزن شكائر الأسمنت. ثم غرز القلم الكوبيا تحت طاقيته الشبيكة وطوى الورقة قائلا:

- «شوفوا يا أولاد! أنا ما عندي مانع في التعامل معكم بسعر السوق السوداء! لكن دا يبقى كثيرا عليكم. يجوز أن أظلمكم! ويجوز أن تظلموني! السوق السوداء كما تعرفون مجنونة بطبيعتها! يفور بجنونها قلة من التجار الجشعين! ويطمر منها التجار الشرفاء! من أجل هذا يا أولادي لا أجد طريقة أتعامل بها معكم أنسب من طريقة الشراء بالعرق! يعني تتعهد بقراءة الفاتحة أن تقولوا لي عن السعر الحقيقي الذي اشتريتم به بضاعتكم! وفي المقابل أعطيكم عشرة جنيهات عن كل طن جزاء تعبكم وعرقكم في تسويق البضاعة وجلبها! فماذا تقولون؟».

تحلف اليمين يا بوي أني سابت ركبتي كالواقف أمام ثعبان ساقط عليه من السقف. لم أكن أعرف أن الولد «غرولي» عويط يا بوي لهذه الدرجة. وفهلوي كبير يا بوي، تقدم من «الحاج السني» وعلى هيئته سمة التاجر الشريف الشقيان الأمين على بتاع الناس وقال:

- «موكلك ربنا يا حاج! نحن والله ولسطة خير بينك وبين صاحب البضاعة! نحن ناس غلابة على الله! لا نطلب أكثر من لقمة

العيش الشريفة بعرق الجبين! أما أنت وصاحب البضاعة فناس مقتدرين! يزيدكم الله من نعيمه، ولكن ارفقوا بحالنا ولا تتشطروا علينا! وصاحب البضاعة قد ائتمنا على بضاعته ولم يقيد علينا أى ورقة سوى ورقة وزنها فقط ليحاسبنا بها! هو رجل طيب ما يتحير عنك يا حاج، لذا نحن لا نقدر أن نفرط في مليم واحد من أمانته. أنت تقول إنك تعطينا عشرة جنيهات عن كل طن! وتعرف أننا خمسة رجال! وعربة لها مصاريف ضعف مصاريفنا وعرق أعور من عرقنا! فلو قسمنا هذا المبلغ علينا فماذا يصيب كل واحد منا ؟ لو بحنا الترمس والفول الحراتي مجمع في ساعتين اثنتين أضعاف هذا المبلغ! وأنت تعرف أننا معطيك بضاعة شحيحة نادرة في السوق والطرناطة منها في حنك سبع وأنت أيضا تعرف أننا ضحينا بحياتنا من أجل لقمة لا من أجل سُفرة!».

«الحاج السني» تابعه بنفس البسمة الشقية في العينين وعلى الشفتين لا تنقص ولا تزيد. وتابعتهما كلاهما وقد انفرط قلبي وانفرطت أعصابي ولم يعد في حيل والله يا بوي، لم يبق فيّ مخ ينفتح، ولم أعد أصدق شيئا مما يحدث أمامي. في نفس الوقت يا بوي لم أعرف أن أكذب شيئا مما يحدث أمامي، فهل نكون في مسرحية تمثيلية كل واحد فيها يمثل على مراجه الدور الذي يعجبه؟ العجب العجاب يا حال أنني وقدشاركت «عزولي» وصحبه في سلب هذه المحمولات بعربة قالف عيني من عين قالف عين، وشاركت في تكتيف الخفير وإرعابه حتى الموت، رأيت أنني

أصدقه كل التصديق وهو يحكي للحاج «السني» ما حكى، كان ما حكاه حقيقة واقعة، كأني شاركته في فعل كل ما حكاه مع أن ما حكاه لم يحدث شيء يمخول العقل يا بوي، حاجة تهوس والله

لما رأى «بربش» لحظة الصمت قد طالت وأن خطبة «عزولي» ستفقد حرارتها، تدخل قائلا وهو يشوح بيديه ورأسه وكتفيه ورقبته

- «على كل حال شوية عليك وشوية علينا يا حاج أنت مهما كان خيرك علينا، ومصلحتك أولى عندنا من مصلحة صاحب البضاعة، ولكن حن عليك قليلا وراع مصلحتنا والتعب الذي تعبناه يا حاج، لقد حملنا النار بأيدينا يا حاج، إنها أشد من حكم المخدرات ياحاج! وهي كلها خير وبركة يا حاج! وربنا يزيدها بركة يا حاج ويجعل سرقتها أحلى منها، ولكن نص أبناؤك وما عندنا لا يضيع يا حاج!».

البسمة الشقية ارتعشت على شفتي الحاج وترقرقت في زلطتي عينيه العسليتين، وشرح قائلا لـ «بربش»

- «خلاص يا بربش، عشان خاطرك جعلنا العرق اللى عشر جنيها في الطرناطة، يبقى لكل واحد منكم جنيهان بما فيكم العربة!».

«عزولي» رفع ذراعه الغليظة رامًا شفتيه وراح يهزها علامة «ما ينفعش»، فترجرج «بسبوسة» وتحسس ثنييه من فتحة الجلباب مجففا عرقه وقال باسما بسمة أنثوية بخمارتين.

ـ «على كل حال يا حاج؛ خذ لك عظة من تمسكنا بالمبلغ الذي سنأخذه عرقنا لنا؛ فهذا التمسك دليل على أننا سنصدق معك في قول السعر الحقيقي الذي حملنا البضاعة على أساسه من مكانها!».

شوّح له الحاج بسبحته في فروغ بال قائلا

ـ «على كل حال السعر معروف وليست هذه مشكلة! وعموما ذلك إكراما لكم ولأنكم أولاد حتتي وجيراني! وقلبي دائما عليكم! فإني لن أدفع أكثر من خمسة عشر جنيها للطن الواحد لو طلع الحديد! وإذا لم يعجبكم السعر فأنتم أحرار».

كشر «عزولي» في وجهه تكشيرة أظهر فيها ـ عن عمد ـ قليلا من قلة الأصل، لكنه أذابها في كوب من السكر بالليمون حين قال:

ـ «إحنا أحرار يعني إيه؟! يعني نشيل البضاعة ونرجعها تاني؟! لكن يا حاج! ما أظن أنك تفعل هذا ومعي أبناؤك! عموما خذ البضاعة ووصل ثمنها يا حاج! طلاق بالثلاثة يا حاج لتني أتكلم الجد!».

هنا وقف «الحاج السني» ونزع القلم الكوبيا من تحت طاقيته وشرع يحسب في الحال قائلا

ـ «يبقى الحساب على ثمانية عشر ولا أحد منكم يفتح فمه بعد الآن!».

ومضى يخط على الورق. فصمت «عزولي» وصمت الجميع، ومطوا بوزهم ولووا أعناقهم علامة على الرضا الاضطراري، ونظر الحاج من فوق الورقة قائلا

ـ «الأصل كنا طيبا!».

صاحوا جميعا:

ـ «حرام عليك يا حاج! إنه يباع رسميا بكذا! فما بالك بالسوق السوداء؟».

أضاف الحاج مبلغ جنيهين قائلا

ـ «يعني كذا؟!»

فحدجه «عزولي» بنظرة جريئة حسدته عليها، ثم أضاف خمسة جنيهات قائلا

ـ «بل يعني كذا!»

رماه الحاج بنظرة حمراء وقال:

ـ «أنت سفاح! منك لله!».

وشرع يحسب بناقص جنيهين عما قال «عزولي» وهو واثق أن أحدا منا لن يعارضه، وبالفعل لم يعارضه أحد بمجرد رؤية الأوراق الحمراء القانية وهي تترادف على يدي «عزولي» واحدة وراء الأخرى، والدنيا كلها ترقص من حولي طربا على حفيفها

نابني من هذه القسمة شيء كبير يا خال، أتدري كم؟ أم أقول لك: لا داعي لإفشاء الرزق؟.. اسمح لي يا خال، فاللقمة التي تتفتش لا تؤكل.

السابعة ـ ليلة النتاية المحرقة

الفورة التي كانت تلمناحي عزرة صنصف منها عزرة ومعها مقهى حين يهفنا المزاج لشرب حجرين من الحشيش مدخل المقهى بجوار النصبة، مرقع مائة أو مائتي حجر على مصفاة واحدة، إذ ترف حجارة المعسل عشرا عشرا، وتوضع الجوزة البرطمان في جردل الجوز، ليؤخذ عبرها مليئة بمياه ساقعة تجلجل تحت أنفاسنا الجانبية، فإذا فرغ من ذلك نخرج إلى الرصيف لنكمل السهرة في قلب الحارة.

هي حارة عجيبة ليس فيها باب واحد، غير باب المقهى، كلها جدران متصلة، فيها بعض النوافذ الصغيرة وهي ـ الحارة ـ مكسورة بعد المقهى بعدة أمتار نحو اليسار، مما يحيل للقادم أنها حارة سد، أما الذي يعرفها فإنه سينكسر مع الجدار ليستدير مع الحارة الثالثة إلى حرطة «أبو السعود» وحدود الجيارة. لذا، فلا تمر إلا سيارات أبناء المنطقة المدربين على القيادة، ويتوقف مرور السيارة فيها بعد العشاء مباشرة، فيباح للزبائن زحزحة الكراسي إلى منتصف الحارة والجلوس على الصفين طول الليل، خاصة في ضوء القمر

صاحب هذه المقهى ولد واعر يا بوي، أقوى شخص في الحارة، إذ هو بلطجي كبير، وخارج من عشر سنوات أشغال شاقة، ظل يرفع المطواة في وجه كل من يدوس له على طرف، حتى ترك في الجميع جروحا وقروحا، فتركوه في حاله، وتركته الحكومة يطغى ويتجبر، ويقتني عشرات الصبيان، يوقفهم على النواصي بأكياس الحشيش الفاخر يبيعونه بأغلى ثمن، عيني عينك، لكل عربة ملاكي تقف على ناصية الحارة. ولكل الذي يجلس على المقهى. أما هو فبعيد عن الإمساك بالنار، مهمته شغل الحكومة والتفاهم معها، بالهدايا أو بالمحاكم، أو بالتهديد، أو بالبلطجة، أو بالسلاح كله ماشي، كل حالة حسب وضعها، وهو المنتصر دائما، وربما لا يمكث صبيانه في الحجز أكثر من سواد الليل. هو الباقي في بلادنا والحكومة متغيرة والقرش باق والنفوس أيضا متغيرة المهم أن «صنصف» يعيش في هذه البلدة ولا كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان الذي يحكي عنه شاعر الربابة لكنه ربك والحق ولد ذوق مع الذوق، فواحشي مع الفواحشي؛ إن أعطيته ريقا حلوا أعطاك نهرا من العسل، وأنت لابد أن تعطيه الريق الحلو غصبا عنك لأنه يبدأ دائما بتحلية ريقك إن جئت مقهاه شاريا في الصباح؛ حيث ترى ولدا طويل القامة نحيف الجسد صلبه أبيض البشرة لكنها ملوحة بالشمس؛ شعر الذقن كفرشاة سمراء خصلة شعر مهملة على جبهته الضيقة تختفي تحتها عينان ضيقتان معشيتان على الدوام؛ يرتدي قميصا وبنطلونا كالحين؛ وصوته غليظ خشن؛ يمر على الجالسين في

مقهاه واحدًا واحدًا، يوزع عليهم قطع الحشيش ملجان، كل قطعة تساوي نصفه، ربع قرش على الأقل يرصها الزبون حجرين حجرا أو أكثر، فإن طاب لك أن تشتري منه بعد ذلك أهلا وسهلا، وإن اكتفيت بذلك أهلا وسهلا أيضا، لكنك إن اشتريت فلا تفتح فمك بأي كلمة وإلا كان نهار الأبعد أسود من قرون الخروب ترى نفسك في الشارع منبطحا تحت عجلات السيارات وأقدام المارة وحينئذ لن يبين لك أصحاب.

نحن وكل الناس نحب الجلوس في قهوة «مصفصف»، كما نحب الشراء منه ومثل في حشيشه، فندفع في القرش اثني عشر جنيها في حين يباع عند غيره بثلاثة جنيهات فقط، لكن الفرق بين حشيشه الغالي والحشيش الرخيص فرق السما عن الأرض. إسأل مجربا ولا تسأل طبيبا خاليا من التجربة. و«مصفصف» يعرف أنه محبوب الحشيش من الناس فيتدلل عليهم ولا ينزل عن السعر مليم واحدًا، ولا ينزل كذلك عن مستواه حتى لو توقف عن البيع بسبب شحاح الصنف الجيد. أما القهوة فإنه يرفع سعر الطلب فيها ثلاثة أضعاف سعره في المقاهي الأخرى، وكذلك سعر حجارة الدخان، إن كان يعجبك فاجلس، وإلا فلترنا عرض أكتافه. بهذا نظفت المقهى واقتصرت خدمتها على مجموعة منتقاة من الزبائن يدفعون بدون فصال ولا يعلو حاجب واحد منهم على حاجب المعلم «مصفصف» ولا كلمة على كلمته..

قد يخيل إليك من رؤيته لأول مرة أنك لو ضربته كفا على وجهه سترميه في الأرض طريحا، لكن إياك وهذا الظن؛ فإن

أجعص منك نفخوا في هذا الظن عاليا مع أنهم كانوا أقوياء معتدين بأنفسهم، فإذا هم يلمون أشلاء نفوسهم من الأرض ويتقون في بلاهة غير مصدقين أن هذا الولد السفروت في جسمه كل هذه القوة الناشفة، وكلهم في آخر المتمة يبعدون أنفسهم بعيدا عن التلسين في حقه أو التعرض له بأي شيء..

على حسه يدور دولاب العمل في غير وجوده. إذ هو يختفي عن منطقة المقهى بعد صلاة العشاء، ويقول صبيانه إنه يقطع الليل كله في مشاوير في بلاد الشرقية والغربية والمنوفية يمرور ببيوت على الطرق الصحراوية يلتقي بالمهربين يتفق معهم على البضاعة يحاسبهم؛ لا يعود إلا قرب الفجر يتطوح. إذ أن «مصفصف» رغم أنه تاجر حشيش وأفيون وبرشام وهيروين وكوكايين وكل مسحوق وماكستون، فإنه خمورجي من الدرجة الأولى. وهذا شيء يلخبط الراس يا بوي! فكل تجار المخدرات الذين عرفتهم يعشقون الخمر عشقا، ويشربون مع ذلك الحشيش لسطرية والأفيون لزوم مسك الدماغ وشد العصب، ولأن ألف امرأة وفتاة في هذا الحي وهذه البلدة تتمناه وتخطب وده إذ أنه رجل كسيب وشاطر؛ فإنه له جمهور كثيرة يسعى إليها في سهراته بين الخمر والنسوان والدخان ولزوم ما يلزم، صبيانه يحكون لنا هذه الحكاوي ونحن مساطيل آخر الليل؛ ويقولون في نهاية الكلام إنه متزوج من حورية [illegible] كالفل. كل أهل المنطقة يعرفون أن «مصفصف» [illegible] يملك عمارات كثيرة في مصر الجديدة والمهندسين وحلوان، لكنه حريص لأنهم لا يكتبها باسمه ولا يبيت فيها؛

بل إنه لم يغير سكنه القديم في حجرة في حارة من حارات هذه المنطقة لا يعرفها إلا صبيانه المقربون؛ وإذا داهمته الحكومة في هذا المسكن - وهي كثيرا ما تداهمه - لا تجد فيه شيئا بطالا، ولا أي شيء يزيد في مظهره أو مخبره عن حالة رجل على باب الله صاحب قهوة بلدي.

ليالي كثيرة ونحن نتلاقى على هذا الرصيف في هذه الحارة دون أن نفعل شيئا يا بوي. والهبرة الكبيرة التي هبرها كل واحد منا في تلك الليلة السابقة ضاعت؛ أنا مثلا أرسلت هبرتي كلها إلى أمي في البلد لعلها تتمكن من إعادة بناء دارنا. لم يبق معي إلا حفنة براير وشلنات لا تودي ولا تجيب، ولولا أن الولد «هندي» رضي أن أسكن معه في غرفته لكنت الآن بلا مكان أبيت فيه. في كل ليلة نسفح قطعة حشيش كبيرة ونحرق حجارة معسل عند المعصي، ونشرب شايات وحاجات ساقعة ونصرف آخر الليل صارفين من لحم الحي، وقد خشيت أن أتكلم في هذا الأمر حتى لا أثير غضبهم علي وتشاؤمهم مني، فقلت في نفسي: ما يجري عليهم يجري عليّ، ولم أكن أعرف أن الفلس قد أتعسهم أكثر مني يا بوي؛ إذ قال «هندي» وهو يفرق علينا ورق الكوتشينة في هذه العشرة الحية التي نلعبها مرابعة

- «يخسين يا إخونا! عايزين نشتغل بقى! خلاص فلسنا!»

فهرشوا كلهم في رءوسهم، وظهر على وجوههم أن هذا الطابق هو آخر طابق في هذه العشرة الكوتشينة سواء انتهت أو لم تنته.

وقال «بريش»: «فلوس في دماغك يا غزولي!» فقال «غزولي» وهو يعبث بأصابعه في شواربه مفكرا: «الفرخة لم تبض بعد؛ فلي إخوان في صبة قالف عين يشتغلون الآن في ترتيب عملية طيبة ستنعم علينا بالخير إن شاء الله؛ وأنا كل يوم أتصل بهم أستعجلهم؛ وهم يقولون لي اصبر على الأرز حتى يستوي؛ فأستحسن كلامهم وأنصرف».

وهنا قال «بسبوسة» وهو يدلك في ثدييه الكبيرين

- «ويظهر أنك تستحسن حالة فقرنا أيضا».

وقال «هندي» وهو يزيح الورق من أمامه في سأم

- «نريد عملية تعدينا من الفقر».

ألهمني الله قولا

- «ربنا يقول اسع يا عبد وأنا أسعى معك! لما يمنعنا من أن نقوم الآن لنسعى» ونحن ورزقنا.

يحلق «غزولي» في عيني بنظرة ثعلب داهية

- «هذا شغل الحرامية الجربانين»...

جاراه «بسبوسة» قائلا

- «جئنا لشغل النتانة؛ لم يبق إلا أن ننشل في الأتوبيس!».

قلت

- «وما العجب يا بسبوسة؟ ربما تقع اليد على هبرة كبيرة».

شوح «بسبوسة» بخبرة معلم كبير

- الهبرة الكبيرة لا تركب الأتوبيس! فلا ينوب النشال غير اللعب في الصغير! اللعب في الصغير يقود إلى الحبس وخراب البيوت بلا ثمن! إن سرقت أسرق جملا يا بقف!»

نقر «بريش» بحاتمه على الترابيزة قائلا

- والله حسن كلامه معقول؛ ومحي يحدثني الآن بأن نقوم ونبحث عن الرزق ونحن ونصيبنا».

ثم وقف في الحال يا بوي، فوقفنا كلنا! وجمعنا من بعضنا أنصبتنا من مصاريف القهوة؛ وتولى «غزولي» دفع الحساب والبقشيش، مضينا نحو كسرة الحارة حتى خرجنا إلى الخلاء وسرنا خلف «بريش» إلى مساكن الفسطاط القديمة.

هواء الفسطاط نعنشنا؛ فانقلبنا ضاحكين بغير وعي. كنا في بحر القمر غرقى. والدور من حوالينا رابضة في سفح الطريق وفوقه يعلم الله وحده ما يدور فيها مع أنها تبدو غارقة في الصمت اللانهائي. وكان الهواء يشاغب ويلاعب ستائر كالحة خلف بعض الترسيبات والشبابيك؛ فيجعل النور تبدو كأنها تتنفس وصدرها يعلو ويهبط. قلت في نفسي إنها تدعونا للتعجيل بالفعل الذي سنترسمه. فهذه هي اللحظة المناسبة وكنت أنوى التكلم في هذا معهم؛ لكن عيني وقعت على أكثر من حبل غسيل مزدان بالملابس المغسولة كحبال الباعة فصار قلبي يخفق بشدة وتمنيت لو أنني وحدي الآن لقطعت كل حبل بالمطواة من الناحيتين

فلمته في حضني ثم انصرفت منتعشا؛ إلا أنني قلت لنفسي: يا عبد انظف وأكبر على حبل الغسيل واللعب في الصغير كما ينصح بصبوصة

انتبهت فإذا بنا جالسين على صخرة من الأسمنت في سفح الطريق؛ أمامنا «الجيارة» و «مصر عتيقة» على اليمين، والفسطاط القديمة على الشمال. فحملقت فيهم وقلت إن ثعبان الليل أخذ الآن في سحب ذيله الطويل. ولابد أن نفعل ما سنفعل قبل أن يدخل الذيل في جحره وينطبق عليه جدار النهار. قال «بريش»

- «يا أخي طوّل بالك؛ أنني أتذكر الآن دكان بقالة في الفسطاط متريش وملآن بالخيرات؛ وصاحبه ابن قحبه ذمته واسعة»

قال بصبوصة مسلك هو أم مسيحي

قال بريش

- «مسلم وموحد بالله؛ له ذقن طولها متر ومسبحة وطولها متران!».

قال «هندي»

- «أليس يزكي على ماله وبضاعته؟!»..

قال «بريش» بعد أن أرسل شخرة سريعة خاطفة أضاف إليها:

- «أمّه؛ أقول لك ذمته يجرى فيها القطار!»..

قال «غزولي»

– «ليس لنا شأن بذمته الآن! ليكن ما يكون! نحن لن نصاهره ولن يصاهرنا! نحن لسنا المختصين بحسابه! فالملكان ينتظرانه في قبره في الآخرة وهما يكفيانه! والذي يهمنا الآن هو حزمة النقود؛ هل يفرغها في جيوبه قبل إغلاق الدكان؟»

قال «بربش»

– «راقبته كثيرا عند إغلاق الدكان بنية أن أتتبعه فيما هو سائر إلى داره لأخلص معه؛ فما رأيته يأخذ معه نقودًا قط! لأنه يعتمد على أن باب دكانه يحميه درفيل من الحديد المضلع العريض وقفل مسوجر لا يمكن فتحه بطفاشة!»

رفعت ذراعي صائحا في وجه «بربش» قائلا

– «يا عم بربش يا خوي! هل هذا الرجل صاحب الدكان يبيع بالشكك؟!»

قال «بربش» ضاغطا بأسنانه على لسانه المذكور في غيظ.

– «ابن ميتين كلب! لو مت أمامه على رغيف وقطعة جبن لا يرق قلبه عليك! إلا إذا عرشت له بالفكة؛ مع أنه يعطي السجائر شكك لأفندية خولات يعرفهم!»

قال «هندي»

– «سوف لن يجد في قبره من يسليه!»

صحت قائلا بصوت عال ولهجة حاسمة

– «يبقى لابد أن نحرق قلبه؛ فإنه يستحق الخسران الوبيل! صنف الذي يمنع عنك اللقمة وهو موسر وأنت معذور اقطع رقبته؛ دس فوق رأسه فإنه ثعبان سام! والله لابد أن يكون الله بعثنا الآن نفكر في أمره؛ لتكون كسرته على يدنا بإذن الله؛ وتوفيق منه».

قال «بربش»: «لابد أنك تكون اتلرصت منه يوما! فليس من أحد عاش في هذه المنطقة إلا وتوسم فيه الخير فلجأ إليه في طلب شكك؛ وارتد في النهاية خائبا مكسور الخاطر».

قلت ملوحا بذراعي صائحا:

– «ما لك تقصد البقال الذي على ناصيتي حارتين وعنده التموين وبرميل الزيت وأجولة السكر واسمه الحاج لولي؟»

هز رأسه قائلا

– «هو بعينه؛ الوحيد بين دكاكين البيع والشراء كلها ليس عنده دفتر للشكك؛ حتى دفتر التموين لا يراه أحد. أهل حواري السلطان كلهم لا يتوفر معهم ثمن التموين الذي يبلغ من ثلاثة جنيهات إلى عشرة؛ بعضهم يشتري جزءًا صغيرا منه ويوقع باستلام الكل؛ بعضهم لا يأخذ منه شيئا فيسقط حقه بمضي الشهر؛ والحاج «لولي» يبيعه لهم بعدها بالقطاعي بسعر السوق السوداء الحرة».

أنهى «عرولي» برم سيجارة حشيش أشعلها ليستدعي بها م
طار من دماغنا من سطل في هبوب الرياح، وقال

- «ما رأيكم أنني فعلا قارش ملحة هذا اللولي من زمان! وأود أن أغدره وأذيقه العذاب ألوانا! لقد ذكرتني يا بريش بحركة كنت نسيتها من سنين طويلة، كان هذا المعرص قد فعلها معي، حين طلبت علبة سجائر هليود وفتحتها وأشعلت منها سيجارة وكلي عشم في أنني لو قلت له أعطيك ثمنها غدا فسيقول لي لا عليك! لكنه أخذ مني العلبة مفتوحة وقال غدا تعال حاسبني على هذه السيجارة التي أشعلتها! فوالله العظيم لأحاسبه الليلة على حق! ابن ديك الكلب هذا يجب محاسبته، نريد الآن عتلة ومرزبة!»

قال «بريش»:

- «باب الدكان خشب بضلفتين لا تنفع في فتحه العتلة».

قال «غزولي»

- «سأحشر العتلة فيما بين مفصلات الباب والجدار، في ضغطة واحدة بإذن الله أدفعها بصدري في العتلة، تنفصل المفصلات بحالها عن الجدار! فيتسع المجال أمام الضلفة المعلقة فيها حلقة الدرفيل! فينفصل الدرفيل وينفتح الباب على مصراعيه، ويمكن أن ندعه مقفولا كما هو ونتسلل من فتحة نوسعها بين صدغ الباب والحائط! مكان الحصالة معروف! والسجائر والأشياء الثمينة كلها متجاورة!»

قال «هندي»

- «يلزمنا عربة نصف نقل!»

قال غزولي

- «هذه عليك يا حق! تسرقها من الموقف أو من الجراج الكبير المتطرف، ثم تعيدها بعد أن تتخلص من مهمتها! أو ترميها في أي مكان قريب!»..

سحب «هندي» بقايا السيجارة المحشوة ليسلب بقايا نفس وهو يقول:

- «بسيطة! ما أكثر العربات! لو طلبتموها الآن حالا أجيبكم بواحدة محترمة!»

قال «بريش»

- «حل ذلك للغد! فلابد لنا من عتلة! وهذه لا توجد الآن في مكان قريب!»

صحت قائلا

- «إذن فدعونا بقية هذه الليلة نفرفش ونهيص! كل واحد يروح لحال سبيله!»..

وكان في نيتي أن أفوز بغنيمتي الصغيرة وحدي يا بوي، أن أجمع ثلاثة أو أربعة حبال من حبال الغسيل هذه التي يخفق من رؤيتها قلبي، وغدا يمكنني أن أبيع في سوق العصر بعض ثياب تستحق البيع ولو بثمن الدخان، لكن «غزولي» شوح قائلا

- «لا يا حق! قم بنا الآن ندور حول الدكان نعرف نحلته من خرجته، صدغه من قفاه! فلربما يلهمنا الله طريقة سهلة لفتحه!»

استمتعنا جميعا بهذه القولة وتحمسنا لها، فما نحن إلا وبحر نتخبط في حواري السقاط الضيقة الملتوية، التي صارت أشبه بسراديب من الظلمة تحت حجبة القمر، وصلنا إلى ذلك التقاطع الذي يتملك بكار «الحاج لولي» ناصيتيه، تحسسنا بأيدينا الباب والدرفيل والقفل والمصدع والمفصلات وكل شيء، إلى أن قال «غزولي» بثقة:

- «بالعتلة وحدها ينفتح الباب!».

ثم مشينا ندخن ونتهامس بالإشارة وهزة الرأس حتى صرنا في شارع الخلاء البعيد المطل على إسطبل عنتر، على يميننا صف واحد من الدور الواطئة، وعلى شمالنا الخلاء، كلها دور من طابق واحد أو طابقين، بالكثير ثلاثة، لكن الرجل منا لو مد ذراعه عن آخره يطول آخر الطابق الثالث، «بربش» و«غزولي» كانا سارحين ببعضهما في الكلام يبعدان مسافة طويلة، و«بسبوسة» و«عضدي» مشيا معا على مسافة طويلة منهما يتكلمان، وعلى مسافة طويلة منهما مشيت وحدي سارحا بنفسي، مشي يوجهني نحو حيا القسيل. وقلبي يؤجل إخراج المطواة. فلما اختفى الصحاب في حواري بعيدة، خفق قلبي لشعوري بالوحدة المفاجئة، وكنت أحس أنني أريد أن أتخلص من ضرورة، فسرت أتمسح بالحوائط بحثا عن حائط رطب ووسخ أرسل عليه ضرورتي، فاجتذبني شباك قريب إلى الأرض مدهون باللون الأزرق دهانا جديدا، وضلفتاه منقسمتان من عرضهما إلى قسمين أحدهما سفلي وهو الأطو

ل المغلق من الداخل، والثاني علوي وهو الأقصر ومفتوح على مصراعيه والضوء يعبره إلى الخلاء فيرسم على التراب شبكة من ظلال أعواد الحديد المتجاورة.

هي العادة الذميمة يا خال، أبدا ما قدرت على الخلاص منها، إذ بي قد حاذيت الجدار وقربت رأسي من فتحة الشباك محاولا النظر في داخل الغرفة، وإذا أرى الهول يا بوي، وقعت عيني أول ما وقعت على سرير بعمدان نحاسية بدائر حريري مكرنش، وبلا ناموسية، ومفرش الملاءة فوقه نظيف غاية النظافة يرسل رائحة معطرة، والسرير كان عاليا، ونسمة هواء ترالص كورنيش دائره العلوي، فبدا لي يا خال كأنه يتأهب ليتلقى موقعة ساخنة يشيب لهولها الولدان. فما دريت إلا بنفسي أحاول لصق نفسي في الحائط، وقد بدأت جيوش من النمل تنتشر في كل عروقي تريد أن تخرج كلها من ذلك الخرطوم المنتفض بين ساقي يا بوي، منظر السرير لخبط عقلي يا بوي، قلب كل كياني، ذكرني أنني لم أكن رأيت سريرا بهذه النظافة من سنين طويلة. فلما رأيته طار النوم من عيني واشتد عزمي، وقفت على مشطي قدمي ورفعت عنقي وجمعت الغرفة كلها في نظرة واحدة، رأيت دولابا بضلفتين في مواجهة السرير، بجواره كنبة عربي، يتمدد عليها رجل سكرون نابت اللحية والشارب أشقر الشعر، بحلقت فيه، فإذا هو مستغرق في النوم كالقتيل العملي العافية، منطرح على ظهره فاتح فمه عن آخره فجأة زادت رائحة العطر في خياشيمي وأخذت تقترب أكثر وأكثر مع التراب خفيف بجوار باب الحجرة الذي يفتح على

دهاليز شاحبة الضوء. أبعدت رأسي عن الشباك برهة، وقلبي لحد ينتفض، عدت فسللت عيني من بين أعواد الحديد، فإذا بي أراها يا حال، اللهم عفوك ورضاك، يا أرض احفظي ما عليك: امرأة فاتنة، ترتدي قميصا من النايلون بحمالات رفيعة على الكتفين، كل جسمها بارز من خلال القميص الشفاف، طويلة فارعة عريضة الكتفين، يطرح شعرها الأسود على ظهرها شرائح فيصل على صفحتي قناة الظهر إلى هضبة عالية، تنحدر نحو ساقين مبرومتين تنتهيان بسمانة كالشهد وكعب كالريال الفضي كانت تمسك بيديها المعدودتين بذراعين عاريتين كوبا من الشاي، فلما استدارت رأيت وجهها كأنه البدر في يوم التمام، بعينين واسعتين كحيلتين، رموشها مستطيلة، وبجبهة كالبللور تميل من فوقها جدائل الشعر الفني، أما خدودها فتفاح طايب. وأما صدرها الناهد فملآن رمان وأما بطنها فطيات طيات، وأما خصرها فنحيل كجذع النخلة تحف به سرّة كالفنجان المقلوب، أرداف التصاقي بالحائط وقد تصلب مسماري يا بوي وأوشك أن يخرق الحائط لينفذ إليها. انحنت هي على الكنبة، فارتفعت قبة المؤخرة وبان لي كل شيء، فكدت أصيح يا وعدي، وكان قلبي قد فارقني وحط على هذه القبة وصار يتزلق فوق قمة الظهر واصلا إلى الرأس فدفنا رأسي بين جدائل الشعر، وخرج صوتها يا حال تقول قطة تطلب الحلال منادية ناوووه، غير أنها كانت تنادي، صفصف! صفصف! الشاي أهه يا حبيبي.

لم يرض قلبي أن يصدق حكاية الشاي هذه. شاي؟! شاي ماذا يا بوي؟ وهل ينادي المرء لشرب الشاي بكل هذه الرقة ومدا الرجاء الأنثوي الحار؟! لا يا بوي، إنها تقول له بصريح الفتنة والعبارة: قم وخذني في حضنك، وكلني أكلا، حتى لا تترك مني قطعة واحدة. عادت فاعتدلت واقفة تميل إليّ أن لحماً حليباً بلبن على مسماري هي وضعت كوبة الشاي على ترابيزة صغيرة، والتفتت، فمدت ذراعها تحت دماغ النائم ورفعته، فصار وجهه يرتفع نحوي، لأراه بكل خلقته.

وا..ه يا خال، واه. تزلزل كياني يا حال وكركبت بطني، وانموج مسماري من الرعب، إذ إنني تأكدت أن الراقد على الكنبة جثة هامدة هو بذات نفسه المعلم «صفصف» صاحب القهوة العمرة، الذي يلقي الرعب في قلوب المدينة كلها. تأيقنت أنه عائد لتوه من رحلة الليل اليومية مهدود الحيل من كثرة ما تكلم وانفق ولحاسب وسكر ونصب واحتال على نساء وبغايا ورجال من الحكومة وصبيان الباطة؟».

هل تلتفت هذه المهرة الفتية يا «صفصف» وتنظر إلى غيرها؟ إنك إذن لمسيء حقا. فارغ العين. أعرف أنك طول الليل تسكر وتعربد وتشرشم الكوكايين وتفعل في نفسك البدع لكي تضاجع امرأة ساقطة أو راقصة من شارع محمد علي. هاك الآن هذه المهرة يا بقف لا تكسر بخاطرها، كن قادرا عليها وحدها تدخل الجنة يا بقف، وحق سيدي عبد الرحيم القناوي لو أن عندي هذه ما نظرت إلى غيرها وبقيت طول العمر خادما مخلصا لهذه القبة الضينة القائمة بين الفخذين تطلب الامتلاء في الحلال إلى ما لا

نهاية، أما أنت يا «صفصف»، يا صاحب القهوة المحروقة، يا من تتشطر علينا جميعًا وتسمعنا العذاب ألوانًا وتتظاهر علينا بقوتك ورجولتك، فإنك الآن في وضع لا تحسد عليه، آه لو رآك واحد من الزبائن وأنت كالخرقة البالية أمام هذه المهرة الرائعة، التي اخترقت سخونتها حائط [illegible].

رأس «صفصف» يتمرغ على ذراع المرأة متهدلًا كالفرخ المذبوح. والمرأة الصورية تهزه من ذقنه بأصابعها قائلة في حنان لا مثيل له يا خال «صفصف»! الشاي أهه! اشرب الشاي!». ولكن «صفصف» من يا بوي؟ إن «صفصف» ليس هنا وليس له ثمة من وجود. والمرأة التعيسة تظل مسندة رأسه بذراعها لبرهة طويلة، تنظر فيها نحو السرير شاردة حزينة يتطاير الشرر من عينيها، لكنها لا تلبث حتى تعود فتهزه من ذقنه بأصابع كأصابع الورد البلدي قائلة بكثير من الرجاء وقليل من اليأس «الشاي أهه يا صفصف! اشرب الشاي بقى أحسن ما يبرد خالص! اعدل نفسك بس!». ثم إنها عدلته جالسًا. وأسندت رأسه على المسند واستدارت لتجيء بكوب الشاي بين أصابعها، فما كادت تتركه حتى تهاوى من جديد مستويًا على الكنبة.

استدارت إليه المرأة، تركت كوب الشاي، أنهضت الراقد عنوة جالسًا، ضاربة خديه بكفها في مداعبة خشنة حتى يفيق، صائحة بعصبية «صفصف! ما تصحى بقى تشرب الشاي! إنت مش طلبت الشاي؟ ما تصحى بقى يا أخويا!». وهو يهمهم مبربشًا

بعينيه قائلًا «ها! طيب!» ثم لا يلبث حتى يغلق عينيه وينكسر رقبته. الصورية المسكينة أسندته على صدرها جالسة بجواره، وتناولت كوب الشاي وقربته منه، فإذا هو قد هوى واستوى ممددًا على الكنبة. وإذا هي بكل غيظ وبكل قوتها، تشيع كوب الشاي إلى الحائط المواجه لي. طـ ا ا خ. فجاء الكوب إلى ستين حتة، وانحدر الشاي سائلًا على الحائط، تتصاعد منه خيوط الدخان، ورمت نفسها فوق السرير كالذبيحة الفطسى، فكاد السرير ينفرط من شدة الرجة، وإذا بي أصيح من شدة الغيظ دون أن أشعر بنفسي «اتفوه عليك راجل مرة!». وأما المرأة فقد لطمت وجهها بيديها وانخرطت في البكاء والنحيب.

وصارت تشد في شعرها وتخربش وجهها بأظافرها في غيظ [illegible]، وتنتحب. كل ذلك وصاحبنا يغط في النوم حتى هيج غيظي، ولو كان معي مسدس لأفرغت في صدره كل رصاصه انتقامًا لهذه الولية الغلبانة المحرومة من نسيم الدنيا يا بوي.

ربك والحق صعبت الولية علي، وتمزق قلبي من أجلها [illegible] عليها وعلى الناس كلها، وعورت مسماري في الحائط حتى المس. ولم أكن أدري أنني أحدثت أواسي الولية قائلًا «الله يكون في عونك». فإذا هي تنتفض قاعدة على حيلها ناظرة نحوي ملقية عينيها في عيني تشهق ضاربة صدرها بكفها، فلما رأتني عبر خلاف وراسي كاد ينحشر بين أعواد الحديد نزلت عن السرير مقتربة نحوي والغضب يطلق الشرار من عينيها، وأي شيء فعلته كان بصقة شمعتها إلى وجهي، فلم أتحرك من مكاني، فمدت يديها

بضلفتي الشباك لتتلقفه، فمسحتها بأصابعي هامسا في وجهها: «ما الداعي لكل هذا وليس يرانا الآن أحد سوى الله؟ وأنا شعرت نحوك بالحب وكل أملي أن أرويك أحمر رومان! تعالي وأنا أطفئ نارك المشتعلة إن الله ساقني الآن إليك لأطفئ لهيبك بدلا من هذه الجثة الهامدة!»

كنت والله غير دار بنفسي، ولا كيف تفوهت بهذا الكلام، والذي كنت واثقا منه لحظتها أن خوفي من المعلم «صفصف» قد نزل إلى الصفر ولم يعد ذكر اسمه يرعبني، ومع أنه لو سمعني تلك اللحظة وأحس بوجودي، لقام ولحق بي وقطعني إربا، فإنني كنت واثقا من أن الخمرة التي هو مغرم بشرب كل أنواعها كالسلاطة في كأس واحد تكبس الآن على نافوخه كالجبل، ولن تحل عن صدره قبل ظهر اليوم التالي، وعموما فعلى سبيل الاحتياط على مطواتي قرن الغزال مبرومة في دكة سروالي، ولا بأس من أن يكون السلاحان مشهورين معا أحدهما لك والآخر لهذه الجثة إذا تحركت. هكذا قلت للحورية وهي تبحلق في عيني المشعلتين - بيني وبينك كان لي عينان ساحرتان في شبابي - وكان من الواضح أنها بدأت تتسمر بعيني بعد كلامي، لكنها مدت ذراعيها فأمسكتا بضلفتي الشباك، فتلقفت يديها بيدي وقربتهما من فمي وصرت أنهال عليهما بالقبلات الساخنة حتى ترنحت أعصاب المرأة وأشارت برأسها أن لف من الباب، فانسحبت عن الشباك نحو الباب وقلبي في مداسي، أكاد أقرمه ليفضحني من الخوف. إذ

كنت على استعداد، لحظتها، لأن أطبق في زمارة رقبة الأسد نفسه إذا حاول منعي من دخول الجنة هذه التي دعتني الآن لولوجها بسماحة وهي على أحر من الجمر.

سمعت تكة خافتة خلف الباب انفتح بعدها ربع فتحة، فدفعت جسدي في ظلام الفتحة وأغلقت الباب من ورائي في رفق، وارتميت في حضن المرأة شابطا في خصرها بكل قوة. صرت أعضها في كل مكان في وجهها وأضغط عليها بكل عنفوان مجنون، إلى أن شبت النار في عروقي، فادرت امرأة وكسرت ظهرها وسلت مسماري ورفعت ذيل قميصها، ودككت الحصن المنيع دكا حاميا، نزلت عرقا في عرق، فما يكاد سن الفأس يرفع قبضة من اللحم حتى يسد مكانها، فأعود ملطس، ثم الطس، ثم الطس، والدم هربان مني يا حال، حتى سمسمت امرأة بين يدي وتهاوت كعود القصب المصموص، فما تركتها حتى برفت روحي فوق صدرها، ثم استرحت يا حال، ولم أصدق أنني فعلت شيئا من هذا، بل كل مجرد حلم لذيذ. لكنني حين توجهت للباب خرج صوتي من تحت أكوام التراب يهمس للمرأة قائلا: «مبسوطة يا حرمة؟». هزت رأسها مبتسمة قائلة: «أراك كل يوم هنا في ساعة كهذه؟». قلت: «يحصل لي البركة يا هانم». ووربت الباب فدفعت خلفها أجرر ساقي وألم دماغي المبعثر النشوان، ولم يكن يدور برأسي لثني أبحث عن صحابي، لكني فوجئت بأني قد صرت قريبا من «قهوة صفصف» بابها مازال والنور ينبعث من تحته،

فعرفت أن بعض الزبائن ساهرين، فنقرت على الباب بأصابعي، فنظر الولد من خرم الباب وتعرف عليّ فرفع الباب قليلا، فانحنيت داخلا، لأجد الصحاب كلهم جالسين يدفعون صائحين «كنت فين يا بن العم؟». جلست بينهم قائلا «أحوجتني الضرورة للفرفشة ورفع الثياب في ظلام الخلاء» فضحكوا وطلبت شايا وعشرة حجارة على حسابي وكان يخيل إليّ أن أحدًا من صبيان «صفصف»، وربما «صفصف» نفسه لن يستطيع فتح عينيه في وجهي بعد الآن.

الثامنة ـ ليلة البلول السكر

بني آدم منا ليس أجمل منه في الدنيا والله يا بوي، وإلا فمن كان يتخيل أنني أكف عن الذهاب إلى غرزة «صفصف» حيث تنتظرني حورية سمينة شاربة من آبار العسل والسمن، في الأول قلت إنه الشيطان الرجيم والواجب عليّ أن أفقأ عينيه وأطرده من عالمي إذا كنت أنوي الاستقامة والمشي في الحياة بالحد والمسطرة، وحقيقة الأمر يا بوي أنني كنت خائفا من جنون المعلم «صفصف»، الذي إن أمسكني متلبسا فمصيري موت تمريقا بالمطواة ويضيع دمي هدرًا، وكلما فكرت في ذلك الذي حدث معي ترتعب روحي وتنكمش في صدري ويرتجف بدني، ويجيئني اعتقاد بأن الذي فعل ذلك الفعل الجريء شخص سواي لا أعرف عنه شيئا، لكنني يا بوي لا أقدر على دفع هذا الفكر عني، حتى تخلصت من شدة الخوف والارتعاش الدائمين أن «صفصف» قد بات يعرف كل شيء، وأنه يدبر لي تدبيرا حكيما ينهي به حياتي وحياة حرمته الفاجرة، فصرت والله أهرب من «قهوة صفصف» ولو كان الود ودي ما عتبتها قط، صار الخوف والرعب يهيآن لي

تصاوير عجيبة كلما تنظرت في وجهه ـ وجه صفصف. إذ يحيل إلى أنه قرفان مني لا يطيق رؤيتي، لهذا لم أكن أترك عيني تقع في عينيه أبدًا.

إلى أن سحبني الولد «هندي» من ذراعي وانزوى بي في ركن من الحارة وقال «يظهر أن المعلم صفصف زعلان منك! زعل خفيف يعني». قلبي يا بوي وقع بين ساقي حشيلا كعود من الحطب والله يا خال. بصقت في عبي من الرعدة، قلت «خير يا رب اللهم اجعله خيرًا». ضحك الملعون «هندي» وهدهدني بحركة من يده وقال: «مهو صفصف كلما بالأمس عنك حينما دعيت تفعل مثلما تفعل الناس!». جئت بصوتي من بين ساقي مهيضا وقلت «ماذا قال يا بوي؟» قال «هندي» «يقول إنه مندهش من نظرة في عينيك بدأت تظهر له وهي تشبه نظرة الإحتقار؛ كأنك من غير مؤاخذة لا تحترمه!». ثم ضحك «هندي» فضحكت أنا الآخر مستنفس الهواء، لكنني سمعت صوتا بصدري يقول: آه يا حسن هذه هي العلة والبلوى فماذا تفعل في عينيك؟! الأوفق لك ألا تجيء هذه القهوة وإن جئتها فلا تنظر في عيني «صفصف» أبدًا.

ليلتها كنا متواعدين على سرقة دكان «حاج لولي». وكانت العتلة المطلوبة موجودة تحت ثيابي تضايقني تمنعني من الجلوس والشرب براحتي، كنت أشتريها اليوم من وكالة البلح كما نصحني «عزولي». وكان طولها ذراعا، فلما انصرف «صفصف» إلى حال سبيله في أول السهرة قلت وعرفت أنه هو الذي يضايقني وليس

العتلة الحديد المعشة ركبتني في الحال فصرت أضحك بصوت عال، على الفاضي والمليان، لكي أسمع دماغي من الوقوف عند الذي سنفعله الليلة بعد ساعة زمن، إذ كلما هرب دماغي نحوها ركبني الرعب يا خال، وتحول عود الحديد من مكانه إلى مكان آخر في جسدي لا يطيق مسمارًا عليه يطيق عتلة كهذه، صرت أتمنى أن نقوم ونعجل بالفعل حتى مخلص أو أتخلص أنا من عود الحديد اللاهب، لكن صوتا يشبه صوت أبي قال لي: اعقل يا ولد وخليك ثقيلا راسيا، إذ نزلت في بحر كهذا فلا ترمي بنفسك من الضيق في قلب الماء حتى لو كنت عالما بالسباحة، بل انتظر حتى يرسو بك القارب على شط، حتى ولو كان هذا القارب قطعة صغيرة من الخشب، لا تنزل إلا على بر. وفي الحال وجعتني نفس الرعدة التي كان يزغدها لي في جنبي كلما اضطررته للخروج عن صبره والإدلاء بصيحة كبيرة كهذه، فاقشعر بدني، وانتفضت مترجما، فضحك الأولاد كلهم من فرعتي هذه مع أنني خليتها بـ وحد الله، ظلوا ساخرين مني ـ قد اتضح الآن ـ أركب الهواء، فلأكن ما يقولون وما يشتهون فليس على الكلام جمرك، وكل واحد يقول ما يحبه، «عزولي» قال للحاج «السني» ما يعجبه، والحاج «السني» يفعل ما يحبه و «صفصف» كذلك يفعل ما يعجبه وحتى حوريته المصونة هي الأخرى تفعل ما يعجبها، فكيف لي يا بوي أن أحاسب أحدا على ما يقول أو يفعل؟! إذا كان أحد لا يحاسبه على ما يفعل؛ أنا وهؤلاء الولد نفعل ما نفعل من شدة العوز، ومن غير

حياة تتغذى حورية صعصعة الصمونة، إذ ما لشد عورها لشئ لا يستطيع المال أو الذهب أن يعطيه لها. أما الحاج «السني» فلماذا يفعل ما يفعل يا خال؟ هذا هو الوحيد الذي يفعل ما يفعل لأنه لم يجد من يحاسبه، لأن الذين في يدهم أمر الحساب لا يشغلون أنفسهم إلا بنا يا خال، نحن الغلابة الذين يحسبهم القانون بدلا من المجرمين العتاة. العدل في بلدنا يضرب تعظيم سلام للحاج «السني» وأمثاله أما نحن فيضربوننا بالجزم القديمة على دماغنا وبالشلوت في مؤخراتنا ويبصقون في وجوهنا. ألا قاتلهم الله. اللهم أعم أبصارهم عنا وأنزل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة حتى نجهز على رسمال ذلك الرجل الأريب الذي ينصب عليك سبحانك ويؤكلك الأونطة بدقن وزَبيبة صلاة كورقة الدمغة يستغفل بها الناس ويستغلهم.

نهض «غرولي» قائلا «يلا؟». نهضنا في الحال ونحن نقول: «ع الظالم». حاسبنا القهوجي، وتسربنا خارجين واحدا وراء الآخر، حيث كانت العربة التي سرقها «هندي» من جراج بعيد في مدينة نصر، واقفة في حارة أخرى من حواري الجيارة المظلمة، كانت تشبه عربة الشرطة المسماة بالبوكس فورد الزرقاء.

يخرب بيتك يا «هندي» يا ابن الكلب، كيف عثرت على عين المرام؟ قال: اركبوا، وجلس إلى عجلة القيادة وأدار المحرك في الحال فإذا صوته هادئ وناعم فاسترحنا لذلك وقلنا: كفاك هذا اليوم يا «هندي» نتفقد ناعم البال ونقوم نحن بكل شيء، ثم إن

العربة خرمت في الحواري المظلمة على مهل شديد، خرجت من أضيق الحواديات، بدربة وحنكة لا يتأتيان إلا من «هندي» شارب الحشيش المربعو والأفيون الصافي، ولقد تمكن من ركن العربة أمام الدكان مباشرة، فسد الشارع وصنع دورة للقاعدين.

نط «غرولي» على الأرض فلم نسمع له صوتا، فنطرت وراءه، وهبط إلى الأرض قاعدا على قرافيصه، سرب سن العتلة الحديد اللبيب وحشره بين الجدار والضلع الخشبي للباب. وظل يحشر ويحشر ويطرر الخشب، إلى أن دخلت العتلة حتى ربعها، ثم عدل نفسه مثبتا مؤخرته في الأرض جاذبا العتلة نحو صدره بكل ما فيه من قوة، وصوت الخشب يطقطق، والضلع يسفسف ترابا كالهواء حتى نجح «غرولي» في فصل الضلع عن الجدار من هذه الناحية، فانتقل إلى الناحية الأخرى وفعل نفس الفعل وحقق نفس النجاح، فأعجبني هذا الولد يا بوي ثم إنه صدّر العتلة بالطول فيما بين الجدار والضلع، فارتفع الباب كله بصعه موسعا من الناحيتين فارة يُزرق منها رجل بكل سهولة، وكنت قد خلعت جلبابي وصرت بالفانلة والسروال، وكان «بربش» هو الآخر لابسا عفريتة زرقاء.

زرقة ياخلا يا خال، ونحن بسملت مستعيذا بالله من الظلمة لكنني كنت أعرف مكان زر النور، فرحت متحسسا جسد الظلام حتى أدركته فلمسته فانبثق الضياء ووضح كل شيء. فسحب «غرولي» العتلة تاركا الباب يهبط على صدغه. صعد «بربش» في

العال إلى سطح البنك فنزل أمام الخصالة فانتزع من جيب سحري في العتريتة مطواة أخذ يعكرش بها في درج الخصالة حتى فتحه ووقف يرقص وينظر متلصصا حتى حيلي، فقفزت إلى جواره ونظرت، فهالني منظر النقود يا بوي، بسرعة أخرجت منديلي «محلاوي» فردته على البنك، صرت أغترف الرزم المرستكة وأرص على المنديل اكراما اكراما، حتى عقدت أطرافه بصعوبة شديدة، وجعلت أحشر الباقي في كل جيوبي، ثم إنني قفزت نحو الباب، قدمته بيدي، وسربت المنديل إلى «عرولي» فخبأه، بسرعة شديدة، أشار لي «بربش» على جوال فارغ، أمسكته فتحته، صرنا نقذف فيه بكل علب السجائر والدخان والشاي والصابون القاخر والسردين والسلمون والبولوبيف وكل ما على الرفوف من علب وصناديق أفرغناه في عدة أجولة، حتى خلت الرفوف تماما وظهرت الحائط كمنديل محلاوي لم يترسخ إلا في خطوط هذه المربعات الغامقة، صرت أعقد الأجولة وأسربها من تحت الباب فيتلقفها «عزولي» ويرصها في صندوق العربة بدون صوت، استدرنا إلى صنف من العلب الكرتونية المرشمة بورق لامع سميك، اخترقنا بعضها بسن المطواة فوجدناها تحوي قمر الدين والتين والزبيب، فصار «بربش» يقذف لي بالواحدة فأسربها بحذر من تحت عقب الباب لـ «عرولي»، فيرمي بها لـ «هندي» الذي يرصها في أرض العربة، هكذا حتى أتينا على تلال كبيرة نقلت بكاملها إلى العربة، تعثرنا في حارة من الصفائح الكبيرة

مرتصة بجانب وفوق بعضها، كنت أعرف أنها سمن وجبن وزيتون، كانت أكثر من أربعين صفيحة حولناها كلها إلى العربة، ثم إننا استدرنا إلى صنف من الأجولة المفتوحة تمتلئ: سكر وعدس وأرز ومكرونة وفاصوليا وبازلاء، وأخرى تمتلئ بأصناف العطارة من فلفل وكمون وشيح وحناء. كل هذا صَعب علينا أن نتركه، فصرنا نحزم الجوال ونعقده ونسربه، إلى أن فرغ الدكان إلا من براميل زيت كبيرة لا نستطيع حملها أو دحرجتها من الباب، بعد ذلك نفحت الباب وخرجت، ومن ورائي، «بربش» الذي حرص على أن يطفئ النور. كانت العربة دائرة، فتمددت فوق البضاعة وانطلقت العربة تشق طريقها كالثعبان إلى أن خرجت من الحواري واتخذت الطريق الطوالي نحو شادر الحاج السني.

حاجة تهوس يا بوي. الحاج السني ثانية؟» الصعيد وقلنا يقدر على تسويقه، فكيف يقدر على تسويق هذه التشكيلة العجيبة من البضائع؟» فلما رأيت من حولي أشباحا كثيرة لها قلت لنفسي. لا تستغرب يا ولد، وانبريت أرفع البضاعة وأرصها على الأرض، يشاركني «عرولي» و«هندي» و«بربش» كلهم ملهوجين، عيونهم لائبة «بجيوبي»، وعيوننا كلنا لائبة بصرة المنديل البارزة في عب «عترولي»، فلما فرغنا نظرنا في الحمولة فوجدناها سمينة يا بوي، فابتسمت عيوننا لبعضها البعض، ونظر «عرولي» إلى «هندي»، وقال، «أنت وبربش تتخلصان من العربة، ورسم لهم طريقة التخلص منها، «هندي» يركب العربة ويمضي يتدكأ بها في

الطريق، حتى ينجح «بربش» في إيقاف عربة أجرة خالية من الركاب، فيركبها قائلا للسائق: على طول يا أسطى، فيمضي السائق في نفس الطريق، ويظل سائق الأجرة ماضيا طالما عربة «هندي» ماضية، إلى أن يجد «هندي» حارة مناسبة في حي بعيد فيركن العربة فيها بكل عناية وينزل منها ويغلقها ثم يمضي لحال سبيله كأنه صاحبها سيعود ليركبها بعد قليل، في هذه الأثناء تكون العربة الأجرة قد وصلت بالقرب من هذه الحارة، ويطلب «بربش» من السائق أن ينتظر برهة حتى يتأكد من عنوان، ويستخرج من جيبه ورقة فيقرؤها وينزل فينظر في أرقام بعض البيوت ويترقب أي شخص ليسأله عن أي عنوان وهمي، حتى يكون «هندي» قد خرج من الحارة ماشيا على قدميه ليلتقي معه «بربش» ليسأله عن العنوان الوهمي فيخبره «هندي» أن العنوان فيه خطأ، ثم يتركه ويسأل سائق الأجرة إن كان يوصله لمصر عتيقة، فيقول له «بربش» أن طريقه العودة إلى مصر عتيقة، ويرجعان معا.

تخلف البمبي يا بري أن هذا كله تم في ثلث ساعة زمن ما بخنا سيجارتين، وكان «غرولي» صاحيا فلم يدعني أفلت من بين يديه برهة واحدة، وكنت صاحيا للمنديل في عبه فلم تفلت حركة يديه من عيني برهة واحدة وكنت لا أدعه يضع يده في جيبه قط إلا راقبت حركتها، فلما وصل كل من «هندي» و«بربش» اقتربا منا قائلين في نفس واحد: ما الحال؟ تذكرنا أننا أرسلنا خفير الشادر

ينادي الحاج السني من لحظة وصولنا فذهب ولم يعد، فقال «هندي» متفاخرا: «ذهبنا إلى روض الفرج وعدنا وذهب الرسال مسافة خطوتين فلم يعد!». فإذا بصوت الخفير ينبعث من خلف ظهورنا: «ومن أدراك أني لم أعد يا بقف؟!». ما هذا يا بري؟ نظرنا خلفنا بعد أن بصقنا في عبنا من الرعب، صحنا: «كيف هذا يا بوالعم؟ ذهبت تنادي الحاج فصمت في السر ولم ترد علينا؟!». وكان حضرته جالسا على باب خُصّه في الظلام يراقبه ويرانا دون أن نراه، ثم إنه ما صدق أن كشف عن نفسه حتى أشعل سيجارة وقال وهو ينفث دخانها ببرود ساخر: «تظنون أنني طول هذا الوقت عند الحاج؟ إن عدوكم أهبل! إنني لا أعطي ظهري لواحد يدخل هنا ولو كانت زبيبة الصلاة في جبهته أطول من لحيته! هل يتصور عدوكم الأهبل أنني أترككم أنتم بالذات كل هذا الوقت وحدكم! وأنا أعرف من أنتم؟!».

ثم انفجر ضاحكا كقصف الرعود، ومسح على شواربه الطويلة آثار الضحك وقال: «لا تنتظروا الحاج قبل صلاة الفجر! لأنه وهو قائم يصلي بلاليكم في الطريق! وسوف يسهلكم بالطبع حتى يصلي في جامع عمرو ابن العاص ويعود!». وجدنا كلامه صحيحا فجلسنا فوق الصفائح والأجولة نتسلى بأكل الزبيب وقمر الدين والتين المجفف حتى صاح الخفير: «أما تبعثوا شيئا مما تأكلون؟» فقال «غرولي» ملوحا بيده: «ما خدمتنا خدمة تستحق عليها شيئا». وقال «بربش» ليكسبه: «وأنت أما تستطيع أن تجيء لتأكل

معناه». فانبرى «هندي» يسأل الخفير «لديك رغفان؟». قال «هندي»: قلنا جميعنا «هاتها وتعال». وحزم «هندي» بعض الصفائح وانتقى واحدة مفتوحة وقال: «هات معك طبقا». أتى الخفير من داخل الخص بطبق كبير من الألومنيوم وأربع رغفان كبيرة بعرض المطرحة مما تخبزه زوجته الصعيدية في فرن تقيمه لها خلف الشادر من ناحية المقابر، تخبزه لا لتأكله فحسب، بل لتبيعه للفواعلية الصعايدة والأفندية الذين يحششون في غرز بين المقابر

فتح «هندي» صفيحة ودب يده فيها فأخرجها بمرطة جبن تزيد عن أقة، وضعها في الطبق، وفتح صفيحة أخرى فأخرج حفنا كبيرا من الزيتون الأسود، دلقه في الطبق فوق قطعة الجبن قائلا: باسم الله كان منظر الجبن لامعا براقا وطعمه سائغا. فأكلنا خرطتين كبيرتين وجعبة زيتون وستة أرغفة. وكافأنا الخفير على أرغفته ببقية صفيحة الجبن المفتوحة فكاد يجن من الفرح والدهشة، لم يصدقنا إلا بعد أن ناولها في خصه وعاد

أعوذ بالله من قولة أنا معجب بمنظر الفرحة إعجابي بالفرح نفسه، أي والله يا بوي، إن الفرح عندي هو منظر الفرحة على وجه أحد من الناس لا سيما إذا كنت أنا الذي تسبب فيها. فلما رأيت الفرحة بصفيحة الجبن كبيرة على وجه الخفير اللئيم وعرفت أنه سيبقى شهرا بطوله لا يشتري جبنا من الدكان فرحت لفرحه وجئت بالعلب الكرتونية المفتوحة وجسستها فوجدت ما

فيها قليلا. ففرطت كل ما كان فيها من زبيب وتين ومشمشية وقمر الدين، فملأ علبة واحدة لتمها، فأعطيتها للخفير قائلا له على سبيل التفكه: «إملأ لنا سلطانية من بولها!». فاختطفها الخفير، وبقفزة واحدة صار في الخص، ثم سمعت عكرشة داخل الخص، أدركنا منها أنه يخفي هذه الغنيمة حتى يوزعها على أولاده بالعدل والقسطاس، وقال «غزولي» في طريقة سواتها صدق حقيقي «طول عمرك لم تذق الباميش يا سنطاوي! فادع للذين بلوا ريقك به».

ظهر «سنطاوي» الخفير ممسكا بطلة صغيرة، والبندقية معلقة في كتفه، وهو منتصب القامة، يقول «يا ميش يعني إيه يا بو العم؟!».

ضحكنا يا بوي، شخرنا رغما عنا. فانزعج «سنطاوي» وسحب بندقيته عليها صائحا: «الدار فيها حريم يا ولد الفرطوس! فاحتشم أنت وهو». ثم أرجع البندقية إلى كتفه، وعاد يسأل «يا ميش إيه اللي كنت مشغول عليه ده يا بو العم؟» فقال «هندي»: «يعني الزبيب والقمر الدين والتين والخير اللي انت رقعته دلوقت». رفع الخفير أنفه ومسح شاربيه وصاح في استكشاف «ها..أ..ه.. يبقى كده يا بوي. اسمه يا ميش طب عال. أدي كلمة جديدة لتنقلت بيها على الولية اللي فاكراني ما افهمش!». وصار يؤتي بحركات راقصة علامة على فرحه وانبساطه، فلما ترقص شعرنا أن الطلة القليلة في يده وهو يهزها ويبرمها في الهواء، وصوت خشخشة

ورقرقة يبعث منها، ثم اقترب، فظهر أن الحلة ملآنة بالزبيب والقمر الدين لتمها، وهو يفرك فمها بملعقة كبيرة ثم يذوق شقفة صغيرة ويتلمظ مرقصا شاربيه، وسلم الحلة والملعقة لي قائلا «خذ نصيبك وكلك نظر» فأمسكت بالحلة والملعقة وصرت أطوح في فمي زبيبا وتينا، ورأيت الملعقة لا تسعفني في الشرب فرفعت الحلة إلى فمي وشفطت نفسين مضبوطين ثم سلمت الحلة لـ «غرولي»، ففعل مثلما فعلت، وسلمها لـ «حمدي»، ففعل هو الآخر ثم سلمها لـ «بربش» فأتى على ما فيها في شفطتين، وهنا صاح الصغير في ذعر «ماتابي»، شوح له «ما تبقاش طماع!» فاختطف الصغير الحلة بغيظ، وغاب في الحوش بمكرش، فبان أنه يبل لنفسه كمية أخرى، وفعلا يا بوي، ظهر ممسكا بالحلة يديرها ليذيب سكرها وهو واقف على باب الحوش علامة أنه سينفرد بالحلة وحده، وصار يشفط ويمصمص قائلا في غبطة «قبل ما العيال يصحوا وأروح بلاش» قال «بربش» للصغير وهو مستغرب من فجعته «الحاج السني لم يؤكلك حاجات من هذه أبدا؟!» قال الصغير وقد نصعت في صوته فرشة صدق «عمره ما فعلها رغم انني اشتريتها له من الدكان كما اشتري خضار السلاطة في رمضان! أحرطها وأضعها مع البلول في المشربية لحين أذان المغرب! فلا يفكر المنيوب في أن يرسل لنا ما تغني منه! تعرف يا بوالعم؟ مرة أحببت أن أقلده فاشتريت خضار سلاطة وخرطتها وحضرتها لنفسي! وحين صلى هو المغرب في عمرو بن العاص

وجاء يجري! فلت من أمامي ونحن نفطر أمام الحوش مانعش يا بو العم من طبق السلاطة! وبعد أن مضى خطوة رجع ونظر في طبق السلاطة وفي عينيه نار تقول لي: من أين لك بهذا الطبق؟ لابد أنك سرقته أو سمسرته من الصاغة وأنت تشتريها «يهم يا بو العم حرمت من يومها أن أشتري له شيئا أو أخرط شيئا! اكتفيت بالخفارة وحدها!!» علق «حمدي» قائلا «هو بصراحة رجل لا يستحق البل؛ ربما استحق التحريط!». قال «غرولي» مشعلا سيجارة «لا ورقنة وشواربه مثل الجرجير تبقى حلوة تفتح النفس للأكل!». رمى الصغير بالحلة عن طول ذراعه في الحوش وشوح بقرف: «يا بوي هو رجل طعمه مزز يسد النفس!». واقترب نحونا مهرولا «هاتو سيجارة» لا أعرف لماذا أسرعت يدي فأخرجت له علبة سجائر وبنجر كبيرة أعطيتها له قائلا «حلال عليك يا عماه». فاحتج «غرولي» صائحا ولكن بمزاح: «وهذا ليس مال أبيك تتصدر منه!» وقال «بربش» مقلدا الصعايدة «اللي يتشدد بيتشدد من جيبه». فصاح الصغير وهو يدس العلبة في جيب البالطو المترهل كالجوال: «ربنا يجعل جيوب المؤمنين عمارا». ثم تدافع حتى الحوش، فتقرفص على بابه وصار يدخن في استمتاع.

الفجر قال: الله أكبر، وسمعنا ترباس البوابة من الداخل يتك بشدة، وصوت باب صغير في وسطها ينفتح ويدلف منه الحاج السني كشبح أبيض في أبيض، تتدلى من يده مسبحة طويلة، وهو

يبتسم ويحوقل إلى أن حاذانا فلم تبد عليه الدهشة من وجود ناس غرباء في شادره وأمام بوابة داره، بل اكتفى بأن هات رافعا كفه بحذاء أذنه قائلا "السلام عليكم" ومضى غير عابئ بردنا عليه

دخل الصبح علينا من خلل مشمع السرادق عند كعبولات الحبال المربوطة، وظهرت من الباب عمامته الزرقاء الغامقة المبيضة قليلا، وظهرت من بعيد أصوات الخدام وهمهمة المصلين الخارجين من جامع عمرو بن العاص، سمعنا صوت الحاج السني في الخلاء يتكلم مع بعض الناس في أمور الدين والمواعظ وختام الصلاة وكيف تكون.فحسدته والله على طول باله، وخفت أن يجره الكلام فيأتي معه بأحد يرانا على هذا الوضع فتكون بداية الفضيحة لكنه أخيرا دخل يبسمل فلما اقترب منا قال "صباح الخير يا أولاد" ثم أخذ يجس العلب الكرتونية والصفائح والأجولة. بسرعة أمسك "غرولي" بالجوال الكبير ودلق ما فيه فوق الأرض، ونفض علب السجائر كلها فكومتها على جنب قائلا "هذه لنا سنفرقها علينا".وأزاح بقية محتويات الجوال نحو الحاج السني، الذي مال عليها وفحصها فحصا جيدا ثم عاد ففتح كل الأجولة، وفحص ما فيها، ثم سمى بالله الرحمن الرحيم وأخرج من سيالته دفترا مطويا بالطول، نزع من قلبه القلم الكوبيا، واتجه نحو الميزان المتربع قرب بوابة الدار، تجمله مجرجر الأجولة والصفائح والعلب ووضعها على طبلية الميزان، والحاج يعد ويدون في الدفتر، ويضع

أمام الأرقام أرقاما وعلامات، ويطرح ويجمع ويضرب ويقسم، وفي النهاية قال "هذه البضاعة كلها في رقاب بعضها بثلاثمائة جنيه ولا مليم فوقها" وأنا ونصيبي فيها! لأنها بضاعة جاملة تمكث شهورا طويلة" يعني أن الثلاثمائة الجنيه في جيبي أحسن من بضاعتكم هذه في مكتبي" لكنني وحق صلاتي لا أريد أن أكسفكم لكن قولوا لي من أين جئتم بها؟". فقال "غرولي" كلاما متناثرا معناه أن هذه البضاعة تخص جماعة من البمبوطية من أصدقائه وقد قصدوه في بيعها لحسابهم. ربما قال الحاج "طيب هم يسرقونها من السفن العابرة أو الواقفة؟". قال "غرولي": "لا وأنت الصادق هم يأخذونها على سبيل الهبات من أصحاب المراكب، فالمراكب المحملة بالتمر تعطي تمرا! والمحملة بالبصل تعطي بصلا! وكلها تعطي علب السجائر! وهم يجمعون هذه الهبات إلى أن تصبح كميات صالحة للبيع فيكلفون واحدا مثلي ببيعها".

كانت في عيني الحاج السني نظرة بعيدة الغور تقول بالفم المليان أن كلام "غرولي" المسوى هذا رغم معقوليته لم يدخل دماغه ولم يأكل معه بمليم، ومع ذلك قال "على بركة الله على بركة الله". كذلك كانت عين "غرولي" تقول بالمفتشر إنه يعرف أن الحاج "السني" لم يصدق من كلامه حرفا. ومع ذلك رد عليه قائلا "كله من فضل الله! كله من فضل الله". كدنا ننفجر من الضحك يا بوي، لأن "غرولي" لحظتها كان يتكلم بصوت وهيئة

الناس الأتقياء الذين لابد أن تصدقهم، حتى أن الحاج «السني» نظر إليه من تحت نظارة مذهولة متشككة، فسرها العبد لله!». بأن الحاج كاد يصدق «غرولي» فحدثت له هذه الهزة إلا أن الحاج طوى نظارته وأخرج من سيالته رزمة النقود المطوية، فتحها بين أصابعه وصار يعد العشرات المجعدة حتى عد ثلاثين منها طواها وقدمها لـ «غرولي» وهو يتناول النقود «كام دول؟» فقال الحاج وهو يمضي خطوة ثم يتوقف «أما ما أبقى وجع الدماغ! هذا هو الجن وهذا هو الجمال! لا تضيعوا النوم من عيني!». قال «بريش» وهو يشير إليها بالعوض للانصراف «خلاص! نعوضها في بيعة أخرى ليلتك فل يا حاج!».

مضينا نترنح في الطريق مثل السكارى، وكانت علب السجائر محشورة في خرقة قديمة استلفناها من «سطاوي» الخفير. قال «هندي» في حسم «نذهب إلى بيتي». لم نرد. لكننا جودنا تلقائيا نحو بيته. تلك الحجرة الكائنة في حارة من الحواري المزنوقة تحت بوابة من بوابات مسهري العيون، افترشنا الأرض يا خال، ونفض كل منا جيوبه يا خال. بريش وغرولي وأنا. فإذا أمامنا كومة من النقود كأنها البنك الأهلي، أحصيناها فوجدنا ثلاثة آلاف جنيه ومائتين، نحينا المائتين جانبا ووزعنا الباقي علينا بالعدل والقسطاس، وكذا فعلنا بالسجائر، وبقينا مسندين ظهورنا للحائط كملوك الأكاسرة، وقال «غرولي» وهو يطوي المائتي الجنيه الباقية: «هذه لابد أن نفطر بها اليوم فهيا بنا للإفطار». قلنا:

«وجب». وقمنا قررنا وقد نفى النوم من دماغنا وتقلقلت عيوننا بالقرفان، وكانت الشمس في انتظارنا حمراء ذهبية وشكلها غاضب ونحن غير قادرين على النظر فيه، فمشينا حتى باب اللوق، أفطرنا فولا وطعمية عند الدمياطي، ثم عدنا إلى قهوة «صلصف» حيث طرقعنا حوالي مائتي حجر، وكانت الظهيرة قد حمت الكرى فقال «غرولي» «ما رأيكم الآن في الغداء كبابا عند أبي شقرة؟». قلنا «مثل الناس الطيبين؟». قال «نعم!». قلت «إلى هناك نسير حالا!». كنا أول من دخل المحل يومها، فحالا جاءت السلاطات التي تلبك بحبها، وانزل يا ولد حتتك بتتك، كل منا رقع كيلو كباب وكفته وحمدنا الله على ذلك، وكل ذلك لم يتكلف أكثر من خمسين جنيها عشنا بها بكوات وباشوات لمدة خمس ساعات.

قلت لـ «غرولي» «كفانا هذا ووزع بقية المبلغ علينا بالتساوي». فقال «بريش» «بمخصوص! إنما ربنا لابد أن نختفي من المنطقة كلها شهرا على الأقل لانظهر مجتمعين أبدا!». قال «بسبوسة» ملوحا بكفه المنتفخة «أنا مسافر إلى دمياط غدا لشراء جهاز عروستي!» قلنا جميعا «على يا بسبوسة؟!» قال باسما «على!» فصحنا فيه باحتجاج «أنت متزوج منذ مدة يا ولد! تتزوج ثانية؟!» قال مصححا على احتجاجنا «ما عليك يا أسيادنا! العروس هي زوجتي بعينها! بنت الناس تزوجتها على حصيرة وكانت راضية! فيكرمنا الله وننقل أصلنا معها؟ حقت ألا أجهز لها

عقشها إلا من دمياط مثل بنات الناس الأكابر!» شرحنا قائلين: «حلال عليك يا عم!» وقال «بربش» كأنه يكلم نفسه: «سأسافر غدا إلى الإسكندرية يومين أو ثلاثة». قال «غرولي» كأنه يرد عليه وحده: «وأنا سأدخل زوجتي مستشفى الدمرداش لتجرى عملية من أجل الخلفة عسى أن يكرمنا الله بولد أو حتى بنت تحفظ نسلنا». قلت: «معك الآن مبلغ ينفعك في العملية آخر فل!» قال: «إنه من حسن حظ الولية الغلبانة! ربنا أكرمنا بهذه الشملة! ولولاها ما حلمت الولية بإجراء هذه العملية أبدا». ـ وكان صوته في منتهى الطيبة والله يا بوى، ثم إنه وزع المبلغ الباقي علينا وانصرف لا تسعه الدنيا من الفرح، فدعونا له بنجاح العملية، وانصرف «بسبوسة» هو الآخر فدعونا له بجهاز مستريح الثمن، ثم انصرف «بربش» فدعونا له ببحر معتدل الجو وسفر هادئ المزاج، بقيت أنا و«هندي» والقهوجي. قال «هندي» إن النوم كابس عليه بشدة ولهذا سيذهب لينام. فقلت إنني ذاهب إلى مشوار بسيط وسوف ألحق به، ومضيت إلى مكتب البريد لأرسل لأمي أكبر حوالة بريدية تتلقاها في حياتها. كنت أمشي منفوخ الصدر أطير طيرانا، فما أن وصلت مكتب البريد يا بوى حتى رأيت رجلي تلفان على بعضهما من دوار الخوف، تخلف اليمين أسي عثرت عن مد القدم من الأرض إلى رصيف المكتب، بعيدا عنك وعن السامعين حصل لي ما يحصل للمشلول قبل أن يصيبه المذكور والعياذ بالله بدقيقة واحدة

رنَّ في دماغي صوت يائس حران يقول: «بس! وقعت في غضب الله يا حلو! وها هو ذا يرزؤك في جسدك عقابا سريعا على ما فعلت!». وسمعتني أرد على هذا الصوت بقولي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله! نذرا علىَّ والله يا رب إن رأفت اللحظة بحالي ولطفت بي وبأمي لتكون الفعلة الأخيرة في حياتي وبعدها يحق لي أن أطلب رضاك ومغفرتك باقي عمري!»

سنتي ولقتها لم يكن مس الشلل يا بوى، ولكن السهر والتعب والمطبوخ والخوف وأنسام الشرطة ورقة النوم كل ذلك يعض من كهلة الجسد ولو كانت جديدة بشمعها وورق بياعها كل شيء له حدود يا بوى، وكل مرونة لها حمولتها. ركنت رأسي على شباك مكتب البريد حتى هدئت الدوخة واضمحلت وعادت مكنة الجسد تشتغل من جديد، ويظهر أن رايشا في معدتي أو في دماغي كان يسد منافذ الماكينة، ويعطل سيرها، وقد انزاح بعون الله وفضله. النفس أمارة بالسوء يا بوى، فهذى التي تتظاهر عندي، لم يصحب الدوخة التي كانت فيها منذ برهة، فاستندت واشتعلت سيجارة في نفس الشباك أدوخ ثانيا، لكنها دوخة لذيذة، وسرعان ما تنبهت القهوجي لي بجوار رصيف المكتب، ولد يلم عصبة شاي وقهوة، فناديت عليه وركنت إليه مستظرفا مكانه الفسيح تحت ظل شجرة [illegible]، على الكرسي من القش. جلست واضعا رجلا على رجل وطلبت فنجان قهوة على الريحة، من رائحة القهوة والولد يدلقها من الكنكة في الفنجان بدأ الفوران، فما لثمت شربه حتى صرت

في الرونان الشديد؛ واستمعت لصوت يشبه صوت أبي يدوي في دماغي قائلاً «حوالة مالنا يا عبيط يا أهطل هذه التي جئت ترسلها لأمك في الغنايم في كوم سعيد؟ ألا تعرف يا حاشي يا صاحي العواقب أن مبلغا كهذا مع ولد شكله شكلك لابد أن يبحلق فيه الناس؛ فتصير هدفا للبحلقة حتى تتعرى من ثيابك فتنكشف عوراتك؟ وكيف بأمك، هل تراها تقدر على استلام مبلغ كهذا من طوابير البريد؟ سوف يتعين عليها أن تسافر لتقبض المبلغ؛ حقا إن الصعيدي إن شمس يجيه لأهله بيلوي، وأنت الآن تسعى لوضع يديك في الحديد!»

ردت عليه بسحائب من دخان السيجارة قائلا «ولكني لا أقدر أن أمضي بهذا المبلغ في هذه المدينة يا بو العم؛ إني أعرفها إنها مدينة كافرة فاجرة! والدليل على ذلك كثرة الجوامع في كل حارة وكثرة الحجاج وراء لافتات الدكاكين العامرة؛ لو ضبطوا المبلغ معي أسرق أنا للشنق بتهم ارتكبها مئات الحجاج ومئات الأفندية ممن بأيديهم مفاتيح المخازن وأدراج الأوراق وأبواب المصالح»..

رنّ الصوت من جديد في جدران دماغي، تحلف اليمين يا بوي تكون إنتي تصدعت من رمته، التي صدمتني ضاحكة ساخرة «ومن قال لك أن تمضي هنا يا ابن الموكوسة؟ ما الذي يقعدك هنا بالنقود وبينك وبين النجاة بها سبع ساعات سفر لا غير في قطار الصعيد؟»

هنا يا خال، تقطعت ناهضا عن نفسي الكسل؛ قلت «معك حق الله يا مثالا» وحاسبت الولد على ثمن القهوة وناصلته في القرش الفليم؛ ليس بخلا والله يا خال، ولكن نكاية في ولد يشبه السابقين الأشباه الذين ظهرت سرقاتهم الكبيرة من عباوتهم في المصاريف الكبيرة في محلات اللهو واستصغار شأن النقود أمام الباعة وأهل الحرف. أما النقود الكبيرة فكانت مربوطة في حزام حول وسطي، وليس في جيبي سوى بضع ورقات بعشرات صاغ لزوم الصرف بالمهيصة والفشخرة إلى أن يأذن الله برزق جديد؛ وحتى هذه الورقات مع بضع جنيهات وأنصاف جنيهات وأرباعها كانت مخبأة مصرورة في منديل مربوط حول زندي تحت الثياب؛ وأبقيت لنفسي حرية التصرف، في بضع شلنات وأنصاف قروش من الفضة الفسلة.

ونبهتني نفسي الطيبة؛ جرجرتني حتى أوصلتني حجرة «هنداوي» فضربت الجرس على الباب في الشارع، فنظر «هنداوي» خلسة من وراء شيش الشباك. «سأرمي لك المفتاح وتدخل» صحت به قائلا: «لا تفعل! فأنا سأخطف رجلي إلى البلد! وسأعود بمشيئة الله بعد يومين بالكثير (تلاتة)» قال «تعود بالسلامة». ثم لوح بيده واختفى من الشباك؛ فاندفعت بين الحواري الملتوية كالفأر في شق طويل مظلم؛ فما صدقت بأني قد امتلكت الشارع العمومي حتى شحنته في سيارة توصلني إلى محطة الجيزة؛ لأركب منها إلى محطة «سوهاج» على خط أسيوط، لأكون مع طلعة الشمس في كوم سعيد بالغنايم

ورقة الناسك: تسعة

الأولة.ع الأصل دور

الناس أجناس يا خال؛ ومن كانت أمه داعية له في ليلة القدر، يكرمه الله بصحاب من جنس أصله طيب

وبفضل دعاء الوالدين يا بوى عوضني الله خيرا في «عليّ» صاحبي، وبالأكثر بعد أن تزوج أبوه «يوسف النجار» بشغيلتي «هندية»، تحفف اليمين يا بوى أمي ما وجدت لي في البلدة أهلا سواه؛ فدارنا مهدودة من يوم ما حلت ببلدتنا غضبة عائلة الشين؛ ودور أعمامي قد باتت لا تستقبل إلا أولاد المدارس والمعهد والأزهر الذين هم أنداد وزملاء لأولادهم وهم من الأصل ـ أعمامي وولدانهم ـ لا يسألون عني ولا يتذكرون أمي من دمهم. لذا الآخر ألهثني الحياة فلم أتعجب فلم أسأل، ولم أسأل فلم أتعجب. وأمي راكنة في دار «خراية» ضيفة معززة مكرمة.. فإلى من أذهب؟ ..

ذهبت بالطبع إلى أمي. ففرحت بحضوري كما فرحت زوجة «خراية»، وأكدت لي أن أمي مستريحة في دارهم، وأنها لن تبارحها حتى لو بنيت دارنا من جديد. وآه! كيف الكلام دا يا بوى؟

قالت الولية: «مسكينة أمك يا حسن يا حوى! فمن يخدمها في غيابكم وهي لوحدها؟!». قلت ضاحكا: «فهل يا ترى نترك الدار لهما وستريح؟!». صاحت هي وأمي معا: «فال الله ولا فالك الغفر مالها ولبقاء أمك هنا؟!». قلت: «هل أبيعها إذن؟». قالت أمي بفرحة طافية: «طبعا يا ولدي! إن أعطاك الله فبايعها اليوم قبل الغداء». قلت باسما من النشوة: «حاضر يا أم! سوف أبني لي العال!». وقدموا لي لقمة سريعة طرية فأكلتها جيران حضن، وشربت الشاي وقمت: «أين تروح يا ولد؟» قالت أمي: «تبيت في غرفة الولاد معهم طالما أنت هنا» وقالت زوجة خراية: «بلك أيضا قلبي» «لا ... أنا سأبيت عند صاحبي عليّ حيث الوسع والراحة». قالت: «ملك وراحتك». وقالت أمي كالمعتذرة لها: «إنهما صحاب بحق وحقيق». قالت: «أعرف يا خالة». ثم إنني نثرت على الولاد كلهم عددا كبيرا من البرابر والشلنات وأرباع الجنيهات بمنظر لعلمه منه الولية وبان في عينيها قليل من الحسد. أما أمي فالرغاصة وكادت تقع من طولها وتقطع شفتيها من العض عليهما، وعيناها تغمزان لعيني تفهمها واستفالة بأن أكف عن هذا الجنون الذي أفعله. وقد أصابها الذهول من حصر ما فرقته على الولاد. ولو علمت أنه القرب من الجنيهات الخمسة لوقعت ميتة بما يحمله السكتة القلبية في الحال. أمال يا بوى. إنها ولية شقيانة طول عمرها من يوم أن خلقها الله ترفع أحمال الطين وراء مليم قليم لمعيشة. ولقد طعم فيها الفقر وعلمها كم للقرش الأبيض من نفع عظيم في اليوم الأسود. قلبي يرق لها والله دائما يا خال. سلمت

عليها وقرصت على يدها قرصة حقيقة أسبهها قائلا في حبور وابتسام «ولا يهمك يا أم! فخير الله كثير»، وعرجت على زوجة حرابة فسلمت عليها واستكثرت لها الخير من الله ... ومضيت موليا نحو كوم سعيد

في منحنى البلدة واجهني فانوس مشتعل، يلقي على الأرض ظل صورته العتيقة بأضلاعها الشبيهة بشكل الكأس. توقعته، وإذا هو بالفعل عم «صهيب» المتصوف، الذي يقضي نهاره عاكفا على العبادة في خلوته وليله متنقلا بين أضرحة الأولياء في كل البلدان، يزورهم بأكياس من فاكهة القرآن الكريم ينثرها على أعتابهم ثم ينصرف. ها هو ذا يطل بشكله الأزلي الذي لا يتغير رأسه الصغيرة المتعصبة بمنديل رفيع أخضر كالح، فوق بقايا طربوش مغربي أسود احمراره، وقامته المديدة المحنية قليلا إلى الأمام بفعل الكهولة والسجود والخشوع لله، يتسربل بخلق مرقع تفوح منه على الدوام رائحة المسك، يتأبط سجادة من الملتبس مجهولة المحتوى، يمسك الفانوس بيمناه، والعصا بيسراه، يجيل بصره الحائل في الطريق، مغمغما بصلوات وتسبيحات غامضة

تذكرت يا خال أن عم «صهيب» هذا هو جد صديقي «مليل» يعني «يوسف النجار» ابنه، إذ إن عم «صهيب» كان في الأصل نجارا للسواقي منذ زمن بعيد مجهول. مسيت عليه فصفق بالرد واتخذت طريقي إلى داره حيث يقطن صديقي «مليل»، وفي دماغي خاطر يلح لي أن «مليل» مصيره سيكون كجده هذا بإذن الله. ثم ضحكت عاليا

الثانية ـ قلب الراعي

يا ... على تلك الفرحة التي لقيني بها صاحبي «مليل»، كانت والله تسبيه عقله فصار يهذي بكلام الشوق والحب والغربة والوحدة وصار من عناقه العنيف بي يحرم أختي ـ زوج أبيه ـ من فرصتها في عناقي. وصرت من خجلي له أحرم نفسي من فرحة عناق أبيه لحظة من لحظات الجنة كانت والله يا خال. بعدها نحرت السكين فراخا وبطا وحماما، وامتلأ وسط الدار بدخان كبير له رائحة مسكرة. حتى إذا ما جاء المغرب توسطنا وسط الدار على مقربة من الكوانين المشتعلة، الساطعة بظلال كثيرة، نفترش حصائر من السمار الملون، تحتنا المساند، وإذ تحلقنا الطبلية وفوقها صينية العشاء حافلة بما لذ وطاب مما حرمته في طول الغياب، صرنا نشفط في تتابع صوتي ونتصبب عرقا، ونضرب بالملاعق في أكوام الفريك المكومة في الأطباق نهدها نطوح بها في الأفواه والجميع يمسحون الطيور المحمرة ويرمون شرائحها أمامي وفي يدي وفي فمي، وأنا لا أرد لأحد طلبا ولا أكسر له خاطرا، ومكنة الطحن شغالة على سنجة عشرة، وكلما ازدحم حلقي بوارد البلع سلكته مشفطات المرق الساخن فتنفذ الثقلة في دماغي تحمره، وفي عيني تفنجلها، وهي

عروق جسدي تريده التصحف ولم يكن ذلك التوفيق إلا لأن نَفَس أختي – وهو منذوب عن نفس أمي – كان يعطر هذا الطعام.

ثم إن «هلّيل» دعاني لغسل يدي ولدخول الحمام بالمرة، فلم أكسفه بالطبع. وجدت في انتظاري ثيابا نظيفة من ثياب «هلّيل» في رائحتها نفس أختي كذلك، فلبستها على جسد نظيف، فشعرت والله كأن الروح قد ردت في من هذه اللحظة فحسب. وكان الخلاء الرحب في شوق إلينا فطلعنا إليه نتمشى ويلتقينا. عند هديم دارنا وقفنا، وشرعت أكلم «هلّيل» في موضوع بنائها، فقال: «على الأقل تقيم الجدران». فوجئت بملء صدري قائلا: «نبنيها على أحسن وضع. الخير كثير والحمد لله!» نظر في عيني مستفهما عن آخر مدى لهذا الخير. قلت: «مستورة والحمد لله! كله من نعيمه يا هلّيل يا خوي!» هز يده ليستزيد التأكيد: «تبنيها بناية؟ بناية؟» قلت بنفس التأكيد: «طبعا بناية بناية! وبدورين لو أحببت». قال بفرحة: «إذا على بركة الله! من غد متوكل على الله!».

لم تكذب خبرا الولد «هلّيل» ما أجدعه. مشوار بسيط لحد البناء في آخر البلد، مشوار أبسط لحد بائع الطوب، فركة كعب لحد دار واحد يكرى لنا أنفارا تزيح الهديم وتفحت للجديد. بضع جنيهات نثرتها كعربون. فوالله ما أتى الصباح بنوره الوضاح إلا وفي دارنا أنفار تشتغل وطوب ينزل ومونة تصعد في القصاع. بناء بالأسمنت يا ولد. أربع أيام والله يا بوي صارت الدار بعدها واقفة على أساس متين ومستورة بسقف مسلح بالحديد والبتن

ثم بدأ شغل الخشب، فما مضى أسبوع إلا وكانت مفاتيح الأبواب والشبابيك في يدي. ولم يبق إلا الفرش الذي سأشتريه غدا من أسيوط. الناس في بلدنا كثار يا بوي وأجره عرقهم أرخص شيء في الدنيا، الواحد تشتريه طول اليوم بأكله وشربه وكسوته لو مكث في خدمتك حولا كاملا ما طالبك بشيء آخر. الأشياء هي الأخرى كثيرة لا تجد من يشتريها. ولكن لأن من هي عندهم يستغنون عن بيعها فهي مسجونة حتى يظهر من يبرّ بالقرش.

على أسيوط سافرت أنا و«هلّيل» فاشترينا عفشا من كنب وسرير ودولاب يصلح شوارا لعروس بنت العمدة. ولكنني نويت أن أجعل من داري دارا بحق وحقيق ذات مسرة يجتمع فيها القوم بكل احترام ومعزة، كنت ألمح في عيون «هلّيل» كلاما كثيرا يود لو يفتش فيه ويحقق معي فيه ليعرف من أين جاءتني كل هذه الثروة في زمن قليل؟! فلم أصرح له أبدا، غير أنه لم يتركني! قال بينما نحن نشد نفسين من الحشيش في غرزة في منتصف الليل: «المهم يا بوعلي أن يكون ما صرفته على داركم فلوسا حلالا». فلوّحت له بيدي قائلا: «دعك من مسألة الحلال والحرام هذه يا خوي! فوحق مخرج الصباح من الليل ومشرق الشمس أن البلدة كلها تعيش حراما في حرام. وسحتا في سحت! ونهبا في نهب وبلطجة في بلطجة وتهليبا في تهليب! صدقني يا خوي جامعيها حرامييها يا خوي! صرت أعتقد أن الله لا يبارك إلا في الحرام ويحمي أهل الحرام ويرفع قدرهم في الدنيا صحيح أن الله

سيعذبهم في الآخرة ولكن كيف أعيش أنا في الدنيا طاهرا من الخطيئة معدما من القوت في نفس الوقت؟! سأفوز بالآخرة؟! حتى يا حمار حتى يجيئك العليق! عقل الصعيدي لا يفهم كيف يحرمني الله في الحياة من نعمة الدنيا ويمتع غيري بالجنة؟! إنك يا هلّيل يا حوى، لو شفت الحياة التي يعيشها ناس مصر المحروسة لوقعت من طولك ميتا! اسكت يا هلّيل يا حوى فقد أصبحت والله أكره الكلام في شغلة الحرام والحلال هذه! أكره أيضا شغلة الثورة هذه أتمنى زوالها من الوجود! حتى أبو عبدالناصر نفسه بلدينا نفسه صرت لا أحبه! صار قلبي يرتعج كلما سمعت اسمه! دعنا يا هلّيل نعيش لنا يومين قبلما تأكلنا الذئاب! إذا كنت تعيش بين اللصوص والحرامية فلابد أن تكون أحرف منهم حتى تعيش بينهم! عمرك رأيت جديا صغيرًا يعاشر الذئاب ويعيش في سلام ؟! حلال ماذا وحرام ماذا يا هلّيل يا حوى؟ لقد خربت الدنيا! أهل الثورة سرقوا أراضي الناس ورأسمالهم الذي لموه بعرق جبينهم ثم وزعوه على أهل لهم! وحرسوا عليه اللصوص والمغفلين ومن جاء في ركبهم!»..

الحق لله يا ترى لم يراجعني «هليل» فيما قلته. ظل ينظر في وجهي ويشرب بعمق ويكتم نفس الدخان في حلقه ليسربه من أنفه ويحترنه في دماغه فبدا كأنه يحاول تسليك مخه ليفهم كلامي الكبير الذي قلته الآن. لكنه قال وهو يلفظ بقايا النفس: «على كل حال كن مصيرا على نفسك في الغربة» ضع عينيك في

وسط رأسك!». قلت: «هذا ما أنا فيه بالفعل فلا تقلق». قال: «كم صرفت حتى الآن؟». هززت يدي ورأسي مبتسما في سعادة وقلت: «تصور يا هلّيل أن كل ما فعلناه لم يتكلف أكثر من ثلاث مئات؟ بما في ذلك مصاريفنا ومصاريفي من ساعة ما جئت!». قال: «بركة! بركة!». قلت: «كله من خيرك يا هليل يا خوي لولا جملك وحمارك وصاحب أبيك ما فعلنا شيئا حتى الآن». قال: «الفضل فضل الله! فهل بقي معك شيء من القرشين؟». قلت باسما: «كثير يا ولد! كان مع أمي الكثير مما أرسلته لها! وسآخذ منه معي عند عودتي لمصر!». أراح الولد لبدته علامة لانبساط وقال: «وماذا ستفعل بها يا ولد؟!». قلت: «سأضعها في دفتر التوفير». لكزني في جنبي قائلا: «توفير ماذا يا عبيط! هاتها أشتري لك بها ماشية نربيها ونبيع ولدها ونأكل سمنها ولبنها!»

تحلف اليمين والله يا خال أمي من فرحتي طارت نفسي وانقلبا وصرت أحضنه وأقبله لأنه افتكر هذه الفكرة. قلت في فرحة: «والله لافعلن!». بالمصادفة كان الغد يوم سوق في «صدفا» وهي بلدة سوقها كبير. فذهبنا إليه من الفجر واشترينا خمس رءوس صبية وراسين وراءهما عجلين واشترينا حوالي عشر رءوس من الغنم وحمارًا ينتفع به «هلّيل» في خدمة هذه الرءوس واستخدمه عند وجودي في البلد.

قلت: «يا هلّيل يا خوي أنت عليك التربية والتسمين وأنا علي أن أقسم الربح معك بالنصف وتبقى البهيمة الأصلية ملكي أنا

وحدي!» قال: «يا جدع فضك من هذا الكلام فلا فرق بيننا! وسأبعث لأمك بنصيبك من الألبان كل يوم بيومه وسأكون حارسا لك على هذه الأمانة حتى يأذن الله لك بالاستقرار النهائي!» بحلقتها من هذا الكلام في دماغي فقلت لنفسي: صحيح يا ولد هاه، لا تستقر الآن في البلد وتبعد عن وجع الدماغ مادام أن الله قد أكرمك بدار أبيك وبهائم وأعمام تعيش من ورائها؟ إنه لا ينقصك الآن سوى البنت «حنة» فأين هي الآن يا ترى؟ لكن هذا الكلام حين أدرته في دماغي عصلج وانحبس ولم يدر بالمضبوط فعرفت أنني غير مرحب بالبقاء في البلدة الآن على الأقل، فالحكومة والعمدة هنا سيجعلونني سلوتهم وكلما وقع في البلدة حادث يجرونني إلى دوار العمدة ولابد أنهم يطلقون حول بيتي النار بالبان. وحين رأسمالي من الماشية الذي لابد سيظهر، سيقول الجميع من أين له هذا وهو كعيت لا هنا ولا هناك؟

اقتنعت أن ابتعادي عن وجوههم سيحسم أمري وسيتركونني في حالي. وعرفت كذلك أن حياة المدينة قد سحرتني وفتحت معي، وفيها متسع كبير لأن يسرق الجميع الجميع، ولما كان من المستحيل أن تقبض الحكومة على الجميع فإن الجميع يعمي عينه عن الجميع «ويطرمخ» عليه والأمور ماشية بالتكال. ثم إنني انقضضت على الحشيش كالشهوان تشرب في آخر زاده، وبعيني تطلب الحلاوة الحجيبة. ضحك «عليل» قائلا: «أنت الآن لست على مضحك فما الأمر؟» وبرقت في عينيه نظرة خبيثة شقية،

فتجاهلتها قائلا: «لا شيء! لا شيء». قال في خبث: «يعني ليس وراءك أي مشاوير الليلة؟» ضحكت رغما عني وترددت. هممت أن أقول لا، أن يبقى معي ويعطلني، إذ إنني ورائي مشوار بالفعل. نظرت في عيني «عليل» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال: «ألم تشبع في مصر من هذه الشغلة؟». انفجرت ضاحكا، وتذكرت أن «عليل» يعرف أنني الليلة على موعد مع «كاملة»، حيث إنه شاهدني وأنا أكلمها، وسمعها وهي تتواعد معي أثناء وقوفنا في السوق على جنب.

«كاملة» هذه يا بوي امرأة فاتنة تلهي الشيخ عن صلاته لو مرت صورتها في دماغه أثناء الصلاة. هي مشهورة في البلدة كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال. وربما كان في البلدة أجمل منها ولكن الفقر وحده هو الذي أبرز جمال «كاملة» للجميع، فليس عندها سوى جلباب واحد ممزق عند صدرها فتظهر نهودها مثل شهدتين من كوز العسل يتمنى المرء أن يقرمها بأسنانه حتى يشبع. الجلباب ضيق من الوسط من كثرة ما خيطت رقعه، فتظهر لها خصر نحيل وكفل مثل كثيب تحت قضيب، وقد قصر الجلباب من كثرة ما تأكل ذيله، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فتاة صبية، ومنديلها أبو أوية متآكل وهي مهملة، فشعرها دائما مطروح على ظهرها فاحما كتل مضفورة على قصيب القصار. أما وجهها يا حال فمثل رغيف الخبز العلامة الخارج لتوه من الفرن موردا يكاد الدم ينبثق فيه، عينان واسعتان كعيني البقرة مكحولتان

وحدي!». قال: «يا جدع هضك من هذا الكلام فلا فرق بيننا وسأبعث لأمك بنصيبك من الألبان كل يوم بيومه وسأكون حارسا لك على هذه الأمانة حتى يأذن الله لك بالاستقرار النهائي!».
لحظتها رن هذا الكلام في دماغي فقلت لنفسي: صحيح يا ولد لماذا لا تستقر الآن في البلد وتبعد عن وجع الدماغ مادام أن الله قد أكرمك بدار أبيك وبهائم وأغنام تعيش من ورائها؟ إنه لا ينقصك الآن سوى البنت «حنة»، فأين هي الآن يا ترى؟ لكن هذا الكلام حين أديرته في دماغي عصلج وأتعبني ولم يدر بالمضبوط فعرفت أنني غير مرحب بالبقاء في البلدة الآن على الأقل. فالخفراء والعمدة هنا سيجعلونني سلوتهم وكلما وقع في البلدة حادث يجرونني إلى دوار العمدة، ولابد أنهم يطقسون حول بنائي الدار بالبناء، وحول رأسمالي من المانشيه الذي لابد سيظهر، سيقول الجميع: من أين له هذا وهو كحيت لا هنا ولا هناك؟

اقتنعت أن ابتعادي عن وجوههم سينسيهم أمري وسيتركوني في حالي، وعرفت كذلك أن حياة المدينة قد سحرتني وفتحت معي وفيها متسع كبير لأن يسرق الجميع الجميع، ولما كان من المستحيل أن تقبض الحكومة على الجميع فإن الجميع يعمي عينه عن الجميع «ويطرمخ» عليه. والأمور ماشية بالتكال. ثم إنني انقضضت على الحشيش كالشهوان يشرب في آخر زاده، وبعض تحت الحلاوة الطحينية. ضحك «مليل» قائلا: «أنت الآن لست على بعضك في الأمر؟» وبرقت في عينيه نظرة خبيثة شقية.

فتجاهلتها قائلا: «لا شيء! لا شيء». قال في خبث: «يعني ليس وراءك أي مشاوير الليلة؟». ضحكت رغما عني وترددت، خفت أن أقول لا، أن يبقى معي ويعطلني، إذ إنني ورائي مشوار بالفعل. نظرت في عيني «مليل» ثانية فوجدت فيهما كلاما وحديثا، وقال: «ألم تشبع في مصر من هذه الشغلة؟». انفجرت ضاحكا، وتذكرت أن «مليل» يعرف أنني الليلة على موعد مع «كاملة»، حيث إنه شاهدني وأنا أكلمها، وسمعها وهي تتواعد معي أثناء وقوفنا في السوق على جنب.

«كاملة» هذه يا بوي امرأة فاتنة تلهي الشيخ عن صلاته لو مرت صورتها في دماغه أثناء الصلاة. هي مشهورة في البلدة كلها بالجمال والدلال وحسن الوصال. وربما كان في البلدة أجمل منها، ولكن الفقر وحده هو الذي أبرز جمال «كاملة» للجميع، فليس عندها سوى جلباب واحد ممزق عند صدرها فتظهر نهودها مثل شهدتين من كوز العسل يشتهي المرء أن يقرمها بأسنانه حتى يشبع. الجلباب ضيق من الوسط من كثرة ما خيطت رقعه، فظهر لها خصر نحيل وكفل مثل كثيب تحت لضيب، وقد قصر الجلباب من كثرة ما تآكل ذيله، فظهرت سمانة قدميها مثل سوة فتاة صبية، ومنديلها أبو أوية متآكل وهي مهملة، فشعرها دائما مطروح على ظهرها فاحما كتلال مصفوفة على قضيب القضبان. أما وجهها يا حال فمثل رغيف الخبز العلامة الخارج لتوه من الفرن موردا يبك الدم فيه، عينان واسعتان كعيني البقرة مكحولتان

كحلا طبيعيا، لا ينظر فيهما مخلوق إلا ويتوه ويتأكد أنها بحر يطلب الري من ماء الحياة بغير حدود.

هذا الجمال كله يا بوي متزوج من رجل عليف مسن، لا شخصية له ولا وقار، اسمه «سعداوي»، يعمل سقاء بالسوية، يحمل القربة على ظهره يملؤها من النيل يلف بها على البيوت يفرغها في الأزيار حتى تمتلئ، في مقابل حزمة قمح أو برسيم أو بضعة كيزان من الذرة أو حفنة قطن يأخذها عند الحصاد، أو لا يأخذ لا يهم. هو ضعيف مثل كلب جربان في حي غريب. أنت وغيرك يشخط فيه ويضربه بكف اليد على وجهه فلا يرد ولا يفعل شيئا أكثر من الجمجمة والبرطمة. وينتهي الأمر عند هذا الحد.

ولا أحد يعرف كيف تزوج هذا العجوز العجوز من هذه الحورية الطرية الشهية. لكنها عجائب الزمن وما أكثرها في بلادنا يا خال. غير أن الجميع يثق ثقة كبيرة أن هذه المرأة المسكينة غير شبعانة من ناحية الجماع. وبعضهم يطمع فيها ويستغفر الله له ولولاياه، وبعضهم يأتيها في السر، وكل مار من أمام دارهم - إن كان من حي آخر - لابد أن يكون قاصدا لـ «كاملة» أو من عندها. وهي تسكن مع زوجها «سعداوي» في دار في نهاية حارة ضيقة مستطيلة. ومن حسن الحظ أن الدار المجاورة لها مباشرة يسكن فيها رجل من عائلة طيبة اسمه «حربوش»، كان يسرح في الليل لاصطياد رزقه وتلقيطه من غيطان الناس. وكنت كثيرا ما أصحبه

فأساعده ولا أتفق عليه أبدا. كنت أيضا أحب شرب الشاي معه في خلوه كلما عزمني لكي أتفرج - فقط - على هذه الحورية الضالة

إلى أن منّ الله علي بمقابلتها وحدها في السوق تشتري حاجات لناس طيبين تخدم عندهم. فأحدثتها على جنب وعرضت عليها الخدمات وقلت: «أنا طالب القرب!». فقالت: «يا مرحبا!». قلت: «فين؟». قالت: «أنا لا أخرج من داري! ولا أعرف مكانا! فإن كنت تقدر على المجيء لي في الدار فتعال!». قلت: «وزوجك؟». قالت: «سيكون نائما بجواري ولن يحس بشيء». قلت متشرحا: «لو أحس أحلته بالبرمية على نوره أخمد لك أنفاسه!». فجلجلت ضحكتها ولكزتني في صدري. قلت: «يعني هل أجيء الليلة؟». قالت: «في دل تقدر؟». قلت: «طبعا». قالت: «خلاص. بعد من الحلم تجدنا في حوش الدار نائمين على الحصيرة. فينام بجواري تحت الغطاء وأنا أنام نائمة في الطرف اليمين والباب في ظهرك!». قلت وأنا منتصب القامات: «والله لأجيئن ليلة فانتظريني بعد نصف الليل!». فهزت رأسها موافقة ومضت، ومضيت، ولكني أيقنت أن ولدانا كثيرين من حارتها رأونا نتواعد، وواجهوني بنظرات مسمومة، بل وتحسسوا شواربهم متوعدين، علامة على أنني لن أنجح في الوصول إليها طالما شواربهم هذه قائمة في وجوههم. وعرفت أنهم سيرابطون لي طول الليل حتى يمنعوني، فصممت على أن أفعل مهما كان الأمر.

قلت لـ «عليّ» وأنا أشفط آخر نفس في الحجر «الجوزة» - أي الأخير: «يكفي هذا فقد صرت على سبعة عشرة». وعدني في

جبيني وقال بلهجة ذات معنى: «لماذا لا تخزي الشيطان وتمضي معي إلى الدار فتنعم في أمان الله؟!» قلت: «شف يا هليل يا حوي! لو لم يكن ولاد حارتهم رأوني وتحسسوا شواربهم كنت سمعت كلامك الآن وجئت معك من سكات! أما وقد برموا لي في شواربهم فإنني لابد لي الليلة أن أحيكهم جميعا! أعرف أنهم الآن ينتظرونني على رأس الحارة! وسأدعهم ينتظرونني هكذا حتى الصبح فيما أكون راكبا أنهي مهمتي بسلام!» قال هليل وهو ينظر في وجهي باستخفاف: «كيف يا بوي؟ ولد عفريت أنت؟ أم لعلك ولد عفاريت!» قلت: «ستري في الصبح!» قال وهو يداري وجهه بكفيه من شدة الضحك: «مادمت قلت هذا لغالب ظني أنك لن تجيء بها البر يا حسن! تظن نفسك حولي الجبينة لكي تظفر بالفتوة على كل لسان؟ إخزِ الشيطان يا حسن فالفتوة تقصد حسنا آخر غيرك هو حولي الجبينة بتاع زمان!».

تضايقت منه والله يا بوي، وصرت موشكا على الغلط في حقه، لولا وثوقي من حبه لي، ووجدت أن خير الكلام ما قل ودل على رأي ذلك الصحافي المشهور الذي لا أعرف اسمه، فنهضت واقفا وقلت بهليل: «سأنام في داري هذه الليلة وفي الصبح أجيء لأفطر معك» قال هليل: «مادمت في دارك الآن فسأنتظرك هنا فوق هذه الكنبة حتى تخلص من مهمتك المجنونة وتعود». قلت: «أهكذا رأيت؟» قال: «دعني أكون أول من يعلك بوش هذا الكنب لأجربه لك في النوم». قلت: «يزيده شرفا! ولكن احذر أن تفعل فوقه شيئا

على حس المهمة التي أنا ذاهب لأدائها الآن». ضحك حتى استوى جالسا فوق الكنبة وقال: «وهل أنت متأكد أنك ستقوم بها حتى أبني عليها؟» أوشك العبيط يركبني ركوبا تاما، فلم أضحك معه، إنما رأيتني أقول له بضيق: «أنت إنس تشك في رجوليتي يا هليل!». فشوح قائلا وهو يعود لتمدد على الكنبة: «روح! إذهب كان الله في عونك!»

وذهبت يا خال

ثالثا.خطبة الوداع

الحارة مستجبة وراء حوطة نخيل كبيرة. من يقف في قلب النخيل ويرسل البصر بالطول يستطيع رؤية الحارة على طولها، ويرى كل من يدخل ويخرج منها أو يولي ناحيتها،يرى الحارة بابًا بابًا. وكنت قادرًا على الوصول إلى الحارة من دارنا بفركة كعب، غير أنني في هذه الحالة لابد أن أمر على الأولاد الساهرين في انتظاري فيحصل الاحتكاك بيني وبينهم، فتجئ المسألة غير ظريفة من بدايتها ثم إن هدفي شئ آخر غير العراك، ولهذا لففت لفة كبيرة من وراء البلدة حتى سقطت داخل النخيل مباشرة وجعلت أترقب الأولاد من بعيد في جوف الظلام، النخيل كثير يا بوي، وكثيف، يطرح فوقي ظلامًا على ظلام، لكنني بعون الله رقدت في مطرحي مداريا جسدي في جذع نخلة كأنني مجرد انتفاخ في الجذع، وأرسلت بريق عيني إلى مساحة من الشارع العمومي المعادي للنخيل حيث تسقط منه الحارة إلى الداخل، فرأيت أربع ولدان شداد يتملكون نواصي النخيل، واثنين من اليمين وآخرين من الشمال يتوقعون قدومي من جوف النخيل لأسقط مباشرة على الحارة

كان «مختار عريبي» الولد الصايع ساكن أول دار في هذه الحارة قد فرش جوالا على مدخل الحارة بالعرض ونام متغطيا بجوال آخر كاشفا دماغه، وحين وصلت كان الأربعة يتكلمون مع «مختار عريبي» كلاما لا أتبينه، لبعد المسافة بيني وبينهم، فكان الكلام يضيع كله في حفيف النخيل مكنت متقرفصا ألف السجائر وأشعلها من بعضها، مداريا شعلتها عند الجذع بكفي المضمومة مضى حوالي نصف الساعة، كف بعدها صوت «مختار عريبي» وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم إلا بشخير النوم، إنني أعرف أصواتهم جميعا، ومن أصواتهم أعرف أنهم الولد «صابر» والولد «زيدان» والولد «سماعين» والولد «شحتة»، وهم كلهم عيال تعبة لكنهم أشداء، لو هاجوا في بلدة لأخضعوها.

مضى نصف ساعة أخرى، كف بعدها صوت الولد «صابر» وصاروا ينادونه فلا يرد عليهم، فبقي الثلاثة يتكلمون ويضحكون ويتثاءبون، وبعد حوالي عشر دقائق كفوا عن الكلام تماما، فارتفع صوت نقيق الضفادع يقول يا أرض اشتدي ما فوقك قدي، أما قلبي فصار يدق بصوت أعلى من صوت النقيق، إذ فكرت في القيام، والاقتراب أكثر من الحارة. كنت مشمرا ذيل جلبابي، لكي لا يصدر عنه وشيش ينبههم إلى وجودي، ولم أكن أمشي، بل كنت أمد ساقي على وسعها، حتى تستقر قدمي على الأرض، فأنقل الساق الأخرى، وبعد برهة أمدها نفس المدة، حتى صرت على مرمى حجر من الحارة، فتقرفصت، فارشا عيني على الأرض، حتى عيون أشباح الأولاد، متمددة في أماكنها المتباعدة وكانت

أنفاسهم قد راحت تنتظم، ويتصاعد شخير مجلجل، ووضح أنهم قد استغرقوا في النوم، ما عدا «شحتة»، الذي كان في آخر حدود النخيل، حيث نادى عليهم واحدا واحدا فلم يرد أحد، فتمدد وتقلب معطيا وجهه للنخيل.

زحفت متقرفصة شيئا فشيئا، حتى صرت بين «زيدان» و«سماعين» الراقدين، لا يفصلني عن كل منهما سوى بضعة أذرع من اليمين ومن الشمال، بقيت هكذا برهة، ثم خشيت - أي والله يا خال - أن يسمعوا دقات قلبي من شدة علو صوتها، فنهضت واقفا، وعلى أطراف أصابعي قفزت، وهي القفزة، كنت أقدر على أن أدوس بقدمي فوق صدر «مختار عريبي» الراقد يسد الحارة بجسده، لكنني تخطيته. فلما صرت في الحارة خفت فجأة من فكرة الحصار، فارتددت مذعورا، وخطوت من فوق جسد «مختار عريبي» ثانية، ومشيت في قلب الحارة لباب «كاملة»، أمسكت في صدغه هذا، وشبطت في طوب الجدار دافعا نفسي إلى أعلى، فتمكنت ساقي اليسرى من الاشتباك بطوب الجدار، حتى استويت بكلي فوقه، واعتدلت. ورميت بنفسي في حوش الدار على أطراف أصابع قدمي.

هدأت دقات قلبي لما رأيت أنني قد نجحت في الوصول، ولما لمحت الأجساد متمددة فوق الحصيرة ومغطاة بالبطانية قلت لنفسي: صبرت ونلت يا حسن، تذكرت قول «كاملة» بأنها تنام في الطرف الأيمن، هي إذن هذه التي تنام على مقربة مني. واحد

يا بوي وله. خطوة واحدة وأصير في حضنها، لكن يجب أن أنتظر برهة، فربما يكون زوجها أو ابنه صاحيا، بقيت متقرفصا في مكاني يا بوي، كاتما أنفاسي، حتى تأكدت أنهم جميعا في أحلى نومة وياكلون الأرز باللبن مع الملائكة، كل الأمور عال العال يا بوي، وآخر تمام، واه.. واه من وساخة النحس يا بوي، الولية يا بوي لم تكن تعرف أن عمتها أخت زوجها ستتعارك مع زوجها في هذه الليلة بالذات، وستغضب وتجيء لتبيت عند أخيها «سعداوي» السقاء، والولية - كاملة يعني - لم تقدر على أن تبعث لي مرسالا يبلغني بما حصل. فسلمت أمري لله، ورقدت بجوار زوجها كالنائمة، وجاءت عمتها هذه فرقدت بجوارها في الطرف الأيمن، وجئت أنا بسلامتي ورقدت بجوارها متسللا تحت البطانية، فلفحني ريح غريب ليس هو ريح «كاملة» ولا عطرها، قلت لنفسي: لعله ريح النوم. ومددت ذراعي وجئت أحتضنها فإذا بالولية تنتفض مذعورة وتملأ الليل صراخا مجنونا، وإذا بالقيامة تقوم، صاحت الأصوات الفاضحة في كل مكان، ونبحت عشرات الكلاب الشرسة المربوطة خلف الأبواب، وملأت الدنيا زئيطا، وتيقظ كل الرجال في كل الحواري، وصارت الأصوات تتجمع أمام باب الدار والنبابيت تدق فوق الباب طالبة تسليمي لتقطيع جثتي، و«سعداوي» السقاء من شدة هوجه ودهوله صار يشتم فيهم: «يا ناس حرام عليكم! يا أنجاس يا كفرة! أنتم تتطاولون على في داري! إني سأشكوكم للعمدة الليلة قبل الغد». أما أنا يا بوي، فقد صرت كالفأر في المصيدة أبحث عن خرم إبرة أخرج

معه، والكلاب جوار الباب تفرح، تريد نزع نفسها بالقوة من سلاسلها للاستقصاص فوق رائحتي، إذ أنا متكور على نفسي في ركن قصي مظلم، إلى أن لاح الخلاص كشمس الصباح بعد برهة قصيرة، كأنني سقطت خلالها في فوهة قبر وخرجت منه في الحال. ذلك أنني رأيت كومة من تراب هديم بجواري، فأدركت في الحال أنني لو تسلقتها صرت بقفزة واحدة في دار صاحبي «خربوش»..

واه يا بوي على فرحتي لحظتذاك، من كثرة اللذة بالراحة تلكأت في التنفيذ، حيث رقدت على بطني، وصرت أزحف كالثعبان فوق كثيب التراب، حتى صرت على سن الجدار، فاعتدلت، وقفزت ساقطا في قلب دار صاحبي «خربوش»، بجوار فراشه بالضبط، إذ هو يفرش وينام في الحوش بجوار هذا الجدار، تحسبا لفعل كهذا من أولاد الحرام الذين يسطون على «كاملة» في دارها. وقد تعود أن يربط السكين الكبيرة على زنده ملفوفة في جراب وأربطة بحيث يسهل نزعها عند اللزوم، وإعادتها إلى وضعها في لمح البصر.

انتفض «خربوش» قاعدا، ويده على زنده تنزع السكين فيما يصيح: «الليلة أسود من شعر رأسك يا بوديل نجس!». وهم بالانقضاض علي، لولا أن صحت فيه بسرعة لاهثة: «أنا حسن ولد أبو ضب يا عم خربوش!». أعاد السكين وتلقاني بالحضن: «يخرب بيتك يا حسن! كنت عند كاملة!». قلت: «إن الله حليم ستار!». قال باسما: «طب اجلس! نم بجواري. لا تفتح فمك!».

تكرمشت بجواره مثل الكتكوت العريان تحت وابل من المطر. صار يهدؤني ويكتم ضحكته قائلا في همس: «تعمل سبعا ثم تكتك بالصغر الرجال!» حاولت العمد، والإيهام بأنني سأتهور بفعل مجنون تحلف اليمين أنه كان يعرف أفكاري، فضغط على كتفي قائلا بسخرية: «اعقل يا مجنون! وإلا دشدشت البابيت رأسك الناشف دا! هو لا يستحق الدشدشة أي نعم. لكنه صالح لها من كثرة نشفانه هذا! ثاني مرة تبقى تسقيه شيئ من ماء العقل حتى يلين! والآن اسكت حتى نعرف ماذا يحصل في الحارة».

بقينا منصتين وقتا طويلا. وهيج الرجال يزداد حدة، ويتسع ثم يتلاشى قليلا ثم يعود أكثر حدة فيتسع كأن الكون كله يشارك فيه، واسمي يتردد من حين إلى حين، ولكن صوت العقل كان يلزع وسط الضجيج قائلا: «يا جماعة لا تظلموا! الجدع ولا تظلموا أحدا ما دام لم يخرج من الدار أحد!»، فيجاوبه صوت التكبر قائلا: «إن الفاجرة تخبيه بالداخل حتى الصباح خوفا من الفضيحة»، وتعلو نتفة بعيدة من نفس الصوت: «الفضيحة حدثت وانتهى الأمر»، تعلو نتفة أخرى: «تحتجز عشيقها خوف عليه من القتل!»، فيعلو الهياج من جديد وتتبرى النبابيت تدق فوق الباب طالبة ذلك النجس الذي بالداخل، فيجاوبهم صوت «سعداوي» باللعن والصراخ والبكاء والتهديد بالعمدة.

ثم سمعنا باب داره ينفتح على مصراعيه، وصوت «سعداوي» يصرخ، لأول مرة في حياتي أراه يصرخ ويتنصرر كالرجال، بل

أن صوته كان جهيرًا مليئًا بالرجولية والهيبة والوقار. فتعجبت والله يا حاج غاية التعجب. كيف يخفي هذا الرجل هذا الكنز الذي في صوته؟ وهو الذي لو كشفه من أول لحظة لحظي بمكانة كبيرة في البلد. إنه صوت من قبيلة الباشوات والبكوات والعمد وملاك الدواير لكنه ضل طريقه، فبدلا من أن يضرب الناس بالكرباج ويمص دمهم، صار سقاء يزودهم بالماء صبح مساء، لقاء أجر مؤجل، والبلغة القديمة فوق رأسه. عبير أن هذا كان من الأول يا «سعداوي»، وفيهت أن تستخدم صوتك وحده في صنع هيبتك. ثم إن اسمك «سعداوي» ليس هذا الصوت بالذي يليق على هذا الاسم. فانت إذن مزاة مع احترامنا لصوتك المهيب هذا ولكلامك المنفعل هذا: «أيها الناس الجبناء دونكم داري هذه فادخلوها وفتشوا فيها عن ذلك العشيق الذي تدعون وجوده! هاكم بابي مفتوح فادخلوا وافتكروني وانهشوا عرضي أكثر! قربوا أنيابكم من اللحم المسكين المستباح! يا كفرة يا من تدعون النخوة والشرف والدين [illegible] العرض! قسمًا بالله ما أعطاكم عنه سوى الحصرم الذي تأكلون وتضرسون. إنما الغيرة تأكل صدوركم وأصلابكم! كأنكم تتمنون في عرضي متطوعين على في قلب داري ولابد أن الله يصليكم بنار جهنم الحامية! فوضت فيكم أمري إلى الله! حسبي الله ونعم الوكيل!».

ثم سمعت صوت الباب وهو يغلق، وصوت الكلاب يسلم الهواء، سكت الوضع شيئًا فشيئًا. وانسحب صوت العقل أيضًا

يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستغفر عن سوء النوايا، ويبقى صوت الحكمة واضحًا، يلخصها بلا حول ولا قوة إلا بالله، باكيا على فضح خلق الله، مبررًا الصراخ بأن الولية كبس عليها كابوس من كثرة ما تكلم الناس في حقها ونهشوا في عرضها، لقد باتت تحلم بأشباح تهجم عليها في عز الليل. ثم إن الصوت نفسه قد راح ينسحب هو الآخر عجوز كانت تصلي الفجر أمام دارها بين النخيل، وصار في مقدورنا أن نعرف أن ما بقي من جمع الرجال قد صفصف على أبناء الحارة، وأن جمعهم قد اتجه زاحفًا وهم يتكلمون، بما يشبه الاعتذار مرة، والتأكيد على وجودي مرات، حتى شحب صوتهم عند آخر دار في الحارة، ثم اختفى تمامًا مرة واحدة، فعرفنا أنهم دخلوا دار «مختار عريبي» ليكملوا الكلام.

عندئذ نهض «خربوش» ومضى بخفة نحو الباب، فأزاح الضبة بهدوء دون صوت، رغم أنها كبيرة وذات جرجرة، ثم وارب الباب قليلا ونظر في الحارة، فتأكد من خلوها، فاندفع خارجًا كالفهد العجوز بلا خفيف، بعد أن رد الباب خلفه وعاد بعد برهة قصيرة، فتح الباب، وتسلل داخلا، وقال إنه خطف رجله عند دار «مختار عريبي» وتأكد أنهم جميعا هناك، وأن «مختار عريبي» أشعل الوابور يصنع شايا. وسحبني من يدي، فخرجنا وأغلقت الباب، بخطوتين اثنتين صرنا في الشارع العمومي، منه بقفزة واحدة صرنا في قلب النخيل، فضرب بخطى سريعة، حتى لاح لنا

الطريق الزراعي المحاذي للترعة فانسللنا من بين الجميع وامتطينا
الطريق الزراعي، فانحرفنا مع المدخل الرئيسي للبلدة، فدخلنا
فصرنا في حكم القادمين من خارجها، من الحقول مثلا، أو من
عند ماكينة المياه، التي كثيرا ما أخفرها أو يخفرها «خربوش» حتى
لقد ارتبط اسم كل منا بها.

أخذنا نتلكأ في السير، وندخن السجائر ونتكلم ونتبختر في
سيرنا، حتى وصلنا إلى الحارة بعد لفة طويلة. يتقدمنا صوت
الشروق الفتاح «خربوش» رغم صياعته وشقاوته من عائلة
كبيرة. وله أن يتحرك على راحته، ويفعل ما يحلو له، فلن يجد من
يدوس له على طرف حتى لو ضبطه بسرقة. وهكذا أقبلنا على
الحارة نتبختر، فوجدناهم جميعا قد خرجوا وتربعوا على مدخل
الحارة، يتكلمون ويسعلون، ويحصهم بعلّي نفسه «وشيابه من
القمل والبراغيث، وكان من الواضح أن حزنا شديدا وعميقا جدا
يخيم عليهم، والدموع لاتزال تسيل من مآقيهم، وكانت دار
«سعداوي» مفتوحة، وعلى بابها يقف ناس كثار. ومن داخلها
يجئ صوت بكاء ونواح، صاح أحدهم لما رآنا، وبدا من صوته أنه
يعمل حسابي لـ «خربوش» فحسب. «يا جماعة! يا جماعة! لقد
ظلمنا حسن ولد أبو خضر! وها هو ذا قادم من عند ماكينة المياه!
ياما في السجون مظاليم!»

فنظروا جميعا نحونا مبهوتين، وبدا عليهم الأسف الشديد، بل
قل الخزي يا حال، مع ذاك كان في عيونهم بريق خبيث، يحوم
حولي بالشكوك، ويتحسسني في كل موضع، والأمر تريد أن

تفور، وتسقط في عبي، فتشمم رائحة الخيانة تحت لباسي، وقال
«خربوش» كأنه لا يعرف شيئا مما حدث «ما الأمر يا رجالة؟»
فحكوا له الأمر من طقطق لسلامو عليكم. حينئذ صاح «خربوش»
مصفقا كفا على كف «لا حول ولا قوة إلا بالله! الرجل معي من
المغرب عند الماكينة وجاء يوصلني لغرمت عينه بالشاي. أنتم والله
ظلمة ولابد أن تستغفروا وتتأسفوا لحسن! ما هو وجه ذلك؟ إنه
ابن ناس طيبين وأعمامه شيوخ سجادة فحرام عليكم! كل منكم
يحمي نفسه وكفاه ذلك فضلا! بدلا من التعدي على حرمة
الناس!». فصمتوا جميعا ولم يردوا، وعادت الدموع تنهمر من
عيونهم، مع ارتفاع صوت الصراخ القادم من دار «سعداوي»
السقاء روح «كاملة». فشوح «خربوش» نحو الدار قائلا «ويكي ما
هذا؟». فلم يردوا. وبعد برهة نطق أحدهم من خلال بكائه «البقية
في حياتكم! سعداوي مات منذ ربع ساعة!».

مات؟! وشهقنا كما كان سهم الله نزل علينا، ولم أدر إلا وأنا
أنفجر في البكاء وأستدير ماضيا نحو داري ومن خلفي
«خربوش» يهدئ من بكائي تارة ويلعنني تارة أخرى، ولقد عزمت
في هذه الصبحية الرخية أن أمحّ من البلدة قبل أن تصبح سيرتي
على كل لسان تقابلني في كل مكان.

الرابعة. المساخيط إخوتي

وحق هذه الليلة ومساها أن الولد «بربش» كاد يقع من طوله لـ
أن فوجئ بي أهبط عليه كالقضاء المستعجل في قطار الصعيد
مرتان يا «بربش» أصبطك في قطار الصعيد صدفة؟ ألم تقل إنك
راحل إلى الإسكندرية لكي تتنزه فيها من نفسك بعض الوقت؟
تكون الحكاية وردا وفلا إذا بان لي أنكم جميعا ستظهرون الآن
في قطار الصعيد كصدفة من غير تدبير، وفاتكم أن الصدفة
نفسها تخلى بكم وترلحكم في المكشوف.

وصرت أضحك يا بوى وأعزم عليه بالسجائر الملكي وأشتري
شيئا من كل من يمر حاملا شيئا يؤكل أو يشرب. وفرصتي أن
أخفف عن «بربش» هول المفاجأة، إذ راح ينظر لي في ملامة طرية
بعض الشيء عزوتها إلى كتلة حشيش يكون قد تجرعها ولم
تشتغل بعد أو ربما كانت كاتمة عليه بعض الشيء، فأنا يا بوى
أعرف هذه الكتمة ومقروص منها كثيرا، صرت أطلب شايا ساخنا
لزوم التسبيح، وأراقبه وهو يأكل من السمسرة أكلا، فيما يرمقني
بشيء من العداوة، فتفكرت قائلا لنفسي لعل وراءه أمر يكدره
هكذا، ولكن شيئا إلهيا ضرب في صدري، قائلا إنه متعامي عليّ،

ظنا منه أنني كنت أتعقبه، فانبريت في الحال شاكرا لله على هذا
الفتح، ورحت أحكي لبربش حكايتي مع السفر من منطلق السلام
عليكم، حتى أنه ابتسم هذه المرة عن حق، وجرع كوب الشاي في
لذة، وعزم علي بالسجائر المحشوة، وغمز بي بأن أجعل ذراعي
بالسيجارة خارج شباك القطار، حتى تضيع رائحة الحشيش في
الغيطان، التي تجري أمامنا وخلفنا. وقلت له «ماذا يكدرك يا
بربش؟ فمن واجبي أن أسأل عن أحوالك! وأنت قلت لنا إنك
مسافر إلى الإسكندرية. فإن كانت لي الأمور أمور جدت علي غير
حساب فإن رفيقي سعادة كما تعرف! وإن لم تكن وثقت فيّ بعد
فيمكنك أن تعرف الآن رجوليتي أخيك الجالس أمامك! ماذا وإلا
فأنت تتكبر لي وجهي بالغيبة. ومحسوبك ليس بالذي يتكدر في
وجهه أحد يا بربش يا خوي. أنا لست تلقيحة بل إنني في «محطة
القاهرة» سأنزل تاركا لك القطار كله مصحوبا بتذكرة جديدة في
قطار آخر»

علبها وضحك الحكروت، تحلف اليمين إنه أفاق من سكرة
غاشية إلى صحوة رائقة. حضنني وطلب لي شايا. ودعبس في
جيبه فأخرج منه شيئا مثل «الشكلاطة»، قسم منه قطعة كبيرة
عزمني بها، فما إن قربتها من أنفي حتى ركبتني كرمة الحشيش
الرائعة. فطوحت بها في فمي متلمظا، حتى ذابت في لمح البصر،
وملأت فمي بنكهة الحشيش بالشكلاطة اللاذعة، تجلد الأنف
وسقف الحلق، وصرت ألح في طلب الشاي وإشعال السجائر،
وصار الهواء بطعم «قناعية»، رأسي بفرفرة، كأنه نش «ميه» في

الزحام الذي لم أعرفه بعد، فإن هي إلا لحظة أو لحظتان، حتى انخلعت دماغي عن رأسي، وطارت، وصرت لا أستطيع اللحاق بها. فصرت أضحك على الفاضي والمليان، وأشقى في استجلاب بعض كلام يحكيه «بربش» عن مشواره المفاجئ للصعيد حيث بعث له «الحاج السمني» مرسالا في عز الليل «يقلع في عرضه» أن يذهب إلى هذا المشوار يستقصي فيه أمانة من طرف أحد أعيان الصعيد الجواني لكي يعود بها للحاج السمني، إنه مشوار فيه لقمة طرية والخائب من يرد رزقا جاءه لحد عنده.

وكاد دماغي يتعب من الرمح في الريح، فيرد إلي ويلتبس مكانه من رأسي، فأفيق لبرهة، فأسأل «بربش» ما عساها تكون هذه الأمانة يا ترى؟ فيقول إنها مجرد فرشين، شيء إلهي قال لي إن هذا البربش يكذب علي، ويسرح بي، يريد أن يأكل بعقلي حلاوة، لكنني نسيته ونسيت أضحك، وأحكي حكايات مضحكة، لكنني لا أذكر شيئا مما دار غير الضحك، فلما فوجئت بالركاب كلهم وقفوا بغتة وقفنا مثلهم، ورأيت المدينة تقذف بنفسها شيئا فشيئا، في أحضاننا، إلى أن صرنا في زحمها، بين رصيفين تصدمهما المنايت من كل مكان، فصرنا ندفع بعضنا بعضا لنوصل إلى باب القطار، وقد ارتفع الزئيط فجأة، وصرنا كما يوم القيامة بالضبط، ومع ذلك انتبهت، فإذا «بربش» يسحب من الرف حقيبة كبيرة بدت للأعمى، وهو يسحبها ثقيلة ثقلا ينوء بحمله حمار. قلت «هات يا بربش أحملها لك» فأهر دراعه بها في تصميم أكيد قائلا «لا، لا، إنها خفيفة فخلّ عنك أنت!» وكانت

الحقيبة تأخذ كتفه وتنزل به إلى الأرض، فأقسمت يمينا أحاسب عليه في نار جهنم، أن هذه الحقيبة مملوءة بالمساخيط والأحجار المنقوشة مما يسمونه بالآثريات، تلك التي تلدها بطن الأرض في الصعيد بلا حساب يا خال، مثل ما شف كما تعلم، لهذا تلكأت في النزول، تحككت ساقي بجسم الحقيبة، وتأثرت ملمس الحجر، ورائحة بطن الأرض كرائحة بطن الأم، يحملها الوليد ولو كان حجرا أصمّ.

الله وكيل يا بوي، لقد شعرت والله بحقد شديد على «الحاج السمني» وعلى «بربش» معا، وحقدت على نفسي كذلك والله يابوي، كرهتها، لشدة خيبتها، وتحركت الدماء في قلبي، وقلت لنفسي كيف يتاجر أبناء البرابي في إخوتي وأب وألف أتفرج؟ نعم، نعم، فإن هذه المساخيط، وهذه الأحجار المنقوشة بالذهب، هي إخوتي، ولدتهم بطن أرض الصعيد، كما ولدتني، فكيف ينزعها أولاد المفاريق ويبيعونها بالذهب، وأبقى أنا خدامًا لهم على طول الزمان؟ هذه الأرض والله لم تعرف العدل طول حياتها، لا تعرف إلا النصب والاحتيال به عليه فقط، مدارسها تعلم بالعدل دروسا نسمعها ولا نرى منه شيئا في الحياة، محروقة أم كل من يتلمس ويتكلم عن العدل، والحق، والضمير والذمة، وكل هذا الكلام الفارغ، الذي ناكل به الأونطة، وغيرنا يأكل الشهد المصفى!

لم أكن أدرك لحظتها والله ياخال، أنني وضعت «الحاج السمني» في رأسي وقلت إنني لابد أن أجيء بداهيه في يوم قريب

الخامسة . البساط الأحمدي

ما إن خرجنا من محطة الجيزة حتى بان لي أن «برعي» يريد أن يسلك وحده؛ بل إنه وقف مادًا يده قائلًا: «أشوفك بعافية». قلت بلهجة ذات معنى: «وماله». وعانقت يدي يده، تجاهل غمزتي وقال: «ربما أشوفك الليلة في القهوة؟ وربما لا حسب الظروف!». هززت رأسي قائلًا في غشم: «وماله برضه؟ ربنا معاك ياولد!». وتركته ومضيت.

وليت وجهي نحو دار «هندي» في حواري أم الغلام. فلما وصلت ضربت الجرس كثيرًا، فلم يرد أحد؛ فأبقيت أصبعي فوق الزرار مدة كبيرة، وصوت الجرس يرعق ويجلجل في قلب الحجرة، ويسمعه الزنج والجاني. فعرفت أن «هندي» يشوف حاله في الشوارع. فوليت نحو «قهوة صفصف»، وقد شعرت أنني حرس، ونفسي تحب الشاي والدخان، الله وكيل يا أبوي؛ غير وبيتي كانت على «قهوة صفصف»؛ لكنني وجدت نفسي أمشي بحذاء شادر «الحاج السمني» دون أن أدري. مع أنني والله يا أبوي ما فكرت في الذهاب إليه ولا خطر في بالي أن أمر من جواره؛ وحتى لم أكن أدري أنني أمر بجوار الشادر أصلًا؛ لكنني لحظتها

وجدت نفسي واقفًا في الخلاء الفسيح بعد انفلاتي من الحواري الضيقة الملولية؛ والنور الساطع كان يغمر الخلاء ويدهنه بلون صفار البيض، ودماغي غير موجودة على كتفي يا أبوي. تخلف اليمين أنني ما كنت أجد لها أثرًا على كتفي، وإلا كنت تفحصت إلى أنني في رحاب جامع عمرو بن العاص، الذي أعرفه ويعرفني حق المعرفة. كان الظل لحظتها أنني نسيت دماغي تدشها في الهوء الشديد، في الحقول التي اخترقها القطار؛ وعجبت كيف استطعت الوصول إلى هذا المكان بدون دماغي! وسألت نفسي بسرعة سريعة: أين كنت قبل هذه اللحظة مباشرة؟ فمن فكرت بجوب! وبقيت حائرًا لوقت طويل كأن طائرة «هالوكبتر» رمتني من السماء في هذا المكان وولت؛ حتى قباب جامع عمرو كانت مزمزمة على غير العادة، مطلية بالغموض، تذكرني بأنني رأيت مثلها ذات يوم، غير أنني لا أذكر أين ومتى. فوجدت أمامي طريقًا يمتد فيه النور إلى ما لا نهاية، وبجوار طريق يتقاطع معه سور بعد بضعة أمتار، حيث يختفي بصيص الفوانيس في هضاب من الظلمة مديدة، تشبه سنام الجمل، سرعان ما عرفت إلى أنها القرافة، وأن هذا الرصيف هو نفسه الذي يقع عليه شادر «الحاج السمني»، ذلك الشادر الذي مررت بجواره عدة مرات. وفي كل مرة أتصور أن مأتمًا كان مقامًا هاهنا ونفض؛ وتبعًا لذلك فلابد أننا الآن في منتصف الليل. إلا وصوت الأذان ينطلق من فوق مئذنة جامع عمرو، فاستهديت أنني صوت المؤذن فعرفت عنه ولكن كأنه الحلم، ورأيت الحركة تدب فجأة وتدس بهدوء في نحو

الجامع، وولدان يجرون بطاولات العيش؛ فلما جاديت الشادر، ونظرت الدور المجاورة له، ووجدتها صاحية وصوت الراديو والتليفزيون يعلوان فيها على كل الأصوات، تفطنت إلى أن الآذان هو آذان العشاء؛ وتفطنت إلى أن الذي يفعل لي كل هذه الأفاعيل هو قطعة «الشكلاطة» بالحشيش التي أعطاها لي «بربش»، فصرت أضحك وأتطوح كالسكران وأنس أنا حاله، وإذا بصوت ضحكات عالية تنطلق من وراء ظهري، فتفزعني فالتفت حولي مرعوبا وكركرة الضحك مستمرة، بربشت بعيني في الضاحكين، فوجدت أنهما «بربش» و«صفير»، وقال «بربش» وهو يخرج من ظلمة الشادر ليسندني «مالك يا متنيل على عينك؟ رايح فين؟»، قلت «منك لله يا بربش يا مفتري؛ أنت الذي فعلت بي كل هذه الشيطنة»، قال «كنت تمشي ورائي؟»، قلت «أبدا والله؛ إنما كنت أسأل عن هندي في داره فلم أجده؛ فقلت أذهب إلى القهوة أنتظرك حتى تجيء؛ فلم أدر إلا وأنا ماش من هنا غصبا عني؛ وها أنا كما تراني تلخبط عرابي والسبب أنت»

والعكروت يضحك ويتمايل ويتطوح من شدة الضحك، والصفير هو الآخر يحفر في الأرض من الضحك؛ حتى تعبت من الوقفة ومن الضحك، فتقرفصت على الأرض، وأشعلت سيجارة، ثم تذكرت، فوزعت عليهم السجائر وحلفت بالله أن الصفير يكون جدعا بحق وحقيق لو عمل كوب شاي بنونه ثولب، الصفير ما صدق أن سمع الكلمة ونهض قائلا «دانا حتى عاير أشرب شاي! وأنت كمان يا نور على حبرك علشان لسه فيه منه عندنا»، ودخل

يعمل الشاي وبقيت شاردًا في ملكوت الله وحدي، و«بربش» يضحك ويعاكسني بعصو من الطوب يرميه بجواري حتى أفزع وأخاف؛ إلى أن جاء الصفير بالشاي فقبضت على الكوب بيدي، وشفطت منه شفطات ساخنة وراء بعضها في لذة كبيرة. حتى شعرت بأن عيني صحت من النوم ومن المشلقة. فصرت أتكلم بوعي، وفي انبساط لا مثيل له، في أمور كثيرة نسيتها؛ لكن «بربش» والصفير كانا يصيحان بين وقت وآخر قائلين «يا سلا ام..يا سلام على الحكم والكلام اللي زي العسل»

وفيما أنا مندمج في الكلام الذي هو مثل العسل، مادريت إلا وأنا واقف أواصل الكلام والكوب في يدي، وأنا أشرح وأمثل، وأفرج؛ وإذا بـ «بالحاج السني» مقبل من الجامع بين جمع من الأفندية المحترمين يتكلمون في حديث نبوي شريف يقول «تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ونسبها»، ولا أدري لماذا أيضا وكان بعض الأفندية يشير بأصبعه في نفي وتصميم قائلا إنه حديث مدخول، والحاج السني يقسم إنه صحيح وأنه قرأه في البخاري ومسلم عن ، وصار يرمي أسماء مثل قلاقيل الطوب كأنه القفها من دماغه، والأفندية يصلون عليهم طالبين رضا الله عنهم وعنهم أجمعين، مما يؤكد أنهم يعرفون هذه الأسماء، مع أنني لم أسمع بهم قط من دار عمي الفقيه الكبير؛ ولكن، ليس كل من يستحق الصلاة على النبي ينالها

صرنا جميعا وقوفا في استقبالهم، صامتين، إلى أن يفرغوا من الكلام، فتقدمهم «الحاج السني» قائلا «تفضلوا»، فمشوا وراءه

فى صمت؛ وإذا هو يتأملنى برهة ويقول: «الواد حسن أبو على! إيه اللى جابك دلوقت يا عكروت؟ جئت فى وقتك والله؛ تعال! تعال!»، وسحبنى من أذنى قائلا: «تعال ورائى! فلك الليلة عورة» واستدار قائلا: «مع السلامة أنت يا بربش وتعال قابلنى هنا بعد باكر بعد صلاة العصر». فقال «بربش» بصوت غير منبسط: «حاضر ياحاج»، ثم أضاف: «أشوفك الليلة ياحسن؟». قلت: «ما أعرف». قال الحاج: «لا تنتظره الليلة!». قلت لنفسى: «بشرة خير يا ولد! جاءك الفتح على الطبطاب!»، ومشيت خلفهم مانعا دماغى من التفكير فى الأمر الذى يطلبنى من أجله الحاج حتى تكون المفاجأة طيبة.

قلب الإنسان دليله يا بوى، خاصة إذا كان إنسانا طيبا مثلى وعلى نياته. وقد دلنى على أن هؤلاء الذين يمشون أمامى مع الحاج هم من علية القوم ذوى المهابة؛ إذ هم يتحركون فى صيغة أمر ونهى، حتى ولو لم يفعلوا غير الابتسام وحنى الرأس فى تهذيب، وما صار قلبى يرتعش فجأة، ويدق فى صدرى كالطبل البلدى، فهمت أن هذا الدق بالذات لا يدوى إلا لحظة مصادمة الخطر الحقيقى الذى أصير فجأة فى قبضته، آه من هذا الدق يا بوى، أعرفه جيدا، يا بوى عمره ما خاب أبدا فى أى إنذار وجهه لى بهذا الطبل الذى يهزنى. إنه يشبه النفير النحاسى والذى يجعر كالجاموسة علامة على مجئ المأمور والضباط والناس الأبهة. وأيقنت أن للملامح التى رأيتها على وجوههم فى ضوء الشارع الشاحب، سبق أن رأيتها بنفسها مرة من مرات فى مكان بل

أماكن كثيرة لست أدريها الآن بالضبط يا بوى، لكننى أدرى - وقلبى دليلى - أن هذه الأجسام المهيبة بنظراتها وملامحها وابتساماتها وانحناءة رءوسها المهذبة مربوطة فى قلبى بالعلب والرعب والصياح، ومربوطة فى نفس الوقت من طرف مقابل بالله فى سماه مستويا على عرشه يرانى ويرى كل شىء ولابد أن يعذرنى ويقف فى صفى، وإلا فهل رأيت عمرك أبا يقف فى صف أعداء ولده مهما كان عاقا؟ هكذا يا بوى كلما دقت طبول قلبى لرعدتنى ولتحت محى على عرش السماء، فى الحال أتمنى رؤيته لتقبيل أعتابه.

توكلت على الله ومضيت فتخطيت البوابة الصغيرة التى تتوسط البوابة الكبيرة، وغاصت قدمى فى السجاجيد من أول خطوة؛ حتى السلم عليه سجاجيد ممدودة. قطعنا نفس الرحلة السابقة صعودًا وهبوطًا ومرورًا فى ردهات وممرات حتى صرنا فى غرفة البرج، حيث الشلت والبفات والحصير الخشبية اسجدة فتحها الحاج وقال: «تفضلوا»، ثم إنه أردف قائلا: «أحضر لكم جلاليب خفيفة؟ يستحسن طبعا»، لمعوا جميعا فى نفس واحد «إلا يتعب نفسه» وشرعوا فى خلع أحديتهم والجلوس على الشلت الخريصة، متأوهين من فرط التعب. حينئذ طوقت عينى وجوههم واحدا واحدا؛ ومن واحد إلى واحد تنتقل الرعشة من قلبى على دم الطبول إلى ساقى. عصرت فى وقفتى المتخشبة أرقص رقصة الفرخ؛ رقصة الدجاجة بعد ذبحها؛ بل إننى صرت فعلا يابوى، ولكن من قرصة ناسية فى كتفى تقول: «يهب كلابات من الحديد يا

بوي؟» إذ، بها أصبحني الحاج السني وإذا به يريد أن يغمزني مجرد غمز. هكذا قال وهو ينتفض من الضحك كطفل عابث جريء، والضيوف يضحكون لضحكه ولفزعتي. أتتيك كل هذه القوة الجسدية الجبارة يا مديوب؟ لابد أن يقيم المرء حسابا لهذا. ثم إنه غمزني ثانية غمزة أخف قائلا «حل بالك مع هؤلاء الرجال على قدر ما تستطيع! هم حبايبي وإذا لم ينبسطوا سأقطع رقبتك!». قلت - مع أنني لم أعرف بعد كيف سأبسطهم يا بوي. مرقبتي للبهوات إن شاء الله يكونوا مبسوطين آخر انبساط!». فقال: «أريد أن أرى شهامة الصعايدة! هم بلدياتك على العموم!» - ثم سحبني قائلا «عن إذنكم»: فمضيت تحت إبطه كنعجة مسحوبة بأعواد خضراء.

عند آخر السطح من خلف البرج وحواليه مسافات منفصلة. لم أكن رأيتها في المرة الأولى، إذ هي في أسفل البرج، مشينا قليلا في مربع كبير مسقوف بألواح الزجاج الجملون كالهرم. نزلنا حوالي أربع درجات سلم وكأننا نهبط داخل البرج نفسه لنصعد بعد ذلك يمينا أو شمالا حسبما نهوى، حودنا يمينًا فيمينًا؛ فإذا بنا فيما يشبه المطبخ، كل جدرانه بالزليزلي والقيشاني وفيها رفوف كثيرة كبيرة من الرخام، ودواليب بيضاء، وثلاجات ومواقد وأفران؛ وفيه من خيرات الله مالذ وطاب، تحلف اليمين ولا معرض من معارض عمر أفندي وشركة بيع المصنوعات. أربعة رجال يلبسون الطراطير والجلاليب البيضاء، منهمكون في عرف

وشوي وقلي وتحريط وتوضيب وتصفيف، ورائحة الأكل تضرب في الحجرة تقلبها.

فتح «الحاج السني» بابا أسفل رف رخامي؛ فكان الحائط انفتحت مضلفتين. حاجة تهوس يا بوي؛ وإذا الفتحة مليئة بعشرات الأحجام من الطل. مد ذراعه ودعبس في الداخل وأعاده بكيس كبير من أكياس الفاكهة منظره كالمخ وعبيه يحش الهباب، وتطل منه البوصة الطويلة ورقبة البمش. أعطاه لي. فقلت لنفسي «ليلتك فل يا ولد الحرام وأنت لا تستاهل لكل هذا النعيم من الله ولابد أن تصلي له مدى الأرا» زحف الحاج نحو باب آخر تحت رف آخر، فتحه ونظر في الفتحة وشرح بالمسبحة في وجهي قائلا «اترك هذا! اترك هذا!». فأعطيته له، فتركه، وسحب حلبية من حقائب الخضروات من المشمع، فيها جوزة مدد كبيرة كاملة، وحزمة من البوص الاحتياطي الذي هو عبارة عن أعواد من شجر الورد مجوفة من الداخل كالبوصة، ونحو من أربعين حجرا من الفخار الجديد المزلط، ووجاق نحاسي مشغول بالنقوش الأثرية، وبضع ماشات من معدن مصقول بأحجام مختلفة. حاجة تهوس يا بوي؛ مد ذراعه فانتزع الجوزة وقال «طلع دول فوق وتعال!» قلت «حاضر»، وفعلت؛ ونزلت فأعطاني مشمعا مطويا أمرني بفرشه فوق؛ وأمرني بأن أسيخ الجوزة وأعمرها بنيتها المثلجة واضبط إيقاعها جيدا، ففعلت. وفتح بابا من عشرات الأبواب في الحوائط، أخرج علبة معسل مزاج كاس كبيرة فيه عشرون باكو،

سلمها لي قائلا: اطلع. فطلعت، لأجد السفرجية قد مدوا طبلية طويلة وسلموا كل واحد فوطة نظيفة فردها على ركبتيه، وشرعوا يجلبون الأطباق محملة بالأطايب الساخنة. فتسللت عائدا إلى المطبخ، وقلت لواقف فيه: «عشيني يا حوى قبلما ندخل في شغل الفويط! وإلا حملوني من هنا على القرافة طوالي!». قال الطباخ: «معشيك يا بن عمي! اتفضل اقعد!»، وسحب ضلفة من الحائط فإذا هي ترابيزة كامنة استوت واقفة على الأرض موصولة بالحائط،وسحب كرسيا مستديرا وقال: «اقعد» فقعدت، فصار يغرف ويضع أمامي حتى امتلأت الترابيزة بالأطباق، وحرت بين الأصناف لكنني أكلت منها كلها كفايتي، وتركتها فارغة توحد الله لا تبغي غسيلا. ونهضت، فقال الطباخ باسمًا: «لسه الحلو!». فمددت مصفقا بيدي في طرب: «ما أحلى منك» فوضع أمامي مجموعة أخرى من الأطباق فيها مهلبية بالفستق واللوز والجوز والبندق وفيها كل ما ذكره لي الطباخ من الأصناف التي لم أكن سمعت بها من قبل أبدا. حاجة تهوس يا بوي. أكلت من كل تلك كفايتي وقد انفشخت نفسي، ونسيت أن معدتي لها وسع محدد. نهضت متلمظا فقال الطباخ باسما: «لسه الفواكه!» قلت جالسا: «لم يعد في بطني خرم إبرة!». قال: «معلهش يا بن العم!» وفي الحال رفع هذه الأطباق ووضع بدلا منها أطباقا كبيرة، عليها برتقال مشقق وتفاح وخوخ ورمان وتين وعنب، وحديقة كاملة بأصناف لا نراها عند الباعة في الأسواق. أكلت منها هي الأخرى كفايتي، حتى وصل الأكل إلى حلقي. وتذكرت أن عمي القفقه قال

ذات مرة إن الجمل يخترن الطعام في جوفه لوقت جوع لا يتوفر فيه الطعام فيجيء به من بطنه ويمضغه ثانية ليعيش عليه فابتسمت على الآخر لما تذكرت هذا القول، وقلت: فلأكن جملا يخزن الطعام لوقت جوع قريب، وهو على كل حال مهضم رحم معدتي واتعبني فإنه إلى زوال. عزمت على الطباخ بسيجارة فابور في علبة أجنبية وقال: «ماباهيرش! خذ أنت واحدة نظف بها صدرك». فأخذت يا بوي، وبالفعل أحسست بنفسها الرطب يطلع في حياشيمي وصدري ناعما كالسواك المواجات. ثم مضيت إلى فوق أجرر ساقي. وكان الرجال يقبلون عائدين بالأطباق ملآى فوق بعضها

الضيوف كانوا متقرفصين أمام البرج يغسلون أيديهم في الطشت النحاسي والولد يصب على أيديهم من بزبوز الإبريق النحاسي المشغول بالنقوش الأثرية. تعدت طريقي إلى الشمع فرشته في الركن، وفرشت عليه المخدة، وملأت الوجاق بالفحم، جلس ولد يقطع من الفحم المشتعل ويضعها في الوجاق وصرت أمروح عليها بذيل جلبابي حتى ضهلل الوجاق بالنار. اصطفت على المجارة اشعلت أنظفها وأضع فيها المعسل وأحشوها بالدخان المعسل وأرصها بجوار بعضها، وعيني لا تكف عن التأمل في الضيوف وتفحص كل ضيف، لكن واحدا منهم هو الذي كان سيسقف أبراج دماغي كلها من أساسها: إذ إنني أراه كثيرا ولكنني لا أتذكر متى وأين أراه، ولولا أنه يرتدي جلباب البلدي والطاقية

ويمسك بالعصا الأبنوس ويقول له الحاج يا أسطى، لولا ذلك لقلت إنه أنور السادات بعينه الخالق الناطق حتى في الصوت والكلام والنظرات. أخرج أحدهم من جيب صديريه علبة ذهبية كعلبة الشوق. فتحها ونفض منها قطعة حشيش مدملجة صار يرص منها تعامير في حجم الليم الأصفر يضعها على ظهر علبة سجائر مارلبورو. بعد برهة فوجئت بالحاج السني يرمي في حجري خلسة قطعة حشيش لا تقل عن أوقية، وأشار لي بغمزة أن أرص منها برحمة. ففعلت. ثم بدأت معمعة الشرب يا بوي: أدور عليهم بالجوزة وأسحب البهريز من وراء شربهم وفوق ذلك أخذ دوري في توليع حجر مثلهم. صهلل الجميع وتفككوا من ثيابهم، وخرجت أصواتهم المحتبسة منطلقة تتكلم بصوت عال، تروي النكت الإباحية والسياسية وينفجرون في الضحك.

حجر وراء حجر ودور في أثر دور، نجحت دماغي في معرفة كل هؤلاء القوم واحدًا واحدًا يا خال. تيقنت من شخصياتهم يا خال: فيما عدا ذلك الرجل الأسمر الوجه الذي يقلد أنور السادات ويلمظ بشفتيه مثله وعند الحديث يراوغ مثله. أما بقية القوم يا بوي فإنهم كلهم ممن حققوا معي يوم أمسكوني أهرب الأسلحة هذا الذي يجلس بجواري تخين الفخذين كبير المؤخرة مدور الكرش قصير الرقبة تخينها ووجهه كالأورة المحمرة، بشفتين غليظتين وعينين برأقتين تلمع فيهما الشتائم على الدوام حتى ليظهر كأنه يشتمك وإن كان صامتًا. هذا الرجل يا بوي هو أول

من تلقاني يوم أمسكوا بي. أما هذا الأفندي الجالس بجواره، المحبوك حتى وهو مشمر أكمامه موسع ربطة العنق فاكك زراير الصديري، بشبابه الطالع نحو الخمسين من عمره، وجهه الأبيض المحمر الشبيه بفردة حمام رعاليل، بضيق عينيه وصغر رأسه، والشعر الخفيف المبيض المنتشر حولها، وشفتيه الرهيفتين المزمومتين حتى وهو يتكلم، وحتى ليحار مستمعه في معرفة من أين يطلع هذا الكلام الواضح المرتب المنتظم بعبارات مثل «حيث إنه» والأمر يتوقف» و«القانون لا يحمي المغفلين» بصوت قوي رنان، ويقصره الوقار الشديد حتى وهو يقول نكتة على الرئيس أبو عبدالناصر. هذا الرجل الملعون يا بوي هو الذي حقق معي تحت وابل من الكرابيج. حاجة تهوس يا بوي: سبحان الذي أجلسني بجواره الآن حجرًا لحجر، تخرج البوصة من فمه إلى فمي، باللعر الذي لنا فيه الآن. أما هذا الرجل الثالث، النحيف، الذي تميز عن الجميع بأن أخذ راحته على الآخر، فمدد ساقًا وعوج الأخرى دون أن يقول دستوركم، بل وانعوج متمددًا على فخذه الأيمن منشغلاً في العبث بمؤشر راديو صغير جدًا في كفه، حتى إذا جاءته بوصة الجوزة مد بوزه الرفيع الشبيه بـ «عقدة وشيطة»، وصار يشفط الأنفاس بهدوء وروية حتى يأتي على الحجر ثم يمسح كفه المستطيلة بأصابعها السرحة على فمه وأنفه تاركًا الدخان يعود من جديد إلى فمه وأنفه تدمع لدى ذلك عيناه، فيمسح على جبهته الضيقة ورأسه الشبيهة بأصص الزرع، غزيرة الشعر قصيرته، قصير السوالف، وخط تسليح الحلاق لامع

بوضوح شديد حول أذنيه وعلى قفاه للخطوط بالمسطرة. هذا الرجل يا بوي آه منه! أعرفه ولا أعرفه، أرى صوره في الجرائد المفرودة عند بائعي الطعمية وماسحي الأحذية والحلاقين، يظهر والله أعلم أنني رأيت صورته ذات مرة بالبدلة العسكرية في برواز على الحائط في منزل لا أدري من، إنما أدري أنه منزل كبير، فهو إذن لابد أن يكون رجلا تخين المركز يا خال؛ والحاج السمني هذا اللعوب لا يريد أن يبوح باسمه، ويكتفي أن يناديهم جميعا بـ «يا سعادة البيه»، ويا أفندم ويا سعادة الباشا، وحين يكون الكلام عن نفسه يقول: خادمكم المطيع أحمد السمني يقول لكم بعد إذنكم كذا وكذا.

دماغي لفت يا بوي، تحلف اليمين أن البرج الذي كنا نجلس فيه صار يطير في الهواء. الفجر قال الله أكبر ومعي مطفئ النار في الوجاق وتلم العدة والضيوف يلبسون أحذيتهم ويرددون ثيابهم ويشربون بعض المياه المثلجة قبل خروجهم للهواء. سبقهم الحاج السمني نحو الباب ملتفتا مصري أمرا بأن ألم العدة كلها وأكنس المكان جيدا وأطلب من الخادم أن يوصلني إلى باب الخروج حينما أنتهي من مهمتي، وإنني لأكون جدعا بصحيح لو غسلت أرضية الغرفة بالماء والحيشة. وكنت أظنه قد رأى النوم معششا في عيني، لكنني تأكدت أن النوم في عينيه هو سيمنعه من صلاة الفجر على الحصر الذي يهواه. لكنه مضى أمام الضيوف فهبطوا السلم، وابتعدت أصواتهم، ثم اختفت، ثم ظهرت من جديد، ثم ابتعدت، لتختفي نهائيا

السادسة : الطريق الملكي

تسلقت الشباك ونظرت في الشارع، فرأيتهم جميعا يمشون نحو جامع عمرو، فنزلت، وجعلت أمشي هنا وهناك. رأيت الولد الخادم متكورا خلف البرج في الطراوة، مستغرقا في نوم عميق يأكل الأرز باللبن مع الملائكة. أسرعت بتنفيض الفرشة والأرض بمسحة نظافة، حتى نظفتها جيدا في دقائق معدودة، وجمعت العدة إلى المطبخ، فوضعتها في نفس الدولاب وخرجت، وبدلا من أن أستدير يمينا استدرت شمالا ومشيت قاصدا الباب الذي منه أصعد إلى البرج لأوقظ الولد، كي يفتح لي باب الشارع لأخرج

فإذا بي قد صرت في ممر ضيق مضاء بلمبات سهاري صغيرة، ومفروش بالسجاد فوق أرض من الخشب، ترن فوقها الخطوات، حوائطه جميلة الشكل، مزدانة باللوحات الملونة، المبروزة، والأنتيكات وبين كل بضع خطوات تبرز من أحد الجدارين حنية متكورة، نعود عندها يمينا، وأحيانا شمالا وفي كل حنية عدة طاقات فوقها زهريات ورد يتصوع منها الضوء الوردي الخافت عبر مصابيح على شكل أيقونات ومساخيط

السُّكّر يا بوي، هيأت لي أنني عاش في قصر من قصور الجنة لا يعترض طريقي أحد فلابد إذن أن يكون رصواصها الخفير مسطولا هو الآخر حتى نام يأكل أرزا باللبن مع الملائكة. صوت إلهي جهير يرن في صدري قائلا: إرجع يا ولد قبل أن تتوه ولا تعرف كيف تعود. وصوت آخر حاد لعله صوت أبي يرغو هذا الصوت الإلهي قائلا: إمش ياولد ولا يهمك لصريها طبجة فلن يحدث لك إلا ما هو مكتوب عليك. تفرج على هذه الأبهات التي لم ترها في حياتك من قبل. شف كيف الأغنياء اللصوص يعيشون يتمتعون بجنات النعيم فوالله يا بوالعم لا يحظى بهذه الجنان سوى فجرة اللصوص أما نحن فتنال قابلي يوم القيامة لو شلفناها؛ إنت في فقر وعجزنا نسبّ الدين، نسرق، نقتل، ولن نحظى بالجنة في الآخرة مهما تبنا ـ وهل سنتوب؟

انتبهت إلى أنني مع مغامرتي لكل حنية يتحتم علي أن أنزل درجة سلم صغيرة، فانتبهت على أثرها أن كل حنية في الممر هي عبارة عن عمود من الأسمنت المسلح المدهون بألوان الزيت. لاحظت كذلك يا بوي أن بعض الشبابيك في أحد الجدارين قد تحولت إلى نوافذ دائرية صغيرة كنوافذ السجن في أعلى الجدار، ثم إنها اختفت تماما بعد عدة سلمات هبطتها على امتداد ذلك الممر الدائري العجيب. إنه يتسع لشخصين اثنين بجوار بعضهما لا غير وبالكثير ثلاثة رفيعين مرموقين.

على بعد قليل كانت ثمة حنية جديدة تقترب، فأعددت استعدادي لنزول درجة السلم التابعة لها حتى لا أتعثر في الأخرى محفور

فيها طاقة مبطنة بالخشب من رفين منقوشين، على أحدهما زهرية ورد مصبغة وعلى الآخر مسحوط من الفضة اللامعة. وإذ بالهواء يكثر فجأة، كالمطر يتدفق من السماء، وسمعت أزيزا يشبه الأنين ويشبه ربق صدور المدخنين ويشبه كذلك الصريخ المكتوم. توقفت متجمدا من الرعب بالحال، باحثا عن مصدر هذا الهواء من أين جاء وهذه الأنات من أين طلعت. ثم إن الممر انفرش فجأة بالنور الرباني السماوي، فصرت أنظر في السقف، فرأيت مدورة فيه، عبارة عن فتحة مستديرة في سقف مقبب يتساقط منها الضوء والهواء. جعلت دماغي تحت الفتحة مباشرة وتربعت فوق الأرض ناظرا في عمق الفتحة فوجدتها غريبة مظلمة من الداخل، فنمت مسطوحا على الأرض ناظرا في الفتحة محاولا رؤية السماء فلم أقدر، لأن الفتحة كانت تحتوي عيني، فكأنني أنظر في جوف مئذنة مبرمجة بعدة أدوار مقببة، تنتهي في شاهق البصر بعمة تشبه عمة الجيلاتي فوق كاس البسكويت. قلت: لا إله إلا الله واعتدلت جالسا ثم واقفا، وقد أحسست بدوخة كبيرة لا أعرف من السطل أم من الخوف أم من التعب؛ فتسمرت في مكاني يا بوي، وأخذ الهواء يشتد فجأة، ويسكت فجأة؛ لكنه كلما اشتد أو سكت، ارتفعت معه الأصوات التي تشبه الصريخ والأنين؛ فصرت أبحلق في كل شيء في الممر؛ فخيل لي أن الحنية التي تبعد عني مقدار ثلاثة أمتار تهتز وتتحرك.

قلبي راح يرعق ـ أتقصد يخفق بشدة. عامود من المسلح يتحرك؟

لابد أنني مسطول بسطلة الجنون، فها هو ذا عامود الحنية يقف من جديد ثابتا في مكانه. ولكن، ها هو ذا يتحرك ثانية، بل إنه يقبل نحوي، يكاد ينخلع من الجدار ينكسر، يقبل نحوي، يا ... يابوي. وقعت أنا في قمقم العفاريت بدون شك. شيء إلهي نطق في صدري قائلا: اجمد يا ولدي وكن رجلا. فصرت أتحرك نحو الحنية في شجاعة مرتعشة، وفي نيتي أن أمسك العامود بيدي؛ لكنني ما كدت أقترب من العامود خطوة واحدة حتى رأيته ينفصل عن الجدار ويقبل نحوي مندفعا هذه المرة كالرياح الثائرة الباغتة، يهبد في الحائط المقابل ثم يبقى مستكنا تماما. وبذلك انسد الممر تماما بعامود من الأسمنت المسلح ذي زخارف عليها ومصابيح ينبعث منها الضوء الملون. لحظتئذ ظهر لي بشكل قاطع كأن الممر لم يكن مفتوحا من قبل، وأنه مسدود بهذا العامود ذي الشفة العريضة من عهد بنائه، أي والله يا حال. قادر ربنا يحرسني لو كنت أكذب. اقتربت من العامود الذي صار في هذه اللحظة مرادفا لعقلي. وضعت يدي عليه، فأحسست بنعومته وثقله. دفعته، فإذا هو ثابت ثبوت الجدار في الجدار. دفعته بقوة، فإذا هو يهتز قليلا. فدفعته بقوة أشد، فإذا به ينزاح ببطء ليترك أحد مكانه السابق؛ وإذا الممر ينفتح من جديد.

درت السلمة المعتادة عند كل حنية؛ وجعلت أنظر في أمر هذا العامود أتحسس طرف شفته التي التحمت بالحائط فكادت معالمها تختفي. أدخلت أطراف أظافر أصابعي بينها وبين الجدار وشددت

بقوة، فإذا بالعامود كله ينشد معي ببطء أول الأمر ثم بسرعة ينجذب إلى الناحية الأخرى قافلا الممر من جديد. رأيت وراءه فراغ فتحة باب. فإذا هو عامود وباب في نفس الوقت، إذا التحم بالحائط لا يستطيع الغريب عن هذه الدار اكتشاف أنه باب. ونظرته من ظهره فإذا فيه «شنكل» سحري، في مكان غامض، يمكن فتحه بمد اليد من الطاقة تحت الزهرية مباشرة، حيث تدفع اليد رقعة صغيرة من الخشب دفعة تلقائية لتنزاح، فيصطدم كف اليد بالشنكل، فيفتحه أو يغلقه.

رأيت هذا الباب السحري يفضي إلى سلم غاطس في الأرض؛ فسار قلبي يرعق من جديد في ضرباته. يهوي كأنني ساقط في بئر هويط. مع ذلك شمرت ذيل جلبابي وزربت. أمال يا أبا. الرب واحد والعمر واحد

السابعة : الإمبراطـــور

الفتحة من أساسها فتحة بئر، ومن حقي أن أخاف يا بوي، فالعمر ليس بعزقة بمعرفة النظر عن الجراءة. أما السلم الهابط فيه فمثل الوسيرك، يدور حول نفسه. حاجة تهوس يا بوي. ما هذه الدموع الرائقة، التي حفرت هذا البئر المصري في هذه الأرض وحفرت هذا السلم فيه، وجعلت له - شف الفجر - - درابزينا من حديد ناعم، عبارة عن مثلثات كالأهرامات، واحد معدول، يجاوره آخر مقلوب مشدودة بين قضيبين، أحدهما ثابت في الدرج والآخر مطلق السراح يتلوى ويتعرج هابطا في حوض البئر إلى عمق غويط جدا.

رجلي تخشبت على أول درجة، وقبضتي استماتت على حديد الدرابزين، وقلبي يرقص كاورة ذبيحة. العجب يا خال أن صدري كان منتفخا كأنني فرعون بذات نفسه يظهر والله أعلم أن درجات السلم معمولة بالعمية كي تجعل من راكبها هكذا قلت فما بالي أرتعش هكذا وكأنني مجبر على نزول القبر حيا؟ قلت لأمي لست بفرعون صعيدي أنا وأعرف مقابر الفراعين معرفة ديارى، كما

أعرف أصالة المساخيط من ريحها معرفة الأخ لأخيه ولو بعد غياب مائة عام؛ وأعرف منها مالو عرفته الحكومة لاحتلت الصعيد كله ولكن هيهات، ولرحلت عنه سكانه ووضعت بدلا منهم حمراء بنيابيت وأسدية من هيئة الآثار، كذلك أعرف المقبرة من المقارة من السرداب من المتاهة من الشرخ الجبلي الواسع، ليس هذا فقط يا بوي؛ بل إنني لأعرف مقبرة الأمير من مقبرة الفقير، مثلما أعرف جحر السحالي من جحر الثعابين لست في ملك فارسا، خل بالك من هذا؛ إنما هي خبرة توارثتها عن أهلي، وتأكدتها من سعيي على ظهرها؛ أقصد الأرض، بل أقصد في، المقابر؛ فالأرض هي المقابر والمقابر هي الأرض؛ والواحد منا يا خال منذ يفتح عينيه يرى الأرض مباشرة، وتظل عينه قريبة منها مهما استطالت قامته؛ ولا وسيط، لا عازل بينه وبينها يده في أحشائها، كما أن أحشاءها في جوفه على الدوام. ولذا فالواحد منا يا خال - أقصد الصعيديين - قد رزقه المولى الكريم عينا بطاحنة، تمط على هامت الجبال، وفي سطوح الأرض ومحسوبك بالذات - بفضل هذه العين اللعبية - عاش حياة الطيور وحياة الحشرات معا تحلف اليمين - لا كذب ولا مين - إنني أحمل في صدري وفي دماغي ذكريات الحشرات وذكريات الطيور معا، والقدر على أن أفكر كأنني حشرة، وأفكر كأنني طير لأن حياتي الفائتة كلها لم تكن غير يومين اثنين، يوم كحشرة، ويوم كطير.

إن كان على المقابر فياما نزلتها في أنصاف الليالي؛ لأحصي بداخلها مسروقاتي، بجوار هشيم من عظام الموتى؛ بل إنني أنام

شعوري بفظ الصوت وطلوع الحالة ورمي الصمصة في الحلم، شعلني الجنون. فاستدرجت امرأة عبيطة ضالة، وسمتها بجوار الهشيم، وشرعت أتاكد من رجولتي. فما دريت إلا والليث يرغمني بكف متحشبة في جنبي رغدة مؤلمة ويقول بصوت مسلوخ كصوت صرخة النار المكتومة «يا أخي اختشي وخل عندك رباية، بقى راجل أنت؟» أما العبيطة الضالة فانفجرت ضاحكة بصوت هائج، وأما أنا فقد اندفعت خارجا أعوي، والشرر الأحمر يتطاير من عيني، بعد إذ اصطدمت جبهتي بسقف باب الفسقية. وما كان صراخي وعواثي خوفا من الميت الذي مطق، بل خوفا من «رقلطه» قاطع الطريق، الذي نعرف جميعا أنه يخاوي جنية تزوجه في دار لها تحت الأرض؛ ولم يكن يخطر لي في بال أنه يستوطن هذه الفسقية بالذات.

حضرتني هذه الذاكرة وأنا في وقفتي على أول درج من سلم البئر. فصرت أضحك بشدة، أي والله يا نوي، وهتف بي هاتف يصر الشيطان وارجع يا حسن فهذه المقبرة الفرعونية مقبرة ملوكية مئة في المائة، وهذا البئر ليس محفورا بل مبنيا بالصخر حول هذا السلم اللولبي، الذي لو تكسرت أصابع الأمريكان والألمان والبريطان وكل المتفرعنين علينا هذه الأيام، لا يخرج من يدهم سنة واحدة منه. المقابر الملوكية خطر يا حسن، كلها خطر، هي الخطر بذات نفسه، هي مجرى لعطر الموت يا حسن ورشه الفرعوني قبل دفنه فيه بعشار سنين أمد الدهر في مكانه من يستنشقه يموت حتما. أهلنا القدامى كانوا في غاية الفصاحة،

يعرفون أن لصوصهم مهما عبدوهم لا يصدقونهم، ولا يخافون من أبيهم الله، الذي يقول فرعون إنه ابنه، ولسوف يتسللون لسرقة ما تحويه المقبرة من جواهر وأموال؛ ومن هنا يا حسن، لجأ أهلنا الملوك إلى حيل جهنمية، منها تسميم الهواء. لا أقول هذا من دماغي يا نوي؛ ولكنه شيء جربناه. ودعنا نقرأ في الكتب، ومع ذلك لم نتوقف عن نزول المقابر والإتيان بكنوزها. لكي يغتني بها صلاالية كبار مثل الحاج السني وغيره من لصوص الدهر العظماء لكن قولوا لي بالله عليكم كيف جاءت هذه المقبرة إلى دار السني؟ المؤكد أن دار الحاج السني هي التي بنيت حولها منذ زمن سلطاني بعيد

حلو! حلو! مادامت هذه المقبرة في دار مقصوف الرقبة هذا، فلابد أن النزول إليها شغال على الدوام؛ وهاهي ذي بقايا وساحات الأقدام. وليس من المعقول أن أعقاب السجائر هذه من عهد أيام الفراعنة، أم تراهم كانوا يعرفون السجائر أيضا؟ ربما يا نوي، محتمل، فقد عرفوا كل شيء في الدنيا والآخرة. والدليل على أن النزول هنا شغال هو وصولي إلى هنا في حد ذاته يا نوي، إذ يوجد طريق معلوم ومرسوم، ومن حسن حظي أنه كان مفتوحا مما يؤكد أن أحدا كان هاهنا منذ وقت قريب. ومن نهوجته نسي أن يغلق باب الممر المكشة، أو أنه قد ترك الباب اعتمادا على أنه قريب من هنا وسيعود بعد فرهة، أو لعله موجود الآن داخل المقبرة وسيطلع منها بعد قليل

حاجة تهوس يا بوي؛ الرعشة مككت تيس قدمي، فلاستا، وتحركت يمناي نحو الهبوط؛ فقلت والله لأنزلن، من البئر شقاط فوي، ماذريت إلا وجسدي كريشة تهبط فوق الدرج مسحوبة بالشفط مرهة طويلة مرت كسياحة في حلق الثور حامل الأرض على قرنه وبدا بي فوق أرض مبلطة بالنقوش والرسوم والألوان الشفية اللامعة، كأرض حمام في سراية مشغولة بالموزايكو مضيت أنظر في هذه الأرض، فإذا بإمكاني المشي فوقها تحت سقف تتدلى منه لمبة كهربية من أيامنا، وإذا مساحة الأرض عريضة توازي مساحة البيت المقام فوقها. في الأركان لمبات أخرى مضاءة كالبلح الأبيض. رأيت في الركن البعيد بابا كأبواب الأضرحة خطفت رجلي إليه، دفعته، فانفتح، فإذا بسلم آخر أمامي وفمه مفتوح، كفم تمساح جوفه مظلم، لا يلمع فيه سوى أطراف الدرج كالأنياب المخيفة. جاءني هاتف يقول إنني سأرمي بنفسي في جوف التمساح لو نزلت هذه المرة لكن الدماغ الناشف ناشف يابوي، صرت أتحسس الحيطان بيدي، فتلاقت بزر نور آخر لمسته فأضيء السلم كله فإذا هو قصير لا يزيد عن خمس درجات في مواجهتها باب. إه، العمر واحد والرب واحد نزلت مددت يدي متحسسا جدار الباب السفلي، فلمست زر نور فأضيئت الدنيا كلها أمامي

صدق أو لا تصدق يا حال، الدنيا كلها كانت أمامي. باحة من باحات الجنة. حيطانها حمراء وزرقاء، وعلى كل لون، رسوم

ونقوش لا مثيل لها. على الأرض قواعد رخامية، يقف ويقعد فوقها تماثيل عظيمة من الرخام والحجر الصوان. ومسلات صغيرة وكبيرة من الرخام عليها نقوش ورسوم. صناديق باب على اليمين، فتحته، عبثت يدي في الحائط بحثا عن الزر، فلما لمسته أضيئت الحجرة، فإذا بها تمتلئ بالصناديق المشغولة بالذهب والأحجار الكريمة. بعضها مغلق وبعضها مفتوح؛ والتماثيل الذهبية والفضية والبرونزية والنحاسية مرصوصة في كل مكان. ارتجت يا بوي؛ انسرعت؛ صرت أحشو جيوبي بالتماثيل الذهبية، وأحشر في دكة السروال، حتى صنعت حصرا سمينا، ومؤخرة كبيرة؛ وقلت والله ليكون لي نصيب في هذه البقية مهما كان الأمر

طلعت أجري على الباحة. دفعت بابا آخر، وأضأت النور، فإذا بي في حجرة مليئة بالفناجين، والدواليب الزجاجية المشبكة، كلها ملآنة بالحلي وأدوات الزينة والخواتم و الأقراط والعصي والمشات ومراوح اليد والنياشين حاجة تهوس يا بوي، صرت أكبش وأضع في عبي، بعد أن حزمت وسطي جيدا بدكة السروال، حتى انتفخ جسمي كله. طلعت أجري كالمجنون. دفعت باب الحجرة الثالثة. فانفتح. فإذا بها تمتلئ بأنواع من الكراسي والأسرة الذهبية، لها أرجل كالحيوانات المفترسة بعيون تبرق بالأحجار الكريمة والذهب. ارتفعت دقات قلبي كضربة الخيول على الأرض، وهتف بي هاتف يضحك، ينبهني أن الشخص الذي من

المفروض أن يعود زمانه الآن قد عاد، وقد يغلق الباب الفوقاني بالقفل، فأنحبس هنا إلى أن يبين لي أصحابي.

دورت على قلبي بين ضلوعي فلم أجده. حينما دلفت إلى البهجة الكبيرة، فإذا هي قد تغيرت؛ فالقاعة التي دخلتها لحظة قدومي كانت حوضا من حيضان الجنة، على حيطانها كتاب النقوش الحاوي من كل نوع ولون، حتى لكأنك وسطها في سراية جدرانها من الزهور. أين ذهبت التصاوير يا بوي؟ تلك الآلاف السنين عالقة بالحائط. الحائط نفسه مشكول بها. فما بالها قد اختفت لي مع البصر مسافة ما دخلت الغرفة وخرجت؟ كيف يا بوي؟ أنا مهما أسطل من شرب الحشيش لا أغيب عن الوعي أبدًا. فالسطل هو مزاج المسامرة وليست بنج العمليات. هذه قاعة أخرى غير التي دخلتها عند نزولي من السلم مباشرة!

صار قلبي مثل الدلو يغوص في بئر قدمي، وصرت أشده بحبال تتقطع بها أنفاسي. وصار الرعب يشخب قدمي من كل دم. تحلف اليمين يا خال أني شعرت - حل مالك من كلمة شعرت هذه - أن جثتي كلها أيبت إلى عرق من الخشب اليابس، ليس فيه قطرة ماء توحد ربها. انشللت فيما يظهر! ولكن حمد علمي أن المشلول لا يقدر على التحرك ومد اليد والقدم. والنفس. وها أنا قادر على هذا، وها هي ذي حبال النفس التي أشد بها قلبي من بئر قدمي تقوى، ويكرتها تكر في سلامة. ومكنة الجسم شغالة أربعة وعشرين قيراطا لكني - فيما يخيل إلي - أيضا أشعر كأني لو أردت رفع يدي ما قدرت، أو مد قدمي ما تمكنت.

الذي طرأ على دماغي لحظتها يا خال أنني وقفت مسمرًا، أصبع ذراعي بجوار جنبي، وقد نسيت تماما كل ما تحت جلبابي من كنوز مخبأة؛ بل والله وبالله نسيت الدنيا وما فيها. تقول يا خال إنني شارب لتوي ألف حجر من الحشيش المعتبر مع سنة جليلة القدر من الأفيون الخام؟ حاجة تهوس يا بوي. وكنت أذكر فقط أنني جعلت أنظر كيف دخلت هنا ومن أي باب، وأحاول استذكار الخطوات التي اتبعتها منذ نزولي خطوة خطوة، فلا أزداد إلا تأكدا بأنني تهت، إذ - لابد - دخلت من باب سحري موجود وليس موجودا في نفس الوقت. ثم فوجئت بأنني - صدق أو لا تصدق يا بوي - قاعدًا القرفصاء على الأرض مثل تمثال شيخ البلد؛ الأكادة أنني ولست أذكر كيف ولا متى جلست القرفصاء، مع أنني منذ برهة كنت واقفا مسمرا أنقل البصر في الحيطان بحثًا عن الباب الصحيح الذي دخلت منه لكي أخرج منه في الحال. لكن، لم يكن ثمة من باب سوى الباب الذي خلف ظهري والذي من المفروض أنه يفتح على غرفة الأوسمة والنياشين والعصي والجعارين والسبح المذهبة والخواتم والحلي على شكل صلبان وقباب وعقارب وحيات. هذا الباب الذي خلف ظهري - إذن - يجب أن يفتح على هذه الغرفة وعلى البهجة التي يطل عليها مجموع أبواب الغرف المطلة عليها. أين بالله ذهبت بقية الأبواب إذن، ما اعتبرت أنني الآن في القاعة العمومية؟ وأين الحوائط المنقوشة بالألوان؟ وأين السلم؟!

يا ربي، ما نهاية هذه القعدة المتقرفصة التي وجدتني معها كأنني صرت تمثالا حجريا؟ هكذا قلت لنفسي فجأة وقد بدأت أسمع دقات قلبي بعد غياب طويل. وقالت نفسي: متى أنهض لأرجع إلى هذا الباب خلف ظهري؟ لعلي أكتشف أن دماغي هو الذي في رأسي. إنني منذ دخلت وأنا قاعد الآن أتذكر نفسي واثقا فإنني أستطيع تبعا لذلك أن أقف ثانية وأن أستدير خارجا من الباب أو داخلا معه إلى الغرفة التي كنت فيها؛ وإن هذا يجب أن يحدث الآن فورا؛ إذ أن خاطرا في دماغي أنبأني بأني قد تهت فدخلت غرفة الدفن لابد، أو الغرفة الملاصقة لها، أو التي تفضي إليها بباب سري لست أراه وليس يكشف نفسه لمثلي، إنما هو يستلبني إليه فحسب!

صدق أو لا تصدق يا حال أنني كنت لحظتها أشعر بغاية البهجة والراحة النفسية. لا يداخلني أي ذرة من خوف أو رعب، بل تشوقت لرؤية الجثث التي هي مدفونة ها هنا، بل صرت أشعر بالحنين لأن ألتحم بها وأمضي في عروقها وأتركها تمضي في عروقي؛ أي والله يا حال ما هو بمس ولا لمسة انتصار

واضعا كفي على ركبتي ظللت متقرفصا أنظر في فراغ الباحة، غير قادر وغير راغب في تحريك أي عضو من أعضائي. حاجة تهوس يابوي؛ دماغي - مع ذلك - لا يتوقف عن الشغل في ملكوت أفكار تغوص تحت الأرض وتتطلع مسلتة من بين القبوات، تتسلق الأبار، لا تريد أن تبارح هذا المكان أبدا، لا تريد طعاما ولا

شرابا ولا نوما ولا هواء ولا غطاء ولا شمس ولا قمرا؛ فكل ذلك موجود الآن بوفرة بين هذه الجدران الأربعة تحت هذا السقف الجيري الأبيض، الذي اتضح لي الآن أنه مقبب كسقف الجبانة بعد أن كان مسطحا مستويا منذ برهة. ولكن أية برهة؟! إنني لم أعد أذكر متى جلست القرفصاء هكذا في هذا المكان؛ فمن فرط ما مر على دماغي من الأفكار والمرئيات هنا هنا لابد أن أكون مكثت في قعدتي عشر سنوات على الأقل، ولابد أن أهل الكهف والرقيم الذين ناموا في كهفهم مائة سنة عددا بعد كان نومهم من هذا القبيل الذي أنا فيه الآن نوما صاحيا وصحوا نائما. حاجة تهوس يا بوي!!

الخيال الذي رأيته يزحف أمام عيني جانبا من خلفي كان خيال حيوان غليظ الحجم، تبينت في شكله ثور بقرنين نافرين، ولحظة انتبهت إلى شكله كنت قد صرت في قعدتي القرفصاء تحت بطن هذا الثور الضخم، وهي تضغط بكلكلها فوق دماغي؛ لكنني كنت - مع ذلك - قادرا على تحريك رأسي. الدليل على ذلك يا حال أنني التفت مذعورًا إلى اليمين وإلى اليسار. فلما رأيت ظل الفخذين الأخيرين للثور تمرقان بجواري أدن شعرت أن... أن إحليله قد تسمر كالمسمار في قناعة رأسي: أي والله يا حال. فحنيت رأسي إلى الأمام بفعل ضغط الإحليل الحديد عليه، فشعرت بسيل يلسعني، فلسعني، تلاته بالله العظيم يا حال تحنف اليمين أن قفاي كله أخذ يلتهب ويوجعني. هنالك شعرت بضبة الرعب يا حال. فما

صمت إلى أنى أشعر بالرعب أيقنت بأنني مازلت حيا، وحينئذ جاءني الفرج يا بوي! فضممت نفسي قائما في الحال واقفا، وصرت أنكت جثتي نكتا وأهزها هزا وحينئذ انتبهت إلى الأشياء التي أخذت تتساقط من بين خلقاني، فأيقنت بأنني قد أفقت تماما، وعدت إلى الصواب. فرحت أجمع ما تساقط مني وأعيده إلى خلقانه. وكان ثمة باب وحيد أمامي، انتبهت إلى أن شكله ليس كشكل الأبواب، إنما هو إلى الممر أقرب، مجرد فراغ بين حائطين محكومين بأرض وسقف دلفت منه واجهني حائط، كسر وجهتي، فوليت يسارا بين حائطين، في ممر طويل كالسرداب لكن أرضه مرصوفة بالزلط والحصباء، وسقفه كذلك، واللون البرتقالي يلعب في السقف والأرض والحائطين بكل درجاته

بعد سير طويل في هذا الممر البرتقالي، فطنت إلى أنه ضوء الشمس قد شرّف قادما من نهاية هذا السرداب على مبعدة خطوات قليلة. هممت بالجري ولكن جثتي كانت ثقيلة كالرصاص يا حال، تحلف اليمين أنني كنت أحتاج لمن يحملها عني. عافاني الله فرأيت الضوء البرتقالي يتسع شيئا فشيئا ويعمل بحرا كبيرا. سبحان الله يابوي كلما أوشكت على نهاية الممر واقترب الضوء شعرت بالبرودة والارتجاف، وأخيرا فوجئت بأنني صرت في سور كبير دائري الشكل كمئذنة كبرج عال كبير، أرضه مسفلتة، وسقفه شمس وسحاب، وجدرانه الاسطوانية أطول من قامة ثلاثة رجال يقفون فوق بعضهم، ورابعهم هو الذي إن تساند فوقهم

يتمكن من حافة الجدار، ليروعه عمق الهاوية السحيقة خلف الجدار

أخذت ألف في فراغ هذا السور يا بوي كاللعبة الملفقة البلهة. أكاد يصيبني لطف والعياذ بالله من حائط السور الدائري يعتقل قبسا باقيا من مراسيل الشمس والقمر والهواء والسماء والمطر. يالك من فرعون ابن فراعين يا من سببت هذا هكذا. دورية الجدر فيها فجوات عديدة على شكل مربعات ومستطيلات ومثلثات، لا تتمكن العين من حصر عددها، صغيرة وكبيرة ومتجاورة ومتباعدة، وكلها فجوات فارغة يفح منها الظلام. إلى يساري كانت فجوة، على شكل فتحة باب لا تعبرها قامة الإنسان إلا منحنية

قلت لأعبرنها حتى ماشف يا بوي؟ طب ماذا أفعل غير هذا يا بوي؟ عبرتها ترفة بنوهة، حتى نصل إلى منفس رحمته. ما إن أقمت قامتي ولقيت على عتبة من الحجر الأملس كحجر الجدار الشمسي المزرق بخطوط دقيقة، هي المسافات الفاصلة بين حجر وحجر، انجذبت لسلم حلزوني من الحجر، يدعوني للصعود. إذ يادار ما دخلك شر درجة فدرجة. بسطة وراء بسطة، حودة إثر حودة، ابتسامة قائمة عقب استقامة خاطفة. يعقبها رفع صدر تواتيه وفرة من الهواء. وكنت أرى على يميني وعلى يساري كثيرا من هذه الفتحات المختلفة الأشكال التي رأيتها في دورية الجدار قبل أن أدخل البرج. بعضها يجلب عواميد من الشمس، وبعضها يسرب كتلا من السحاب محسب. بصصت من فتحة و جهتي فوقعت بصرتي على أرض السور وقد غاصت في قرار مكين

بصبصت مرة أخرى،فرأيت سماء مشمسة شاسعة تتكئ على أرض خضراء تتاخمها ـ على البعد ـ أبنية كثيفة؛ كما رأيت شريطا يلمع كرقبة ذهبي متطاولة ملتوية، سرعان ما فطنت إلى أنه نهر النيل الحبيب يجثم فوق جناحه جامع عمرو بن العاص بجلالة قدره كفيلق من طائر أبي قردان يحط على شطه لبرهة وجيزة ولن يلبث حتى يحلق في الهواء حاجة نهوس يابوى.

وصلت صعود الدرج؛ وكم صادفني في الصعود من فتحات كبيرة تفضي إلى ممرات وأبهاء يجري الخيل فيها لفرط براحها؛ كيف يا بوي؟ من أين جاء كل هذا الوسع وكل هذا التأسيس؟ وقد خامرني والله خاطر للدخول في كل فتحة على حدة؛ ولكن شيئا إلهيا كان يدفعني إلى تسلق الدرج في سمت السحاب، الذي بدا يظهر متكررا عبر الدرج الحجري. ثم ما لبثت السماء كلها حتى باتت شبكة حديدية مستلقية فوق فتحة دائرية، تظللني طاولتها؛ وصار بإمكاني أن أتبين أنها مثبتة في السقف بعاشق ومعشوق؛ عاشق ثابت في السقف ومعشوق فيها، يتثبت فيه العاشق.

صدّرت فيها رأسي يا خال، وكفي وكتفي، حتى نزعتها، وكانت ثقيلة جدا يا خال، وسبحان من يخلعها يا خال، لولا حدوث دوران وتهتك وتشعث في حجر السقف. انخلعت يا خال؛ إذ إن معاشيق كثيرة خرجت بمعشوقاتها عن ثبت السقف؛ مما أتاح لي أن أدفع جسدي كله فيها؛ لأقلبها على ظهرها، وأخرج إلى السقف يا خال راه راه وا..ه يابوي، مما رأيت. السقف كان ملحقا بسقف الدار.

بل ها هي ذي الحجرة القمرية التي كنا نعشش فيها مع ضيوف الحاج وعدت فنظرت في فتحة البرج الذي صعدت من جوفه فعصف بي الخوف والرعب من العمق السحيق الذي خيل لي أنه يفضي إلى القاع.فما كان مني إلا أن غطيت الفتحة بكل قوتي حتى رجع الغطاء كما كان.

رجع لي قلبي يا خال، وسمعت وقع خطواته في صدري، لكنني وقفت مطرحي، أفكر في كيفية الخروج من هذه الدار وحدي بدون أن أتعرض للتوهان مرة أخرى، درت حول الحجرة القمرية مرتين، ثلاثا، وبدني كان يرتجف. أسندت مرفقي على حافة جدار سور السطح المرسوم على شكل تاج ملكي ورأيتها يا خال: نعم رأيتها، فرقص قلبي من الفرح. إنها المجاري الخشبية الصاعدة حتى أعلى السطح ملتحقة بدورة مياه الحجرة القمرية غائرة في جدار السور حتى تملكت الماسورة وحضنتها في صدري، محوّطا عليها بذراعي، وتركت جثتي تهوي إلى الأرض بكل سهولة

استقرت قدمي على الأرض، فأخذت أمشي في هدوء وترو خلف دار الحاج النسي، متجها نحو عشش الجبارة وكان بعض الأطفال قد رأوني وصاحوا صحبتي، لكنني سرعان ما اختبأت منهم في إحدى الحواري الضيقة، لأرى نفسي متجها نحو بوابة الحديد مقررا إبطاء ومن عزمي الرحيل إلى البلد، لأتأوى هذه الثروة في أرض داري.

الثامنة: خطبة على قبر أبي

ما أحلاها يا خال حين تكون مواتية وحانية على الكيف، أقصد الظروف الحلوة، ظروف الإنسان الشقيان يتخبط في بحر من التعاسة. ألا قاتل الله أيام النحوس يا خال، إنها خسيسة خبيثة هذه النحوس، لا تستضعف إلا طيبي القلوب الأبرار الأبرياء، ذوي النفوس الحسنة والصدور الطاهرة والأيدي العفيفة؛ تستكردهم يا خال، تضربهم على أقفيتهم بالصرمة القديمة، لعلمها أنهم بلا خرابيش يخربشونها في وجوه حاسديهم وعوازلهم. ووالله إنها لنحوس وأي نحوس، تلك التي تتحكم في رقاب البشر الضعفاء؛ تخنقهم على مزاجها يا خال من قبل أن يولدوا. طبعا يا بوي؛ وإلا فما معنى أن يكون رجلا شرموطا كالحاج السني يشمل كل مويقات من وره لحية ممدودة ومسبحة مطرودة وماشة ممدودة وحدائق مورودة وسيرة محمودة وفي باطنها مسدودة. أليس ذلك يدل على ظروف في الأصل مجدودة وخيراتها غير محدودة؟"

ردني يا خال إن كنت تراني جمحت، فلعمت والله براكب فرسا غير فرسي. فما أنا الآن بجامح أبدًا خصوصا بعد أن رأيت ما

رأيت وفهمت ما فهمت وعرفت ما عرفت من أسرار في هذا البلد يشيب لهولها الولدان. حقا حقا هذه مصر أم العجائب يا خال ولن أمل من تكرارها. هذا والله ليس مثلا يقصد به التندر، ولا هو من قبيل الهتافات والعصبية. فلو قدر لك أن ترى ما رآه العبد لله وتشقى شقاه وتعرف ما عرفه لأيقنت أنه قرينة صدق لا يأتيها الباطل من أي مكان فيها. والحاج السني أحد هذه العجائب يا خال. إذا قدر لك نزول هذه البلد لا تنسى أن تمر عليه وتتفرج؛ دعك من الأهرامات وأبي الهول وسقارة، بل دعك من البطلمي والقبطي والإسلامي والمملوكي وكل ما تلوكه ألسن المرشدين السياحيين؛ وانظر في عجيبة الحاج السني وحده. ففيه - أقصد فيه - كل الأزمنة والاستيكات؛ عافاه الله وأعطاه طول العمر حتى يتمكن من مص كل ما في العروق من دم، وما في الأرض من رحيق، وما في السماء من ماء، وما في الجو من هواء. يقتل القهر في كل يوم ويمشي في جنازته محني الرأس من فرط الخشوع والتقوى. وتباركه الشمس صباح كل يوم، تبرم في عوده وتصلبه كعود الخيزران.

شف يا خال؛ حدها من العبد الفقير إلى ربه تعالى محسن أبو علي، ولد أبي ضب: هناك مصران. يا ولد العم لا مصر واحدة. مصر الصعيد والوجه البحري، ومصر القاهرة وحدها، عليها اللعنة إلى يوم القيامة. شف يا خال؛ لست متعلما وإن كان أعمامي من الفقهاء النبهاء؛ إنما أستطيع أن أقول لك بالفم المليان أن مصر كنانة الله، التي ورد ذكرها في كتابه العزيز هي الصعيد

والوجه البحري؛ من مصر تلك الزمان، التي تعهد الله بحمايتها من كل شر وخراب ومن كل معتد أثيم، أما مصر القاهرة هذه استعصت عليه بالله أن تجيئها شرطة تأخذها إلى غير رجعة بكل ما ومن فيها، وأن يجري الزمان بقيام عاصمة جديدة فيها عالم نظيف طاهر اليد.

مصر القاهرة هذه يا بوي هي التي ابتناها علية القوم من الفاتحين الأجلاء - شف الأكاسرة - من الفسطاط إلى العسكر إلى القطائع إلى القاهرة المعزية - الحسينية والجمالية - إلى قاهرة الإفرنج من تخوم الأزبكية حتى ميت عقبة. هذه كلها كانت مجرد سكن للحاكم الجديد ولأسرته وعلية القوم وأتباعه وعائلات خدمه وحشمه. هذا ما تعلمته من أولاد الحلال القارئين، ومن وكيل النيابة الذي كان مسجونا معي، حتى بريش وهندي وعرولي وبسبوسه يعرفون هذا من غير قراءة في الكتب. وحيث يسكن الأمراء والحكام والمرفهون لابد أن يحف على مساكنهم ذباب كثير، حشرات من كل نوع تتغذى على حسابهم. الكل عبيد ولا أخلاق لعبيد وإن لبسوا فاخر الثياب من خلع أسيادهم وأكلوا شهي الطعام من فضلاتهم. ومهما تقلد العبد خطير المناصب أو جليلها يظل العبد الذي في داخله يسبح بحمد سيده، يوجه كل همته في تقوية سلطانه وتعلية جبروته وتثبيت طغيانه. حتى ألفوا مثلا سيئا يقول: من أكل خبز اليهودي يضرب بسيفه. إسمع كلامي يا بوي وصدقني أن اللص في مصر القاهرة هو السيد الحقيقي

مهما تفه شأنه وقل نفعه، والكل يسرق على قد حجمه ومركزه يا بوي، هو وشطارته، ولربما يقع في قبضة الحكومة في كل يوم، ويمثل أمام الحاكم كل أسبوع، وكل ذلك يصبح مجرد رياضة ونزهة يقوم بها، فهو واثق أن الدينار سيد الأخلاق. إنس ما بدا لك في هذه البلاد يا بوي، فأنت لن تستطيع رؤية الدينار وهو يغادر يد العامل داخلا في ذمة الحارس. أنت يا بوي في هذه البلد لاتستطيع أن تحكم بالقانون؛ والله لو وضعت على رأس كل فرد قدمي شرطي مدجج، بل وحتى لو وضعت فوق رأس كل شرطي قدمي شرطي آخر. إن الفساد ضارب في كل النفوس يا بوي، البذرة نفسها مسمومة من الأساس فكيف يتم إصلاحها يا بوي؟ إنهم قوم لاينفع معهم وعظ ولا إرشاد ولا ردع، لأن الوعظ والإرشاد والردع عندهم في حاجة إلى وعظ وإرشاد وردع فكيف يتم ذلك يا بوي؟ كيف يا بوي حفظك الله؟ تحلف اليمين يا خال أنهم قوم يشجعون اللص وينفخونه ويمكنونه من كل المنافذ حتى يتمكن منهم أنفسهم ويمص دمهم بمصلحة لطافة أو بمشورة العافية؟ ويا حلاوة اللص في نظرهم لو كان ظريفا! إنه والله ليوشك أن يكون نبيا بينهم.

أنا لم أقرأ الكتب يا بوي؛ ولكنني عن خبرة وتجربة مريرة أقول لك إن بلد الألف مئذنة هذه تحوي من دود الأزقة والحواري الوضيعة والمنافيش العتيقة ما لا يمكن أن تسمع به في مكان آخر. واه يا بوي واه، تحلف اليمين أنها مصنع للدعارة والإفك والزور والبهتان رغم مظهرها الوديع ولحيتها الطويلة الساجية

ورغم رائحة بخورها وحلاوة نسوانها وطراوة رجالها هؤلاء الذين يعيشون يا بوي ويطالبون بكل شيء فيحصلون عليه بالطيبة أو بالعصبية، ألم أقل لك إن الدينار سيد الأخلاق وإنه مفتاح محك الذي يجب أن ينفتح لأي تفاهم حول أي شيء عن أي شيء ستدفع كم؟ والكل بأريحية وعن طيب خاطر، لأن الجميع يشفطون وينهبون ويبيعون كل شيء يخطر على بالك؛ وما دام قد أصبح لنسمة سعر فقل على الدنيا يا رحمن يا رحيم. الأكادة أنهم يفعلون كل ذلك يا بوي، في سهولة تامة يا بوي؛ وتمضي مع ذلك الحياة هادئة كأن شيئا لم يكن. الذي تعرف ديته اقتله؛ هكذا يقول المثل عندهم يا بوي!

أفتعرف يا بوي من هو الذي يقتل كل يوم وكم عدد القتلى؟ بالطبع لا تعرف يا بوي، أما أنا فأعرف؛ وجوابي أنك تستطيع أن تعرف بسهولة كم يزداد عدد القتلى كلما رأيت شخصا يضحي بمال أو بالكرامة في سبيل مغنم شخصي؛ ولا تنسَ أن تضيف نفسك في عداد القتلى يوم تضبط نفسك متلبسا بفعل كهذا مما تضطر لفعله كل يوم كي تبقى ـ فقط ـ على قيد الحياة يا بوي!

أفتنتظر مني يا بوي أن أعيش بين هؤلاء القوم دون أن أكون مثلهم؟ كيف يا بوي؟ أتلقيني بين الثعابين السامة وتطلب مني أن أكفيهم شر أذيتي لهم و لأذية ليست متولدة إلا منها؟ كيف يا بوي؟ ألست أنت يا بوي القائل دائما في كل وقت إن لم تتذأب أكلتك الذئاب؟ وإن هذا مثل وارد في الكتب مثل الآيات القرآنية؟ هاأنا أعمل بنصيحتك وأتأكد أن البركة في هذا المثل، وعما

قريب أغدو لذئب واحد من البشر. فها أنذا يا بوي أتطبع بشخصية الحاج وأتخلق بأخلاقه، وأحوي بعض صفاته، حتى أكملت معه وجهها ويبقى الوجه الآخر. أما وجه الحرفنة في السرقة والنهب والتهليب والتهريب فإن لم أتقنه كله فإني مؤسس في مسعى القدرة على أشنع منه منذ أن كشفت أساليب الحاج السمي وغيره. أما الوجه الآخر، وجه اللحية والمسبحة، والرفول في ثياب سمحة جيدة تجتذب علية القوم والحكام وتوسع من العلاقات وتقوي من النفوذ، أما هذا الوجه فأنا بسبيل تأسيسه وبحث سبل الوصول إليه بكل هدوء واطمئنان بال. كل ما هنالك ـ وادع لي يا بوي ـ أن يقيني الله عقوبة السجن إلى الأبد. فالسجن ليس للص الكبير في بلادنا يا بوي؛ إنه عقوبة اللص الصغير فحسب، كلما تفهت مسروقاته عظمت عقوبته. لهذا أعدك يا بوي أني لن أكون هذا اللص أبدا؛ إنما سأكون ذلك الكبير الذي يعلو بنفوذه فلا تطاوله هامة القانون، ولا تعرف طريقه عربات العسكر

التاسعة: حساب على تخوم الجحيم

ذلك ما حدث لي في جوار قبر أبي، وهذا كل ما دار في خاطري من حوار أمام شاهده. كيف يا ترى مررت على هذا القبر وأنا ملغم بالممنوعات وليس من الصواب أن يراني أحد أو يحتك بي أحد، فكيف جئت إلى هذا القبر لأقرأ على روحه الفاتحة؟ أنا الذي جئت من تلقاء ذاتي أم أنه ناداني فجئت مرتجرا؟ إذ بينما أدخل البلدة كانت الشمس خارجة ورقبتها دامية على أطراف سكاكين السحب البيضاء المرتعشة الزاحفة نحوها كالغول يوشك أن يبتلع بقية الرأس الصغير ليغيب كلنا في جوفه المظلم. مع المغارب تيقظت الليالي القائمة التي تركتها على هذا الطريق بين هذه الحقول والجبل بشقيه. خيل لي والله يا ترى أن أبي طالع من الخص الذي يحفر فيه ماكينة المياه يستعجل قدومي في قلق. شعرت والله بالحنين إليه. الدم يحن يا خال. قلت. لقد طلبني إذن ولأكون نذلا وابن حرام إن لم آتيه فاتحا أحضاني، هي تغريبة قصيرة عبرتها إلى سفح الجبل فصرت أمام المقبرة. وشعرت وأنه أني كنت في حاجة إليه ليحرسني في هذه العملية الكبيرة

التي حملتها، وصلتها في من؟ لي سبع من سباع الكهف والنجع واللصوصية وله بين كبار الحكام أرهاط من الأصدقاء والعملاء والعشاق والمسامرين، وهو الباذل في كل حال هدايا من الأنتيكات والأثريات وفلوسا رخيصة يذبح بها ذمما وضمائر لا حصر لها.

وبعد أن جالت كل هذه الخواطر برأسي ولعبت في بطني تذكرت أنني لم أقرأ الفاتحة بعد، فقرأتها على عجل ثم تأبطني الليل حتى وصلت إلى دارنا والناس كلهم مشغولون في صلاة العشاء فلم يحفل بقدومي أحد. فلما فتحت الباب ودخلت وأغلقته من ورائي بيسر هادئ أيقنت أن روح أبي قد حضرت وباركتني فعافاني الله إكراما لخاطرها؛ إذ هي منذ لحظة صعودها إلى بارئها - كما يقول عمي الفقيه دائما في كل مأتم - صارت من جديد نفسًا بريئة طاهرة في رحاب الرحمة الواسعة. الفعال الحسن يفضي حسنا إلى النهاية، هكذا يبدو الجواب من عنوانه. على ضوء عود الكبريت رأيت لمبة الجاز نمرة عشرة متربعة فوق رفها الخشبي يغطيها التراب ولكن الجاز فيها واضح حتى منتصفها. الحمد لله، حلت حلقاتي كلها: نفضت جسدي من كل ما حملته فيه من تحف ثمينة وكنوز نفيسة؛ غطيتها بحلة كاملة فوقها. ثم جئت بكريك ومنقرة صغيرة، وجعلت أحفر في الأرض بصبر وقوة حتى لا أصدر صوتا ينبه إلى وجودي إلى أن وفقني الله فاستطعت نقرا صغيرا محددا مربعا في حجم صندوق جدتي. يا ما أنت كريم يا رب. هذه شكارة أسمنت باقية من أيام

البناء؛ عجنتها بالمونة؛ وليست البئر من جميع الجهات تلبيسًا جيدًا كأنني صنعت له حوائط بالبتن. تركته حتى يجف. ثم اختلقت لوحًا كبيرًا من الخشب سويته على قد حلقه. صار مؤكدًا أنني في الصباح سأنهي شروتي في هذا البئر الموسع الكبير وأغطيه بلوح الخشب هذا وأردم فوقه مسويًا به الأرض وفي الآخر وضعت السرير فوقه في هذا الركن ليختفي البئر عن الأنظار تمامًا وينجو من تحسس الأقدام الفضولية. صار بإمكاني أن أرتمي فوق السرير متمنيًا على الله ألا يحس بوجودي أحد حتى تتم العملية في أمان الله.

مشيت على المصباح، فلمّ خيمة ضوئه وابتلعها، تاركًا بصيصًا يدل عليه. ما دريت إلا وعمي الفقيه الكبير المتوفى قاعد على تخوم الحائط المجاور للمصباح بكامل هيئته. ارتعشت يا خال؛ يدي تكاد تمتد لتصافحه. غير أنه لم يكن ينظر لي أو يشعر بوجودي، بل كان كعادته مستغرقًا في حديث العشاء الذي يعظ به الناس كل يوم في دارنا عقب صلاة العشاء. كان يقول عن يوم القيامة كلامًا عجيبًا يا بوي. ما سمعته منه إلا وشملتني رعشة الخوف من يوم الحساب في الآخرة. إنه يوم عظيم يا خال والعياذ بالله، وسبحان المنجي من عذابه الأليم. يوم تكون كل الأجساد التي على ظهر الأرض قد فنيت وباتت ترابًا في تراب ولم يبق من الجسد إلا فسفوسة كالسمسمة كامنة في أسفل العمود الفقري للبني آدم فوق الدبر مباشرة واسمها عصعصة الذراع؛ حينئذ ـ خل بالك يا

بوي ومتّع سمعك ـ تبدأ هذه الفسفوسة تنبت في جوف الأرض ولكن إلى الداخل، حيث ينمو عودها في بطن الأرض قدر ما ينمو؛ وإذ ينادي المنادي لحظة المثول أمام الخالق في ذلك المشهد العظيم، تنفلت كل هذه العيدان النابتة الطائرة في الهواء ذاهبة في سمت السماء. هذا إذا كانت في الأصل لمخلوقات من ذوي الأصول الطيبة والأعمال الحسنة ممن هم بلا ذنوب يا بوي. أما المذنبون في الدنيا مثله على محنتهم وما يجري لهم يا بوي: تظل العيدان الدنية تحاول نزع نفسها من باطن الأرض الملتهبة دون جدوى، فتبقى هكذا يسفعها الريح واللهب إلى أجل غير معلوم.

خفت يا بوي؛ وسحلني الخوف في جوف الفراش فلم تقو على احتوائي، بل ضاعفت خوفي. دسست رأسي في ثنية المخدة، واكتمت بنفسي غفوة في قلب الظلمة المدلهمة، لا أبغي رؤية شيء ولا التفكير في شيء. صرت أقرأ الفاتحة مرة بعد مرة، وسورة يس، وآية الكرسي، حتى انقطع سياق الآيات فجأة وكف طنينه في دماغي. وقد انجابت الظلمة فجأة، فظهرت السماوات، وظهر الضوء والدنيا أمامي سماح مداح، لا بناء لا زرع، لا ماء لا شجر لا طير لا بشر لا حشرة، لاشيء سوى الضوء والفراغ والرمال والرعب الهائل العظيم. أنا ـ آنئذ ـ مربوط من مؤخرتي في مرتفع من الأرض، كان مسمارًا مقلاووظ قد ثبت في مؤخرتي أسفل الذيل وفي جوف الأرض ومربوط من الطرفين بصامولة حديدية قامعة. بكل ما فيّ من جهد وقوة جمعت أعافر وأعافر، أحاول

نزع نفسي من الأرض بدون جدوى، وروحي متعثرة متحشرجة في حلقي، لا هي تعود إلى صدري ولا هي تطلع نهائيا وتريحني، حتى الصراخ يرتفع داخل جمجمتي ولا أقوى على إطلاقه. ومن حوالي ومن كل ناحية أرى عشرات المئات من الأجساد كالأعواد تنخلع بسرعة هائلة عن الأرض، متطايرة في الهواء نشوانة فرحانة في سمت النداء. وقد ظهر لي كأن الأرض كلها لم يعد فيها نبت مجدب سواي يا خال، فصارت نفسي تتمزق. وصرت أحاول وأحاول حتى كففت عن المحاولة درءًا للوجع العظيم الذي يمزقني من المغافرة. كنت أرفرف في صيحات استغاثة ذليلة: رحمتك يا رب عفوك ور. عساك يا ر. ب، حتى استجاب سبحانه لدعائي؛ إذ ما كدت أشرع في المغافرة من جديد حتى وجدتني منتزعا من الأرض غير أنني لم أطر بل صرت أمشي على الرمال وحيدا، حيث لا شئ حوالي أو أمامي. كنت متيقنا بيني وبين نفسي أن لا مفر من الحساب، وأنه لم يبدأ بعد، وأنني ذاهب الآن إليه. وكنت أتشمم أن الله سبحانه لابد أن يدخر لي رحمة، إكراما لشعر أعمامي الفقهاء مثلا، أو تقديرا لظروفي يا بوي. فجأة وقع بصري على بنايتين متجاورتين على طراز يشبه المساجد لكنه ليس بمسجد، البناء جديد ولامع ومهيب. إحدى البنايتين تمتد إلى الأمام بضعة أمتار عن الأخرى؛ ولهما بابان يفتحان في اتجاه واحد. جعلتهما قبلتي يا خال؛ فلما اقتربت منهما تبينت أن البناية المتقدمة لها باب عتيد كأبواب السجون الحديدية العتيقة المقرحة بلون الصدأ والرطوبة. شكله والعياذ بالله مخيف مرعب. أمامه

يقف ناسا كثيرين لا حصر لهم يقفون في سحنة قحلة أمام البوابة في حالة انتظار. أما البناية الثانية فقد ظهر لي أن شكلها فخيم، وليس لها باب يغلق؛ وجمال الورد الخضراء تتدلى بورودها على الحائط ظهر أنه سور عظيم يا خال. ولم يكن أمام هذه البناية ثمة من أحد. فتقدمت من بابها، وهممت بالدخول فإذا بجسد غليظ ضخم يظهر ماثلا من وراء الجدار، فيعترضني بعينين ماكرتين قائلا: رايح فين؟ قلت مرتجفا: تسمح لي أدخل؟ فأشار بيده نحو البناية الأخرى قائلا: شوف اسمك هناك. فاحتدت أنفض نفسي في الأرض يا خال. أصرخ صراخا لله ما يغيثني. أصوات كالنساء كالحيوانات يا خال. وكلما اتجهت نحو طابور الحشر ارتددت مصوتا صرعا ألطم وجهي وركبتي بكفي، والدموع والعرق يبللان جسدي كله. مدد مدد يا خال؛ لصرت أجري مبتعدا وأنا متيقن من أنه لا مفر من الحساب. بعض بالعربي لهم حقوق عندي لابد أن يأخذوها. وليس هناك مكان أهرب إليه. لكن البنايتين اختفتا وعادت الدنيا سدح مدح كما كانت: رمل وسماء ودخان قاتم، إلا ويظهر أمامي نهر عريض فيه قارب كبير. جريت نحو القارب. أصبح مشوحا بكل عرضي. النوتي كان رجلا ضخما؛ حرف بوز القارب نحو الشاطئ واقترب مني؛ فإذا فوق القارب جمع كبير من الناس لكنهم منكمشون في معظمهم من شدة الريح. والنوتي رفيع ممصوص يصيح قائلا وهو يمد لي سقالة: اتشعبط فيها. تعال دفيجة يابو العم. ورغم أنني لم ألمس الماء فقد شعرت بخلقاتي غرقانة في المياه ثقيلة على كتفي. فلما ركبت

واعتدل القارب وصار في وسط النهر يضربه الموج والريح من كل مكان؛ كنت واثقًا أننا ربما نكون ذاهبين بهذا القارب إلى المنطقة التي يتم فيها حسابنا وتسويتنا على الجنبين؛ إذ لابد أن يكون كل ما هدهنا يعمل لحساب الحساب، فنحن الآن فيما لاح لي في منطقة الحساب وأينما توجهت تتلقفك أيد تجرك إلى الحساب

اللهم اجعله خيرا، لم أدر أنني كنت لا أزال في قلب سريري إلا حين وقفت منتفضا فوق تراب المقبرة، وكان الضحى لحظتها يركب الغيطان. لقد أفزعني منظر المقبرة يا بوي؛ تخيلتها قبري الذي انفتح لأطلع منه إلى الحساب؛ فنكت جسدي في الحال ونزلت: دفنت القفة كما رسمت لها؛ وضعت فوقها لوح الخشب؛ ردمت لوح الخشب بالتراب سويته بالأرض. بعدها غسلت وجهي وسويت الخلق على كتفي، وطلعت أسأل عن صديقي «عليّ»، وعلى إخوتي البنات وعلى أمي

على أن قلبي – تحلف اليمين يا بوي – كان يتلوى بين جنبي ويزعق في صدري من شدة الألم. ذلك أنني مررت بجوار غابة النخيل في طريقي إلى «عليّ»، ولدار «عليّ» طريق آخر من وسط البلد عبر حوار ودروب ضيقة وخلال بيوت خربت من أيام الحريق ولم يقو أصحابها على إعادة بنائها لضيق ذات اليد، غير أنني لا أدري لماذا نفرت من هذه الطريق نفرة شديدة وواليت نحو الغيطان ملتفا حول البلدة. لعلني كنت مشتاقًا للمرور حول البلدة ورؤية الناس، ولكن يبدو أنني كنت أضمر الفوت على دار «كاملة» بمجرد اقترابي من غابة النخيل تذكرتها، فانقبض قلبي

وشعرت بالرجفة، وأسرعت خطواتي حتى لا أطاوع قلبي لجنون في الذهاب إليها مع خطواتي حاولت أن أنساها، وأنسى أنني كنت السبب في موت زوجها ياخال. كرهت أن أراها أرملة، وكرهت أن تراني هي، فندمت على الفوت من هذا المكان

ولكن هيهات، لقد رمى بها الله في طريقي عصبًا عني؛ بعد أن كنت قد جاوزت النخيل كله وصرت على مقربة من دار «عليّ» صديقي الصعيدي لم يكن يعرف أن «كاملة» موضوعة في طريقي وليس في مكنتي أن أزيحها

كانت قادمة من بعيد حاملة زلعة المياه فوق رأسها، وفي ذيل جلبابها يتعلق طفلان صغيران تحلف اليمين ياخال أنني عرفتها من خيالها يزحف على الأرض متميزا عن خيال النخيل، كنخلة نامية مشروقة القد على صدرها عرجون بلح يتهدل يبغي الوصول إلى فم الآكلين. سمعت قلبي يرتعش وأوصالي كلها ترتجف، تحلف اليمين ياخال أنني ليلة التمستها في عقر دارها ما كنت خائفا هكذا.

وا .. ه ياخال، كيف بالله كانت هذه الغزالة الوديعة الحانية مظلها على الأرض تنام في حضن سنده منحني القامة طول عمره، قد رطبته مياه القربة حتى بات – يقولون – يحيض كالنساء؟ حظ أعمى يعيبنا عنك. ولكن، لولا أن هذين الطفلين يشبهان أبيهما السقاء ما ظننت أنه اعتلاها مرة واحدة؛ إذ يقول جسدها ذلك ياخال، ويقول بكل طلة من عينيها أنها لاتزال عذراء لم يخترقها

أحد وإن كنت قد حملت وولدت مرتين. حقدت والله على أبيها ذلك الحمار التخين المخ. كيف رضي أن يزوج ابنته هذه من السقاء الضعضع، الذي لا وراءه ولا قدامه؟ أكان يرمي ابنته رميا؟ أكان كافرا بنعمة الله هكذا فيتركها ليدوس فوقها الكافرون الشرهون وإن كنت منهم؟ وه ياحال: لقد مات عائلها وتشردت بسببي، دون أن أدومها ولو بقبلة بصمة واحدة، كل ضياع البلد ركبوها في أمان الله وأكلوا من العرجون حتى شبعوا فلم يشعر بهم أحد ولا غلت عليهم ظرف سحيف طاريء. أما أنا فلا. إنني أعرف حظي المهبب بنوى: ما أكاد أصل إلى قطوف الجنة حتى يطلق الله على كلبا يفرعني أو ينهشني فأرتد محروما أطلب السلامة مقسما الكل يركبون وأنا أحزن وأتحمل الوزر، فلابد أن يكون للمولى الكريم حكمة في ذلك ياحال. وكيف يكرمني ولو بلحسة من هذا الطعام الجيد تستباح وأنا دائم الحناق معه ولا افعل حتى الآن شيئا يرضيه؟ إن الله ليس غافلا ياحال وهو سبحانه أراد أن يكيد لي ليلة زرت «كاملة» وسوف يكيد لي على الدوام كلما أردت لرتشاف العسل قلبي يحدثني الآن ياحال أن أعانده كما يعاندني. أن أفعل مثلما فعل جدي السعيد آدم عليه اللعنة، أن آكل من هذه الشجرة المحرمة؛ وإلا ركبني الجنون ومشى عقلي إلى غير رجعة ـ طيب يارب، أنت سبحانك حرمتني منها وقشعتها لأصيع خلق الله وبعضهم أعرف أنه حنثي

يه.. يه.. يه.. الآن فقط فهمت قصدك يارب. صدقني أنني فاهمك وفاهم ألاعيبك معي بالخصوص في هذه الشغلة. أنت

سبحانك تلف علي لكي تجمعني عليها في الحلال، على سنة الله ورسوله؛ أليس هذا ما تقصده بحمتك يارب؟ شف يارب، لف علي كما يحلو لك، ولكنني أعرف أن هذا من تدبيره لي: تظلمني مادمت صعيديا يعني محني مقفول. تمشي وراء أولاد القحباء من أهل مصر القاهرة الذين يشيعون عنا سخيف النكت والإشاعات، طب والله والله والله يمين أحاسب عليه في دار جهنم أنك دبرت لي هذه الشغلة في ضربة معلم مضبوطة لا تخر منها المياه جعلتني أقابلها في سوق بلدة (صدفة) وبطش في بعضنا من غير أن يسعى أحدنا إلى الآخر، وجعلتني أدحن عليها بجرأة فأكلمها فتواعدني بكل بساطة مع أنني أسمع أنها تدوخ الرجال قبل أن تؤامن لهم وتواعدهم. وقد وضعت في قلبي الشجاعة والمرجلية حتى قويتني على نط جدار دارها والنزول إليها لأصير قاب قوسين أو أدنى من حضنها، لتفاجئني بالفضيحة الكبرى وتوشك أن تقتلني؛ لكنك برحمتك هزأتني فحسب، وجئتني بحكمة تريدني أن أعيها. وها أنذا الآن قد وعيتها ولن أنساها، ثم إنك سبحانك نفخت في جسد السقاء فعاش رجلا لمدة عشر دقائق في حياته كلها ومات بعدها. أنت سبحانك تريد أن تميته في الأصل، لأدخل أنا وأحل محله مهانيا من أجل هذه الولية العلبانة المحرومة من نعمة الدنيا سنين طويلة مع السقاء جعلتني سببا لموته، حملتني الوزر، ووضعت محبة الولية في قلبي. والله والله والله لأتزوجنها، حتى بعجبك يارب. نعم سأتزوجها، هل أحد شريكي؟ هذا ما نويته وعزمت عليه ولن يردني عنه مخلوق. لقد فهمتك

يارب حق الفهم، وسوف أؤدي لك هذه الخدمة؛ فأنت وحدك الذي سيقدرها حق قدرها. هذا جميل أتجشم أن تذكره لي كلما رأيتني واقعا في ضيقة. أنا يارب سأتزوج هذه الولية القلبانة لأمنعها من فعل الحرام، سأرويها أنا، دع هذه المهمة لي. فأنا النهر الذي سيغرقها حتى لا تمص لأحد غيري؛ سأنتشلها من الشارع وهذان الطفلان سأكون لهما أبا. فمن أجل الورد يسقى العليق.

مسحت على وجهي بيدي كأنني أوقع ببصمتي على هذا العقد الذي أبرمته لتوي مع الله. وشعرت في الحال أنه سوف يسامحني على كل ما ارتكبته في حقه من لبط، تهيأت للوقوف في طريق «كاملة» ومفاتحتها في هذا الموضوع من غير لف ولا دوران، لكنني حين رفعت كفي عن وجهي لم أجدها يابوي، كأن الأرض انشقت وابتلعتها. تمغولت، صرت كالطفل الذي تاه من أمه؛ ودخل في روعي أنني لن أراها ثانية. فبقيت في مكاني القرفصاء وأرسل البصر أكاد أجهش باكيا. خطوت مسرعا حيث كانت من دقيقة؛ أطلقت عيوني بين صفوف النخيل، فرأيتها تدخل دار المعلم «جرجس غطاس»؛ فعرفت أنها تعمل في شغلة زوجها؛ وتقرفصت بين جذوع النخيل أنتظرها. جعلت ألف سيجارة مخلوطة بالحشيش وجعل قلبي يستريح لما انتويته، وحين سرى دخان الحشيش في مخي تيقنت أن الله قد أكرمني بالطريقة الأخيرة ونجاني من خطرها إكراما لهذه الولية والمؤكد أنه سيجعله جر رجلي إلى البلدة لكي أكفّر عن ذنوبي وأفعل ما سافعل

إلا وهي قائمة. والبلاص مسدد فوق رأسها، وكان واضحًا أنها قد تخلصت من طفليها حتى تسرع في جلب مزيد من المياه، ولابد أن الطفلين انشغلا بالحلوى الكثيرة في دار المقدس «جرجس غطاس»، إذ إنه صاحب دكان بقالة كبير في بلدة «صفطة»، وله دكان آخر في قلب السوق على مقربة منّي. توقفت كالمذهولة. فهمست واقفا «إزيك ياكاملة»، فظهر عليها الفرح رغم الحزن الكبير في عينيها وكانت النضارة في وجهها تؤكد للأعمى أنها باتت تأكل الوجبات الثلاث كل يوم، وثمة شيء لا أقدر على وصفه كان في وجهها وهيكلها يوحي لي أنها قد نظفت من شغلة اللبط التي كانت ماشية فيها، وجاءني يقين بأنها التحقت نهائيا بخدمة المقدس «جرجس غطاس» وأنه اشترط عليها حسن السمعة وأنها رحبت بذلك لعلها تجد عريسا يعوضها ما فات وتتوب على يديه. هزت يدي بحرارة وهي تقول «إزيك يا حسن وإزي مصر؟» ثم غالبت الدموع في عينيها ببسمة: «أجارك الله من لسع نورها»، وقالت «من يوم المرحوم ما حدّش شافك»، قلت وصوتي يرتعش وليس في استطاعتي له: «أنا جئت اليوم من أجلك وحدك!»، بدا كأنها توقعت مني شيئا يغضب الله حيث قالت «كفاك ما حدث أنا الآن واحدة أخرى غير التي كنت تعرفها إسأل عني لو أحببت! وحل عني الله لا يسيئك؛ أنا باشتغل عند ناس طيبين لا يبخلون على بخيرهم؛ فإن كنت تخشى الله فلا تتسبب لي فضيحة جديدة أنا ما صدقت أن البلدة نسيت ما حصل»، قلت وقد أوشكت على العياط «حتى ولو كنت أطلبك على سنة الله ورسوله؟»، شهقت

الولية ياخال ارتاع وجهها، فارتدت الملاءة للوراء وقالت كأن نحسة دبر سمعتها «إيه أنت صاح لنفسك؟»، قلت بكل حرارة «وحق من جمعنا على غير ميعاد أنني نويت أن أتزوجك على سنة الله ورسوله، عندي هنا دار مبنية بالطوب كدار العمدة، وأقدر أن آخذك معي إلى مصر وأستأجر لك داراً».

وا... يا خال، ما كل هذه الدموع التي انهمرت على وجه الولية؟ لقد وقفت مذهولة لا تنطق واستعجلتها الرد قائلا «قلت إيه يا بنت الناس؟ أنا أحبك وأريد أن أصلح غلطتي معك، وسوف أطيعك وأسعدك! وبشرط سأنفذ كلامي في الحال».

شوحت الولية بيديها في يأس قائلة «هل يوافق أهلك؟ وأمك».
قلت مشوحا «أنا أرعق صوتي من دماغي، ليس لأحد كلمة علي، وإذا وافقت أنت فإنني من الليلة سأصحب الرجال إلى أبيك لأخطبك منه».

فما نطقت بهذا إلا وانفجرت هي تبكي من كل عين حمام.
فتذكرت سبب ألمها يا بوي. نعم، فإن «كاملة» لم يعد لها أب، فقد مات أبوها وهي طفلة. فربتها جدتها لأمها، ولما كان «مسعداوي» السقاء يمت بصلة قربى لجدتها لأمها، فإنه تقدم للزواج منها فوافقت جدتها وبعد زفافها على السقاء بشهور قليلة توفيت جدتها. تذكرت هذا فبكيت أنا الآخر. أي والله يا خال بكيت أشد منها وقلت لها «أنا إذن أخطبك من نفسك». قالت وهي غير واثقة «إن كنت تريد تتزوجني حقا فإنك تقدر أن تخطبني من

المقدس جرجس! إنه الآن ولي أمري! قلت بكل حماسة «وماله؟ غدا أجيء بالرجال وأفعل». قالت وهي تنصرف «أفوتك بعافية» ومضت.

بقيت في مكاني، وحتى لا يراني أحد أمشي وراءها، تقرفصت حتى تختفي هي. لففت سيجارة أخرى محشوة بالحشيش، ما كدت أشعلها وأستمتع من أنفاسها حتى صعدت الشمس تمشي على قدميها، قادمة وسط النخيل، حاملة على رأسها حزمة حطب، ارتعت ياخال فانتفضت واقفا، وبلا حياء وضعت نفسي في طريقها، محاولا معرفة هذا القمر الذي لم أعرفه من قبل في بلدتنا!

شهقنا معا، بل صرخنا في نفس واحد «أهو أنت؟!» «كيف هذا يابوي؟ من يصدق هذا؟ «حنة» بنفسها؟ بعد كل هذه السنين وكل هذا العذاب في انتظارها. أفاجأ بها هكذا أمامي بكل هذه البساطة؟ لقد كنت مستعدا أن أسافر إليها في الهند والسند لو قالوا لي إنها هناك. قلت «كيف حالك ياحنة؟» قالت «بخير، الحمد لله» قلت «أين أراضيك؟» قالت «أشتغل في دار المقدس ميخائيل إبراهيم» قلت «متزوجة أم لا؟» قالت «صارت أنتظر ابن الحلال. ربنا يسوقه»، قلت في الحال دون أن أدري «لقد ساقه المقدس ياحنة». تلفتت حواليها ضاحكة في خجل، قائلة «أين هو؟». قلت مشيرا بيدي إلى صدري «ها هو واقف أمامك، هو أنا». قالت غير مصدقة «أنت؟» قلت «ومن غيري؟ والله لن يقرب منك أحد

سواي!». قالت باسمة كأنها غير مصدقة: «ربنا يعمل ما فيه النصيب!». قلت: «والصحة؟!» قالت متنهدة: «أولاده افتروا عليّ لمّن المقدس ميخائيل! أعدم سوانه وداره! ويحوش لي اللاعبة كل شهرا ويطعمني ويكسوني!» قلت: «هل أخطبك منه؟». قالت: «لا أحد غيره». قلت: «إذن! كلميه في الأمر». فهزت رأسها موافقة، ثم مضت وبعد خطوات أدارت رأسها نحوي ونظرت، فابتسمنا، وقلت لها: «لا تنسي ما قلته لك يا صباحة!» هزت رأسها تحت حزمة الحطب، ومضت تتعثر كالبلهاء. فتفرقست من جديد أدخن السيجارة وقد ذاب مخي في الفراغ بين النخيل؛ وصرت لا أعرف ماذا أفعل. لكنني نهضت متوجها إلى دار صديقي «خليل» وكنت أجر دماغي كأنه مربوط بسلاسل في قدمي، غير أنني حين تملكت الطريق، لم أدر إلا وأنا متوجه إلى محطة «صدفة» لأركب القطار عائدًا إلى مصر القاهرة

عجلة الحظ عشرة

الأولة ـ بركة دعاء الوالدين

ربما سهل، وتم كل شيء على التصميم كما رسمت به يا بوي؛ وعدت إلى هذه الملعونة ـ لقصد مصر ـ القصد مصر القاهرة ـ من جديد، لا من شاف ولا من دري. عيني كانت قوية يا بوي، ويعلم الله إن كان ذلك من وحي مرآى البنت «حنة» بعد طول سهر والتياع، والمرأة السيالة «كاملة» بعد طول غش واشتياق. أم أن الأمر راجع إلى قرة عيني من الأصل؟ الله أعلم. لكنني كنت في حالة فرح واغتباط لا مثيل لهما في حياتي؟ فاسدا أو بعد غد أنام على سرير ذي جناحين، على يميني «حنة»، وعلى يساري «كاملة» ولقد حلفت برأس أبي لأجمعن بينهما في سرير واحد. نعم يا خال، إذ لا مفر أمامي غير هذا الحل إنهاء لوجع الدماغ! وإلا فدبرني يا خال؛ لو كنت مكاني على رأي ما يجيء في الراديو، تقول إنني يجب أن أكبر مخي فأجعل لكل واحدة يوما معلوما أو جمعة معروفة، حتى يتجددني الزمن ولا أقع تحت طائلة المس؛ فبدلا من أن يكون لي بيت واحد يكون بي بيتان، أزور هنا وأعرج على ذاك عودا على بدء؟ وأحيط كل واحدة بجميلة الخ

أنت - لابد - تقول لي في نفسك هنا. هنا - لو صدقتني - صغير مع يا بوي عدم المؤاخذة، والناس إلى ذلك يقولون من يتزوج اثنتين فهو إما قادر وإما فاجر ومن يتزوج ثلاثة أو أكثر فهو قادر وفاجر معا، والأمر أبدا ليس هكذا يا بوي، في نظري على الأقل يا بوي، الأمر أبسط من ذلك بكثير، غير أنه الغشم وتخانة المخ يجعلانه يفتح بيتين، لتخلق لاهنا جبهتين تتنازعان تنهشان حتى النخاع وفي النهاية تتعاركان حول عظامنا النخرة، كل واحدة تتوهم أن وراء العظام النخرة سرا دفنته الأخرى، تفتح بيتين يا بوي تورخ نفسك بالعدل والقسطاس ولن تعجب مع ذلك هذه أو تلك. ستبقى الواحدة مهما طول عمرك تعتقد أنك تعطي الأخرى زيادة عنها من الخفاء الذي لا تراه هي. وستبقى تبعا لذلك تضمر لك مؤامرة سرية غامضة تنوي بموجبها الاستيلاء على أكبر من بقاياك. مجنون أنا يا بوي كي أفعل هذا؟ . إن امرأة كاش عظيم الشأن ما نقول في ذلك شيئا، لكنه يحتاج لعلمية فائقة الحد في معاملته؛ إنه كالقط يالف الدفء يركن إليه يطلب المزيد وفوق ذلك يفرض حصارا على ركنه عشه؛ وإن لقط عابر يقتحم عشه . انظر إليه يا خال وهو ينتفض وينقض عليه صارخا، دعرا ما تعرف أو فروسية ماتعرف، لكنه ربما مزق لحمة إربا ورماه من النافذة.

العمر الفقير ليس معلما ولاديابولو إنما أنا شقيان، ومع ذلك شرقان، روحي من الحرمان متشققة طافحة بالرغبة وليس في

مكنتي أن أفتح دارين من البلد. وفي نفس الوقت أقيم في مصر القاهرة كيف يا بوي؟ لسوف تنتقلان معي إلى مكان راقي؛ وتبقى الدار في البلدة نزورها كلما هفا هواه لذكريات النقى أي أنني مجبر على دار واحدة في مصر جنبا لجنب فيكي بالسرير الواحد جيران خاطر هو الأمر لأغرق أنا في لعمعة كيف أبقي لكي يتفاقا بينهما في عدل مزاجي وتكييفي على الجنبين ومن تستأثر من منهما تكون جدارتها حافزا لإبداع الأخرى، أو كاسرا لعينيها. تلكما الاثنان لن تريا سوى جعجعة الحق السراح

أحلام يا بوي. ولكنها ولود تحديت به، طرت على جناحيه حتى أنني من فرط السعادة نسيت عملتي المهيبة فاتجهت إلى سرادق الحاج السني مباشرة كنت ناسيا كل شيء كأنه لم يقع؛ وكانت شهقتي المفاجئة بعمق النسيان حين انقض على مافوجي دكًا الحادث فجأة زلزلني التذكر المفاجئ لكنت أولي الأدبار. لولا أن عيني حقيرة كانت قد وقعت في قلب عيني مباشرة، فيما هو جالس بجوار الباب من الداخل يرقب الطريق بعيني الصقر الواقف لابد على شاربيه

شيء إلهي قوّى عزمي في الحال، والقيت بنفسي في حالة السرور التي كنت فيها. ووسعت من سمتي كبرقية تحية أرسلها للخفير الذي سبق وكنت جدعا معه؛ ثم عبرت عن اشتياقي فحملت آخذ سمتي نحوه. فلمحت على وجهه شيئا من الترحيب استشعرت على البعد صدقه . ما أنا إلا ولد زواني أيضا يا بوي

كما تعرف ـ فخطوت نحوه بلهفة أشد؛ مما أن شملة خلي حتى هب واقفا «أهلا! أهلا حبيك يا بو العم». وكانت الحرارة في قبضة يده، فقلت له بهدوء شديد «في السماء» ثم عرضت عليه بسجارة فأخذها وسرع فأشعل لكلينا «اقعد يابو العم، هكذا قال؛ فجلست في الحال يا بوي مثل كلاحة ودون أن أتردد، لكنني شعرت بخفقة قوية في فؤادي إثر خاطر مفاجئ، أن الحمير يدبر لي كمينا أحبس فيه حتى يجئ سيده فيقبض عليّ بكل سهولة تحلف اليمين يا خال أنني لاحظت الرجل فشعرت أنه قد تورط من استجابتي الفورية للقعود، فصار يتلفت حواليه مرتبكا؛ فلما لاحظ أنني لاحظت ربكته خشي من ثبوت تورطه. فاستدار نحو خصه صائحا «اعملي شاي يا مرة؛ بس بسرعة واخلصي من اللي في إيدك». ثم استدار نحوي. «شرفت يا بو العم». «قال: عال كيف حال الحاج». قال. «بخير». وأضاف «جاي منين ورايح فين؟». قلت «كنت في مشوار بسيط؛ وذاهب إلى بلدياتي المعلم شندويلي». فأضاف «في مصر عتيقة؟». قلت «نعم». ثم هممت بالنهوض خوف الست والعجز فيما قد لا أتحمد عقباه؛ فإذا هو يقبض على ذراعي بقوة فيعيدني إلى قعدتي فوق صفيحة مقلوبة فوقها جوال مطوي. الرعب دوى في مفصلي يابوي، فشككت في حنان الحمير؛ والله ما تمشي قبل ما تشرب الشاي، ثم عرر حلقانه صائحا «الشاي. ياولية». فجاء صوت الولية واهنا من الداخل «هو على النار». ويظهر ياخال أنه فهم من لهجتها هذه شيئا؛ فدلى أذنيه في الأرض وما كاد يراني أنهض ثانية حتى

نهض هو الآخر قائلا «طب مع السلامة» يظهر إن الولية ملحومة جوه!». فقلت باسما «كان الله في عونها!»، وعرضت عليه بسيجارة أخرى؛ فتلقفها مني أصبعيه قائلا «كتر خيرك يابو العم!».

الدماء جرت في عروقي ياخال، وصرت أكاد أنتطط في مشيتي من السعادة والفرقان صرت أضرب الخطوات كيف أتفق أو هكذا خيل إليّ، لكنني وجدتني بعد قليل أمضي داخلا مقهى المعلم «شندويلي». وكانت الأيام التي لا أذكر لها عدداً قد مرت دون أن أرى المعلم «شندويلي». وكنت أراسي بالعمل مشتاقا إليه والله يابوي؛ وصرت أؤنب نفسي على عدم السؤال عنه في الزمن الفائت. المعلم «شندويلي» كان أكثر اشتياقا مني طول عمره جدع يابوي، ما أن لمحني من بعيد وهو خلف النصبة مائلا لم يتغير ولم يتبدل، حتى خرج من النصبة فاشخا حنكه المحرب فاردا ذراعيه المعروقين صائحا «وشك ولا القمر يابو العم! فينك وفين أراضيك!». لحظتها كنت في حضنه أقبله في قفاه ذات اليمين وذات اليسار؛ فلما انفلت قلت. «واحشني قوي قوي يابو العم! والله ما تعرف معزتك عندي!». جلست على أقرب كرسي مجاور للنصبة؛ أما هو فتركني وجلس بين النصبة، فصب واحد شاي على مياه بيضاء، وجاء فجلس بجواري متجاهلا نداء جرسونه، قال وهو يقلب لي الشاي. «غيبة طويلة قوي يابو العم! إيش أحوالك!». قلت «بخير والحمد لله؛ الأشيب معدن!». ثم أخرجت علبة سجائري البلمونت العشرين ـ التي اشتريتها خصيصا من

اجل هذه الزيارة، وقدمتها له فأخذ واحدة وأشعلها من بقايا سيجارة كانت بين أصبعيه. قال وهو يشد النفس في اشتياق وحرقة «تأخذ لك سنة أفيون؟» هتفت «أحب النبي!» من خلف أذنه جاءت أطراف أصابعه بورقة سلوفان صغيرة مطوية، فكها وحزّ بظفر إبهامه حمصة بنية اللون، قربها من فمي فتلقفتها بطرف لساني وقد تغير مزاجي في الحال فصار أعلى مما كان درجات كثيرة. قال المعلم «شندويلي» وهو يلقي في فمه سلحفة جديدة من «الأفيون» ويتلمظ في تلذذ مرير «بتشتغل فين دلوقت يابو العم؟» قلت «على باب الله! لكنها مستورة والحمد لله! ماتحوجه لقاه» قال «فأين تسكن يابو العم؟» قلت «مع صاحب لي! ولد عترة! يسكن في شقة صغيرة محندقة في كيمان مجرى العيون! هو يتركني أبيت معه بدون مقابل!» قال في جدية كبيرة بلهجة من لا يعجبه الحال المائل «كيف يابو خاله! دا كلام؟! إذا كانت مستورة معك كما تقول بعين قوية فلم لا تدور لنفسك على مطرح! الجدعنة ليست في الشغل ولا في المكسب يابو العم! الجدعنة أن يكون لك مطرح تبيت فيه! لا يتحكم فيه أحد غيرك! من ليس له مطرح في هذه المدينة يلقى الهول! لا تغرنك كثرة المآذن ولا براح المساجد ولا فخامة القباب فليس تحتها من شيء سوى الرميم المسحوق! ينتهك عرض الشريف وهو نائم حتى ولو كانت على رأسه ريشة الذهب! شف لنفسك مطرحًا يابو العم! اطرد نفسك قبل أن يطردك الغير بنذالة! إن كنت سوى الشغل هنا فالمطرح أهم من الشغل بكثير!»

ثم قام فاتجه إلى النصبة، فأعد كمية من المشروب المطلوبة، رصها على الصواني، ضغط على زر الجرس مناديا للجرسون، كل ذلك في ثوان قليلة، ثم عاد مقدما لي سيجارة مواصلا كلامه «معك كام يابو العم؟ تقدر تدفع كم؟ أنا سوف أعاونك على حل هذه المشكلة! أحب أن أفعل الخير دائمًا مع بلدياتي بنوع خاص كما تعرف! إنهم عزوة لي في غربتي في هذه المدينة لولاهم ما فلحت بين أولاد القحباء من دود الأزقة ممن هم من سلالة الذين تسمروا على الدوام!» الحقيقة أنت هكذا بالفعل يامعلم شندويلي، أشهد لك بذلك وأحلف بالعشرة وأنت لست محتاجًا للقول. هكذا قلت في نفسي وأحسست بحال كأن الدنيا تنفتح أمامي على وسعها. صحيح قول المثل: العبد في التفكير والرب في التدبير! والمعلم «شندويلي» هذا فيه شيء لله يابوي وإلا لم يكن يخطر ببالي أن أسأله عن مسكن رغم علمي أنه من النوع الذي يمكن أن تسأله عن أي شيء فيلقفه لك في بساطة مذهلة وإذا بي كنت قادمًا لأحد محسوبي الذي جهزته لي المقادير وقادتني إليه بدون أن أدري. قلت «والله يامعلم شندويلي ياخوي أنا وقعت من السماء وأنت تلقيتني!» شوح لي كأنه يختصر الأمر قائلا «معك ألف جنيه؟ لو معك ألف جنيه فقط يابو العم تصبح من غد واحدًا من البكوات!» قلت دهشا بعد أن فات أوان الدهشة من هول المبلغ المطلوب «كيف يامعلم شندويلي؟» قال «تسكن في شقة على النيل مباشرة في الدور الرابع! أربع غرف كبيرة وصالة يجري فيها الحصان ولها بلكونات من ثلاث واجهات تطل كلها على نحين

وكل بلكونة تتسع لقعدة عائلية كبيرة؛ عمر يابو العم! آخر عز! لو يملكها لص من لصوص المدينة يبيعها بالشيء الفلاني! وإيجارها ستة جنيهات فقط»..

«محي دار يابوي كالرسبلك. ظننت أن المعلم «شندويلي» يقول ذلك من باب الحيال؛ على أساس أن المبلغ المطلوب لا يقدر على دفعه سوى لص صميم وراسخ القدم أو واحد من العائدين من بلاد أمال ـ لكنني ـ من باب الحيال كذلك ـ قلت له: «وأين هذه الشقة يابوي؟». قال ببساطة: «عندي أنا! في عمارتي؛ ألم تعرف يابو العم أنني هويت بناء العمارات في الزمن الأخير؛ وقد أصابني الكار بمس الحظ فاشتريت عمارة على النيل؛ أشهر وأحلى عمارة على النيل؛ لو قابلتني قبل اليوم بفترة لكنت سعدت؛ كنت أشطب في عمارتين على قد حالهما في بولاق الدكرور وأرض اللواء أجرتهما لبلدياتي بملاليم! كل ما هنالك أنهم شطبوها على نفقتهم؛ أصلهم كلهم من العائدين العاودين! وعلى العموم فأنا قد أحببت اللعبة؛ أشتري الأرض في كل مكان وأسامه طول عمري في هذه المصلحة؛ وحينما أرى العمار قد بدأ يتحوط أرضي أسرع في بنائها؛ الأرض كانت بالتقسيط المريح وأما البناء فبالمجان لم أدفع فيه مليما من جيبي؛ العمارة تسكن بجميع شققها قبل أن أحط فيها طوبة واحدة؛ من يكتب عقدًا يدفع خلوا أكبر من ثمنها لو بيعت له؛ البركة في العائدين يابو العم؛ وأما رحل متاع زمنا لا أحب الحلوات؛ إنني أخصم ثمن تكاليف البناء والأرض فقط؛

والباقي يسكن به؛ كل العمارات سهل ربنا بها وأنا واقف خلف هذه المصبة؛ فالمقاولون كثار! والأنفار أكثر؛ كل بلدياتي أنفار! والمونة متوفرة طالما القرش صالب حيله؛ القرش هو الرئيس الأعلى في هذه المدينة؛ نعود إلى هذه العمارة التي لو كانت أمك داعية لك في ليلة القدر لسكنت فيها! لقد اشتريتها من أجل شقة أحببت أن أسكنها؛ تلك هي التي سأسمحها لك هدية! لكن الرياح دائما تأتي بما لا يشتهي السفن يابو العم! الدور الذي فيه هذه الشقة، والذي تحته تسكنهما طائفة من المومسات والقوادين والمشتغلين في شارع الهرم مع أن أشكالهم آخر بكوية وآخر لباقة؛ غير أنهم جميعا من البلطجية واللصوص. إنني أقول لك الصراحة يابو العم! اشتغلوا لي في الأزرق وفي أمور البلطجة! حلفت أن يفسدوا لي أخلاق العيال؛ وخلفتي كلها بنات ما عدا ديك واحد صغير أعطاه لي الله مؤخرًا! المهم يابو العم أنني أرحت نفسي واستأجرت شقة في مصر الجديدة بين جيران على مستوى كبير؛ دفعت فيها مبلغا جامدًا؛ وأما هذه الشقة فقد حلفت لأجيبن لجيرانها الحوش هؤلاء بولد يكسر أنفهم؛ وأما مرادي أن تشكم لي هؤلاء الجيران وتذلهم أشد الذل! أنا أستطيع أن أبيع هذه الشقة بالآلاف! لكنني لن آخذ منك سوى الألف الواحد إكراما للعشرة القديمة وأملا في أن تريني هؤلاء الوحوش مكسورة نفوسهم».

قلت وأنا في غاية النشوة: «عرفت تختار يا سيد شندويلي؛ ثلاثة بالله العظيم لأرينك مؤخراتهم عارية وأجعلك تبصق فيها

على كيفك! لسوف أجعلهم يرحلون في عز الليل تاركين الشقق في سبيل النجاة بحياتهم؛ اتكل على الله يامعلم شندويلي! هذه الشقة لن يسكنها سواي! اكتب عقد الآن وأنا أسدد لك المبلغ على ثلاثة مرات بالكثير أربعة؛ وإن شئت للسرعة فإننا نكتب الآن جوابا لصاحبي هليل في البلدة وشريكي في سبوبة تجر دخلا ويمكن أن يرسل لنا أي مبلغ نطلبه!»

شوح صائحا «أكتب ما تشاء؛ ولكن هاك مفتاح الشقة! اذهب ونم فيها وأقم كيف تشاء؛ وحين يجيئك المبلغ هاته وتعال نكتب العقد والذي منه! وعلى فكرة؛ في الشقة عفش استغنينا عنه؛ تستطيع أن تشتريه وتضيف ثمنه للمبلغ؛ هو يساوي ألفا ولكني أبيعه لك بثلاثمائة لا غير! أنت ياما خدمتني!»

كنت والله أقبل يده وهي تقترب مني بالمفتاح. لكنني اكتفيت باحتضانه قائلا «سأبقى طول عمري خادمك يامعلم شندويلي!» ربت على كتفي بيده؛ وجعل يصف لي مكان العمارة وموقع الشقة منها. وجعلت أدعو له بالستر. وشعوري يقول إن ما حدث الآن هو بركة دعاء الوالدين، وشعور آخر يقول بل هو بركة البنت حنة التي سأنتشلها من الوحلة، وبركة الولية كاملة التي ستقيها شر الترمل بين الوحوش الكاسرة. فأرحت نفسي وقلت هي بركة الجميع. ومضيت أجري إلى العمارة أقول يا أرض اتهدي ما فوقك قدي.

والثانية: العتبة العالية

هذا هو الجنون بعينه يابوي. أنا حسن ولد أبي ضب الذي كان غاية ما يتمناه عشة يسكنها في حارة، أو بالكثير شقة في بيت هرم، أسكن فجأة في هذا القصر المنيف؟ أنا أدخل هذه العمارة يابوي كل يوم؟ ربما ارتاب سكانها في أمري، ربما منعني البواب، وإن البوليس نفسه ـ لو استعنت به البواب ـ لن يصدق أنني يمكن أن أسكن في عمارة كهذه وأنا الكحيان الشقيان

ما هذه الأبهة ياحال؟ بلكونات على الكورنيش؟ حلم أم علم هذا؟ وما هذا البراح يابوي؟ وهل هذه حيطان شقة أم حيطان مسجد أم حيطان من الجنة؟ كلها مدهونة بالرسوم الملونة بالشجر والزخرف؛ وفي الحمام «دش». يابوي، أخيرا سأستحم يابوي، سأفتح هذا الدش هكذا، لتندفع قنائف المطر الغزير هكذا فلأجرب، خلعت ملابسي ووقفت تحت الدش، وتركت النشوة البالغة تنصب على رأسي من «الدش». ثم ما هذا ياحال؟ لابد أنه ما يسمونه «البانيو» إنه حوض ينام فيه المستحم. فلأجربه، ملأته بالماء ونمت فيه. كان في الحمام بقايا صابون بريحة، وبقايا مرط قديمة، وبعض شباشب مقهورة النعل.

لبست ثيابي وخرجت على عاية من الفوقان. نظرت في الغرفة المجاورة. هذا مطبخ له صندرة يتصاعد منها بقايا روائح ثوم وبصل وأصناف عطارة. صحيح فعلا ياحال، هذا مطبخ يليق بـ «كاملة» وهذا حمام يليق بـ «حمامة» وهذه دار تليق بهما معا. يرعاك الله يامعلم شندويلي؛ ولكن، المعروف أن يكون الطعوب مرسوما على قد المهمة. أضايق له السكان وأتكلم معهم وفي النهاية يقول لي مع السلامة. قلبي راح يقول لي أن المعلم شندويلي لن يفعل، وأنني يجب أن أعتبر الشقة شقتي. وأنا الآخر سأورطه. سأذهب لأقيم فرحي في البلد وأجيء بالعروسين قبل أن يرجع في كلامه. ويعوض الله سأضيء له أصابعي العشرة كالشموع حتى يرضى؛ سأقتل نفسي في خدمته مقابل أن يترك لي هذه الشقة؛ والله لن أتركها إلا على جثتي ياأبوي.

تجولت في الصالة البرحة؛ جلست على كل كرسي واختبرته لتيقنت أن عَمْرة بسيطة عند النجار، وأخرى عند المنجد، تصبح هذه الصالة بعدها كصالة البكوات الذين كنت أبيع لهم السمك في المعادي. ثم دخلت على حجرة مجاورة؛ فإذا فيها سرير قديم، لا ينقصه سوى دهن وتنجيد فرش. بجواره دولاب مقصص وبعض ضلفه مخلوعة ومركونة بجواره، تتصاعد منه روائح العطور العتيقة والصابون والنفتالين. وهذه مرآة ذات كومدينو على اليمين وآخر على الشمال، ولها كرسي تجلس عليه المرأة لتتزين. كصينا صلاة النبي، نشرة خير ياأبوي؛ ضمنا شوار العروسين.

وكل هذه الأثاثات يمكن علاجها وتجديدها بكل سهولة. دخلت الغرفة الثانية فوجدت بها ترابيزة وسط دائرية؛ حولها بعض الكراسي الجلدي. الترابيزة سليمة أما الكراسي فكلها عاهات، بعضها منفجر البطن وبعضها مهيض الساق وبعضها لعبد وبعضها هشيم؛ هي الأخرى يمكن علاجها بتراب الفلوس. عافاك الله يامعلم شندويلي: لو تطلب الأمر قتل واحد من خصومك لسأفعل. دخلت الحجرة الثالثة، فإذا هي خالية تماما، إلا من بعض أوراق جرائد قديمة وهلاهيل لمسح الأرضية. دخلت الحجرة الرابعة، فإذا بعض الكراكيب والروبابيكيا. فتحت حلق وإذا بالشبابيك المطلة على البلكونات تناديني؛ فهممت أنظر من كل شباك نظرة، وأطل في كل بلكونة طلة؛ وأتلكأ كلما رأيت جيرانا في الشبابيك والبلكونات المقابلة ينظرون إليّ؛ فحينئذ أنتفخ كأنني أشعر بأنني البيك الجديد الذي سكن هذه الشقة.

رحت وجئت عشرات المرات بالصالة، فتحت أبواب الغرف وأغلقتها عشرات المرات. عقلي يكاد يطير. في المطبخ وجدت رفوفا رخامية مثبتة في الحوائط، وسبرتاية نحاسية قديمة. ووجدت تحت الرف وابور جاز محترم؛ قلت: طيب، لقد تقدم المعلم شندويلي وأصبح يشتغل بالبوتاجاز.

خفت أن يصيبني المس في الشقة وحدي ياحال؛ فخرجت وبكل لذة أغلقت بابها بالمفتاح، وصرت أتنحنح وأتلكأ في مشيتي على السلم وأثير ضجيجا هائلا أتحدى به أي كلب من سكان

الذين تسول له نفسه الاعتراض. لكن أحدا لم يعترض النهاية.
صادفني على السلم كثير من الخلق صاعدين وهابطين؛ فإذا هم
أشد مني ضجيجاً وصخبا وجلبة. رميت بنفسي في الشارع.
وأول خاطر داعب أعطافي هو أن أخفي أمر هذه الدار عن كل من
أعرفهم من الخلق بلا استثناء. ثم طغى على ذلك الخاطر خاطر
أقوى؛ هو أنني لابد لي من الشروع فورًا بالبحث عن المبلغ
المطلوب للمعلم شندويلي؛ بل لابد أن يتوفر بين يدي ثلاثة آلاف
جنيه على الأقل حتى أستطيع دخول هذه العمارة بعين
قوية. وكان الشوق للولد «حمدي» قد برح بي، فاتجهت طريقي إلى
داره في كيمان مجرى العيون. وكان الليل داخلا على البلدة
كأحلى ما يكون، ونور القمر يصف نور الكهرباء ويسحقها حتى
في الحواري الضيقة. سبحان الله يابوي؛ عمري ما أحببت هذه
الحواري في الليل، فما بالي أحبها اليوم؟ مالي أحب البلدة كلها
وشبابيكها الخشبية عليها كأنني قد صرت من بين المسئولين عنها.

وصلت إلى دار «حمدي»؛ مددت أصبعي لألمس زر الجرس فإذا
بالباب ينفتح قبل أن ألمس الزر؛ وإذا بـ «حمدي» لابس خلقاته
النظيفة كأفندي معتبر من علية القوم؛ مصفف شعره على سنجة
عشرة، ورائحة العطر تفوح منه؛ فعرفت في الحال أنه ذاهب
للشغل لا للفسحة، ذلك أن «حمدي» ولد مكار يابوي، حصيف
وناصح؛ وهو صاحب النصيحة المشهورة التي زودني بها ذات
يوم ولم أستفد منها بعد ولكنني فخور بمعرفتها. وسبب النصيحة

أن «حمدي» انسطل ذات يوم وشمشم فلما أبديت إعجابي يومها
بشعره. قال «عرولي» بنبرة من عينيه إن حمدي له فلسفة في
تسريح الشعر تعتبر من اختراعه؛ وطلبت من حمدي أن يشرحها
لي فاستنكف حمدي يومها وقال في جدية: «أعلمك وآكل من بيتنا!
أعلم أن تنظيف الشعر وتسريحه وتلميعه كله فوائد! ولكنني لست
أعتني به من أجل هذه الفوائد؛ مع أنه يسر الوجه؛ ويروق المزاج!
ويمنع الحشرات؛ ويجلب الفتيات؛ إنني أنا أعتني بشعري في
مشاوير الشغل؛ إذ أنني بتسريح شعري أخطف الكاميرا من عين
الحكومة والمباحث! فإنهم يعرفون المتشرد المشبوه من شكل
شعره؛ وضابط المباحث ينظر أول ما ينظر في رأس ابن آدم
ليرى حال شعره؛ ربما يراه منعكشا أكرت فيتجاوز عنه لأن شعره
منعكش نظيف أو أكرت مصفف. أما الشعر الذي يتراكم عليه التراب
والوسخ حتى يتجلد منظره كلحية المجذوب الفاقد العقل فإن ضابط
المباحث يلقفه؛ يعرف أنه لا ينام في مكان به ماء. فهو إذن آفاق!
وليقلبه الضابط ليتحرى عنه؛ لن يخسر شيئًا لكنه قد يكسب
قضية لم تكن على البال! ومعظم اكتشاف المجرمين الأذكياء وقع
بهذه الطريقة؛ أما أنت يا صعيدي يا قدي لئن كنت تريد أن تصرف
عنك عين الشرطة فنظف لبدتك هذه على الدوام أو البس عمامة
بشال أبيض تجعله نظيفًا دائما حتى لو غسلته كل يوم».

دفعني «حمدي» بصدره وهو يعبر إلى الشارع ثم تلقاني في
حضنه وسلم علي وقبلني وقبلته، وسألني عن غيبتي فقلت إنني
ذهبت لزيارة عم لي يرقد مريضا في مستشفى أسيوط وأنني

مكثت بجواره حتى طاب قليلا ولم أعرف إن كان قد صدق كلامي أم لا، حيث إنه لم يعلق، وإنما قال لي «وراءك شيء الليلة؟». قلت «لا»، فأشار بيده أمامه أن اتبعني، فصاحبته ومضينا عبر الحواري والدروب. وكنت ألاحظ أنه يختال كالولد الشلبي، فأتعجب من كلاحة اللص في مصر القاهرة. لقد كنت يا حال أعتقد أن الإنسان في مصر القاهرة يستمد فخاره وكبرياءه وشرفه من لصوصيته، فكلما كان ولدا حريفا في السرقة واللعب بالقانون وتغسيل ذمم الموظفين الصغار وشراء ذمم الكبار كلما انتفخ في مشيته وأصبح له المقام الرفيع في البلاد. قلت لنفسي: وأنا مالي يا عم، ثم تبسمت، ثم تذكرت نفختي أنا الآخر ومشيتي بروح أقوى من روح المحارب المنتصر، فضحكت بعمق حتى تمايلت على قدمي؛ فدفعني بكتفه قائلا «اصطبحت مبكرا». قلت «لم أدق حجرا واحدا بعد». قال «فلماذا فشتك عائمة؟». قلت «من الصرم». قال «معك حجرين؟». قلت «جيب السبع ما يخلاش». قال «سأسقيك حشيشة كنكت التي هي أعلى من حشيشة صفصف؛ يهوى أن يبيع القرش منها بأربعين جنيها؟ قبرت منه قبرة كبيرة؛ كله بثمنه؛ نقلت له أقتين في حقيبة خضار من بلبيس إلى مصر القديمة؛ أخذت حقي طبعا؛ جئت من بلبيس راكبا الأتوبيس وسط الناس وشنطة الخضار فيها برتقال وأوطة وجرجير وبطاطس؛ ستذوقها الآن».

وكنا قد صرنا أمام قهوة «صفصف»، والشلة كلها متجمعة «غرولي» و«بربش» و«سبوسة»، و«صفصف» هو الآخر جالس

بينهم. سلام عليكم، عليكم السلام، فينك ياولد العم؟ ووصلت بوصة الجوزة إلى يدي فأعفيت نفسي من الرد ومضيت أشعل الحجر. فالكلام ملحوق عليه أما الحجر فيحترق. بعد حجرين أخريين نهض صفصف يجرر ساقيه متأوها، وصوت طقطقة ساقيه يتكسر خلف خطواته. لاحظت أن صفصف لم يكن على ما يرام، فمزاجه غير معتدل، مع أن الحشيش عال العال. قلت هذا بصوت خفيض، فهمس بربش قائلا إن البودرة التي يشمها صفصف قد تأخرت عليه، وإنه قد أرسل في استعجال طلبها مراسيل كثيرة. فقال سبوسة وهو يتحسس ثدييه الكبيرين «ماله حق يتحكك؛ لو قال لي من البارحة لأنقذته الليلة بعشرة جرامات بالأمس وقع تحت يدي ولد نيجيري معه بطرمان كامل يريد بيعه بسرعة جربت معه شدتين خفيفتين فتبينت أنه كوكايين أصلي وارد بلده؛ تركت الولد النيجيري جالسا في مقهى المالية وحطفت رجلي لعند الحاج علي إبراهيم فأريته العينة وبعت له وقبضت ثم عدت للنيجيري فزعمت أن التجار كلهم لا يطلبون غير الهيروين والكودايين أما الكوكايين فليس له سعر عندنا؛ قل إنني ساومته على خمسمائة جنيه فرق سعر؛ وكنت أنوي أن أرسم عليه لعبة الحكومة لآخذ منه البطرمان كله بلا شيء، لكنه ولد ملقط وابن جنية؛ اللهم أني فزت بنصيب الأسد؛ وعلى كل حال سأعمل الآن واجبا مع صفصف؛ إنه أخونا مهما كان معي حقي الكاشف الذي اختلسته من البطرمان قبل تسليمه مضافا إليه ما أخذته من صاحبنا حلاوة المشوار».

ووضع يده على جيبه، وهم بأن يشير بالأخرى مناديا صفصف، لكن يد غرولي كانت أسرع منه إذ أمسكت بيد بسبوسة لتمنعه وهو يقول بصوت أجش «دعك منه، نحن أولى بشم هذه الصفقة، دماغنا محتاج لها، تروح تشتغل وحدك من ورائنا ولا يبوبه من العسل لحسه؟!». فالتفت بريش وقال مشوحا في وجه بسبوسة بعصبية آمرة «هات ما معك كله دون أن تفتح فمك!». وأيده هندي قائلا «دعكم من الشم والبودرة، إنما نريد حقنا فيما قبضته من فلوس، نحن تعاهدنا أن نمضي في الطريق سوية!». هنا قال بسبوسة وهو يلوح بكفيه نحو صدره «أنا غلطان أنا غلطان، كنت أمزح، لم يحدث شيء مما قلته لكم!». غير أن غرولي كان أسرع وأشرس مما ظننت، إذ هجم على بسبوسة فجأة، ودس يده في جيبه كيفما اتفق وبسبوسة يتلعبط بين يديه مصوصوا، إلى أن تمكنت يد غرولي من الجيب الذي فيه البودرة فامتثل بسبوسة «سأخرجها»، وبالفعل أخرجها، فإذا هي ورقة كراسة ملفوفة، فتحها، فإذا فيها ورقة مفضضة من ورق علب السجائر، تحوي حفنة صغيرة من مسحوق الكوكايين. طواها بريش في قبضته ونهض قائلا «تعالوا ورائي». قمنا وراءه مشى حتى دخل على صفصف فرآه انتشى ركنا قصيا وسلم عينيه للفراغ كالغارق في بحر الهموم حتى الذهول. جلس بريش إلى جواره، فجئنا بالكراسي القش وتحلقناهما. وأخرج بريش علبة سجائر البلمونت العريضة، ونثر على سطحها أسطر الكوكايين متجاورة كرذاذ الأرض، وضعها على الترابيزة وأتى ببريزة ورقية جديدة، برمها جيدا، قدم كل ذلك نحو صفصف،

الذي لم يتحول في عينيه حتى شله تماما عن الحركة فلم تمض في الكمية ومدت على وجهه ملامح الطفولة الفرحانة فصاح يستهول «يا ابن ديك الكا... ل... ب!» وحثني بسبوسة أن ينسب فضله لغيره فصاح «فضلة خيرك يا معلم إنت لو شورت لي البارحة كان بقي مزاجك فل! لكن كل شيء نصيب!».

تناول صفصف البريزة المبرومة ووضعها في منخره الأيمن وشفط سطرا كاملا في جذبة واحدة لم يترك منه شعرة، ثم نقل البريزة المبرومة إلى منخره الأخر وجذب سطرا آخر، فدمعت عيناه ونظر في عيني بسبوسة كأنه يجهد النظر فيه «تعرف طريق حاجة يا بسبوسة؟» قال فاشخا حنكه عن أسنان لونها بيضاء مفتوحة «مظروفها والله، ما كان قصدي وما كنت أبغي، لكن اللقمة العيش المقسومة لك ترمي نفسها عليك حتى ولو كانت مع ولد ميجيري يرطن بكلام غير مفهوم». عند ذاك نظر إليه صفصف نظرة فيها الكثير من العتاب القاسي وحول عينيه إلى العلبة في يده، ثم جذب سطرين آخرين فدمعت عيناه أكثر واحمرت خدوده تقول تفاح يا بوي، ووالله عادت إليه إنسانيته فجأة وظهر يا بوي كأنه أخيرا بدأ يجلس معنا. وقال لبسبوسة «حاجة كهذه ولعت تحت يدك فاتتها وتقال، الأقربون أولى بالمعروف، أتراك بعتها للحاج على إبراهيم؟ طبعا، قاعد هو للساقطة واللاقطة! على كل حال حصل خير! ثاني مرة لا تفعلها!»، وصاح مناديا «هات دخان يا ابني، دخان قص بتاع المعلم!»، ووزع علينا نسبة الأميين كل واحد قطعة كبيرة، ورمى مربع أوقية حشيش أمام بريش وقال له «برص!»

مقضيا نشرب بابوي كانتا نشرب في آخر زادنا" وصورة صفصف وهو متهالك على الكنبة تحت قدمي زوجته كفار الجبل لا تفارق دماغي" فيدخلني يقين بأن صفصف المسكين ليلتئذ لم يكن شامتا، ولهذا كان مفكوك العصب ككومة من اللحم لا تنفع ولا تشفع لساني الذي يستحق القطع تسلق على هذا الخاطر الخبيث وصاح في بهجة «لو كنت مخروجا بعد كل هذا الانبساط لذهبت إلى النار من فوري!»، ثم انتظرت برهة وأكملت «.. لكن أمام كالقتيل!»" فإذا بصفصف أول الضاحكين" وإذا به يعلق قائلا «صدقت ياصعيدي" إن الانبساط يكون أحلى من كل شيء في الدنيا!». فرأيتني أنصت جيدا إلى قوله هذا بإهمال حيث قد عنقلني من جواني كما يعلق عارف العود أوتاره" فإذا بي أصبح في ألم. «أنا لن أصير كيفا لهذا اللعين أبدا! حد الله بيني وبينه هو والأفيون" إلا في لحظات أنس كهذه كل حين وحين!». لكن صفصف أتى بأصابعه حركة بذيئة في الهواء قائلا: «كلي ياهيفة" بكره نشوف!»" فأقسمت بالله العظيم بيني وبين نفسي ألا يصبح حالي كحاله أبدا. وبقيت شاردا طوال بقية السهرة حتى نسيت أننا سنطلع الليلة في مشوار ندعو الله أن نعود منه مجبوري الخاطر. فلما تذكرت ذلك فجأة ميلت على عمدي وسألته: متى نتوكل على الله؟ فقال هامسا: «بمجرد ما يجيء الدليل!»" ثم غمزني أن أسكت فسكت.

وكانت ساعة الراديو تدق منتصف الليل حين دخل علينا شاب في حوالي الثلاثين من عمره، نحيل القوام مستطيل الوجه أسمر محروق، قاسي الملامح رغم أن عينيه فيهما الكثير من التودد

العسل «مساء الخير يارجالة» هكذا قال بعد أن وقف «أهلا أهلا وردية» هكذا قال بربش، ثم أضاف مشيراً إلى كرسي على مقربة «إقعد ياوردية»، فجلس متبسما صفصف قائلا «الآج ميكانيكي!». فقال الشاب بسرعة «أخوك سباك" اسمي فيصل وشهرتي وردية! أصل الشهرة أن أي مواسير قديمة لا تنصلح معي أفكها بعون الله من أول مرة" تحت أمرك في أي وقت يامعلم». فقال صفصف وهو يرمقه من تحت إلى تحت بنظرة نفاذة شكاكة «ربنا يكرمك ياسطى" ربنا يكرمك!». غير أن لهجته كانت كأنها تقول «ابعد عني ربنا يكفيني شرك!». وقال له بربش كأنه يعتذر عن معرفته لهذا الشاب «عندنا عمرة في مواسير البيت" قلت ما ينفع بها غير وردية" لكن لماذا تأخرت هكذا ياوردية؟»، قال الشاب «كل تأخيرة وفيها خيرة" فالشغل الدقي يلزمه الهدوء" والآن يمكن أن نقطع المياه على راحتنا والناس نيام!». قال بربش «ماشي كلامك!»، ثم راح ينظر في طاقم الحجارة مختبرا عددها ثم صاح في طلب حشوة جديدة تحوي طاقما من عشرين حجرا" لزوم تحية الأسطى وردية. حينئذ نهض صفصف قائلا «ليلتكم فل!»، ومضى نحو الحصيرة صائحا فيمن يقف خلفها: «أن في البيت الفوقاني ياولد!»، ثم اختفى. وبعد لحظات سمعت وابور عربيته المرسيدس يزأر قبيل انطلاقها به. دقائق أخرى مضت أجهز خلالها على طاقم الحجارة الجديد. انفرد بربش في وردية وقال «جاهز؟» فقال الشاب «جاهز!» نهض بربش قائلا «بينا!» قلنا جميعا «على الظالم!»" ومضينا خلفه نضرب في حواري مصر عتيقة

والثالثة: صباحية مباركة

زردية إذن هو الدليل الذي كنا ننتظره. والصفقة كما حكاها لنا ثنية ونحن في الطريق إليها: عبارة عن فيلا قائمة وحدها وسط المزارع والخضروات في مدخل حي المعادي. صاحب هذه الفيلا دكتور. لكنه دكتور في الجامعة وليس ممن يداوون الناس. يعرفه زردية منذ سنوات طويلة، وقام بشغل السباكة في هذه الفيلا مرات عديدة؛ حتى عرف كل شبر فيها، وكل مداخلها ومخارجها؛ وفي آخر مرة اشتغل فيها في الفيلا كان يعرف أن لديه النية في اقتحامها ذات يوم؛ فقام بإفساد نافذة المطبخ، وإفساد قفل باب المطبخ؛ أي أنه حين يتمكن من تسلق المواسير، سيدفع باب النافذة بدماغه، فينفتح بسهولة. فيدخل هو. يجلس أولا على حافة المعدة حتى يأخذ وضعه المستريح وبعدها يسقط في قلب المطبخ؛ ومنه إلى الصالة ومن الصالة إلى قاعة النوم؛ حيث يعرف أن الدكتور يضع كل مدخراته في دولاب الملابس، وقد رآها بعينيه كثيرا. فلوس بالبواكي مرصوصة كما خزينة البنك؛ ومجوهرات خاصة بزوجته الموجانة المسافرة على الدوام. فإذا انتهى من جمع الفلوس والمجوهرات والملابس الفرو الثمينة استدار على

أجهزة التسجيل والتليفزيون وبعض السجاجيد الصغيرة التي يقال إن المتر منها يزيد ثمنه عن الألف جنيه؛ وعنده منها الكثير؛ ناهيك عن التماثيل يابوي ـ والصواني والتحف والأنتيكات الموضوعة على الترابيزة والدواليب.

الدكتور ـ كما يقول زردية ـ مسافر منذ ثلاثة أيام؛ راقبه زردية حتى تأكد من ركوبه الطائرة. ومنذ ليلتين وهو يمر على الفيلا فيجدها مطفأة تماما، ولا تكاد تبين بين الأشجار والحشائش. وعندما اقتربنا منها أوصانا زردية بأن نجعل بالنا جيدا؛ وعيّن لنا أدوارنا على النحو التالي: هو سيدخل، ويفتح الباب من الداخل لندخل نحن براحتنا، فإن لم يستطع فتح الباب فسيربط الأشياء الثقيلة بحبل ويدليها من أي شباك واسع لنأخذها نحن، بحيث يكون بربش وغرولي في كعبه مباشرة؛ أما هندي وسوسة فيتوليان تستيف الأشياء ولفها وربطها. وأما العبد لله فمهمته الوقوف على الشارع العمومي في مكان خفي لمراقبة الطريق وإعطاء إشارة التنبيه.

رضينا بهذا التقسيم يابوي، واتكلنا على الله. غطسنا في عتمة الظلام المتكاثف حول الفيلا بفعل الأشجار والأعشاب التي تلفها. وشمر زردية عن ذراعيه وبنطلونه، وبصق في كفيه مسميا بسم الله الرحمن الرحيم؛ وقبض بيديه على الماسورة، وتخلص من حذائه مسلما إياه لغرولي منبها عليه أن يضعه في جيبه، حتى لا

تضطرهم العجلة إلى سيارة فردة منه تقود إليهم. ووضع قدمه على الماسورة ودفع نفسه بدرجة مائلة يابوي كأنه القطة، صار يرتفع ويرتفع حتى صار مواجهاً لنافذة المطبخ، مد يديه ممسكاً بإطار الشباك ليتمكن من نطحه برأسه. لكن الفضاء انشق فجأة عن صرخة مهولة يا حال. كان حيوانا بريا قويا يجأر. ثم إذا برعد الصرخة يتبعه هزة أرضية خطيرة. وكان جسد رودية قد اندفع وارتمى بعيدا في مكان خفي.

ركبنا الرعب بخيال، فصرنا نجري هنا وهناك كالسكارى في المصيدة، حتى اصطدمنا في الظلام بجثة رودية ملقاة على الأرض بلا حراك. صرنا نتحسسها ونجس نبضها، فإذا بها قد فارقت الحياة يابوي. واتضح لنا أن الدكتور الخبيث قد كهرب شباك المطبخ وجميع الأبواب والنوافذ القريبة من الأرض.

وقعنا في المحظور يابوي؛ لكننا لم نُضِعْ وقتاً. حملنا جثة رودية وصرنا نجري بها حتى غادرنا الفيلّا، وصرنا على شاطئ مياه أثر النبي فوضعنا الجثة وجلسنا على سطح النهر نفكر في الطلوع من هذه الورطة المهببة. كنا صامتين كالموتى لكن الرعشة في أوصالنا تربطنا ببعضنا. أشعلنا السجائر التي راحت تنتفض بين أصابعنا. قال بسبوسة: «حنعمل إيه في الليلة السودة دي؟» قال بربش وهو ينظر في مياه النهر: «والله ما أنا عارف!» قال عروبي: «نرميه في النيل ونخلص!» فقال هندي: «لا تنس أن صفصف شافه معنا الليلة. وبعض الرفاق كذلك، فنحن مسئولون

عنه!» وهنا قال بربش في حسم: «إذن فلنرجعه إلى مطرح ما وقع بالضبط، في الصبح يعثرون عليه مرميا! سيحقق الشرطة في أمره! وستعرف أنه كان يحاول سرقة الفيلا وأن الكهرباء صعقته!». قلنا جميعا: «والله فكرة!» وحملناه من جديد، وأخذنا نجري به حتى وصلنا إلى حيث كان قد وقع، فمددناه في مكانه وعدنا نجري، حتى إذا ما وصلنا إلى شاطئ النيل صرنا نمشي في تؤدة. ووالله لا ندري كيف حط علينا كل هذا الضحك، الذي راح يفرقنا طول الطريق كأننا نتفرج على مسرحية. وأغلب الظن في حال أننا كنا نتخيل أننا نضحك، حتى لا نقع من طولنا، وحتى لا يتشكك في أمرنا أحد.

الفجر كان بعيدا عنا بحوالي ساعتين، وقد صعب علينا أن نضيع الليلة هدرًا يابوي. ألا نجيء حتى بمصاريف الشاي والعسل الذي طفحناه اليوم؟ هكذا كان يبدو علينا جميعا ونحن ندخل مصر عتيقة من جديد. ولهذا رحنا نشمم كل خطوة لعلنا نعثر على بقايا خير منسي في الشارع. رحنا ننظر في كل شباك مفتوح على الشارع، مجرد نظرة ثم نمضي.

اقتربنا من شباك في حارة ضيقة، بينه وبين الأرض نصف متر. وكان مقسوما إلى نصفين بالطول: النصف الأسفل مغلق، أما الأعلى فمفتوح على مصراعيه الملتصقين بالحائط. وشببت على أطراف أصابعي، ونظرت في الحجرة، وقع بصري على سرير حديد بعمدان، وبجواره دولاب قديم مجدد مفتوح على مصراعيه

هو والسرير مدهونان بالبوية حديثا وسطح الملاءة والعرش يؤكد أننا أمام عريس جديد، هو على وجه التحديد ذلك الرجل الذي ينام وفي حضنه عروسه. الاثنان عاريان تماما ومستغرقان في نوم عميق، خد الرجل فوق بطن المرأة، وذراعها فوق رقبته.

جاء الصحاب فنظروا، عصروا ضحك ضحكا مكتوما، دون أن يدري بنا أحد، لدقائق طويلة. قلت: «أكل العيش مر فلأجرب» ودفعت الباب المجاور بشباك مررنا به ببطء. فدخلت داخلا إلى دهليز مستطيل مظلم. على اليمين كان باب الحجرة المطلة على الشارع وكان مواربا دفعته ودخلت، والرجال من خلفي، بقيت واقفا لبرهة مرتبة وتنحنحت، فلم يتحرك أحد. فتركتهم جالسا أمام الدولاب وبجواري تعرمص غرولي وفي الدهليز وقف هندي، وعلى باب الشارع وقف بربش، وفي أعماق الحارة جعل بسبوسة يروح ويجيء. على ضوء اللمبة نمرة خمسة المعلقة على الحائط مددت يدي في قعر الدولاب، سحبت محفظة كبيرة، سلمتها لغرولي، فدسها في جيبه. ثم سحبت راديو بلاستيك أخضر اللون ماركة صوت العرب، وسحبت علبة صغيرة فيها فرع وقرط وأسورة من الذهب، سلمت كل ذلك لغرولي فدسه في جيبه. ثم جعلت أسحب الملابس قطعة قطعة وأسلم لغرولي، فيسلمها بدوره لهندي، الذي يسلمها لبربش. وكان على الأرض نصف زجاجة خمر رديئة، صعب علي أن أتركها فأخذتها في يدي وأنا خارج، وصرت طول الطريق أعب منها.

قال هندي «طلعوا بنا على بيتي»، قلنا «وجب»، ومضينا بالفعل إلى بيته والفجر يقول: الله أكبر!

* * *

فتحنا المحفظة فإذا فيها ثمانية جنيهات وبضع برايز وشلنات، وقال بسبوسة إن الذهب يلزمه وإنه سوف يحاسبنا على ثمنه بالقيم. وأما الملابس فقد وزعناها وطلع الراديو من نصيب هندي. ما كاد النهار يطلع حتى استفتحنا الصائغ بمعرفة المجري في مقابل أن يقدر لنا سعر الذهب، فقدره بثلاثمائة جنيه، دفعها بسبوسة محتجزا نصيبه منها، وعندما شرعنا في الانصراف استبقاني بربش قائلا «أعوزك في موضوع!» فاستأذنت من الصحاب ومشيت معه نحو شوارع فم الخليج.

استظلنا مقهى جرد عليه. جلسنا طلبنا الشاي بالحليب وعندما قاربنا الانتهاء من شرب الشاي مال بربش نحوي قائلا «الطلب الذي أريدك فيه بسيط، ستأخذ عليه يوميتك جنيها كاملا يعني أكثر من ماهية الوزير في اليوم. لكن المهم ليس الأجرة على كل حال؛ المهم جدعنتك في عمل ما سأطلبه منك على أحسن ما يمكن، أتعرف الرجل الذي يؤجر عربات اليد في هذه الناحية؟». قلت «أعرفه طبعا». قال «قم الآن واستأجر منه عربة ليوم واحد، وهاك ثلاثة جنيهات تشتري بها شروة بصل أو شروة أي شيء من السوق، تضعها في العربة، وتسرح بها في الحارة التي سرقنا منها ليلة البارحة، ولكن بائعا بحق وحقيق!»

الدهشة لعينك وجهي كله، قلت «كيف يابو العم؟ ماذا يفيدني لو فعلت هذا؟»، قال «ستدخل بالعربة حتى البيت الذي سرقناه، تقف عنده منادياً على بضاعتك، عندئذ ستستمع إلى الناس وهم يتكلمون عن السرقة، فتعرف بذلك الأخبار، وتجيء بها لي». لمعت الفكرة في دماغي، بحال فقلت متعجباً «يابن الحسنة، ولكن ما فائدة كل ذلك يابو العم؟»، قال برعش «من الذي أخرج المحفظة من الدولاب؟»، قلت «أنا»، قال «ففتحتها قبل أن تسلمها لغرولي؟»، قلت «لا»، قال «رأيته وهو يضعها في جيبه؟»، قلت «لا»، قال «رأيته وهو يضعها في جيبه؟»، قلت «لم أجعل بالي»، قال «أليس يحتمل أن غرولي خبص الفلوس من المحفظة؟»، قلت فزعاً «أيفعل ذلك؟»، قال «ربما، إنه صنف لا يؤتمن»، قلت «أي صنف هو يابري؟»، قال مستدركاً «لا، لا، أقصد صنف الحرامية، كلنا يعني». ربت والحق أحسست أنه غير صادق يابوي، فلعب الفأر في عبّي من جهتهم معاً، هو وغرولي، بل جاءني هاتف يقول لي «احترس ياواد من الاثنين» وقلت لبرعش «ولكني يابو العم منذ اشتغلت معكم والأمور تجري بالبركة والصداقة، ولو دخلت الشكوك بيننا يابو العم ستتغير الصدور، فدعها لله»، وكان برعش يفتح ورقة سلوفان حمراء صغيرة ويمص أطرافها متلمظاً، أزاح بظفر إبهامه سمسمة أفيون قربها من فمي قائلاً «ياصعيدي ياقحف، من قال لك إن الأمانة والصداقة والخديعة معروفة بين الحرامية وبعضهم! إذا كانت هذه الأمور غير ماشية بين الناس العاديين فكيف تكون ماشية بين الحرامية؟ تظنهم قرءوا القرآن وأحاديث الرسول وتزمتوا بمكارم الأخلاق؟ هذه أمور لا يعرفونها! ونحن لسنا إلا حرامية، نعكس جدك شيخ وعمك قطباً ولأنك أنا متعلماً في المدارس، لينك غيري ابن ناس أتقياء! لكن مادمنا صرنا حرامية فنحن إذن حرامية وكفى، ليس هناك حرامي طيب وحرامي شرير، حرامي ابن حلال وحرامي ابن حرام. الحرامي حرامي، لا يشفع له أهل ولا طيبة قلب. أنت مثلاً سرقتك المسكين ولهذا تستعجب الآن من كلامي. أنت تسرق وفي ذمتك الله والرسول وشيخ عمك الفقيه! ولاتزال تتصور نفسك مميزاً عن فئة الحرامية، تفعل أفعالهم وتتبرأ منهم، ولكنك لست وحدك هكذا! فأهل هذه البلدة جميعهم من كبيرهم لصغيرهم يسرقون بشكل أو بآخر كلهم يتبرءون من الحرامية في سبيل أن يكونوا من كبار كبار الحرامية، فالحرامي البسيط ياصعيدي ياقحف هو نحن، أنت وأنا وغرولي وهندي وبسبوسة، حرامي من يعرف أنه حرامي! ويسرق من وراء سمسار حتى يأكل من الدين! أما الحرامي المركب فأخيارك الله منه لا يعرف أنه حرامي، لكن يعرف فقط كيف يتبرأ من الحرامية، كيف يرسم صورة الرجل الشريف، كيف يطل على الناس حجة كلما عاد من مكة تجيراً مذهباً، وكلما كثر عدد الشرفاء الذين هم من هذا النوع كلما كان ذلك دليلاً على أن عدد الحرامية في البر يتزايد والسرقات على ودنه! كل واحد في هذه البلدة حرامي على طريقته الخاصة، وكل واحد يخدع الآخر ليسرقه على راحته، ولكن ميزة الحرامية البسطاء أمثالنا هي الوضوح، لست أقصد وضوح كل منا في نظر الباقين، إنما

أقصد بالوضوح أننا جميعًا نعرف أننا حرامية ونتعامل مع بعضنا على هذا الأساس، والمشكلة أن الواحد منا ينسى أحيانًا كثيرة أنه حرامي، ويتعامل مع الناس على أنه رجل شريف! حتى زملاؤه الحرامية يعاملهم هكذا أيضًا! ولأنهم ينسون مثله، فإن الأمور تمضي فلا أحد يحاسب أحدًا، والإنسان يجب أن يتعلم ويتنور بالتجربة ليجيء يوم يصبح فيه لصًا مركبًا يحترمه الناس ويسلمونه نقودهم! وعلى كل حال ياصعيدي أنت لو قمت بالعملية التي رسمتها لك فإنك ستتعلم وستعرف أشياء تنفعك عند اللزوم! ستتعرف إلى أين اتجهت أصابع الاتهام لتتعلم حكمة بالغة، ستتعرف المساحة التي ستتحرك فيها المباحث والحكومة لتعرف كيف تتقيها! وعمومًا أنت حر انس ما قلته لك كأنك لم تسمعه!».

ثم إنه أشعل سيجارة ووقف مصفقًا للجرسون، الذي جاء مهرولا نحو ورقة ربع الجنيه المعلقة بين أصبعي برنش، ثم أخذها وصار يعبث في الفكة في جيب المريلة لكن برنش - مثل البيك الكبير - أشاح بذراعه نحوه علامة أن خلِّ الباقي ثم سلم علي ومشى، فاستدرت أنا ماشيًا في اتجاه فم الخليج، وليس في نيتي العودة إلى بيت عمدتي أو إلى بيتي. قلت: فلأذهب للمعلم شندويلي في المقهى لأعطيه ما تجمع معي من فلوس قبل أن تمتد عليها يدي أو يد الزمان، وهكذا شرعت أقف لأنتظر مسافة مناسبة بين سيارتين حتى أعبرها إلى الرصيف الآخر في اتجاه مصر عتيقة لكن الخاطر تملكني ففوّت على فرصًا كثيرة للعبور، وبقيت مسمرًا في مكاني وقتًا طويلا وصوت الهاتف يهتف بي: والله إنها لفكرة! لماذا لا أجرب هذه الشغلة التي أشار بها برنش؟ إنها والله شيء طريف مثير للخيال.

وفجأة رأيتني أستدير عائدًا نحو ذلك الرجل الذي يؤجر عربات اليد فأجرت عربة دفعت له رهنها، وذهبت فاشتريت شروة بصل كما أشار برنش، كومتها فوق العربة، وعبرت بها من فم الخليج إلى مصر عتيقة، وجعلت أمشي مناديًا بصوت خافت. ولا أستجيب للبيع إلا قليلا حتى لا ينفد البصل قبل وصولي إلى الحارة المقصودة. فلما وصلت إليها بدأت أنتبه إلى أن الجو راكد وعلى غير ما يرام. وقفت بجوار مقهى على ناصية الحارة حينما لفت نظري أن الجالسين عليها ليسوا في حالهم كالعادة بل إنهم متجمعون حول بعضهم يتكلمون في حماسة وحمية وحدة. فيما يبدو عليهم الاهتمام الشديد. وقلت لنفسي: بس لابد أنهم يتكلمون في حادث السرقة. فإذا بالناس كلهم على المقهى مندمجين في قول العجب يقولون إن المشير عبد الحكيم أبو عامر قد مات! مات؟! المشير أبو عامر ...؟ كيف يأتي رجل في كل هذه الأبهة والعز ويموت؟!

تركت العربة وبصلها، واندفعت أسأل الجالسين كأن المشير من ملة أهلي: كيف يا أبو العم؟

رد أحدهم ممخمضًا من مناخيره: «نعم» قلت: «كلام جد يا أبو العم؟ كيف مات أبو العم؟» فلم يرد علي أحد. جلست. فطلبت شايًا

من الولد الجرسون وسألته ثانية فلم يرد، فلحقته وعزمت عليه بسيجارة فأخذها وقال: «المشير هو الذي انتحر؛ ابتلع حبوبا مخدرة بقصد الانتحار فمات!» هتف على لساني صوت قوي «الأمر فيه إنّة». وعدت إلى العربة فجعلت أدفعها داخل الحارة مناديا على البصل بصوت عال.

قرب دار العريس المسروق تلكأت ثم توقفت مواصلا النداء «كيف التفاح يابصل». خرجت من الدار المجاورة امرأة سوداء الوجه ضخمة كالجمل، صارت تزحف نحوي ببطء قائلة: «بكام البصل ياعم؟» مع أنني في عمر أحفادها. قلت: «بثلاثة تعريفة». قالت: «الاثنان بخمسة تعريفة ينفع؟» قلت: «ينفع». فمضت تقلب في البصل وتنتقي طالبة كفة الميزان. قلت: «لا يهمك؛ ربي عند أي بائع وتعالي؛ أنا راضي بذمتك!» بعد برهة فاتت امرأة بملاية لف وسألت عن السعر؛ فلما وجدته أقل من السوق توقفت وراحت تنتقي. ثم جاءت امرأة ثالثة من دار العريس نفسها ووقفت تنتقي وجاءت وقفتها بجوار المرأة السوداء فتكلمتا معا بصوت كالهمس لكنه مسموع: عن المصيبة التي حلت فجر اليوم بدار ابن أختها «زينهم»، حيث سرقه اللصوص فقششوه، وشلوا المحفظة وفيها ثمانمائة جنيه كان قد لمها في الصباحية وكان ينوي أن يدفعها لتاجر الموبيليا. هكذا كتب العريس في محضر الشرطة التي جاءت وعاينت منذ قليل!

حسب ما رأيت يا حال أمي صدقت أن المحفظة كان فيها ثمانمائة جنيه الله وكيل يابوي. أنا الذي نشلت المحفظة وكانت خفيفة جدا

يابوي. صدقت أن فيها هذا المبلغ الكبير، ولو كان غرولي أمامي في تلك اللحظة لطبقت في زمارة رقبته وأكلتها. مع يقيني أن الفرصة لم تسمح لغرولي أبدا في أن يستخرج المبلغ من المحفظة خلسة قبل أن يدسها في جيبه. إنما بني آدم يابوي: طماع؛ شكاك. وحين رأيت الشك ممسكا بتلابيبي أيقنت بصحة كلام دريش وآمنت بأنني صرت حراميا رسميا أشك حتى في نفسي وكاد هذا الخاطر يعميني عن سماع بقية كلام المرأة وهو مهم يابوي؛ إذ راحت تقول إن العريس تعرف على الحرامي وأبلغ عنه؛ إنه ولد صايع زميل للعريس في شغله تبع مقاول سيده

وحينما شعرت أن البصل قد انتهى وأنني عرفت ما يهمني معرفته، دفعت العربة عائدا بها لكي أسترد الرهن فورا. وما كدت أصل إلى آخر الحارة من الناحية الأخرى حتى رأيت فلاحا غلبانا يحمل على كتفيه قفصا صغيرا من العنب ويمشي مناديا في طلب الأكيلة. كان منظر العنب مشرقا ياحاج، حتى أسال لعابي؛ فتوسمت أنني أستطيع أن أقنع هذا الرجل الغلبان بقرش زيادة ليعطيني أحلى عنقود في القفص، ولسوف أتسلى بقرقرته مع رغيفين وقطعة جبن أبيض. وهكذا اقتربت من الفلاح الغلبان «ارمي عندك ياعم». فحط القفص عن كتفيه وانتقى عنقودا عظيما لا يقل وزنه عن كيلو ونصف. قلت: «بكم الكيلو؟» قال: «بالبركة». قلت: «كيف يابوي؟» قال باسما: «هات الشلن». قدرت في نظري أن العنقود يساوي سبعة قروش؛ فدفعت إليه بالشلن قائلا: «معك ورق لف؟» قال بخشونة خفيفة: «طبعا ياصعيدي ياقحف؛ أنا لعلم

وتفوتني عضوة كهذه»! ثم انتزع من تحت إبطه قرطاسا من الورق لف فيه العقود بحرص وعناية، وأعطاه لي قائلا «اتكل على الله»!

لحظتها كنت من الذهول أحاول انتقاء الكلمات المناسبة لكي أرد بها على هذا الفلاح القليل الأدب الذي يقول لي - من الباب للطاق - ياصعيدي ياقحف، وكان الشر يطلع من عيني حتى أنني بدلا من أن أمسك لفة العقد كورت قبضتي وشمعتها نحو وجه الفلاح بحنق شديد، لكن يده كانت أسرع مني «ياموي» ابن مدينة مدرب على العراك، أمسك رسغ يدي فلواه بقوة حتى كسرني على ظهري، فصرت أصرخ وهو يهرني قائلا في ابتسام مشفق وودود «ما تعرف من أنا ياصعيدي ياقحف؟»، عرفته في الحال من بسمته يابوي، من عوجة شفتيه، فهتفت «مرش» ياابن ديك الكلب! غلبتني ياابن المدينة»، وتركته ومضيت أدمع العربية بيد، وأوحوح من وجع في الأخرى.

الرابعة: المفاجأة

قال المعلم شندويلي وهو يطوي الجنيهات في قبضته بانفعال شديد لا يليق بالعرق الذي سفحته في لمها قرشا قرشا: «باقي عليك خمسمائة جنيه يابو العم! وحل بالك يابو العم - ابتسم كلانا حتى على الآخر - لن أكتب لك عقدا إلا بعد أن تريني يوم في السكان أولاد القحباء! حتى عليك حوب وحول وأن أمهلك في الدفع وأضعك على كفوف الراحة وحتى الآن لم أسمع حكاية واحدة! أخشى أن تكون قد استحليت المرعى مع المومسات المجاورات لك في نفس الدور! إنهن يبلغن أتحن شحب أحد لا تحتمل منهن ضربة رمش! بعده تخر صريعا يابو العم! أنا نفسي كدت أقع! هل أكذب عليك يابو العم؟! «المكالدي» عيشني فيه أولادي من أجل البحث عن مطرح جديد لنا! إنما كان سببه خوفهم من أن أخر صريعا تحت شباشب «العبوات» اللائي يشاركننا في سكني العلالي! ولو وقعت تكون قد طبت! يصبح عليه العوض ومنه العوض في مالي وصحتي وعيالي! ربنا والحمد لله نجاني يابو العم! حتى الإيجار يجيء به البواب لحد عندي غير أنني أتركه على سبيل الصدقة حتى لا أتلوث به وفي مقابل أن يجعل

البواب ماله مني في عيشي ولا مجيئه في صنعتي على طول الخط؛ إن كنت قد وقعت في حبائلهن يابو العم وهذا منتظر مسامحني إن قلت لك دع لي شقتي وخذ نقودك؛ أنت لست منا يابو العم ولابد أنك قد لحست من طبق الحلواء لحسة أنستك أهلك؛ إلالي أنا؟ أنا المقروص باللحسة من قبل أن يخلصني الله من الوصول إلى لحس القدم بدلا من لثم الشفاه والخدود وعبث النهود؛ وما أوعرها وأيسرها على السلم أو على السرير لا فرق لا مشكلة فكلاهما ميسور والمسافة بين السلم والسرير بمقدار ملعقة عن قشطة مهلبية بالعسل الأبيض بالعسل الأسود هي ملعونة والد الله خلصت منها وبقي أن أخلع جذورها من أملاكي مهما كلف ذلك من صبر؛ ثم إن لي معهن ثأرا لابد من تصفيته؛ لقد أ دوخني وبناتي بالردح مرة وبالتلسين مرات؛ وبسوء سلوكهن على طول الخط فلك أن تتصور حالي وشعوري حين أرى بنفسي فاجرا من زبائنهن قادما لهن يتمخطر على السلم كطاووس عفي ولا يكفيه ذلك تفويرا لدمي بل يصطدم بابنتي على السلم فيسامجها ويتجرأ عليها بالقول والفعل؛ صحيح أنه لحس تراب الأرض ونقلته الإسعاف جثة مرمية من الضرب الذي أكله؛ لكن ما حدث حدث ولا أستطيع أو يستطيع غيري مسح الجرح من نفس ابنتي. إياك تظن أنني أستحرك للأخذ بثأر من ناس لم أقدر عليهم؛ إنما أنا يابن الحلال أتكلم لمصلحتك؛ نعم فالطبع ستتزوج وستنقل زوجك إلى هذه الشقة يابن الفقهاء الأئمة؛ كيف وهؤلاء جيرانك؟ إنك لابد أن تشكمهم يا سيدنا قبل أن يذوقوا لحمك؛ فلو

تاقوه فإنهم كلاب مسعورة ستنهش فيك وفي عرضك حتى تمرمش عظامك؛ ها أنا قد نبهتك يابو العم وذمتك على جنبك».

قال هذا وشوح بذراعه في فروغ بال، ثم أشعل سيجارة كأنه يضع حملا ثقيلا تحت كلامه. فجعلت أتأمل كلامه يابوي. فوجدت أنه عين العقل، ووالله لقد أفلح المعلم شندويلي في أن يشعل النار فيّ بهذه العبارة الأخيرة يابوي. وتصورت زوجتي الغلبانتين وهما ذليلتان تحت شباشب المومسات؛ وقلت في عقل بالي: هذه الشغلة شغلتك ياواد لا يهدأ لك بال حتى تتمها وإن ضاع عمرك فيها. فشلفطت آخر شفطة في كوب الشاي ونهضت قائلا «يساويها ربنا يامعلم شندويلي!». ومضيت أضرب في الشوارع على غير هدى؛ إلى أن قادتني قدماي ـ دون أن أدري ـ إلى قهوة صفصف. كنا في ساعة أم كلثوم يابوي، ساعة شمس الأصيل ذهبت خوص النخيل يانيل. وكان الجو رماديا في لون النيل المخضر المتسدد وورائي على بعد أمتار معدودة؛ وثمة أشجار الزيتون متراصة على الجانبين من كل الشوارع يلمع خيالها في صفحة الأسفلت؛ الذي انحرفت عنه قليلا بين السرايات والعمائر الفخيمة، لأدخل بعدها مباشرة، في الحواري ذات البيوت المتراكمة فوق بعضها كالهشيم، عبرت الهشيم إلى قهوة صفصف، التي احتلت حارة سد مستطيلة عريضة ترتص على جانبيها أشجار الزيتون العارية فروعها من أوراق الثمرة الحمراء كمناديل ملونة معروضة للبيع فوق الشجر تلغلط بالأحمر والوردي

والبرتقالي على أديم أخضر، الكراسي القش تحت الشجر مرتصة، معها كراسي خيزران، تفصل بينها الطقاطيق النحاسية اللامعة، والأرض مرشوشة بالماء حتى العرق، ما أحلاه من منظر يابوي؛ منظر يشرح القلب والله ياخال.

غير أن الجو كان ساكنا سكونا مريبا، على غير العادة في مثل هذا الوقت، فساعة شمس الأصيل هذه في قهوة صفصف بالسهرة كلها في مقاة أخرى، فليس في الدنيا مكان ساحر كهذا في هذه اللحظة يابوي، صدقني أن هناك أماكن تشفي العليل وهذه العارة من هذه الأماكن والدليل على ذلك أن الخلق يجيئون من آخر الدنيا للقعود فيها ساعات بالشيء الفلاني. فما بالها اليوم ساكنة ساكنة كأن ميتا مدفونا لتوه فيها؟! أتكون الحكومة قالت عليها وعممت اللازم حتى تركتها جثة هامدة؟ ولكن منظر الكراسي والأرض المرشوشة بعناية لا يدل على أن الحكومة مرت من هنا. قلت ياخبر بفلوس فلأجلس لأعرفه بالمجان.

جلست يابوي، ووضعت ساقا على ساق، وصفقت فجاءني الولد كمبير الصنايعي في أدب مصطنع، ووقف أمامي في هيئة إنصات، فجعلت أنظر فيه لعله يفهم طلبي كالعادة، فطلبي معروف دون أن أتكلم لكن الولد بقي منصتا صامتا؛ فصحت فيه قائلا «ماتجيب يابو العمه» فتساءل متجاهلا دهشتي، «أجيب إيه؟» قلت في استنكار «هات حاجة ساقعة وهات دخان!» فقال في كلاجة «حاجة ساقعة آه! دخان لا!» قلت «في الأمر شيء؟»

قال «الجو مليش» ثم تركني ومضى وبعد برهة قصيرة أفقت على صوت الفتاحة يطرقع رافعا غطاء زجاجة الاسباتس الحمراء المغبشة بالثلج وضعها على الطقطوقة جواري وانصرف.

حمدت الله أن جيوبي نظيفة من الحشيش؛ تمكنت جالسا أرتشف الاسباتس على مهل، والهواء يتساقط فوقي من غرابيل الشجر، وليس في دماغي سوى شعلة الهوامش الذين سيقبضون على عيشتي فجأة تحت عربة البوكس مورد الزرقاء تعبر الشارع العمومي في بطء وتمهل، ثم غابت عن ناظري، فانشغلت في إشعال سيجارة، ولما رفعت رأسي رأيت ثلاثة أفندية شبان متجهمي الوجوه يقبلون نحو المقهى في خطوات ذات وقع حاد، وكان غرولي يمشي وراءهم هو وشخص آخر لم أكن رأيته من قبل، فما كان مني إلا أن وقفت صائحا في فرح وابتهاج «غرولي! ياه» لكن غرولي تجاهلني يابوي، ومضى وراء الأفندية إلى داخل المقهى، فصحت ثانية محيطا ذراعي أكاد أجذبه «إنت ياغرولي الكلب! ماسمعتنيش ولا إيه؟!»، فإذا بغرولي يرشقني بنظرة مشتعلة بالشرر يتطاير من عينيه الصبيتين اللئيمتين؛ وبكل قوته يلسعني براحة يده على وجهي شاخطا «اقعد مطرحك»

فجلست مطرحي والذهول يكاد يعميني عن كل شيء ياخال رأيت كبير الأفندية يتقدم داخل المقهى، يفتش في أركانها، ويعبث بالأواني وبالكراسي، ويتلصص خلف المصطبة. فأيقنت أنها الحكومة يابوي، وأنها لابد قابضة ولكن ما بال غرولي يتبرأ مني

هكذا!؟ إن أصابع يده صارت ترن على صدغي. إلا والأفندي منهم جعل يقبل نحوي مكشرا عن أنيابه، وغرولي يقف وراءه

«بتشتغل إيه ياولد؟» هكذا سألني الأفندي. فوقفت متلجلجا بحال، وحرت في النطق باسم شغلتي؛ وصرت من فرط الرعب والرعشة أنظر في غرولي؛ الذي رأيته - وياللعجب - يقف معتدلا منفوخ الصدر كأنه بني آدم محق وحقيق، كأنه هذا الأفندي الذي يسألني الآن ويرعبني، ثم بدا به - لا تتعجب ياخال - يقف بيني وبين الأفندي قائلا في استعطاف. «هذا ولد غلبان ياسعادة البيه؛ على الله! نفر من بتوع الفاعل!» قال الأفندي - وأعجب هنا ياخال غاية العجب «فتشه ياغرولي!» فانبرى غرولي يتحسس جيوبي وتحت إبطي، ويرفع اللبدة عن دماغي. وأخيرا قال «ما معه شيء ياسعادة البيه!» وكان الأفندي الذي وضح أنه كبيرهم قد جاء ووقف جوارنا، فقال فيمن حوله «مين صاحب القهوة دي؟» فقال الولد الصعيدي كالماكينة الدائرة «مسافر ياسعادة البيه!» ونظر إلى غرولي؛ فقال غرولي للأفندي. «أصله اليومين دول بيسافر كثير يدور على شغل في الدول العربية؛ الحالة يظهر تعبانة معاه شوية» فهز الأفندي رأسه ورام عدة مرات ثم استدار ومضى فمضوا جميعا خلفه وبقي الظلم في عيني يابوي، وأصابع يد غرولي ترن فوق صدغي بألم شديد، وصوت واثق من نفسه يرن في دماغي فوق رنين الوجع قائلا إن غرولي منصب مصيبة جديدة محكمة الصنع، وإنه لابد أن يكون ولدا واعرا جدا ياسوي،

حتى أنه يستطيع أن يؤلف بوليسا يهاجم به الناس والأماكن فجمد في صعقة كبيرة إنسي إنس بجواره مجرد ولد يضرب على وجهه بالقلم هنا صعبت على نفسي يابوي؛ فانهمرت الدموع من عيني كاللهب الكاوي، حتى انغسلت عيني ونظرت الحارة قد خلت من جميع البشر، والريح تعبث بورقة جرنال زفرة فترمي بها هنا وهناك وتعلقها في الفراغ، وثمة كلب مقع على الأرض يتابعها في انبهار ويتثاءب في ملل.

جاء الولد كمبر الصنايعي وجلس بجواري واضعا فنجان قهوة على الطاولة؛ ثم نزع من فوق حلمة أذنه تحت شعره ورقة سلوفان فيها قطعة أفيون في حجم زرار البالطو اقتطع ربعها وقدمها لي باسما «روق؛ روق؛ ولا يهمك» تناولت قطعة الأفيون وقد أحببت الولد ياخال. ولم يكن يخطر ببالي أن الولد كمبر فيه كل هذه الجدعنة رغم أنني منذ رأيته لم أهضم منظره، صحيح ياخال. الواحد لا يأخذ الناس بمناظرهم طوحت بالقطعة في فمي ومسحت دموعي قائلا «تشكر ياكمبر» قال «اشرب هذه القهوة على حسابي» قلت. «ما كل هذا الكرم ياكمبر؟» قال. «كله من خيرك!» فجعلت أرشف القهوة وأمصمص الأفيونة متمنيا أن تذاب بسرعة وقال كمبر «ما تاخد على خاطرك من غرولي! إنه لحوك!» قلت «عمره ما فعلها! لا أعرف ماذا عاملني هذه المعاملة؟ وعلى كل حال؛ حسابه معي طويل» ابتسم الولد كمبر قائلا «خذ الأمر ببساطة؛ غرولي ضربك وخلاك! فلولا هو لكان الضابط قد أخذك. للتحري عنك ولا تنس أنك غلبان - وضحك - أنت عدم

المؤاخذة صعيدي مدب.. كنت ستودي بالرجل في داهية! هل عميت ياحسن؟! أنت تراه داخلا في صحبة الحكومة تتابعه؟ إنه في حالة عمل وراسم نفسه أمام رؤسائه وحضرتك تقول له ياغرولي الكلب؟! لو كنت مفتحا لتجاهلته كأنك لا تعرفه؛ إنك اليوم ستجعلهم يشكون في صدق عمله!».

الأرض مادت بي ياحاج. تحلف اليمين أني رحت أثبت نفسي في الكرسي خوف الوقوع ودماغي كلها في دوامة كالكرة تضربها قدم لتتلقفها أخرى. غرولي هو الذي نجاني؟! التحري؟! عمله؟؟! رؤساؤه؟! ما كل هذا يابوي؟ لابد أنني من غير هذه البلدة من غير هؤلاء القوم ياحاج. أيعقل أن أصاحب رجلا وأشتغل معه سنوات طويلة، ويتضح لي في برهة سريعة أنني لست أعرفه حق المعرفة بل لست أعرفه أصلا.

قلت للولد كمبر: «ما كل هذا الذي قلته ياكمبر؟! إنك تقول العجب! أتقول الجد أم لعلك تهزل! ما دخل غرولي بالحكومة ودخل الحكومة؟!» وكدت أتسرع فأضيف قائلا: إنه حرامي رسمي ومعروف للدنيا كلها جربوها حقيرًا بلا صيدا. لكن الحمد لله يابوي أنني لم أقلها؛ لأن الولد كمبر كان أسرع مني قائلا في استنكار: «ما خوفي إلا أن تكون لا تعرف صاحبك! أنت عبيط ياحسن أم أنك تستعبطني؟ ألست تعرف شغلة غرولي الحقيقية ياحسن؟ غرولي شغلته مخبر سري في الحكومة؛ تبع مكتب مكافحة المخدرات!؟».

ط قلبي، فاترا على لساني صائحا: «ماذا قلت ياكمبر؟!» «ياجدع لا تقل هذا!». ثم خشيت أن يستعبطني الولد ياحاج؛ فتصنعت أنني أعرف هذا وأنني أخفيه حرصا على سمعة الرجل وعمله وأخذت أغالي في نفي الخبر، والإيحاء للولد بأن غرولي دماغه ملطعة خشتين ومخه نظيف يستطيع أن يلفق كل هذا، غير أن الولد كمبر زغدني في جنبي بلطف وود، وأفهمني كل شيء، قائلا: إن غرولي ينفعهم كثيرا، فلولاه لأغلقت المقاهي من زمن مضى؛ وذلك لأن غرولي يعرف مواعيد الحملات التي سيقوم بها مكتب مكافحة المخدرات بالساعة والدقيقة واليوم؛ فيلف على كل أحبابه من تجار المخدرات وأصحاب الغرز، فيبلغهم بمواعيد الحملة حتى يستعدوا لها؛ فتجيء الحملة في النهاية. تأخذ ما تأخذه الريح من البلاط. والمكتب لابد أن يطلع غرولي على مواعيد حملاته، لأنه لا حملة بدون غرولي، إنه هو الذي يعرف الحواري والأوكار والمخابئ، وهو الذي يجمع التحريات عن المجرمين والهاربين من الأحكام؛ وهو الذي يقود الضباط إلى المواقع؛ ولو كان المجرم الهارب واقفا بلحمه أمام الضابط وقال غرولي إنه ليس هو أطلق الضابط سراحه في الحال. فاصح ياحسن ياخوي! والمهم، غرولي هو الآخر يغطي نفسه جيدا؛ يجمع مرتبات تصل إلى آلاف كل شهر؛ والمعلم وغيره يساعدونه على تغطية موقفه؛ يجلبون له بعض القضايا في حضور الضابط؛ يسلمونه بعض الرياش يدا بيد ريالا دعت عليهم أمهاتهم فقابلهم سوء بختهم!».

تحت اليمين ياخال أمي لن أعد قادرا على الرغم بأنني ما
كنت أعرف أي شيء من هذا! على أن الضربة القاتلة عاجلتني بعد
برهة وجيزة ياخال، حين استطرد الولد كمبر قائلا في ثقة هذه
المرة: «أظنك لا تعرف أن بسبوسة هو الآخر مخبر سري! انتفضت
واقفا في الحال ياخال كمن يقف على سلك كهربي، وأصبحت
أصيح: «بسبوسة هو الآخر مخبر سري؟ كيف يابوي؟!» دفعني
الولد كمبر برفق، «اجلس» فصار يبحث في جيبه عن سجائر
فأسرعت بمد علبتي نحوه فنزع واحدة بللها بشفتيه، ونزع عنها
الشريحة الببولة، ثم نزع ورقة بافرة من دفتر في جيبه، ونزع
قطعة حشيش من خلف حلمة أذنه، فركها على السيجارة وبرمها
بسرعة ثم أشعلها وجذب منها عدة أنفاس متلاحقة، وقدمها لي
قائلا وهو يكتم الدخان في صدره: «بسبوسة مخبر سري تبع
بوليس الآداب. وهذه الشغلة تخفيه» لو اقتصر عليها وحدها
يأكل الشهد يلبس الحرير في حرير» وهو ما لا فعل هكذا! هناك
عمائر بكاملها وسرايات في مناطق مختلفة من المشي فيها!
لبسبوسة مرتبات ثابتة فيها! العمارة أحيانا تكون كلها شقق
دعارة من أولها لآخرها! فكلها مؤجرة مفروشة، وإيجار المفروش
هو الاسم الرسمي للدعارة! نعم! وهناك سرايات أصحابها كانوا
يشوت ذات يوم وباتوا يتاجرون في اللحم واللبن! الحكومة لا
تعرف عنهم جميعا أي شيء إلا عن طريق بسبوسة، وهو كثيرا
ما يضبط في هذه الشقق بعض رؤسائه ولكن في زيارات ودية
يقوم بها بقصد المعلوم والمبالغ حسب حالة، وكلن يجيء بعدها

فيحكي لنا وللمعلم صفصف! بسبوسة هذا كان زمانه الآن
مليونيرا كبيرا لولا مسماره! هو الذي يدوخه ويعذبه في الدنيا! لا
يشبع ولا يكتفي! يقول إن السبب ليس في أنه نور طلوقة وإنما
لكثرة الجميلات الساقطات اللائي يقعن تحت يديه مقهورات! منهن
من تكون امرأة رجل كبير ذي مركز كبير أو بنت ناس طيبين
ولكنها ضبطت متلبسة! ومادام قد صار لها ملف في الآداب فإن
مسمارًا يرقعه بسبوسة فيها خير لها من المبيت كل يوم في قسم
الشرطة! الواحدة منهن تنام في حضن زوجها متخشبة ولكنها في
حضن بسبوسة كالزمبرك! هكذا يقول لنا! ياما جاء هاهنا عقب
خروجه من عند إحداهن سكرانا طينة! فيكشف عنه ويريه لنا
متسلخا! وفي لحظات يختفي في زقر مظلم في الحارة ويفعل
العادة السرية ويعود قائلا إنه ظل يرقع طول الليل دون أن ينزل
معه شيء وقد انزل الآن فاستراح! إنه ملعون في الدارين بسبوسة
هذا لكنه جدع! أجدع واحد في شلتكم كلها! خصوصا لمن يقصده
في خدمة! مش يعجبهن ـ يقول ـ لأنه يفعل معهن ما لا يفعله
أزواجهن تحرجا أو غشومية! بعضهن يطلبن له عند حدوث الشيء
لأنهن قبل الآن لم يكن يعرفن شيئا عن هذا الشيء رغم أنهن
متزوجات ومنجبات من سنين طويلة! كذلك يفعل معهن حركات
الجدعنة! إنه محظوظ ابن كلب هذا البسبوسة! أتحدى شنب في البلد
ولحلى شاب فيها لو نظر لواحدة منهن تنقلع عينه قبل أن يطول
منها نظرة لما هو معروف عنهن من العفة والهيبة وكثرة المال! أما
عند بسبوسة العفن هذا فإنها تخلع اللباس في الحال وهي تقول

سبحان الله والحمد لله! وعلى فكرة! كل سكان الكورنيش عفيفات شرفاء حتى يراهن بسبوسة، تنهار الواحدة منهن في الحال وتتكسر عينها! أما عمارة الكورنيش في مصر عتيقة، أكبر عمارة هناك - من بسبوسة يشتغل عليها آخر شغل! فيها خمس مؤسسات مقيمات لكل منهن ثلاث أو أربع صديقات! كل واحدة منهن تجيء بزبائنها الخصوصيين، وهم رجال من أصحاب الرتب العالية والرأسمال الكبير، والجميع يقيمون السهرات الحمراء، ولعب القمار شغال طول الليل، الواحد منهم يشتري البنت ويلاعبك عليها شف الفُجر والعهر! شف المزاج العجيب الغريب، دين أم هذا المزاج العجيب! إن غلبته أنت في اللعب تقوم في الحال أو عندما يطيب لك فتختلي بالبنت في الحجرة المجاورة حتى الصباح! يقول إن عندنا مرخيا يكسب باستمرار في هذه اللعبة فيحتجز أحلى البنات على اسمه طول الليل والمغلوبون يتحرقون شوقا من حوله ويتحسبون فلا يرحمهم! أما إن غلبته أنت فإنه يدفع لك تكاليف أي بنت تختارها! إذ إنهن جميعا أمامك بقمصان النوم شاربات منتشيات بين يصحين اللعب فيجعلنك تذهب لتجيء بكل ما في بيتك من مال تدفعه لهن! شف العهر بتاع البلد ياسي حسن! وتقول لي نكسة؟! إنها بلد يلزمها الحرق يابوعلي!».

وكف عن الكلام كأن الحشيش المتكلم في دماغه قد نفد فجأة كما تنفد البطارية. ظل شاردا يحدق في الفراغ وقتا طويلا يمص سيجارة عادية في صمت كفيلسوف مشهور، وموجات صوته

لاتزال موجودة في المكان. أما أنا لا نسل عني بحال، تحلف اليمين أن يا عليقة عسلتني وعصرتني. الأرض كروية يابوي، صدق من قالها. وبحر الأفكار واحد والخلق جميعهم يسبحون فيه. والواحد منا مهما شرق أو غرب فهو ماض تحت نفس الأمواج المتلاطمة، وها هو ذا الولد كمبر يكلمني فيما كان يشغلني من أمر دون أن أسأله أو أعرض عليه الأمر. فياله من أمر يابوي!

فجأة نطق الولد كمبر من جديد. فلم أدر إن كان قد استأنف بعد توقف أم أنه لم يتوقف أصلا؛ لكنني أفقت على صوته يتجسد في أذني بحدة وحقد شديدين: «المشير أصله ضرب مخ الجميع بمرض القنابلات! وآخر الشمعة جاه ينتحر لي فتك البلدة وانتحر! الله يكرمه عنده دم وانتحر؛ أما الأحمر فقد نال أمنا وجاه يتنطر ويتمحى؛ بلد مسمومة ياجدع! الثورة تاكل عظمها وباشوات زمان عششوا بفلوسهم، والضباط صاروا باشوات أوسخ من الباشوات! وإسرائيل لابدة لنا في حقول الذرة العالية؛ وحقول الذرة هذه في أمريكا إن كنت لا تفهم! وخل بالك أنني عصفور أكبر من شكلي!».

ثم عاد إلى صمته؛ وقام بعد برهة فاتجه إلى الحصيرة وراح يقلب ويكركش تحت خشب أرضيتها وجاء بربع قرش ملفوف في ورقة سلوفان حمراء، وجلس ماندري يلف سيجارة.

* * *

أولاد القحباء - إذن - يعيشون في حدبة بسبوسة. لقد تضحت الأمور تماما بالخال، وباتت غير محتاجة لأي تفكير فما

الذي تراني سأقطعه مع بسبوسة ياخال؟» هل يعقل أن بسبوسة يبيعهم ويشتريهم؟ هل يبيع مصدر رزقه في سبيلي؟ لا أظن ذلك أبدا ياخال. وبهذا تكون المسألة قد تعقدت، ولن أفلح في محاربة أولئك الموامس طالما أن مندوب الحكومة يحميهم. إن الموظف الصغير في بلادنا هو الحاكم الأصلي كما علمني وبيهي أفندي، وكل الرؤساء الكبار لا يعرفون شيئا غير أنهم رؤساء وكبار والسلام؛ خاصة هؤلاء الذين جاءوا مع الثورة وعقدتهم المريسة فحسب. على كل حال ياخال، هكذا قلت لنفسي يابو العم - فإن الولد كبير يقول إن بسبوسة جدع، خصوصا لمن يقصده في حين، وأظن ياخال أن مقصدي من تأديب الموامس حين الأمر يلزمه تفكير عميق يابوي. فأنا الآن فقط صرت أتأكد من أنني بالنسبة لهؤلاء والولدان قشة في بحر قراره عميق.

ورأيتني أقول لولد كبير «علمني عندك ياكبير أن يظل ما دار بيننا اليوم من كلام كأنه طوبة وقعت في بئر مظلم!» فرعني كبير بسيجارة ملفوفة وغمزني بعينيه «كم من السنين تعطيني عمرا ياحسن؟» قلت «شيء وعشرون على الأكثر» فابتسم وأخرج ولاعة البوتاجاز البلاستيك وارد غزة، والتي من المفروض أن يرمي بها فور نفاد البوتاجاز منها لولا أن المصريين اخترعوا له طريقة لإعادة ملئها بالبوتاجاز. جعل يقرب شعلتها المستطيلة نحوي؛ فاشعلت السيجارة وجذبت نفسا عميقا، بيحثه بأنفاس متلاحقة وهو يبيهي في جرح «الرحمة». فناولته السيجارة فيأخذها نفض عنها الزهرة المحترقة وكانت أعماقها متصببة دليلا على جودة نوع الحشيش الذي بدا كأنه العمود المسلح وسط الهشيم المحترق. أبقى السيجارة بين أصبعيه حتى تلتقط أنفاسها. ثم قال «شيء وعشرون تقول؟» ربما يجبر بخاطرك!» وجذب نفسا عميقا كتمه في صدره عينيه بالأحمر المرمد، جعل يقول وبقايا الدخان في حلقه تبعثر حبال صوته. وتعطله «في رمضان القادم بأكمل الأربعين من العمر!» وجذب نفسا أعمق من سابقه يابوي. نفسا يليق بسن الأربعين وسط عزة فيها الحبير غير متطرع ولا ممنوع. قلت «ما شاء الله. ما شاء الله» لا يبين عليك والله ياعكروت!». سلمني السيجارة قائلا بصوت متكتم «عندي عرائس مزوجات» ولي ابن مجند في الجيش الآن» وآخر مات بالنكسة» جاءته نكسة قلبية في سيناء فمات ولم أر جثمانه حتى الآن ولم أعرف إن كان قد دفن في مقابر الشهداء، حقا أم أكلته الغربان والذئاب في سبيله» أما الأصغر كنت سأصاب بالنكسة وأنا مثله لكنني رأيت أمه على وشك الوقوع صريعة مشنوقة بالطرحة السوداء والكفن الأسود؛ فقلت ما يصح أن تسقط معا» فاجتمعت وقوعي حتى أقوى على سعد أمه المسكينة» إنها أهم مني بكثير ياجدع؛ لو ماتت الوص لنا بقبيله من الأولاد لا نجد من يمسح خراءها؛ لو مت أنا فالله يرزقهم عني؛ أما هي فبإذن الله - عدم المؤاخذة - لم يرزق أما ثانية لنحى آدم أبدا» عمرها ما حصلت ياجدع» عمرك شفت شخصا ماتت أمه وعوضه الله بأم غيرها على الحقيقة» إن قلت إنك شفت يبقى كذاب. حتى أم لام سعسها

رغم كثرة حنانها لا تكون هي الأم نفسها أبدا! إسألني أنا فقد الكويت ياجدع!».

وتناول السيجارة مني ونظر في عقبها محدداً عمق النفس الذي عليه أن يجتبيه. فلما رآه لا يستأهل، رمى بالعقب في بالوعة الماء تحت النصبة؛ ومضى يبرم سيجارة أخرى وقد ندت عينه بالدمع؛ وترطب «إسمي لابن قصبه! صحيح!»؛ وضحك بصوت عال في مرح حقيقي. «الذي مات مات! في كسحة! الفقير نفسه مات! والبطل واللوطي كلاهما يموت في النهاية ويتساويان في القبر والكفن. ومصر كلها ماتت من ضرب فيها وكأن شيئا لم يحصل! الراديو يذيع خطبه في المصيدة عشية النكسة يعريها بها في موت عبالنا! شبيه من! كلنا في المصيدة وتجيء تسوق التريقة علينا! معك حق طبعا! البلد فرحانه والكباريهات سهرانة والشقق المفروشة عمرانة! والقرر نارها والعة والحشيش للركب! ما يشرب الحسرة إلا نحن بامن فقدنا عيالنا! لكن لا داعي للنكد! معلهش ياحسين! أنا تصيبني حالة النكد هذه كلما رأيت أحدا من الحكومة». ثم بلل الورقة البافرة ولصقها حول الدخان وكوربورها وسوى عقبها ثم أشعلها وتركها موهوجة ملطمة بأنفاسه المتلاحقة؛ أخيرا سلمها لي قائلا «قصدي من الكلام كله أنني في غير حاجة لمصاحبتك! أنا ولد يعجبك! أصادق الصغار والكبار معا. يخدعون في شكلي يتصورونني من سنهم! فأجد نفسي كبيرا عليهم! والكبار يتصورونني صغير السن فأجد نفسي مساويا لرءوسهم! هل رأيت المعلم صفصف يهتني في أي يوم أو يقل أدبه علي كما يفعل مع الصنايعيه؟! هكذا أنا مع كل الناس! أحترمهم فأكيفهم فيحترمونني ويطلعونني على أسرارهم! وأنا ـ على فكرة ـ أستطيع أن أميز السر الحقيقي من السر المصطنع! أعلمك وأكل من؟ دلوما! السر الذي يقال لك ليس بسر حتى ولو وصفه قائله لك بأنه سر! إنما السر هو الذي لم يكن صاحبه يود لك أن تراه أنت أو غيرك! تشرب شاي؟» قلت «من أهلاك ياولد!» محمود على النصبة وصب كوبين من الشاي الثقيل ذي الرائحة النفاذة؛ فأخذنا نشرب في صمت عميق يخال؛ كأنه تعبنا من الكلام! ارتكن هو بمرفقيه على رخامة النصبة شاردا. وكومت أنا على الكرسي، وقد شعرت أن السيجارة الأخيرة لطلشتني في مقتل ياخال، فصار دماغي يتبخر في الهواء وعند صمتنا انبعث صوت تكتكة صار يقوى مع الريح المقتحمة من فتحتين متواجهتين، وكانت صورة جمال عبد الناصر المعلقة في برواز مذهب على الحائط قد صارت نهبا للريح مشبوكة في فتلة دوبارة دائبة؛ فأحدثت تصدر هذا النقرزان العنيف. فقلت في عقل بالي لعله يدور ثن على حراب عشه فالشعر بدني حينئذ ثم انفرد مرة واحدة في رعدة شديدة قلت على أثرها: حي على الفلاح! واستسلمت لصمت عميق مخيف.

الخامسة ـ طلوع الشعرة من العجين

كنت أوقن أن كل شيء مصيره ينكشف، مطالما أنت زمار وأنا طبال فلابد أن الليل يجمعنا. إلا أن حمى الصعيدي الناشف أمرني أن أختفي عن هؤلاء الأولاد، وأبعد عن الشر وأغني له. ولقد منَّ الله علي برجل طيب كان يعرفني من قهوة المعلم. هو من بلدة الصف اسمها «الودي» وكان معروفا للجميع: اسمه الحاج وهدان؛ شغلته في الأصل تاجر خضار وفاكهة، يوسق المراكب من بلدته ويجيء ليحتلها في مصر عتيقة بدلا من روض الفرج، الذي تكثر في سوقه المعلمين ويضيع مكسب البضاعة بينهم. غير أنني عمري ما رأيته في حالة شغل أبدا؛ فدائما هو قاعد على المقهى يشرب الشاي مع الشيشة، ويستقبل الوفود الذي لا ينقطع هطولها طول النهار. كلهم أشكالهم غريبة يابوي: ومثله يرتدون الجلباب الكبير والعمامة الصعيدية والعباءة الجوخ على أكتافهم، وكلهم عيونهم لائذة، لا تكف عن التلفت في حذر وحيطة. وصدفة رآني ذات عصرية رقيقة النسمات أجلس على رصيف المقهى وحدي. فمَيَّل نحوي وناداني بإشارة من يده، فقربت كرسي منه مائلا بأذني نحوه. وضع كفه الكبيرة فوق كتفي مائلا في ود

جميل: «متشتغل فين يابو العم؟». قلت: «صراحة لا أشتغل هذه الأيام!». قال: «مما شغلتك الأصلية؟». قلت ـ ولا أدري لم؟: «بياع متجول!». لوح بالخواتم الذهبية في يديه وقال: «أظنك تقرب للمعلم شبشيلي!». قلت: «أبدا. وأسكن عنده». صاح زعق عنه «حلو!». ثم عزم على بسيجارة بلمونت فقبلتها. «كتر خيرك». فقال وهو يشعل لي بولاعة بوتاجاز ثمينة: «عندي طلب بسيط! لو نفذته لك عشرة جنيهات». قلت: «رقبتي سدادة!». قال «سأعطيك شيئا توصله إلى مكان قريب». ففهمت في الحال، وقلت بحرفنة: «عشرة جنيهات على الأقة تقصد». فتبسم في حذر وخبث، ثم قال: «على النقلة كلها!». قلت: «يفتح الله. إذا كان على الأقة الواحدة أهلا وسهلا». فشخ ضحكه وقال دون مواربة: «شف يابو العم، ست جنيهات فقط على الأقة، موافق؟!». قلت: «موافق!». قال: «قم معي». فقمت معه فإذا هو يركب المرسيدس الراكنة بجوار المقهى، ويفتح الباب لأقعد بجانبه. ثم إذا بالسيارة تنطلق بنا كالعروس المجلوة ما صدقت أن تسلكت الطريق السريع حتى نفحت جناحيها وطارت، فصرنا في بلدته بعد دقائق. في الطريق احتبرني، وزودني بكثير من النصائح الثمينة. نبهني إلى ركوب القطار بعين قوية حتى لا أثير الشبهة حول نفسي. فإذا هو يا خال يكتشف أنني من أصيع خلق الله، أصيع منه ومن الصياع والمخبرين والكمسارية.

* * *

كانت ايمه قُلاً ابوى أنقل كل يوم نقله وربها خمس اقات بعشرين كسب مبطط، اشترى لها جعبه من ورق الاسمنت واعطى البضاعة بهلاهيل قديمة وفى القطار اسندها على رف واقف بعيد عنه بمقدار طول العربة، يكون بينى وبينها باب، واصب عينى عليه جلسة كلما وقف القطار على محطة حتى إذا جاءت محطة السيدة زينب تلقفت الجعبة بسرعه وقفزت هابطا لأدوب فى سيل النازلين مسمت إلى الحوارى الجانبية فى لمح البصر كفص ملح داب الرجل المقصود دائما فى انتظارى على ناصية او مقهى أو فى دكان صغير سقالة للعطارة الحياطة لأى شىء قبض العرق يتم قبل العمل، يدفعه لمول على داير مليم لكى يكسف شيطان الهرب الوسواس' ولكن متلقى البضاعة يتشكك لحظة وصولها بسلام وإن ترترت أعصابه وتغير منظره، فيتمرس ما عيه بعيب، وأحيانا غرت باللبن اشرب قهوة ماقوت، وأشرب فوق القهوة ما يثول الحيل من حشيشة المعلم المحموصة وأقفل راجعا إلى الدار بوهمة من فلوس وحشيش وأفيون وبرشام

الحالة شعجهت وبانت أحر نظاكة' واصبحت أرمى مأكوام الفلوس عشرات عشرات فوق بعضها فى اى مكان بجوار السرير، وصرت ادفع لمعلم شدوبلى فوق الإيجار إيجارات وفوق القسط اقساط حتى فدم الحساب عن دفاتر ذاكرتى فصار شيئا كبيرا كبير، مصيبتى الدوار حين أشرع فى حسبه فى جمعه فوق ذلك صرت ابعث لهليل بالحوالات تلو الحوالات، ولامى كذلك، والفلوس

مع ذلك لا تستنفد ولا تختفى أكوامها من فوق ذلك المسمى بالكومدينو المجاور لرأسى ولم يكن الشمس يستغرق منى سوى أربع او خمس ساعات' وبقيه النهار مفتوحة، والليل كله تحت الركاب ولقد تعلمت أكل الكباب والكفتة مثل الأكابر، والجمبرى والكابوريا مثل أولاد الناس كما تعلمت النوم فى القيالة للسهر طول الليل فى بارات وسط البلد وحى العتبة وعزو الدرب الاحمر والسيدة زينب

وكنت جالسا على مقهى الكلوب المصرى مرتديا الجلباب الكشمير والمركوب الاصفر وأتلفع بلاسة حريرية سمينة اللون، أضع رجلا على رجل. وامامى فنجان القهوة كالناس الأكابر لا ينقصنى سوى الجزمان والعصا أم عوجته والمشبة حين جلس بجوارى رجل يرتدى جلبابا فوقه بالطو قديم كالح، وله شوارب متدلية عرفت فى الحال أنه مخبر سرى فى الشرطة. فرجف قلبى صرت اتفرس فى وجهه علنى أعرف سر هذا العشم الكبير الذى جعله يجلس بجوارى أنا بالذات من غير سلام أو كلام كان هو الآخر يتفرس فى عينى ويقارنى فاعتقلت معه' مع ذلك قلت له باسما «أهلا وسهلا» قال. «حسن ولد أبو ضب؟» قلت متحسبا «حدامك ومحسوبك' تشرب إيه؟» وصفقت فى الحال مناديا الجرسون، الذى جاء يهرول فقلت له «هات قهوة هنا» قلتها كما يقولها الحاج وهدان بالضبط لأنه هو الآخر يقولها كما البكوات الكبار وهنا ضحك الرجل فضحكت أنا الآخر، وأسرعت

فقلت «أهلا وسهلا يابو العم؟ عدم المؤاخذة، العتب على النظر»، وقربت علبة سجائري البلمونت منه؛ لانتزع منها واحدة بحركة سريعة، وعينه تبصبص للعلبة ولحركة يدي أينما اتجهت. وحين أشعلت له السيجارة بالكبريت كان الجرسون يضع أمامه فنجان القهوة، فانتظر هو حتى أعطانا الجرسون قفاه ومضى، ثم جذب من السيجارة نفسا يلمع من ورائه حنق شديد في عينيه، وبعثر الدخان نحوي قائلا «عدم المؤاخذة يابو علي، عندي لك نصيحة!». قلت في نفسي «يافتاح ياعليم» وأردف هو «هما كلمتان كفاك هذا!». دبت الرعشة في ساقي «ما قصدك يابو العم؟ ومن تكون حضرتك؟!». أخرج من جيب صديره كارنيها قديما كالحا قربه نحوي في حركة مدربة وهو يقول «سيد الشفتوري! مخبر سري». فاشحت عن الكارنيه وعنه، فأعاد الكارنيه إلى جيبه وهو يقول في لهجة انتصار «أنت تشتغل مع الحاج وهدان بتاع مركز الصف! وأنا عارف كل حاجة، تركتك تأكل عيشا وليس بقلاوة! واليوم رأيتك فرأيت أن أقدم لك واجبا لوجه الله. الجو هذه الأيام مقلوب! ومصيرك الوقوع في الفخ!».

نشف ريقي ياحاج: صرت أبلل شفتي بلساني كي أقدر على الكلام. قلت «أنت تشكر على كل حال يامعلم سيد يارجل ياطيب، ولكن أنا مالي أي دعوة بالشغل! ربما تكون رأيتني معه أو عنده، والحقيقة أني أعرفه من مقهى المعلم شمعوبلي، أما أنا فتاجر فاكهة سمسار، ولست أعرف للحاج وهدان شغلة غير هذه أيضا،

فإن كنت تقصد أنه يخالف القانون في البيع والتسعيرة فأنا لا ذنب لي!». وكانت عينيه الشبيهة بعين الثعبان قد انغرست في عيني وصارت تشرخ فيهما بمبارد من حديد مشتعل، فما كدت أنهي كلامي حتى شفط آخر شفطة من القهوة ثم وقف حاطا يديه في ركبتيه علامة اليأس مني، ومضى قفاه يبتعد حتى اختفى.

بيني وبينك لعب الفأر في عبي، وكنت أتمنى لو أني عثرت في جيبه بجنيه أخضر، إذن لا نحني لي شكرا وتركني في حالي مثلما يفعل زملاؤه الذين أراهم يسلمون على الحاج وهدان كالخدم الأذلاء. لكنني خفت أن أفعل مثله حتى لا أثبت التهمة على نفسي. انقبض قلبي وحط عليّ نكد ثقيل، فحاسبت القهوجي ومضيت إلى الدار وقد خيل لي أن الدنيا بدأت تقلب لي وجهها من جديد، وأنني يجب أن أتوقع أيام نحوس جديدة لست أقدر على دفعها إلا بالابتعاد عن خط الصف كله، ولكن كيف يابوي؟ فلأعد للولاد ثانية لأشتغل في التشبيح ليلا كيفما يهوى. هكذا قالت نفسي لنفسي. وفي السرير تمدد الشيطان بجواري يقنعني أن «سيد الشفتوري» يسعى لورقة الجنيه وأن أمره بسيط ويمكن أن أتحدث بشأنه مع الحاج وهدان ليصرفه عني. وهكذا استطعت أن أغمض عيني قرب الفجر.

في الصباح غسلت وجهي بحفنة ماء وبرزت من فوري متوجها إلى بلدة «الودي» لمقابلة الحاج وهدان. وجدته يجلس في

حوش داره بين مجموعة من أولاد عمه وصحابه. داره منفصلة
عن البلدة، تختفي وسط جنينة كبيرة وارفة الأشجار. ولما نبحتني
الكلاب طلع من يهششها ويسحبني. ولحظة دخولي كان الحاج
وهدان يفرجهم على بضاعة جديدة. يحاول فتح صفيحة كبيرة
كصفائح السمن. فيما يجمع السبيك والشاكوش في فك شمعها
رفع غطاءها الكبير، فاندفعت رائحة الحشيش راعقة مكتسحة
مبهجة. ومد يده فاغترف بكفه حفنة صغيرة من بودرة صفراء
عرضها على الأعين المشرئبة، ثم أطبق كفه عليها فانعجنت. وفك
عنها قبضته. فإذا هي كرة من الصلصال كالبيضة. سحب
سيجارة من علبة أمامه، غطسها في الصفيحة ثم أخرجها وأشعلها
وجذب منها نفسا عميقا. مررها علينا. ثم تابعها بواحدة ثانية
فثالثة، فرابعة، فخامسة. فإذا نحن جميعا قد احمرت عيوننا
واحلوت الدنيا في نظرنا، وصرنا نضحك على الفاضية والمليانة.

صفق الحاج وهدان فجاءت أمه الحاجة «أمهة» لتأخذ الصفيحة
في دخلتها جاءت عيني في عينيها مباشرة. فإذا هي تغمز ابنها
قائلة في تحذير بلهجة خطيرة وهي تشير إليّ: «الولد ده ما يشيل
بضاعة اليوم». وحملت الصفيحة ومضت كفتاة صغيرة. كل
النظرات راحت تنصب عليّ في تشكك ناعم، فصرت أحلف
ستمائة يمين أنني طبيعي ما انسطلت بعد، كما أنني لست بالذي
ينطلي من سيجارة واحدة حتى لو كانت محشوة بالبارود. ونظر
لي الحاج وهدان نظرة تحذير أخيرة وقال: إنت حر على كل حال:

نمك على جنبك». فضربت صدري بقبضتي قائلا: «أنا تحت
يا معلم! ما يهمك شيء». فأشاح عني كأنه استشف عدم قدرتي
اليوم بالفعل. وقال مستدركا: «على كل حال يكفيك اليوم أقة
واحدة! إن ضاعت فأمرها سهل!». قلت في شيء من الانكسار:
«اللي تشوفه يا معلم». وبعد أن تغديت فطيرا مشلتتا مغمسا
بالعسل النحل والجبن القديم وشربت شايا، ونفحني الحاج وهدان
عسلية أفيون. وكنت بالفعل أشعر أن الدنيا ليست هي الدنيا، إذ
كل شيء قد زهزه في عيني فجأة واكتسى لونا جميلا وصارت
كل ملامح الناس باعثة على خواطر الضحك. تحلف اليمين بأنني
كأنني مخلوق لتوي. غير أن رأسي يتثاقل عليّ ويخادعني، يكاد
يوقعني، حتى لقد صارت أمنيتي الوحيدة في الحياة أن أرقد على
ظهري وأنسلخ عن الوجود وأعيش وحدي هذه اللذة الكبيرة. إلا
أن الأفيونة بنت الكلب سرها باتع يا بوي. ما كدت أدحرجها في
فمي مشعطة شاي ثقيل حتى أحدثت دمعي في الحال، وصار
بإمكاني أن أنهض في طلب البضاعة والاتكال على الله.

ويظهر والله أعلم أن الحاج وهدان قد لمح الزغل في عيني على
نقص ذوقي اليوم بتخفيض المشال إلى أقة واحدة. فإذا به بعد أن
سلمني الأقة يخرج من سيالته أربعة أكياس يضعها لي قائلا:
«هاك لقة أخرى! خل بالك من نفسك!». فحشرت الأكياس في دكة
اللباس وكسرت عليها الحزام ومضيت وأنا أقوى. يسابل الستر
الى الصوف تصدر من قدمي وبعث طائره السريع إلى دماغي

فذكرني سيد الشفتوري وما حصل منه على مقهى الكلوب المصري. استحييت بالحاج جانبيا وهمست له بما حصل بالأمس. فوجئت بأنه لم يطرف له جفن، بل أطبق على سمانة ذراعي قائلا في بساطة: «لا يهمك منه، إنه كلب لا هنا ولا هناك! لو كلمك ثانية استغنى عن علبة سجائر تسد بها حلقه» وعلى كل حال أنت محمي هنا! في حدود مركز الصف؟ إذا لا قدر الله قلت الحكومة عقلها وهاجمتك فإنك ستخرج من باب قسم الشرطة بعد ساعة واحدة! وتخرج البضاعة من الباب الأخر بعد ساعتين! أما خارج حدود المركز فاجعل عينيك في وسط رأسك إذ أنت مسؤول عن نفسك!» فقلت: «نشكر ياحاج!»، واتكلت على الله ثابت الوطء.

قرب محطة حلوان سمعت صوتا مألوفا يناديني. تلفت مذعورا أبحث عنه: فإذا هو عم زعتر بائع الشباشب الزنوبة والأحذية المصنوعة من البلاستيك. كان سارحا في شوارع حلوان يبيع ويتسوق معا. وكان يحمل على ظهره جوالا ملآنا بالشباشب والأحذية. أهلا عم زعتر. ومشينا معا حتى المحطة، فقلت له: «عنك! دعني أشيل بدلا منك!» أنزل الجوال قائلا: «لا! بس ممكن تخلي بالك منه لحد ما اشتري طلب من الأجزاخانة!» قلت: «أشتري لك أنا». قال: «لا! أريد أن أفك فلوسا كبيرة!» ثم مضى.

وقفت بجوار الجوال أتلفت حوالي، والخاطر الوافد يكبر في دماغي ياحال. قلت فلأجرب. فانحنيت على الجوال، ونزعت الأكياس وسربتها إلى الجوال في قلب الأحذية. عم زعتر نظره ضعيف، ويمكن أن أستغفله عند النزول. ساعدته في حمل الجوال على ظهره، وتركته يمضي قائلا إني سأشتري سجائر وألحقه، فقال إنه سيقطع لي تذكرة. جعلت أتلكأ حول أكشاك السجائر على باب المحطة متظاهرا أني مشغول بشيء سأشتريه. وحقيقة الأمر أني كنت شاعرا بالحرية بعد أن تخلصت من السجن في جوال عم زعتر. أيقظني صفير القطار من سرحتي فيممت نحو دكان اشتريت منه بضع قطع من الصابون صررتها في منديل محلاوي ووليت إلى باب المحطة. ويالهول ما رأيت ياحال. سيد الشفتوري المخبر السري واقف على باب الرصيف وحوله رهط من أهل مهنته. وثلاثة أفندية محترمين سمحو الوجوه. قلت: بس! رحت في داهية! وصرت ألملم ركبي تحت الجلباب. من حسن الحظ أني أعطيتهم قفاي بسرعة قبل أن يروني، وصرت أتحكك في طابور التذاكر ممسكا بورقة الشلن حتى وصلت إلى عم زعتر قرب الشباك؛ ملت عليه وهمست في أذنه بسرعة أن لا يكلمني ولا يعرفني الآن لأن المباحث واقفة بباب الرصيف تنتظرني. عم زعتر سلمني التذكرة ومضى بعيدا؛ فظللت واقفا لبرهة حتى رأيته قد عبر البوابة ودخل إلى الرصيف؛ ثم انضممت إلى آخر الطابور. ما كدت أصل إلى الحاجز الحديدي حتى تهلل وجه الضابط وانفرجت أساريره وصاح قائلا: «أهلا. أهلا! أهلا! إزيك ياحسن معاك حاجة ياحسن؟ طلع اللي معاك طلع». فوجمت. قلت: «ما معي أي شيء ياسعادة البيه! لا أفهم أي شيء تقصده». فنظر الضابط إلى سيد الشفتوري، فانبرى يفتشني تفتيشا قاسيا

ومهينا للكرامة بحال. ومن الآخر شوح للضابط في مرارة وحسة أمن قائلا «ما معه شيء ياسعادة البيه» فاشاح الضابط وشوح علامة أن يفضه مني فيتركني وفعلا تركني بحال، فمضيت أجرر ساقي نحو القطار المتحرك، ورميت بنفسي على سلم أول عربة، متشبثا بحديدة الباب، صعدت، جعلت أمضي من عربة إلى أخرى بحثا عن عم زعتر، الذي وجدته في العربة الثالثة واقفا بجوار الباب مسندا الجوال فيما بين ساقيه وصدع الباب لم يرني بالطبع، فجاورته إلى آخر العربة عند بابها الآخر. بعد برهة قصيرة رأيتهم مقبلين بالحال سيد وحكومته فقلت: لابد أنهم يتتبعونني ويصرون على الإمساك بي متلبسا. فسابت ركبي، وجعلت أدفن نفسي في ركن الباب وظهر الكرسي ولكن عيني تتلصص عليهم.

المصيبة بالحال أنهم ركبوا وسط الزحام وبقوا واقفين في أماكنهم حول عم زعتر فجاءني صوت يشبه صوت أبي يقول: انزل في المحطة القادمة! انزل في المحطة القادمة! انزل في المحطة القادمة .. ومحطات كثيرة جاءت ومضت وأنا لا أفيق من شرودي إلا والقطار يهدئ لمحطة استئنافه السير. وحقيقة الأمر يا أبوي أن البضاعة التي دفنتها في جوال عم زعتر صعبانة علي ولابد لي من استردادها بأي شكل. وعندما جاءت محطة الملك الصالح كنت في فتحة الباب واقفا في اطمئنان في آخر عربة، وهكذا قفزت على آخر الرصيف مداريا نفسي في زحام السائرين، وجعلت أتسقط عم زعتر فلما راق الزحام رأيته واقفا على الرصيف، وسيد

الشفتورى يساعده على حمل جواله، حتى صارت أبواب القطار تغلق ببطء والعربات تزحف فوق الرصيف. أعطيتها ظهري، ووليت نحو السلم، ثم أحدث أهرول شيئا فشيئا حتى لحقت بعم زعتر، فقلت له: عنك! وحملت الجوال ومضيت بجواره أفكر في طريقة أسترد بها بضاعتي دون أن يلحظ هو أنني كنت أضع به السجن في جواله. إنه لحسن الحظ يعرف أنني شريب للحشيش، قابلني عشرات المرات في عزبة مصر عتيقة والفسطاط وأثر النبي؛ فهو الآخر حشاش بريمو. ولو فتشته في أي لحظة فلابد أن تجد معه حشيشا لشربه. ومن أعلى نوع. أنا نفسي كثيرا ما أرضى بشرب حشيش كالجبة تمشيا مع الظروف والأحوال، أما هو فإن لم يتوفر له النوع أو الهبو. ذو الثمن المرتفع فإنه يبطل الشرب حتى تتيسر الأحوال، لكنه دائما أبدا يطبق في لفائف عمامته الصراوية أكثر من قطعة جيدة من باب: الله فركها إلى أن يهديها لصاحب نصيبها.

وجدتني أقول له: «معك حجران ياعم زعتر؟». قال بشهامة «معي لكن لن يعجبك». قلت في منتهى السعادة: «أما أنا فمعي أعلى حشيش بريمو! عمرك ما شربته!». وكأن قد توقف وراح ينظر لي في اندهاش رافعا حاجبيه، فأردفت: «إذهب فاشتر لنا ورقتين معسل قص! وسوف أعشيك لحما وفراخا مشوية! فأنا تفاءلت بك اليوم». تردد عم زعتر قليلا: «ويكن! بدي أستريح شوية بعد مشوار اليوم». دفعته بيدي قائلا بإغراء: «استرح عندي لو شئت». الرجل لم يكذب خبرا. تركني وانطلق يهرول نحو دكان

على الرصيف المقابل. أما أنا فانزويت بجوار سور حديقة المستشفى وأنزلت الجوال وانتزعت منه بضاعتي فحشرتها في ثيابي كيف كانت. ووقفت أنتظر عم زعتر. وفيما كان مقبلا من بعيد يتطوح مع الريح ممسكا بباكو الدخان المعسل، تذكرت أن ورائي موعدا ضروريا مع زعتر آخر هو زعتر أبو كرش تاجر الحشيش في حي فاطمة النبوية. وقلت: ما من المشوار من بد؛ فالبضاعة لابد أن تبيت في بيت صاحبها.

الله وكيل يابوي، وهو معي على الدوام؛ إلا وعربة الأجرة قادمة تقف أمامي لتنزل منها راكبة عجوز، فهتفت بالسائق قائلا «النبوية يااسطى؟». قال في تأفف «اركب!» وكان عم زعتر قد اقترب، فصحت به وأنا أفتح الباب «اركب ياعم زعتر». ثم قذفت بالجوال. قال زعتر في دهشة كبيرة «على فين ياجدع؟»، قلت «اركب بس!»، ودفعته برفق، فركب كالأهبل في الزفة.

نزلنا على باب العمارة بالضبط، فأنزلت الجوال وحاسبت السائق واندفعت أهرول في العمارة نحو ضريح النبوية، حيث كان التاجر الكبير ـ وهو بعد في ريعان الشباب ـ ينتظرني أمام عمارتيه الكبيرتين المتجاورتين للضريح مباشرة.

ما إن رآني حتى تهلل وجهه الأحمر المستدير المورد، وفرد صدره متنفسا تحت القميص الأبيض المستورد الملتصق على جسمه، سلم علي في حذر، وعيناه تمسحان المكان من كل ناحية، ثم إنه تقدمني داخل الجاراج في بدروم بحجم العمارتين، حيث

توجد حجرة مخفية في الداخل. فتحها وأشار لي أن أفرغ البضاعة، فأفرغتها على كرسي، ولما اطمأن إلى عددها أمسك بعض الأكياس وفتقها وغرز أسنانه في الحشيش ثم انتزع بضعة قطعة ودلس بمشط قدمه على بلاطة تحت مكتب ريديال في ركن الحجرة، فإذا ببلاطة بحجم أربع بلاطات ترتفع عن الأرض ليظهر من تحتها فراغ مظلم عميق. دلق الأكياس فيها وترك البلاطة تهوي إلى وضعها من جديد وأزاح المكتب فوقها. وحين استدار وفوجئ بي أبرعبج وكاد يفتح كرشي بسكين. لكنه مثل ابتسامة وخبط جبهته بكفه في مرح. وتقدمني حتى باب الجاراج المطل على الشارع فصفق بيديه، فجاء البواب يجري. أمره أن يجيء بالكراسي ويشعل النار ويغير ماء الجوزة. فعل البواب كل ذلك فيما لا يزيد عن خمس دقائق، كل ذلك وعم زعتر واقف ينتظر على باب ضريح النبوية. وجاء زعتر أبو كرش وهمس في أذني قائلا «الراجل اللي هناك ده معاك؟»، قلت «نعم»، إنه صديقي وقد ضعني وجوده! وهو لا يعرف أي شيء عن أي شيء. فهز رأسه وبعث البواب يناديه فيما جاء فقال له زعتر أبو كرش إني ملبانه وقادم له برسالة من البلد ولابد أن يكرمني

جلس البواب أمامنا على الأرض يرص الحجارة. وزعتر أبو كرش يرقعها بالحشيش الدربي، هات ولد نظيف المظهر، فناداه زعتر وأمره أن يسوي لنا ثلاثة كيلو كباب ضاني. كانت عصرية لا تنسى ياحال، جديرة بأن تكون احتفالا بآخر نقلة أحملها في حياتي

السادسة ـ الفخ الجهنمي

شهور عديدة يا بوي أمضيتها بدون عمل. لكن العين والحمد لله ملآنة بالخير، فما تبقى معي من مال يكفيني لشهور أخرى مقبلة. وهليل موجود في الصعيد لو أرسلت إليه لن يتأخر في الرد. غير أني صممت على أن أترك هليل في حاله كان ليس لي عنده شيء. تركتها على جناب الله يفعل بي ما شاء.

كنت قد صرت رجلا محترما يتمشى بالقماش الشمي كأكبر المعلمين. لبدتي تحولت إلى عمامة شال حريري حول طاقية رقيقة عالية الثمن. ومن سيدنا الحسين اشتريت عصا بعوجاية عليها القيمة. بت شكلي يليق بدخول هذه العمارة وصعود سلمها مع سكانها من البكوات الموسسات وأهل الرتب والنياشين.

صدقني يا حاج أن السكن المريح وما يتوفر فيه من وسائل الراحة كفيل بتغيير الإنسان إلى الرقي. ما أحلى الاستحمام تحت الدش وأقعد في الحوض الرخامي تستمتع في رغاوي الصابون الزكي الرائحة، وأن تقوم فترتدي الكشمير والجوخ واللاسات الحرير والحذاء الأستك وتنزل رائقا متكلا على الله. لابد أن

يفتحها الله في وجهك يا حاج. لقد أعطاني ـ سبحانه ـ مرآة في الدولاب أنظر فيها فأرى شخصا آخر يكاد ينافس هليّل في النظافة والوجاهة، ولقد حلفت برأس أبي لأبقين على هذه الهيئة ما حييت، ولم أخلعها أبدا مهما كانت الظروف والأحوال. إن خلع الأبهة صعب يا حاج على من ارتداها ولو بالصدفة، في سبيل استمرارها سأشقى ولتهد الدنيا بعد ذلك مثلما يعيش كل المعلمين سأعيش بهذه الهيئة والله لن يكسفني.

وذات ليلة كنت نازلا على السلم مرتديا أبهتي على سنجة عشرة، فإذا برقبة بسبوسة تظهر من أسفل الدرج في حنية السلم، ثم اتسعت رقبته بقفاه. ثم ما لبث أن واجهني بكامله صاعدا، مرتديا جلبابا من السكروتة السمني يهفهف حول جسده المربعد، الذي بدا مجلوا كأنه صنفره بالصنفرة، والعطر يتضوع منه. حتى قلبه حسدته وبت النية في السؤال عن اسم هذا العطر وعنوانه. الملعون لم يعرفني من أول نظرة. لكن الشك المروع أوقفه على البسطة في مواجهتي، يحيطني بنظراته من فوق لتحت ومن [illegible] يكاد يفتشني. لولا أني لكزته في كتفه صائحا: [illegible] أم [illegible] بكفه مقوسا ظهره كالأنثى اللعوب، ثم رمى [illegible] بصوته [illegible] أنت فين يا [illegible] أحلوى؟ [illegible] مدكوكا بالسحم العضلي، [illegible] عنكم عيبة؟! [illegible] فقال: أنت مقبوض عليك؟!

انصعت وراءه بدافع خفي دون مقاومة، لكنه توقف ناظرا في عيني بإمعان كأنه يتعرف على شخص جديد عمره ما رآه من قبل. فكرته ثابت ليعيق، فإذا هو يرسم على وجهه تعبير من لا مفر أمامه من الاعتراف بشخصيتي الجديدة. ويقول: «مبروك ياعم! شقة سقع!». قلت والبسمة ترتعش على شفتي، من التشاؤم أم من الراحة لأنه عرف لا أدري: «إيش عرفك يابو العم؟» فتراجع بعنقه وفي عينيه نظرة خبيثة ماكرة ورام: «إي، ي، ي!» وردت في أذني أصداء عبارة «عليّ أنا الكلام ده؟». ثم إنه سحبني من جديد قائلا: «تعال فرجني» انصعت وراءه قائلا لنفسي: لعلها فرصة للكلام في الموضوع وسبقته لأفتح الباب.

بسم الله الرحمن الرحيم. هكذا بسمل وهو يدلف داخلا، مشمرا ذراعيه كأنه سيهدم جدرانها. تقدم نحو الكراسي التي تم تنجيدها وفرشها ودهنها تقول أنا طالعة بشوكي من عند البياع. صاح بلهجة مغطوطة ذات معنى خبيث: «ما شاء الله! ما شاء الله!». ثم جلس وفي عينيه بريق يكاد ينطق قائلا: «عاوزين حقنا! حلاوة هذه الصيدة السقع». لكنه لم يقل هذا، بل قال: «يابن الكا ا ا لب!» ثم أردف قائلا كأنه يعرف كل شيء عن الموضوع: «دفعت فيهم كم؟». قلت: «بالبركة! صاحبها أصله قريبي! وقد تساهل معي». ظهر عليه أنه غير مصدق يابوي. قال: «المعلم شدويلي يبيع أباه لقاء قرش تعريفة! فبكم باعها لك؟». قلت: «الصلاة على النبي! هو يبيع أباه آه نعم! لكنه لا يبيعني! أنا

واثق». هز رأسه ويديه في حيرة: «لا تفكر على. ما قصدت سوى مصلحتك! صدقني! لا تغتر في البدلات والكلام الصعيدي الفاضي بتاعكم! المعلم الشدويلي هنا شخص آخر».

أحسست أنه يتكلم بثقة شديدة، لكنني مع ذلك بقيت متحوطا يابوي. إنه ولد عفريت يابوي، ومثلي لا يروح ولا يجيء معه. قلت بلهجة عائمة: «يجوز! يجوز!». ظهر بحال كأنه انشغل في موضوع عميق، وظهر عليه الهم والكدر مال نحوي. فنفثت منه نظرة إشفاق أحسست بصدقها بحال. لبرهة خاطفة يابوي برقت عين بسبوسة وطلع منها الملاك الطاهر مجسدا على ملامح وجهه، ثم قال كأب يستسمر ابنه في هدوء وروية، وبصوت خافت كمن يخشى أن تسمعه أذن الجيران: «كتب لك عقدا؟». ترددت برهة قصيرة ووجدتني أقول: «الكذب خيبة! بصراحة لم يكتب لي عقدا». شوح بيديه كالمسؤول مولولا: «تأخذ منه إيصالا بالإيجار كل شهر؟». قلت: «ماحصل!». فإذا به يسحب شخرة رنانة فاجرة أرعشني صوتها والله يابوي. ثم جعل يأتي بحركة قبيحة في الهواء القاصم لأمي قائلا في حقد: «حد دي! تعمل نفسك مفتحا ويرصحيا وأنت أعلى من القلب». ثم إنه أشعل سيجارة ورمى بعلبته نحوي وأعتل نافثا الدخان في نده ضائقة وقال:

- «شف يابقف! هذه العمارة لها قصة. إنها في الأصل موضوعة تحت الحراسة! صاحبها رحل سيىء الحظ بعدك سمعت به ونامرة، الحاج إيبال زلطة! أشهر ورش ومحلات لأحذية في

العتبة الخضراء ووسط البلد ومصر الجديدة وفروع الأقاليم مثل بنها! عمك إسال رابطة كان متعشقا في الفن وأهله، فاشترى قطعة أرض في الفرنسية وابتنى فوقها دار سينما تعرض أفلام الدرجة الأولى، وعشق راقصة فاتنة كالقمر كالرغيف البلدي الصابح، وابتنى هذه العمارة التي نحن فيها الآن على نيل مصر عتيقة ليعطي الراقصة شقة فيها بالمجان، تكون جرسونيرة خاصة به!! يكفيك الله شر النحس إذا احتال على رجل سعيد الحظ من الأساس، أوسخ نحس في الدنيا هو الذي يجيء لرجل سعيد الحظ من يومه، صاحبنا هجر أولاده القدامى وأقام نهائيا في شقة الراقصة!! أولاده ثاروا ضده لكنهم كتموا في نفوسهم، الراقصة فرحت به لكنها - به - ضاقت، إذ هي تريد أن تعيش على حريتها، من سوء حظه وربما حظها أيضا عشقها ضابط كبير، وظل يفتعل السفر له ولها ليلتقي بها منفردين في أماكن بعيدة من الكرة الأرضية في غابات أفريقيا وجبال سويسرا ولبنان، وفي النهاية جاء وأقام في شقتها!! في ليلة جاء صاحبنا ومد المفتاح في ثقب الباب فطلع له من جوف الظلام أشباح عفية كتفته وكممته وألبسته قميص الأكتاف!! سيق إلى مستشفى المجانين لا من شاف ولا من دري!! اندهل أولاده وما أفاقوا من بعدها حتى اليوم ومعظم الظن أنهم لن يفيقوا!! فكلما هدأت الدوخة جاءتهم صدمة أخرى من حيث لا يترقبون تفقدهم عقلهم، فوجيء المساكين - ويالعجب - أن المستشفى مدخر لهم أوراقا بإمضاءاتهم تجأر بالشكوى من جنون أبيهم!! ملف كبير من الأوراق يحكي قصته

وقصتهم معا من طقطق لسلامو عليكم كل ورقة أنقح من أختها! هب، فوجئوا أن أموال أبيهم موضوعة كلها تحت الحراسة، وقد تعين هذا الضابط نفسه حارسا عليها، الحاج ربطة رحمه الله فمات في المستشفى، وحل محله - في نفس الحجرة في المستشفى ابنه الأكبر الذي كان زينة الرجال! ومنذ سنين طويلة وهو مقيم فيها لا أمل في شفائه، وأما الابن الثاني فقد شم رائحة الاعتقال في البلاد فصفى كل علاقاته واتكل على الله هربا إلى بلاد بره وكان للرجل ابن ثالث غاية في الصلاح فبصبصوا عليه ضمن الإخوان المسلمين فسجنوه وعذبوه حتى مات، وقال طبيب السجن إنه كان مريضا بالقلب!!

ولم يبق من ذرية الرجل سوى بنتين متزوجتين من تاجرين كبيرين كانا من صبيان أبيهما في الورشة، لا تفتح فمك هكذا كالعبيط فمسلسل الذهول لم يخلص بعد، لقد أبرزت الراقصة عقد زواج شرعي مسجل وعليه شهود موثوق منهم ثم أبرزت عقدا آخر عليه شهود.

كذلك ينص على أن الحاج إيثال رابطة قد وهبها هذه العمارة في تاريخ معاصر لعقد الزواج وظل محاميها يرمح شمالا ويمينا حتى فك العمارة وحدها من الحراسة وجاء لها السمسار بالمعلم شعبويلي الذي لم يستغرق من عيونها الساحرة سوى نظرتين ومن جسمها اللهب سوى هزتين وحكتين عفويتين! فانسدب كالوطل واشترى العمارة بمبلغ كبير دفعه على داير مليم وكان

الضابط قد غضب عليه الثورة وطردته من حمايتها وحرمته من نعيمها فأخذ الراقصة وسافر إلى بلاد بره" وبعدها بشهور معدودة عثروا عليه مقتولا في شقة في بيروت مذبوحا ذبح النعاج ومجرورة جثته مليون جنيه إسترليني" وأما الراقصة فقد اختفت من الوجود تماما، وقيل إنها بيعت كجارية لملياردير سعودي له علاقات واسعة النطاق بجهات دولية عليا وكلها علاقات مشبوهة" لحد هنا زين؟"

"يرجع مرجوعنا للمعلم شندويلي، لقد ذهب يسجل عقد بيع العمارة في الشهر العقاري ففوجئ بأن العمارة لم ترفع عنها الحراسة تماما، كل ما هنالك أن المحكمة صرحت للمدعية بتحصيل إيجارات شقق العمارة كمصدر تترزق منه، من تاريخ رفع الدعوى إلى أن يبت في مسألة رفع الحراسة كلية عن أملاك المرحوم، الراقصة إياها - ربنا يعطيها الصحة - باعت شقتها للماشطة التي كانت تشتغل عندها، وهي الأخرى راقصة قديمة ولكن في شارع الهرم، وهي الأخرى - أيضا - رفيقة ضابط آخر لكنه أصغر بكثير جدا - في كل شيء - من سابقه، ليس عنده نساء إنما يحب الوظاويظ الصغيرة يلهو بها حتى يستريح لدقائق ويصبح آخر فن، وهي معروف هذا وملأ الشقة مهين، وعلى حسه تقيم في الشقة أوزعانة، لا أنت ولا أنا ولا أجعص جعص هنا يقدر على فتح فمه بكلمة، إن الخوف كل الخوف دائما يأتي من صغار الضباط، عمك المعلم شندويلي بسلامته أراد أن

يأخذ حقه حلفا! فكر أن ينوبه - على الأقل - من الغنيمة بحصة، بصراحة طمع في هذه الأرتيست الساكنة قصاده على أن الشقة مفتوحة على البحري لكل من هب ودب، وربما كان يستطيع أن يلهط الشقة كلها باعتباره صاحب العمارة لكنه أخذها في الدحلة الخشنة الفلسة، جاءها من باب التهديد؛ فنال جزاءه! انضرب علقة ساخنة لحس فيها تراب هذا السلم درجة درجة، وكان سيضرب في كل يوم علقة مثلها لو لم يأخذها من قصيره ويرحل تاركا العمارة بمن فيها، لكنه قبل أن يرحل بعث بتهديدات في السر والعلانية، من قبيل أنه سيضرب بينهم جميعا وسيقصف عمر كل من اعتدى عليه، وها هوذا يريد أن يورطك في هذه الورطة يا صعيدي يا قحف" اسمع كلامي ياصاحبي لو كنت جئت إلى هذه الشقة قاصدا كذا أو كذا فإن مقلبك على شرفة، ولن تخسر إلا نفسك! ويكون المعلم شندويلي قد نهب مالك وحيلتك، ما بك دفعت أموالك التي شقيت بها في النار، وما بك خسرت الجد والسعد وطلعت من العملية كلها ملصروطي" صدقني لولا العيش والملح الذي بيننا ما صرحت لك بشيء من هذا الكلام!"

الدنيا لعبت بي يابوي، تحلف اليمين لو أني رأيت المعلم شندويلي لحظتها لمزقت لحمه ورميته للكلاب، المعلم شندويلي يفعل بي هكذا؟! كيف يابوي؟! إنني أشعر الآن بصدق بسبوسة. فليس من المعقول أن المعلم شندويلي يتنازل لي عن شقة كهذه بهذه السهولة

خدعني ابن يابوي، صور لي الحكاية على أنها مجرد مصادفة مضمعة بسوان وضربهم علقة أو علقتين أما أن تكون المسألة كما أوضح لي سيبوسة فإنني لا أستطيع التحول في حرب مع الدولة يابوي

ويظهر أن سيبوسة رأى الغضب مضرما في وجهي وعروقي، فجعل يهدئ من روعي قائلا

ـ «اهدأ ياصاحبي فالأمر محتاج لبعض الحكمة» فأولا احذر أن يعرف المعلم شدويلي أنك عرفت أي شيء مما قلته لك الآن، كن عبيط كما أنت وعلى نياتك!».

قلت في غضب «وماذا يفيد الهدوء؟» قال في بسمة ساخرة «ألم يعطك المعلم شدويلي أي ورقة؟» قلت «لا» قال «إذن فهذه هي مهمتنا علينا أن نأخذ منه ولو إيصال بإيجار أجر شهر». قلت «إنه لن يكتب لي أي ورقة» بكل صراحة ياسيبوسة إلا إذا عملت له شغبا في العمارة وعاركت ناسا وعورتهم». لمعت في عينيه براكين مخيفة، سرعان ما انفجرت في ضحكة عالية لا أعرف إن كانت سخرية أم عطفا على مصيبتي، ثم قال «ألم أقل لك؟! عيب ياجدع أنا سيبوسة والأجر على الله». ثم رمى لي سيجارة وأشعل لنفسه واحدة «سأساعدك وأكل من بيتنا» حتى لا تستذل معي بعد الآن» وعلى كل حال الذي عندك أحسن من الذي عند شدويلي! على الأقل أنت يمكن أن تقصدك أو تقصد شقتك في طلب مطلبه.

ثم انتظر برهة معلقا عينيه في عيني كأنه ينتظر موافقتي على هذه الإشارة الأخيرة، لكنه أردف

ـ «سوف أذهب من ورائك إلى المعلم شدويلي وأخبره أنك عملت مصيبة سوداء في الشقة وأنك عورت وبطحت وذهبت إلى قسم الشرطة مقبوضا عليك وبعدها بأيام تذهب أنت إليه مهدلا مخربطا وتكلمه في أمر الورقة!».

قلت «والله رجل ياسيبوسة» ولكن هل الورقة التي تقول عليها تكفي؟».

قال ضاحكا «ستثبت أنه أجر لك الشقة» وأنت بحكم وضع اليد تظل مالكا للشقة لحين البت فيها» وسواء آلت ملكيتها لشدويلي أو عادت لوريثها المقيم الآن في بلاد بره فلن أحدا لن يستطيع طردك منها» وعلى فكرة» جيرانك هؤلاء هم الأبقى لك ولما تعيش معهم وتعاشرهم ستحبهم ويحبوك مصيرك تعرف».

ثم غمزني بسيجارة لمرة فهمت منها أنها محشوة بالحشيش وأردف ضاحكا في مرح كبير «لكن قل لي! أكنت تتصور أنك فعلا تستطيع الانتقام له ممن يسميهم بالمواميس؟».

ضحكت رغما عني، تحلف اليمين يابوي أنني سمعت في ضحكتي صوت ضآلتي، وقلت «أنا ضحكت عليه فيما حتى أخذ الشقة». فقال برنة لم أسترح لها: «يالك من رجل طيب!». ثم جذب نفسا عميقا من السيجارة، واحتفى بريق عينيه لبرهة طويلة

في سحب من ضباب الدخان الأزرق المتدفق من منخريه. وقال «تدفع كم لو أنا خصصت لك هذه الشقة تخصيصا نهائيا؟ لو جئت لك بعقد إيجار وإيصال بآخر شهر، ولنصرف النظر عن المبلغ الذي دفعته له من قبل، ويكون العقد من أول وجديد من تاريخ كتابته؟».

فتحت فمي مذهولا «تقدر يابسيوسة؟». قال بكل بساطة «هذه مهنتي، تدفع كم قلت لي؟ أنا شخصيا من مصلحتي أن تكون أنت بالذات ساكن هذه الشقة». فكرت لبرهة طويلة فلم أهتد إلى تقدير المبلغ الذي يدفع، فقلت له «برقبتي لك يابسيوسة. تريد كم؟». قال «يكفيني خمسمائة فقط، في مقابلها أسلمك عقد إيجار قانوني سليم لا تخر منه المياه، وإيصال بآخر شهر». قلت في الحال «والله ما أنزل عن كلامك يابسيوسة، حلال عليك». قال وهو يناولني سيجارة أخرى محشوة ثم يشعلها لي «عليك إذن أن تختفي من هذه الناحية لمدة عشرين يوما على الأقل، تعود بعدها مبهدلا فتجدني قد جعلت لك الأمور السهلة». قلت وأنا أعيد له السيجارة «من غد أغلق شقتي وأختفي شهرا شهرين لو أحببت». سحب السيجارة وهو ينهض قائلا «اتفقنا، والآن سأتخلص منك رغم عني؛ فورائي سهرة عند صحاب لي هنا، سوف أعرفك عليهم في وقت قريب». ولكزني في كتفي واتجه إلى الباب. فاتجهت وراءه وخرجنا. نزلت أنا واستدار هو نحو الشقة المقابلة لشقتي، والتي لم أكن حتى الآن قد احتككت بأحد من زوارها.

السابعة: مغامرة عرب الحصار

لما فكرت طويلا يابوي، تراءى لي أن مكانا وحيدا هو الذي يمكن أن يخفيني عن الأنظار، وفي نفس الوقت يمكن أن أرزق منه. ذلك هو منطقة عرب الحصار. وقلت لنفسي إن الحاج وهدان فيه البركة، وأنا خدمته بكل أمانة، ولم يحصل من جهتي أي شيء يجلب الشك فيّ. قل إني أخذت بعضي واتكلت على الله على بندة الودي ومنها إلى نجع صغير قائم في قلب الصحراء.

مجموعة من الدور تجمعها دار واحدة على مساحة كبيرة تساوي عشرة أفدنة أو أكثر يابوي. دار يلف حولها المرء راكبا جوانًا. لها باب واحد كبير ببوابة حديدية مثبتة في حجرة كبيرة مربعة فيها مصاطب وكنب مثل مسجد. ولقد يظل امرؤ جالسا في هذه الحجرة زمنا طويلا وهو يظن أن هذه هي الدار، لكنه حين يألفها سيتبين له باب جانبي في نهاية الجدار. إن دخله وجد نفسه في حجرة أخرى لها باب مختفٍ على هيئة ممر بين جدارين متظاهرين يبدو من بعيد كأنه انكسار في الجدار. لو مشى في هذا الممر فبعد مشي طويل يبدأ الزهق يعتريه خوفا من ضيق القبر الذي ينتظرنا في النهاية. ولو أن أحدا واجهك مقبلا في هذا الممر

فلابد أن يستدير أحدكما عائدا ليواصل الآخر سيره. ولربما حاولت الاستدارة فيمنعك عرض أكتافك. طوّل بالك وامض. فإنك في النهاية آيب إلى فضاء من الضوء وسرعان ما يقبل عليك فناء شاسع جدا، كأنه الجرن وهو كذلك، تطل عليه قرانات وشرفات بأعمدة: غرف وقاعات تشبه القصور الزاهرة التي يقولون عليها في الكتب. يسكنها ولد الحاج وهدان وولد إخوته وأخواته. ولن مخك لابد أن يطق ياحاج إذا تذكرت وأنت بين هذه القصور أن منظرها من الخارج نجع مبني بالطين المخلوط بالتبن، إذ إن خلف هذه القصور والسرايات غرف مبنية بالطين المخلوط بالتبن، يسكنها الخفراء والحراس وعيالهم ودوابهم. وهم لابد أن يكونوا عبيدا لهذه العائلة منذ أزمنة بعيدة حتى يأمن لهم القوم مع أنهم مع ذلك لا يأمنون أحدا مهما أظهروا الثقة فيه. ولولا أن الحاج وهدان عرفني وعرف حدودي جيدا ما تركني أجيء إلى النجع أبدا. ولاكتفى بمقابلتي في دواره في البلدة وهو الآخر دوار معزول مأمون الجوانب. من يرى الدوار يظن أن الحياة قائمة فيها ليل نهار، في حين أن العائلة تعيش حياتها في النجع ومصاريفها كلها في النجع، أما الدوار فلاستقبال الضيوف والرباش والحكومة فحسب.

كان الله قد أكرمني فلحقت بالحاج وهدان في الدوار في البلدة. أهلا يابو علي. أهلا بحاج. فينك ياولد. حكيت له ما كان قد حدث لي في محطة حلوان. فضحك حتى احمر وجهه مثل القوطاية، ومسح شواربه الكبيرة قائلا: «لا والله تصرفت زين!

براوه عليك!». ثم ميّل رأسه نحو باب جانبي وصاح: «الغدا ياولد بسرعة!». وعدل رأسه نحوي قائلا: «أنا في الخدمة على كل حال!». قلت: «نتشكر ياحاج أنا الذي في الخدمة» ومن أجل ذلك جئت». شوّح بكفه الثمينة المليئة بالشعر وقال: «نتغدى ونحلها الحلال!».

استدارت الطبلية الكبيرة أمامنا، واستقرت فوقها الصينية النحاسية العريضة، عليها طبق من الصيني على هيئة قارب كبير، مملوء لتمه بالأرز المحمر بالسمن، برائحته مهرجان صاخب فاضح، وطبق آخر أكبر منه عليه الديك الرومي المكتنز تحف به أفراخ الحمام المقلية في السمن، ناهيك عن سلطانية الشوربة المطعمة بالتقلية، وأطباق السلاطة الخضراء ترقص فوقها أنصاف الليمون البنزهير المعتبر.

كُل يابو العم. هكذا أوحى لي الحاج وهدان وهو يشمر كميه وينقض على اللحوم تفسيخا ورميا في اتجاه ملعقتي، التي راحت تنتهك جبال الأرز وهضاب اللحم، حتى تسمرت في مطرحي من التخمة. ثم رفع ذلك وجيء بالبرتقال والبلح الحياني والجوافة البلدي، وكله من جناين الحاج التي تحف بالدوار إلى ما لا نهاية. ثم. ثم جيء ببراد الشاي التقيل صارت معجنة يابوي. بعد ذلك بخّا السجائر الملكي، ونظر الحاج وهدان في ساعة جيبه الذهبية ذات الكتينة المربوطة في عروة الصديري ثم نهض واقفا وأقام الصلاة فعرفت أنه يصلي العصر، وأنه يستبطئني ويستخير الله ويستفتي قلبه عما إذا كان وراء قدومي المفاجئ من أسرار خفية

يدعو الله أن يكشفها له أو ينير بصيرته في الخلاص منها. صلى على مهل شديد وفي تؤدة كأنه يقرأ القرآن كله في ركعتين اثنتين وبعد التسليم أمضى وقتا طويلا في تسبيح وتهجد، أخيرا صاح مناديا «ياولد!»، ومسح على وجهه بكفيه كأن كلمة ياولد كانت من كلمات الختام.

دخل عبد حبشي نوبه كالفحار المحروق وليس له ملامح على الإطلاق سوى عينين ككرتين من الضوء تدوران في كل اتجاه بسرعة مدهشة. وقف أمام سيده خاشعا، أخرج الحاج وهدان سبحته ونظر فيها مرة أخرى وقال للعبد مشيرا نحوي بيده «خذ هذا الرجل ودّيه النجع». ونظر نحوي رافعا كفه يستحثني فقمت واقفا في الحال دون أن أسأل عما سأفعله أو سيفعل بي في النجع. سلمت على الحاج وهدان وشكرته. ثم تبعت العبد كعبد له.

مضى بي في دهليز طويل حتى وصلنا إلى الزريبة الكبيرة، فوجدنا على بابها عبدا آخر في حوالي الخمسين من عمره لكن لوجهه ملامح وتجاعيد. قال له العبد الشاب «خذ الرجل يروح النجع! حيقول سيدك».

وجه العبد الكبير سمح يابوي، ويبتسم العينين، والطيبة تتدفق منهما وتسيل على خديه غير أنها طيبة شقية رائعة الشقاوة. نظر في وجهي قائلا «تعرف تركب الخيل؟!» قلت «نص! نص!»، مع أنني لم أكن من ركاب الخيل يابوي. قال بنفس الطيبة الشقية «تتعلم غصبا عنك! حتى لو لم تكن ركبت ستركب! على كل حال سأعطيك مهرا هادىء الطبع! هاك هو!»، وأشار داخل الزريبة إلى مهر مهيب أبلق جميل الشكل، يقف بين عشرات من الجياد العربية الأصيلة منظرها مرعب بالحال. أول ما وقع بصري عليها رأيت الحروب الصليبية في فيلم صلاح الدين الذي رأيته مرة في سينما الكواكب بصحبة حمدي وبربش، وخيل لي أن الفرسان الذين احتلوها قد هجعوا الآن في مكان ما، يستريحون بعدما صمموا الأمان. ولما عدلت وقفتي رأيت صف الجياد المربوطة أمام المذاود يمتد على مشارف البصر، ليبدأ صف طويل من الحمير والأبقار والجاموس في مقابلها حظيرة موازية عرفت من منظرها ومن رائحتها أنها مراح للأغنام التي ترعى قطعانها الآن في الحقول.

قال العبد المسن الذي عرفت أن اسمه سعدون «ادخل وخذ المهر! واحذر أن يرفسك وإلا كنت أبغل منه! تعلم من الآن أن تفهم بنفسك ما تريده وما يطلب منك! كل إنسان هنا على ركبة جنبه يعني أنت مسئول عن نفسك! وعلى كل حال تعال ورائي وانظر كيف أفك الجواد من مربطه. وكيف أسوسه حتى يستكن ويدخل في طوعي!». وكنا قد صرنا بجوار أبلق، فجعل هو يفك الجواد بصنعة وحرفنة، ويطبطب على ظهره كما يفعل العاشق لمحبوبه. ثم إنه سحبه ومضى. فجعلت أفعل مثلما فعل، وأغدق على البغل من الحنان ما كنت في حاجة إليه من غيري. ولم أكن أعرف أن البغل غير الجواد لا تفت في عضده مثل هذه العواطف الكاذبة الجيشان. إلا أنه مضى ورائي في طواعية مدهشة.

تبعت العبد وجواده حتى خرجنا من الباب الخلفي للدوار. فإذا بنا على الطريق المتاخم للصحراء. وحينئذ توقف العبد برهة. ثم

قفز معتليًا ظهر الجواد. وكان لابد أن أفعل مثله على ما رأيت ياحال أني فعلت مثله بالمحط كأني من ركاب الخيل الأصلاء؟!.

كان جواد العبد يمضي متبخترًا في سيره، وكنت بالفعل أتبع خلفه. ولم يكن في الكون كله سوى الرمال على الجانبين، والشمس في السماء ووقع الحوافر. وقد طال بنا المسير ياحال، حتى احمر وجه الشمس واحترق واسود الأفق شيئًا فشيئًا، صرنا نحن والرمال بقايا رعب تحت صخرة هائلة من الفحم لا نهاية مسيرنا فوقها وعند طلوع الفجر لاح النجع في البعيد كوشم على ظاهر الأفق. ثم صار يتسع ويتسع حتى صرنا قطرة صغيرة في بحره. كنا نقبل على جدران صماء، لا شبابيك فيها ولا أبواب لكننا حين توقفنا عند جدار معين تبين لي فراغ غير مرئي على البعد، بين جدارين متظاهرين يبدوان على البعد متلاصقين. حودنا في الفراغ بين الجدارين وسرنا مسافة أمتار، لنجد بابًا خشبيًا كبيرًا مغلقًا. ما اقترب وقع حوافر الجواد منه حتى وورب من تلقاء نفسه وأطل منه وجه عبد كالبطيخة المقمر، وقال «خيرًا ياسعدون؟» فقال العبد «عند هذا الرجل ضمه إلى الجمال!»، وأشار لي مشوحا كأنه يدفعني للدخول. فلما فتح الباب تمامًا ترجلت ساحبا البغل إلى الداخل، ومن ورائي العبد بجواده.

فناء الدار واسع تطل عليه بعض الغرف، وحيطان السرايات ملونة تبدو من خلفها متخفية تحت فروع الأشجار وأحمال القش والحطب. جاء صاحب الدار فاقتاد البغل والجواد إلى زريبة

صغيرة. قال العبد سعدون «صنع لهما طعاما يامهران». قال صاحب الدار «خير ربنا كثير»، وأغلق عليهما باب الزريبة واختفى قليلا من الوقت، بينما جلسنا على مصطبة في الفناء. عاد مهران فجلس معنا مرحبًا. وسرعان ما تصاعد الدخان من فرن النار. بعدها بقليل امتدت الطبلية أمامنا وجيء بالفطير الدرة سايح وبايح، والقشدة الساخنة تطشطش فوق حدوده الوردية. «ما كل هذا العز يابوي؟» «كُل يابو العم واغمس الفطير المدهون بالقشدة الساخنة بقشدة صايحة وعسل نحل وجبن قريش». وبعد شرب الشاي نهض سعدون واقفا فطلب الجواد والبغل. سحبهما وخرج. فامتطى الجواد واحتفظ بمقود البغل في يسراه وأمسك مقود الجواد بيمناه. ومضى ساحبا البغل خلفه. فلما اختفى منظره في البعد مال مهران نحوي قائلا «جئت في وقتك! اتبعني».

فتبعته. فمضى مسافة كبيرة حول النجع، ثم دخل في فراغ آخر كالذي دخلنا منه قبلا. دخلت وراءه ياحال، فإذا بنا في مواجهة باب كبير مفتوح عن آخره، وقد وقف أمامه وبداخله عشرات من الرجال الأشداء الصلاب، على رؤوسهم العمامة الجيراوية المعكشة خفيفة اللم. إن هي إلا برهة قصيرة صار الرجال بعدها يخرجون راكبين الجمال. غاب مهران في الداخل قليلا، وعاد ساحبًا جملا، عالجه حتى برك على الأرض. قال: اركب. ركبت وانهضت الجمل فنهض، ومهران يتأملني جيدا ليرى ماذا سيحدث لي حين ينهض الجمل رافعا خلفيته. فلما اطمأن إلى أني ركيب جمال، طبطب على الجمل قائلا «بالسلامة». فتبعت الرجال

صرنا كقنول صالة في قلب الصحراء. لا فرق بين لوننا جميعا ولون الصحراء المترامية بغير حدود يابوي. ما أوسع ملك الله حقا يا حاج. يتقدمنا دليلان محترمان يركبان بغلين فارهين. وما على الجمال إلا أن تتسرب خلفهما خطوة بخطوة وإلا غاصت أقدامها في الرمال. كانت الشمس كالبيضة المقروسة بسيل صفارها من قرص عسلي متجمد في جانب من السماء. أخذ الصفار يبيض ويبيض والقرص يصير في لون الرغيف الطالع من الفرن. يواجهنا تارة ويجانبنا تارة أخرى ويقف فوق رءوسنا تارة ثالثة ثم يسقط خلف ظهورنا والعرق يتصبب منا غزيرا على أكتاف الجمال، إلى أن لاح لنا في الأفق البعيد كتل من الظل الرمادي كصخور نابتة في قلب الأرض. حينما نقترب منها، فإذا هي جمال باركة وحولها رجال باركون وواقفون وممددون. كان بينهم من يغني يابوي، أي والله، يضرب بالموال الحسرايني القرايحي معه. فأينما تواجد الصعيدي، وجب الغناء، وحيثما غنى تجمهر الحزن والفرح معا.

إلى جوارهم توقف ركبنا. بركت جمالنا فنزلنا وجلسنا مع الجالسين. وأنا كالأهبل في الزفة لا علم لي بما سيجري بعد ذلك. في سيجارة واحدة سحبتها يابوي، وفعلت مثلما يفعل الناس في خلاء بعيد، إلا وأزيز يقترب من السماء ويقترب ثم يزداد اقترابا. ومع اقترابه راح الجمع ينهضون واقفين وحدث بينهم حركة استعداد وتأهب. نظرت في السماء فإذا بطائرة

«هليكوبتر» صفراء كسمكة موسى ذات بطن ضخمة هائلة وزعانف مشرعة وذيل دقيق، أخذت تهبط شيئا فشيئا حتى استقرت على الأرض، أي والله يابوي قدر ربنا يحرسني لو كنت أكذب. فلما استقرت على الأرض الرملية الصلبة التي بان لي أنها معدة لها من زمن مضى، انفتح بابها ونزل منها أفندي ضخم الوجه غليظ الشفتين متهدل الشعر على الجبين العريض الشاهق البياض، مع حواجب ثقيلة وعينين سوداوين في وجه مستطيل يبدو مع ذلك جميلا. كان يبدو كالأجانب الخواجات لكن الصياغة الكبيرة تطل من عينيه وشفتيه. ما لبث أن صاح بلهجة شامية فيها بلدية مصرية كبيرة يابوي: «سلام عليكم يا جدعان!» فردوا جميعا كلهم كما في الصلاة وراء الإمام: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

برهة ونزل من الطائرة أفندي آخر أصغر منه لكنه أجمل بكثير ويبدو أنه ابن ناس. نظر في جمعنا نظرة متفحصة فيها كثير من الود وقليل من الشك والخوف والتشاؤم. وقف برهة فأشار له الأفندي الضخم الوجه برأسه، فصعد الشاب إلى داخل الطائرة ثم ظهر حاملا جوالا. وضعه على العتبة وغاب في الداخل. قرأ عليه الأفندي الضخم الوجه كلاما ثم صاح: «المعلم دياب مذكور»، وكرر الاسم بصوت أعلى. انشق الزحام عن رجل جاء يهرول صائحا: «أيوه». فلما صار أمام الطائرة تسلم الجوال، وسلم للأفندي مظروفا منتفخا بالأموال فتحه الأفندي وعد أوراقه

بسرعة ثم دسه في عبه، ووضع يده على جوال آخر وصاح منادياً: "المعلم هادي الحمادي".

توالت نداءاته بين كل جوالين أو جوالين وربما ثلاثة. وهو يسلم ويقبض، والرجال تحمل على الجمال وتربط إلى أن جاء دور الحاج وهدان، فتقدم الاثنان اللذان كانا على الجوادين، وتسلمنا - أدهشتني - أربعين جوالاً! ولقد عجبت والله يا حال كيف اتسعت هذه الطائرة لكل هذه الجوالات، كما عجبت بغير حدود من الطائرة نفسها يا بوي من أين جاءت ومن هو صاحبها ولحساب من تعمل؟ ومن أي جنس أو ملة؟ غير أني - تحلف اليمين يا حال - لم أعرف حتى الآن. وقد زعم آخر أنها لبنانية. وثالث أنها تبع الاستخبارات. ورابع أنها قادمة من السماء نفسها شخصياً فضحكنا في عبنا ومضينا إلى النجع حيث سلمنا الجمال بحمولاتها لراكبي الجوادين ودخلنا دار مهران. ولم نعرف أين ذهب راكبا الجوادين بالجمال المحملة بعشرات الجوالات بصنوف من الماركات الغريبة مثل ماركة أمت عمري وماركة هذه ليلتي، وماركة الشيخ وماركة الأطلال، وأشياء يطير لها المخ يا بوي. تحلف اليمين يا بوي أن قد أصابني خبل، فلقد لمحت وجهي راكبي الجوادين فراعني أنهما نسخة طبق الأصل من وجه رجل رأيته كثيراً في قعدات الحاج السني، كأنهما هو، ولو لم يكونا اثنين لألقيت بنفسي في حضنه متأكداً أنه هو. ولما كنت متأكداً أن الإنسان لا يمكن أن ينشطر بنفسه شخصين فإني قد تحولت في

الأمر إلى الشك في صحة عقلي، وألقيت بثقلي على كتفي المثل القائل: يخلق من الشبه أربعين. مع ثقتي التامة في أن شبيهاً من الأربعين شبه لا يمكن أن يكون مطابقاً إلى هذا الحد يا بوي.

قل إني طرمخت على الأمر كله. فأبي رحمه الله كان دائم القول لنفسه وللناس: طرمخ تعش. قول لم أفهم معناه على الحقيقة إلا بعد أن أعيتني الحيل يا بوي، وأيأستني التجارب، حتى تأكد لي أن لسان المرء هو قائده. فإذا لم يجد في الأعماق حلواً يغترفه للسامعين فليبقه معلقاً في سقف حلقه. هذا أفضل شيء له ولك. وإلا فلسانك سوف يغترف من جوفك مصائب يرمي بها فوق رأسك أينما تحت غاطس لسانك يا حال. إنه حصانك إن صنته صانك وإن أهنته أهانك.

وهذا ما فعلته يا بوي. قضيت في النجع بدلاً من الشهر شهوراً لا أذكر عددها، بل قل دهوراً، فيها الفلوس كانت تجري بين يدي كريق العسل لا تخلص أصابعي من آثاره بسهولة. حتى أني والله يا حال كنت أدخرها في بلاليص من الفخار مما يعد لتخزين السمن، مدفون جوفها مصدر البيض مكانه. لوزايكو الذي يقولون عليه في المدينة: زلعة لخمسات الجنيهات وأخرى للعشرات وثالثة للخمسينات ورابعة للمئات. هكذا رأيتهم جميعاً يفعلون في النجع. والواحد منهم يفعل هذا أمامك وأمام الآخرين.

كنت نازلاً في حي صغير. كان معنا دجاج ولا أرانب في حنية مختفية في مؤخرة النجع المطلة على الصحراء التي بلا نهاية. آثار

حواء الدجاج والأرنب لاتزال باقية على طزاجتها كأن سكانه السابقين سيعودون بعد قليل لمشاركتي البيت فيه. أخشى ما كنت أخشاه أن يلبد ثعبان من ثعابين الصحراء في جنة هذه الروائح الشهية. فرشت مسحوق الشيح في كل بقعة فيه وبطنته بحر نظافة. ولكني لاحظت أن الجدار الذي تستند عليه هذه العشة الكبيرة جدار من الأسمنت المسلح. فهمت بأنه لصق قصر من القصور مباشرة. لاحظت كذلك بالبرق وجود باب مغلق موجود في الحائط الأيسر للداخل وآخر مثله في الحائط الأيمن. معنى الكلام أنني محاط بجدار من الأسمنت وبابين لا يتناسب منظرهما مع عشة الدجاج والأرانب، إنما هي إلى أبواب حجرات القصور أقرب. إذ هي من خشب زان مطلي بالصمغ حايك ومغلق من الداخل. الذي جاء في بالي أنهما يفضيان إلى مخازن لأعلاف الأبقار وسمنها وأجبانها. بيد أن رائحة كل ذلك كانت تتصاعد من تخوم هذين البابين بشكل خارق ومتواصل، مما يؤكد أن ثمة أبواب أخرى في الداخل يدخلون منها لترويد الحريم.

في مبتدأ نزولي في هذا النزل رمى لي مهران حصيرة قديمة وبطانية بصوف قديمة ومخدة محشوة بقش الكراسي أظنها شلتة مقعد سيارة قديمة. استقصيت فوق ذلك قلة ماء وزيرا أملؤه من صهاريج المياه التي تجيء بها السيارات إلى المجمع كل يوم إضافة إلى القرب والبلاليص التي تحملها البغال والحمير كل لحظة من أماكن مجهولة. وأغلب الظن أن هذه السيارات والصهاريج وهذه القرب تقوم بعرض آخر غير المياه لأن العاملين عليها يزعقون في

العش، عرفت هذا من منظر قربة يحملها أحدهم والمفروض أنها أترعت من المياه وكان واضحا مع ذلك أنها ثقيلة والرجل يعوج تحت ثقلها.

كنت معدمًا حين حددت لنفسي مهلة شهر بالحال. كان يجب أن أعمل حساب هذه الورطة التي نزلتها بقدمي، وبات الخروج منها كخلع الضرس. فلو أردت الرحيل عن هنا فلابد أن أقابل الحاج وهدان شخصيا واستسمحه في الرحيل. غير أني منذ جئت إلى هنا لم أر الحاج وهدان ولم يرني، إذ إن كل شيء هاهنا يتم وحده. والريس مهران يسلمني أربع أو خمس آنات من الحشيش أوصلها لناس في نجوع بعيدة وأجيء بثمنها مربوطا في حزام حول وسطي، أو لناس في بلدان مجاورة كصيت رهينة والبدرشين وغيرها. أذهب على هيئة بائع سريح يحمل «جبنة» سمك أو قفص مانجو تحته قفص آخر مليء بالورق علامة أني بعت محتوياته، في حين يقبع الحشيش في قعره.

كل مضغ جُمّع نقوم بنفس الرحلة إلى حيث تهبط الطائرة لنعود بكميات من التموين ننتهي صلتنا بها بمجرد وصول القافلة إلى حدود المجمع، ليتولى الرجلان الشبيهان نصبه في مخازن لا يعرفها غيرهما. وكل مشوار له ثمنه، خلاف الكيف والمراج الذي يأتينا بغير حساب. فكل واحد منا يطلب من أحمه حجرين يعطيه ربع أوقية. أما الأكل فقد يتم جماعة في نزل مهران أو غيره. وقد يجيء الأكل لمن لم يحضر ومن يعتبه في نزله. خرفان تذبح

وعجول وطيور ترببهـ سراي الحمراء وتبيعها لمن يطلبها منا بتراب الفلوس. وكنت أخشى أن ألح في طلب الحاج وهدان حتى لا يضيق أو يضيقوا بي بالحال. ولم أكن أجرؤ على الذهاب إليه في الدوار حتى لا يغضب مني أو يشك فيّ. وكانت الظروف قد خدمتني مرتين ثلاثة في مشاوير إلى الدوار. وفي المرات الثلاث لم أجد الحاج وهدان هناك. فمـا نكش القلق في دماغي حول موضوع الشقة والمعلم شندويلي دبرت للزيارة. فبعد أن أوصلت طلبا قريبا من بر الجيزة قلت ما من بد. وركبت الأوتوبيس المهري، فصرت بعد دقائق في قهوة المعلم شندويلي في مصر عتيقة.

* * *

كان المعلم شندويلي منحنيا على النصبة يصب الشاي في الأكواب، حين زحف على الأكواب ظل أرعن خشن. فرفع رأسه فرأى أمامه شخصا شقيا بينه وبين المتسولين درجة قصيرة. الكشف على قفاه كالصدأ كصبغة الدخان على واجهات أفران الحمامات، يلبس جلبابا من الصوف المتهرئ، أكل عليه الدهر وشرب، ويبدو كأن أحدا أحسن به عليه، حافي القدمين. وذلك الشقي لم يكن سواي.

وضع المعلم شندويلي كفه على عينيه كالمظلة وأمعن النظر في شخصي جيدا، وهو لا يصدق أني ظهرت أخيرا على هذا المنظر. كان منظري فعلا كالخارج لتوه من السجن. ثم إن المعلم شندويلي

تذكرني فبان عليه الأسف الشديد وصاح في جدعنة: «حسن أبو ضب؟! ما معقول!»، وطلع من حدود النصبة وأخذني بالحضن وصار يطبطب على ظهري قائلا: «قلبي عندك يابو علي! إيش أحوالك؟». قلت: «كما ترى! لقد طلعت رجلا نحس كما حبيت مني! ولو قلت لي إرم نفسك في البحر لفعلت!». تبسم في فرح وهو يجلسني: «أعرف يابو علي! أعرف! وعشمي فيك كبير!». قلت: «كسبنا صلاة النبي!». وضع كفه على ركبتي قائلا في نبرة اعتذار:

ـ «لا تؤاخذني يابو العم! لم أعرف أين كنت وإلا جئت لزيارتك! سألت عنك في الحجر فقيل لي إنك رحلت إلى المديرية وأخيرا بلغني أنك في سجن القلعة. هذا الخبر وصلني يدوبك من يومين اثنين! جاءني به واحد أعرفه! له يد كبيرة في الحكومة وكنت أدبر لزيارتك قبل دخولك الآن ببرهة قصيرة. يه! القلوب عند بعضها حقا! إيش أحوالك؟!».

نهض واتقفا متجها إلى النصبة، فصب لي (واحد شاي) على بوستة ثقيلة، ونزع من خلف أذنه ورقة أفيون تساوي عشرة جنيهات، رمى بها في حجري قائلا: «روق مزاجك!». ثم مد يده تحت النصبة فسحب شيشة مخصوصة لها رنة عالية سالكة لوزها بدوي، سحب حشية مرصوص عليها عشرون حجرا معلوطة بالعسل. نزع قطعة حشيش مما كان يلصقها في حرف الرخامة من أسفل. جعل يوقع منها فوق الحجر، وضع الحشية

كلها تحت العصبة. سحب من الوجاق قطعة نار صاحية. فقشها على الرخامة وعبأها في المصفدة ونارين صلى على له، صد رد، والروقان يرحف على بالي. لكن كلاكيع القلق واقفه حلف دماغي تريد أن تنوب وتمحى. قبل أن أشوف مراجي جدا. ثم إني لست الآن ملك نفسي. ولابد من رجوعي للنجع قبل حلول الظلام، بواسطة بغل سينتظرني به سعدون عند نهاية الطريق الخارج من البلدة إلى مشرف الصحراء. هي خدمة يبلعها بمراجيه. إذ أن وظيفته توصيلي وترصيل أي واحد كان من مشوار بيضاعة خارج حدود البلدة. وهو يعرف أن حامل البضاعة ربما يقع في ظروف غير مواتية تؤخره قليلا أو كثيرا، لكنه يعرف كذلك أن الواحد منا لابد أن ينتهز الفرصة ويتلكع في الطريق يشبع من الناس ويشترى ما يشاء من أشياء. إني واثق أنه سوف ينتظرني، ولكن الظلام إذا حل قبل وصولي إليه ستحدث مصيبة، سيبلغ سيده في الحال بعدم وصول القوات إلى قواعدها سالمة، أو قد يتهور فيبلغه أن العدو قد أصابنا في المال والعتاد. إن حدث أن بعد وصولي حضر من ذلك إلى الحاج وهدان فلا شك لابد أن يعصف بهدرته وأنا لا قدرة لي على مناطحة السحاب بالحال.

لكن المعلم شدويلي صهلل، وعبر الحشيشة محشيات وكان في استمتاع كبير فقد راح يحكي لي كيف بلغه خبر الشكلة التي تشاكلتها مع غرمائه الموانس في العمارة.

بدا أنه يعرف رجلا متصلا بالحكومة من سكان هذه المنطقة له أفضال كثيرة على أهل الحتة، يفرج عن مساجينهم ويثبت أقدام أمانتهم في محاضر الشرطة. وهو - نبي وبينه - يحب هذا الرجل، لكنه - الرجل - لا يجلس في المقهى. إلا أن هذا الرجل مر عليه في المقهى على غير انتظار مما جعل المعلم شدويلي يتوجس ويلعب الفار في عبه. قابله بترحاب وقام معه بالواجب، فإذ به يهمس له: «هناك خبر لن يسرك»، ثم قال: «هدك ولد شمحطي صعيدي بلطجي! دخل عمارتك واحتك بسيدتين من سكانها وانهال عليهما ضربا وتشليتا وتمريقا حتى أحدث بهما عاهات مستديمة ونقلتهما عربة الإسعاف إلى المستشفى بين الحياة والموت؛ إذ إن الولد ضربهما بمطواة قرن غزال. واحدة في بطنها والأخرى في ثديها؛ وأما الولد فقد قبضوا عليه وسيق إلى قسم الشرطة فقال في المحضر إنه ضربهما انتقاما لرجولته المهانة حيث شتمته إحداهن قائلة له: يا حول! وشتمته الأخرى قائلة له: يا علق! ولما بعثت الشرطة للسيدتين في المستشفى ذكرتا في المحضر أن هذا الولد من طرفك؛ وأنك حرضته عليهما واكتريته لقتلهما لخلاف قديم بينك وبينهم. وعند الرجوع للولد وسؤاله عن الذي أدخله العمارة من الأصل؟، أدلى في أقواله أنه يسكن في العمارة وليس يمت إليك بصلة قربى؛ الحقيقة أنه ذكر في كلامه كلاما كثيرا في صفك يبعد عنك الشبهة؛ وأنا بالصدفة أعرف هذا الولد معرفة سطحية؛ ولكني لما رأيت اسمك واردا في المحضر -

وأنت رجل يعز عليَّ - قرأت المحضر وفليته حتى أطمئن على موقفك! فهل الولد يسكن عندك حقا؟»

وهز عمره شندويلي بالورقة أم عشرة جنيهات قائلا «دبرني أنت في هذه المصيبة. أنا لم أحرض أحدا». فقال له الرجل - الذي هو بسبوسة كما أعرف

- «نصيحتي أن تختفي بضعة أسابيع عن الأنظار، لأن النيابة تطلبك للتحقيق! سيجيء مخبرون لاستدراجك لسراي النيابة، فإن كنت تحب أن أتفاهم لك معهم فرأيي أمنعهم من المجيء إليك، وأما عن أمر هذا الولد فإن كان ساكنا عندك حقا فإنك يجب أن تكافئه على شهامته. وأما إن كان يكذب في مسألة السكن عندك هذه فإن موقفه وموقفك سيكونان في منتهى الصعوبة، ستعامله النيابة على أنه ولد بلطجي مأجور مدفوع للاحتكاك بالسكان، أو تظهر كذبه بصعب موقفك! ولو اتضح أنه يقيم في الشقة فقط بمجرد إقامة فهو إذن من طرفك وهذا يجعل النيابة تصدق أنك حرضته!»

فقال شندويلي على الفور

- «الحقيقة أن هذا الولد ساكن عندي بالفعل وليس لي أي فضل عليه حتى يجاملني! بالعكس لقد أخذت منه خلو رجل أضعاف ما كان سيدفعه غيره!»

فقال الرجل «ولكن النيابة طالبته بتقديم عقد إيجار أو آخر إيصال فلم يوجد معه أي ورقة تثبت شخصيته سوى بصمته!

فأعطوه أربعين يوما استمرار حبس لأن تلك المسروقة في بطنها على وشك الموت!»

فمص المعلم شندويلي على شفتيه «الحقيقة أني لم أكن كتبت له عقدا، ولم أعطه وصلا، فالثقة بيننا متبادلة لأنه من أسرة طيبة أعرفها».

سارع الرجل قائلا «عليك إذن أن تنجيه من ورطته! على الأقل لتخفيف الحكم عنه، اكتب له العقد وإيصال الإيجار وأرسله به! وإن كنت تستطيع مساعدته في السر يكون لك الأجر والثواب. وأما في ذمتك إن أردت أن توصل له شيئا في سجن الاستئناف».

قال المعلم شندويلي «غدا تشرفني بشرب فنجان قهوة معي في الصباح أو في العصاري فأعطيك عقد الإيجار وإيصال آخر شهر! وسيكون العقد بتاريخ استلامه الشقة، ولو فيها زيارة سأعطيك بعض المأكولات والمشروبات توصلها له. إنه ولد في النهاية محتاج للعطف! وبخصوص المخبرين فهناك ثلاثون جنيها وزعها عليهم ولا تدع أحدهم يريني وجهه أبدا لأن منظرهم مع المؤاخذة شؤم ولست أحب الفضيحة. ضرب ما ضربت وانتقم ما انتقمت ولا يعنيني سوى الفضيحة والبهدلة؟ هؤلاء سكان مع بعضهم لا شأن لي بعراكهم فليحرقوا بعضهم بعضا!»

قال الرجل مشيرا إلى عينيه «من دي! ومن دي!»

وفي عصر اليوم التالي مر عليه الرجل بالمقهى، وأخذ منه عقد الإيجار والإيصال، وخرطوشتين من السجائر وباكو شاي وخمسة كيلو سكر وثلاثة كيلو كباب ونصف أوقية حشيش.

وأنهى المعلم شندويلي حديثه قائلا «لعلك تكون مبسوطا ياعم! وتكون هذه الأشياء قد وصلتك!».

قلت مفتعلا التذكر والأسف «آه! هذا إذن هو الرجل الذي سأل عني في سجن الاستئناف! لقد أخبرني زملائي المساجين! أصل الحكاية أني قمت بأعمال شغب كثيرة فنقلوني إلى طرة! ومن طرة إلى بني سويف! وفي بني سويف تعرفت على حارس من الحراس يقرب لوالدتي! يحبني ويثق فيّ! وطول الليل يبكي من أجلي ويوصي بي زملاءه في الورديات! وقد علم أني مساق إلى الجلسة غدا صباحا! فدبر خطة لتسريبي من السجن متنكرا! وجاء بي إلى هنا لكي أقابلك لأخذ العقد والوصل لأعرضهما على القاضي غدا! والعسكري يقف الآن بعيدا بلباسه المدني حتى لا يلفت النظر في انتظار أن أعود إليه لنقفل عائدين إلى السجن قبل ساعة التتميم!».

قال المعلم شندويلي والدموع تترقرق في عينيه «دعه يشرب القهوة ونعطيه حسنة!» قلت وأنا أنهض واقفا «لا. لابد من الانصراف الآن! ولكن ماذا سأفعل في هذه الورطة وأنا لا أعرف أين مكان هذا الرجل؟!».

ويبدو ياخال أني أتقنت الدور، إذا بي أنفجر باكيا بحرقة، وإذا بالمعلم شندويلي يتأثر جدا، ويشرد مفكرا لبرهة قصيرة ثم يصيح مبتهجا! «هو إذن لم يصلك ولم توقع عليه! هات

ولقيناها!» وصاح «ياولد ياعوض! اشتر لنا عقد إيجار ودفتر وصولات!».

راح قلبي يرقص من الفرح والطرب حين جاء الولد بالعقد مطبوعا من الدكان. وراح شندويلي بالقلم الجاف يملأ البيانات وأضاف إليه شاهدين من صبيانه، وحرره بتاريخ استلامي للشقة، وحرر إيصالا بآخر شهر، ووقع بإمضائه العاجز وبصم فبصمت مثله، وطويت الورق في جيبي وحضنت المعلم شندويلي وبكيت مرة أخرى فبكى هو الآخر. ثم إني تركته واندفعت نحو العلاء مهرولا. ومنه إلى محطة الأتوبيس النهري. ووقفت برهة نظرت فيها إلى العمارة كأني أطمئن على شقتي فيها. وكانت صورة بسبوسة في دماغي تنظر لي في شقاوة جهنمية. وكنت ابتسم في جذل حقيقي وأقول لصورتها «والله يابسبوسة إنك لتستحق ألفا من الجنيهات، أنت رجل حق ويجب أن أحبك، لتكن ما تكون فأنت اليوم أصدق أصدقائي وأجدعهم. رح إلهي ربنا يفتحها في وجهك أيها الولد.

وقفزت إلى بر الجيزة لأدرك سعدون بعربة التاكسي والشمس لاتزال بعد حمراء الخدود من فرط الخجل قبل أن تحتويها نهائيا عباءة الفجر الرمادية.

* * *

بحسوني كانت فوق الوصف يابوي، تحلف اليمين تكون إني شاربا عشر زجاجات من ذلك المسمى بالويسكي. رغم أني لم

أشربه طول عمري يابوي، من فرط الشعور بالنشوة والفرح
عرفت أن اليوم سيخاصمني، فاليوم لا يخاصمنا يابوي إلا عند
الفرح أو قلق الحزن. سنتقمص حورة عند برغاص، وعشرة
حجارة، وياكو معسل قص. وبعد أن رفعت العشوة المعتبرة مع
رجال النجع أتممتها على حروفين مشويين محروقين من راع
ضال آمسيتهم بالخير واتكلت على الله إلى حجرتي - عشتي
فأغلقتها على نفسي وتربعت في ضوء اللمبة نمرة خمسة. جعلت
أشعل النار وأرص الحجارة. وصهد الأفيونة يشوي دماغي على
نار هادئة. حجر فالثاني فالثالث. شعللت ركبة النار في دماغي
وتحت كور الشاي، فانبعثت موسيقى الغليان تسكرني.

فيما أستخف الحجارة للمرة الثالثة مع كوب الشاي بدأت عيني
ترى الحجرة وتتجول بين جدرانها. كنت مرتكنا للحائط المبلط
ووجهي في اتجاه باب العشة المطل على الصحراء. تلكأت عيني
على الباب المجاور لي على اليمين وقد تصاعدت منه روائح اللبن
الحليب الطازج والقشدة والسمن المقدوح بشكل زاعق. وكان ثمة
حركة وكركبة تجيء من وراء الباب. الذي أبلغني أنه كان شبه
موارب، وخط من الضوء واقف بين خشب الباب وحائطه. فاندعر
قلبي يابوي. بعدها بقيت أرتعش في قعدتي، وقد تشبث بصري
بالباب مركزا على خط الضوء. رأيت أن خيالا من الظل كان
يحجبه لبرهة مصحوبة بحركة خلف الباب مباشرة. مع صوت
انزلاق شيء من طاحن إلى طاحن. وصوت أوان تتقارع. فإذا بي

رغما عني والله يا حاج - أتصحح. ففي الحال اتسعت فرجة الباب
وأطل منه وجه جنية تبارك الخلاق فيما خلق. عينان واسعتان
ساحرتان، تتمرجحان وسط جدائل شعر أسود منطرح. من منتصف
الجبين نزل حاجبان كحبتي المشمش الطايب. يسيل عنهما حبلان
على هيئة صدغين ينتهيان بذقن صغير عليه طابع الحسن. فكأن
وجهها رسم في الهواء. وكانت عليه ابتسامة كأنها اعتذار. وفي
عينيها نظرة تستهين بكل شيء. شالتني وحطتني في قعدتي عدة
مرات. أما أنا فظللت مسمرا في مكاني يا حاج. جعلت أقرأ الفاتحة
في سري لعلها تصرف عني هذه الجنية المخيفة أو تلويني عنها.
قلت لنفسي لعلها تهيؤات السطل والأفيون وكبسة دخان
المسروق، لكن الجنية أبت إلا أن تريني الفرق بين الحقيقة
والخيال. إذا بيدها البضة العارية تخرج من الفتحة عن ذراع ممتلئ
منصفه بالأساور الذهبية على المعصم. وإذا بهذه اليد تشير لي أن
تعال، إشارة آمرة. تعال يعني تعال. لكن من ذا الذي يجيء؟
عرض من يتحرك من مكانه يابوي. من أين لي بقوة تحركني
يابوي؟ وإذا بصوتها يطلع رنانا كشخللة الذهب: «قم. تعال لا
تخف». فقمت في الحال منتفضا، أعض على شفتي وأقرص
نفسي لأتأكد من صحوي. خطوة ونصف خطوة صرت واقفا
أمامها خاشعا أنتفض. قابلتني بنظرة باسمة: «يعيبني على
الرجال». ضحكت. نظرت في فتحة الباب من ورائها. رأيت حاصلا
لجمع الألبان يمتد إلى بعيد جدا. ويمتلئ بالطواجن والأجر
والمرتبات والبلاليص. قالت فيما يشبه الاحتقار: «إنت" ستعمل إيه

هنا!». قلت: «الريس مهران اسكي هنا». هزت رأسها وراحت، ثم دفعتني أمامها وخرجت سلحبة الباب خلفها.

الغزال الأعظم مقفى لأن أمامي في قلب حجرتي، ترتدي قميصا من النايلون رهيفا لا يستر أي شيء في جسمها الوردي، معلق بحمالتين كالخيطين في كتفيها، ومن فوق قميص مفتوح كالعباءة من نفس اللون. تحرك الجسد السمهري قليلا حتى بحصيرة، هوت عليها متربعة ورمت بصرها الساحر نحوي آمرة «قعد». فقعدت متربعا قبالتها. قالت: «رص لنا حجرين». قلت: «حاضر». وجعلت بكل حماس أصحي النار وأرص الحجارة. قدمت لها البوصة فشدت النفس فشر أجدع حشاش في البر كله. سحب الدخان تندفع من منخريها. قلت: «ماشاء الله» واحد آخر». ولحقتها بآخر وثالث ورابع حتى شربت وحدها عشرة حجارة وبشهية فائقة. وأنا أصمصم لها الحجر بالماشة، وأصبع رتبة إصنافية فوق سر، وهي تشرب، حتى اتسعت عيونها أكثر، وسبحت العصرة في بحيرة العينين، وقالت وهي تريح البوصة: «احك لي حكايتك».

فبصوت هامس حكيت لها حكايتي. فحكت لي حكايتها هي الأخرى.

هي بنت أخت الحاج وهدان شخصيا. وزوجة ابن أخته أيضا أي ابن خالتها. كانت عروسا طازجة لم يمض على زفافها سبعة أيام حين هاجم البوليس زوجها يقود مركبا قادما من أسوان، موسقة بمخدرات وقطع الآثار النادرة. كان بداخله في المركب كل

من أبيها وأخيها. آخر من تبقى لها في الحياة بعد موت أمها وإخوتها الذين لم يكونوا مصريين. سيق زوجها وأبوها وأخوها إلى محكمة الجنايات، التي قضت كل واحد منهم بالمؤبد في عين العدو. كان ذلك منذ عام مضى، ومنذ ذلك اليوم وهي حبيسة السرايا الصغيرة التي ابتاعها خالها. كان زوجها هو ذراعه اليمين. ولقد حزن عليه حزنا يفوق الوصف. وحزن عليه النجع كله. وكلما اشتد حزنهم عليه نقموا عليها كأنها المسئولة عن ضياعه. ووجهها الشؤم قد بات يلغي عن العيون كل جمالها. فكانت تهرب منهم إلى العمل في شغل الدار. ونسوان النجع كلهن عملها طوالة في سلوانة فتركن لها كل شغل الدار المحتاج لشقة وسهر. ومن جانبها كانت تعمل بلا كلل لعلها تنسى. ولقد فكرت في الهرب، ولكنها موقنة أن خالها سيجيء بها من تحت الأرض. لكنها رغم ذلك لم تستطع نسيان أنها عروس، وأن عشها وسريرها لاتزال فيه رائحة الفرح عالقة. باتت تتخيل كل ليلة ـ وهي وحدها في السرير ـ أن الباب سيفتح لتراه داخلا عليها يكمل واجب العرس يكمل تسليك الطريق الذي حرم فيه تلقيه، فباتت كل يوم بعد آذان المغرب تستحم وتلبس أحسن ما عندها من القمصان الشفتشي لعلها تفاجأ به داخلا.

ثم وضعت يدها على معصمي قائلة وهي تنهض:

ـ «ألست تحب أن ترى سرير الفرح؟ تعال أريه لك!» سوف تراه جديدا وورق الفل ملفوف عليه. أما المرتب والألحفة فمن الحرير الساتان، ثم لأريك العش الذي حرمنا منه من نصيبه.

لكني تسمرت في مكاني يابوي، بل تحررت وشددتها بقليل من القوة فأقعدتها كما كانت. ونظرت في عينيها فوجدت تصميما أكيدا على طلبها، ممزوجا بدهشة واستغراب، وغيظ دفين. وفي الحال تفطنت أيقنت أنها مجنونة أو على طريق الجنون. وقلت لنفسي لابد من العقل والحكمة في صرفها بصنعة لطافة وقلت لها وأنا أسرع برص حجرين

- «ما تؤاخذيني يا أختاه! مجنون أنا حتى أدخل سرير معلمي الغائب في السجن؟ اللي يتلسي في النار!».

رعدت نحوي ضارعة: «من أجلي! لا تخف! لا تظنني مجنونة! ولست أحسب لك فخا لأختبرك! جميع رجال الدار ونسوانها ذهبوا لحفلة فرح في صحاري سيتي! قالوا لي تعالي صحته قالوها من مناخيرهم! وأنا لم أرض! عملت نفسي مريضة وتعبانة! وحمدت الله أن تركوني وحدي! البيوت كلها الآن خالية! حتى الخفر والحرس نزلوا إلى البلد ليقضوا مصالحهم! تعال وشف بنفسك!!».

وقربت وجهها مني فرأيتني أترك ما في يدي وأطوق رقبتها وأسحب رأسها نحوي، وأنقض على شفتيها لثما ومصمصة وعضا. صارت هي كالسمكة تنتفض في شبكة الصياد. ثم لم أدر بنفسي بعد ذلك يابوي. ركبني الجنون فلم أفق إلا وضوء الصبح يدخل من تحت عقب الباب. فإذا أنا عار تماما، وعلى الأرض حطام

امرأة عارية منفسحة كل عضو منها في ناحية، وقمصانها ملقاة هنا وهناك، وبطنها يعلو ويهبط، وهي غائبة في ملكوت بعيد.

أول شيء فعلته أن لبست ثيابي، وصرت أربت على وجه الفتيلة وأدلكها في كل ناحية حتى أفاقت، ونهضت جالسة فألبستها القمصان وهي مشتعل يكاد يغريني على إعادة الكرة من جديد. كانت شيئا لا يوصف يا خال. وكنت أستحسر أن أدعها تمضي، لكنني دفعتها دفعا للقيام. فقالت وهي تفتح باب الحاصل وتدلف داخله: «انتظرني غدا!» قلت: «حاضر». وساعدتها في جلب الباب، ولما استترت رأيت كل جدران العشة محترقة بمواسير البنادق المصوبة على صدري. كنت أصرخ. جعلت أدعك في عيني، ثم فتحت باب العشة، لأفاجأ بالصحراء تنطرح أمامي بلا نهاية، وليس ثمة من أحد. ووجدتني ألم فلوسي وأحشرها في حزامي، وأتجه نحو الريس مهران مدعيا المرض والإعياء، طالبا منه أن يستسمح لي الحاج وهدان في إجازة أقضيها تحت رعاية أمي وأهلي. وكان عليّ أن أنتظر حتى الضحى لأرجع مع أحد البغال العائدة لجلب المياه. وحين وضعت قدمي على أول طريق القاهرة أيقنت أن الله قد نجاني من جنة في قلبها نار الجحيم، لكني كنت أنتفض وأنتفض من شدة الأسى كلما تخيلتها إذ تفتح باب الحاصل فلا تجدني.

الثامنة ـ مفاجأة غرزة المطار

ليس في هذه الدنيا مستحيل يا خال، لا ولا فيها ما يسمى بالمستحيل. مستحيل ماذا يا بوي؟ الذي آدم منا لا يرعى ولا تكف أمامه سباع الدنيا ولا أسودها. أنا مثلاً يا بوي، هل كنت تصدق أنني يمكن أن أتعلم القراءة مثل أولاد المدارس؟ بعدما شاب راح الكتّاب. المسألة كما اتضح لي كانت أخف مما تصورت. أصل الحكاية أني كنت تعلمت الهجاية من وكيل النيابة الذي رافقني في الزنزانة ذات يوم بعيد وكتب الله لي النجاة على يديه إلهي ربنا يعافيه بالعافية إن كان لا يزال حياً ويطرح البركة في حلقه لقد كنت واثقاً من أنه مظلوم فلابد أن الله فك ضيقته من زمان تعرف يا خال، لو كان به مس من النصب أو الاحتيال أو الزيف ما انعطف على حالتي ورثى لحالته، علمني حروف الهجاية ونطقها بعد تشكيلها وتسلى بمنظري وأنا أنطقها شهوراً طويلة؛ نقش أصوات الحروف في قلب دماغي فباتت مسموعة على الدوام في صدري. ولما صرت الآن ولداً شلبياً ارتدي الكشمير والصوف والجوخ في قفاطين وعباءات ومن تحتها الحرير والسكروتة، فضلاً عن العمامة الكبيرة حول رأسي والمركوب النظيف في

قدمي؛ رأيت نفسي لا شغلة لي ولا مشغلة سوى القعود على المقاهي ليل نهار. من حسن الحظ أنها لم تكن مقاهي كالتي يعرفها الناس وإلا لانجرفت فيها إلى لعب الكتشينة؛ إنما هي غرز لتدخين الحشيش قد وقفت على واحدة منها في حي فاطمة النبوية وراء جامع النبوية حيث الزق. مكان خفي غريب الشأن يا خال، لاسبيل إليه إلا بحيل متعرجة. لو أراد غريب أن يزورها أو يهجم عليها لاستحال عليه ذلك. دلني عليها المعلم أبو كريشة حين اصطحبني لشرب حجرين في السر والكتمان: فدخلنا من باب بيت مفتوح ترتفع في مدخله الواسع أدخنة الكوانين وترتع أسراب البط والأوز والدجاج، وأطفال صغار يزحفون في الحرام يهرشون يجارون بالصراخ، وطشوت غسيل متناثرة على الأرض فيها مياه غسل الهدوم مسودة ومزرقة، ونساء يجلسن أمام وابورات جاز مشتعلة تحت حلل الطبيخ. خرجت وراء المعلم أبو كريشة في حرج شديد وسط هذا المدخل الواسع الذي تطل عليه غرف كثيرة. ثم عودنا شمالاً حيث بانت السماء لتظهر. فإذ بنا بعد خطوتين في حوش واسع، سرعان ما تبين لي أنه بيت تهدم من سنين طويلة وما تزال بقاياه أنقاضاً مرصوصة ومجنبة: عروق خشب كالح مسوس وشبابيك متقصفة وطوب وهديم، وحبال ممدودة منشور عليها هدوم مغسولة. ظننت أننا سنقعد في هذا الحوش؛ لكن أبو كريشة ظل ماشياً نحو جدار مواجه هو جدار البيت الخلفي المجاور، وهو بيت من دور واحد. تحت الجدار أكوام من الهديم والقمامة المتحجرة تسلقناها حتى صرنا فوق

سطح هذا البيت ومشيا على حافة الجدار بعضه، ثم هبطنا منحدرا من هدم آخر لبيت آخر، ثم صعدنا على تل من هشيم لنجد أنفسنا بعد قليل قد صرنا فوق ربوة عالية وأمامنا الأرض صحراء مترامية في السفح لكنها مسورة بالأسلاك الشائكة وقد تناثرت فوقها جرارات ولوريات على مسافات متباعدة بدت لنا كقربان باركة على الأرض. قيل لي إن هذه القطعة من الأرض من بين الأراضي الكثيرة التي يمتلكها المقاول المشهور عثمان أحمد عثمان. مشينا فوق الربوة التي كانت عبارة عن أتربة تغطي مقلب قمامة اندكت في بعضها وتصلبت. كانت تواجهنا، وتقترب منا، شرفة عظيمة مبنية بالحجارة على طريقة الهرم الأكبر، فلما اقتربنا منها وجدناها غرفة عالية جدا ومستديرة وذات عواميد وشرفات. دخلناها يا بوي، فكأننا دخلنا شرفة قصر من قصور الفراعين أو المعبد القديم. على مقاعد من الخيزران المخلبف جلسنا: أمامنا طقاطيق نحاسية لامعة، ومناضد من الفورمايكا وعلى بعد كبير من الشرفة الجوانية عشة صغيرة مبنية حديثا لتكملة الفائدة، وضعت فيها عدة الشاي والبوتاجاز، وبرميلا من الصاج ممتلئ بالتبغ المقصوص بحرفنة والمخمر بطريقة مخصوصة ذات علامة عصرية غريبة لكنها جاذبة، وبرميلا آخر مملوءا بالحجارة الفخارية المحترقة، وزيرا كبيرا يرشح بالماء الرطب وعددا من القلل المطبعة فوق صينية

بمجرد قعودنا جاءنا براد الشاي مع الأكواب على صينية تفوح بعطر الشاي المغلي يحملها شاب سمهري القوام حلو التقاطيع

أسمر الوجه كأبي باس، خجول مؤدب، وضع الصينية بعد أن نظف الترابيزة بذيل قميصه الخارج من حزام البنطلون الكاكي، قال: «مساء الخير يا معلم»، ورفع وجهه؛ ففي الحال تيقنت أنني رأيته في السجن من قبل وبقي أن أتذكر اسمه؛ قلت له: «استنى يا جدع!»، وأمسكت رسغه؛ فوقف يحدق في وجهي باسما كأنه هو الآخر تذكر وجهي. قلت له: «إنت اسمك إيه؟»، قال: «خدامك بلال!»؛ صحت جذلا: «بس!»، وقبلت قبضة يدي ثم مددتها وصفقت بها فوق كفه في حرارة: «إزيك يا بلبل! إنت طلعت إمتى؟»، فأعاد النظر في وجهي بتدقيق وتركيز. قال: «العبرة؛ قلت أنا حسن بتاع السلاح!»، فارتمى في حضني. ولمحت أبو كريشة يرقبنا باسما كأنه قد رشق رأسين في الحلال. يا لها من مصرية عبيطة يا بوي: تحلف اليمين يا حال ما حسبت في حياتي بكل هذه الحلاوة والعبطة. انجمعت كأنني السلطان برقوق، أرى الخلق يمشون على مسافات بعيدة جدا كأنهم الفئران، والسيارات تتدفق رائحة غادية. فخيل لي في عز المهمة أنني أعيش في جنة عرضها عرض السماوات والأرض في مدينة لم أعرفها من قبل يا بوي؛ وعجبت كيف أن في هذه البلدة ناسا لا يجدون اللقمة. خبز يتبلغون بها وتحت بصرهم وسمعهم ناس يرفلون في النعيم بلا حساب دون أن ترتفع السيوف والخناجر لتطير الرقاب وتبقر بطون اللصوص الذين سرقوا خبزهم. خفت لبرهة وجيزة لكنني تذكرت أنني في مصر أم العجايب التي تحمي كبار اللصوص بل تقدسهم وترفع مقامهم بقدر كراهيتها لجوعى

والمساكين وأبناء السبيل الذين هم في العادة أغبياء عاجزون قليلو الحيلة قلم الإسلام أظافرهم وعشمهم بالحياة الآخرة. تحلف اليمين يا بوي اندهلت حين نبهني المعلم أبو كريشة إلى أن هذا الطريق الذي نراه من بعيد هو طريق صلاح سالم، وأن هذه البناية مجاورة لنا على بعد قليل هي القلعة التي بناها صلاح الدين الأيوبي. بنك أن المكان الذي نجلس فيه هو برج الظفر، أحد أبراج سور القاهرة القديمة الذي انهدم ولم يبق منه سليما سوى هذا البرج. ليخرج من السجن فيحتله ويحيله إلى خمارة تدر الذهب ليل نهار. ووالله لقد حسدته يا بوي، لكني حمدت له شجاعته وذكاءه في الانتباه لهذا الموطن المجاني. قال أبو كريشة إن بلالا فعل ذلك بالاتفاق مع البوليس، ماذا وإلا عاد إلى نشاطه الإجرامي إذ أن قلبه ميت كما تعرف والقتل عنده كمص واحد شيء إنه بإجس، يفوت في النار والحديد، ليس يخشى على عمره أبدا، ما أبسط أن يطبق في خناق أي ضابط، فكل الضباط تخشى على حياتها منه يمكن أن يكسر رقبة الواحد منهم كالخيارة، مع ذلك فهو لطيف جدا معهم، ومؤدب، وخدوم، وشهم، ولذلك فهم يحبونه وفي نفس الوقت يتقون بطشه، يفوتون له مراجيهم ثم إن أحدا منهم لايستطيع الوصول إلى هنا بسهولة، وحتى يصل يكون كل شيء قد صار على التمام فلا يجد الضابط شيئا يضبطه، والضابط في النهاية محتاج لصداقة بلال، لأنه يدله على الاعيب اللصوص وخفايا المجرمين لكن حدعته أنه لايساعده في القبض عليهم ولايمكنهم من ذلك بل إنه حريف في تعطيل الحكومة حتى يهرب صديقه اللص. ولد جدع بحق وحقيق

في تلك العصرية الهنية رجع أبو كريشة إلى داره بعد صلاة العشاء وبقيت وحدي مع بلال. فلما جن الليل فوجئت بطوائف من الأندية المحترمين والمعممين الكبار يهلون علينا بفحر الحشيش والأفيون والكباب المشوي الساخن وعلب الكوكاكولا والبيرة وحتى شروق الشمس كانت الطوائف متزال تنصرف. ولقد عرفت أن البيت الذي اخترقناه لنصل إلى هنا هو بيت بلال، تسكنه عائلته، يعني لاحرج علينا إن دخلنا وخرجنا في أي وقت. في عشية هذا البيت عجوز ضامرة لم نرها عند دخولنا تتكور خلف الباب تقرر بفطرتها السليمة كل داخل لتعرف إن كان باحثا عن مزاجه أم يقصد شرا بابن ابنها بلال؛ هي بارعة في إثارة الأمر إن تشككت في الوافد الجديد، فبعد برهة قصيرة يكون بلال قد نط على صوتها فصار في قلب البيت يرى بنفسه جلية الأمر

بلال مغرم بقراءة الصحف والمجلات والاستماع إلى الراديو إذ إنه من حملة الشهادة الإبتدائية، ومغرم بقراءة الروايات البوليسية التي كان يحضرها في السجن ويحدثنا عن مدعو أرسين لوبين والمدعو جيمس بوند. في أصل ابتداءا كان يقرأ الجرائد بحثا عن الوظائف الخالية ثم بات يقرؤها ليقف على أخبار الحوادث واللصوص وكيف سقطوا ودبروا وهربوا من ثبوت التهمة؛ أما الروايات فكانت هوايته الأكبر، يتعلم منها فنون الإجرام المتقن

أصبحت أذهب إليه في باكورة الصباح فلا أنصرف إلا إن كان وراءه مشوار مهم عن شغله في الليل؛ وفي النهار يذهب لشراء المونة، ويكون مسئول الدار قد نشط في تنظيف براميل الحجارة وتحضيرها وتسييها، في مقابل أجر معلوم. وقت العصاري ووقت الليالي الخاملة نقضيه كله في القراءة حيث قطع على نفسه عهدا بأن يعلمني القراءة كما أردت، وقد فعلها يا بوي؛ أيقظ في صدري أصوات الحروف وذكريات الفتحة والضمة والكسرة والسكون، وأضاف لي قواعد النحو والإعراب، وهذه الأخيرة لم أفهمها جيدا لكنني في النهاية أصبحت أمسك بالجرنال وأقرأ فأعرف كل ما فيه، وأقرأ الرواية فأفهم كل شيء فيها. كل ذلك بفضل بلال في وقت لا يزيد عن عام. كنت من جانبي أساعده في الشغل، وأحشش وأنبسط آخر انبساط بل وأقبض بقشيشا ثمينا من الزبائن المتريشين. طب ما قولك يا بوي أنني ولفت على بلال وبرج الظفر حتى صرت لا أرى شقتي إلا عند النوم، وكان عشمي أن يكون بلال سندا لي وعونا على إرهاب الوحوش اللاتي سكنت بجوارهم. وطوال هذه المدة الطويلة لم أر البوليس في الغرزة أبدا، لكنني رأيت بسيوسة مرتين، مرة حين طرق الباب ذات ليلة ليبارك لي الشقة ويطلب حلاوتها، ومرة في الشارع وهو ذاهب لمشوار. قال لي وهو يسرع في المشي: «شلة الحرس تسأل عنك، حاول أن تراها». غير أنني كنت ميالا لمسايسة الشلة ووجع قلبها، لكنني لم أكن أعرف أني محاصر منها يا حاج. ففي ذات عصرية رقيقة النسمات، وفيما كنت وبلال نتبادل القراءة في

رواية اسمها الكابتن مورجان، إذا بهم "الموت يهبط علينا. أي والله يا بوي: بربش وعرولي وهندي، هكذا دفعة واحدة، جاءوا. رأيت خيالهم يقترب منا. كيف دخلوا؟ كيف صعدوا ربوات الهديم؟ كيف لم نشعر بهم؟ هذا ما لم نعرفه يا بوي. إنني أنا أول من رآهم، فتسمرت في قعدتي مبهوتا لا أقوى على النطق بل إن قلبي سقط في بئر سحيق؛ ظننتهم جاءوا للبحث عني يا بوي. سرح خيالي بعيدا، تخيلت الحاج السمني وقد اكتشف ضياع الآثار من صالبرته فحقق وتحرى لهم: هاتوا لي حسن من تحت طقاطيق الأرض. أذهلني أن الولد بلال ما إن رآهم حتى انتفض قائما يرمي بالكتاب وهات يا أحضان يا سلامات. وتعالي يا قبلات وروحي وجيئي يا شتائم بذيئة يقشعر منها البدن، فهمت بينهم وبينه عمايب. أنتم تعرفون بلال؟ هكذا قلت وأنا أسلم عليهم. فنظروا لي ساخرين وعيونهم تقول: أتعرفه أنت؟»

تكفل بلال بالجواب: «كنا زملاء في المدرسة يا أبا علي. بربش هذا زاملني في قضية شيكات بدون رصيد وشركة وهمية لتشغيل المصريين في الدول العربية؛ عرولي كان مكلف بالقبض علي في قضية سرقة بالإكراه واعتداء على الشرطة، وكان عرولي يقابلني كل يوم فيقتسم الغلة معي ويتركني أنام في بيتي. هذا الفتى كثيرا ما دلني على الضحايا التي يجب أن نسرق شيئا من ورائها». أما هندي فقد زاملني سنتين في قضية ترويج عملة مزيفة. إنها عشرة عمر يا أبا علي». عيش وملح السجن أقوى من

العيش وصح أحمر وأنت أدرى طبعاً!» ثم استكمل محذرهم: «وكيف حال سوسة باشلة النحس والعربشة؟»، أشار بربش نحوي بلهجة ذات معنى: «اسأل أبا علي! إنهما الآن حبايب سمن على عسل يخدمان معهما خدمات كبيرة من وراء ظهورنا؟ هنيئاً لهما على كل حال! نحن لا ننكره، ولكن كنا نتمنى أن نكون نا الحلاوة ولو بسهرة صغيرة على القد، لكن هذه حال الدنيا! من هو يعلو وعلى الباقي السلام». قلت مبتسماً في زهو: «ملحوق عليه بربش! أنا يا دوب سافيق من وجع الدماغ، وعلى كل حال ها نحن التقينا وجاءت القعدة وحدها! أنتم الليلة ضيوفي». كان الزهو يتيق بي لحظتها، ليس لأنني تمهرت عنهم بشقة ثمينة يحلم بها وكلاء الوزارات، بل لأنني صرت أعرف القراءة وإن كنت غير قادر على الكتابة إلا أنني أصبحت أفهم ماذا تقول الجرايد. قال عرولي: «العب غيرها يا حسن، الليلة نحن معزومون عند بلال منذ شهر مضى، لا تأكل بعقلنا حلاوة، وعزومتك لابد أن تكون كبيرة، لا أقل من خروف يذبح ورجاجة ويسكي تفتح وأوقية حشيش تحرق في شقتك ومعنا بلال». خفق قلبي يا بوي. «أنا تحت أمركم في اليوم الذي يعجبكم ورقبتي بدلاً من الخروف». قال بربش: «نحن معزومون وأنت معنا يوم الجمعة القادمة عند الحاج أحمد نور الدين السني بمناسبة عيد ميلاد ابنه، تصور أنه رعق له من أجلك؟ هل أنا أساساً معاملتك ما ابتعدت عنا وقال إنك أجدع واحد فينا في نظره، طبيعة ابن وهو في يوم واحد،

ضحكت بغير اطمئنان، لكن صوتاً في رأسي قال: رح معهم ولا يهمك وضع أصابعك في عين التخين ما دام حاميها حراميها.

في تلك الليلة سهرنا حتى شروق الشمس. ظهر لي بلال أجدع وأرجل مما توقعت. دفع جدياً صغيراً، واشترى زجاجتين من الكونياك، ونصف أوقية حشيش. جهز كل ذلك دون أن أعرف وجاء به في وقته، فكانت ليلة ولا كل الليالي.

التاسعة . الولاعة المنسية

صرت أشتري الجرنال كل يوم طبعا يا بوي، بل صرت أحرص على شرائه وقراءته من الأفندية الذين يتبادلونه ولايقرءون فيه سوى اللافتات الكبيرة. أما أنا فأقلبه صفحة صفحة ركنا ركنا، سواء فهمت أو لم أفهم؛ فلعبة فك الخط نفسها لذيذة غاية اللذة يا بوي، ومن قال إني لم أفهم؟ لقد عرفت أشياء يكاد رأسي ينوء بحملها، وأسماء ما كان لي أن أعرفها من عماء الأمية رغم أنها الكل في الكل في حياتنا وأمورنا. عرفت من يكون الوزير ومن يكون الغفير وما الوزير وما الغفير؛ حتى الانتخابات التي كثيرا ما دوشوا بها دماغنا في البلدة وتقاتل القوم بسببها عرفت حقيقة أمرها وعرفت الدار التي يجتمعون فيها ويتكلمون في أمور الخلق ومشاكل البلاد لكي يحلوا في النهاية مشاكلهم هم. عرفت ما معنى أمريكا وروسيا ومجلس الأمن والأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. عرفت أننا والعرب أخوة في الدم والعرق والأرض واللسان كما أننا نصلي لإله واحد ويهددنا عدو واحد قصير القامة لكننا لانرى سوى ظله الشبحي مستطيلا إلى ما لا نهاية. فلما عرفت ذلك اندهشت يا بوي. كيف يكون إخوة

بكل هذا العدد وبلاد بكل هذا الاتساع ويهددنا عدو جربان اسمه إسرائيل؟ تحلف اليمين يا خال أنني ما كنت سمعت عن إسرائيل هذه من قبل، أصلهم ما أدخلونا مدارس منهم لله. ووالله العظيم ثلاثا يا بوي غير حانث ولا آثم إنني انقبض قلبي لما عرفت الآن أن خمسة من ولد أعمامي ماتوا في حروب مع هذه الدعوقة بهار دون أن يعرفوا من هو العدو أو لماذا هذه الحرب. ما كنت أعرف شيئا من هذا يا خال، فمحمدين مات في السويس وهذه بلدة نعرفها ولنا فيها أقارب؛ وعربيني مات في سينا وهذه منطقة عربان ما كنت أعرف أنها تبعنا لأني كنت أسمع الفقيه يقول إن الله كلم موسى فوق جبل الطور في سينا وأن موسى هو نبي اليهود؛ وحسان مات في الإسماعيلية التي كنت أعرف أنها بلدة البطيخ وعوضين مات في العريش ولم أكن أعرف أنها من ضمن سينا، وصابر مات في بورسعيد. ماكان أحد يقول لنا إن التي قتلت ولد أعمامي هي إسرائيل، حتى أيام كنت أبيع المشاريب في المعسكر لم أكن أعرف شيئا من هذا، كل ما عرفته أننا في حرب، وأي حرب لنا لابد أن تكون مع الإنجليز، طول عمرنا لانعرف لنا عدوا غير الإنجليز؛ النور والباقي على هذه التي طلعت لنا في البخت واسمها إسرائيل. سألت وأين يكون مكانها؟ قالوا في فلسطين في القدس الشريفة. شوكة هي إذن وانغرست في قلبنا. أول ما عرفت ذلك قلت من طسنتي: وإيه يعني؛ ننزعها ونرميها؟ الآن رجع لي عقلي فأيقنت أن نزعها يعوزك... لها العمل إذن يا بوي وأنا مرادي الآن أن آخذ بثأر ولاد أعمامي؟

بعد؛ ما يؤرقني الآن يا بوي لكنني قلت لنفسي: هذا موضوع كبير عليك يا ولد أبي، صعب فدعك منه حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

ــ «بنا يا رجال؟»

ـ «على الظالم!»

ثم وقعنا لحظتها انتبهت إلى أن الحشيش البريمو قد سرح بدماغي ونحن في جلوس في قهوة صفصف بمصطبح عصرا وبهي؛ أدمغتنا قبل ذهابنا إلى حفلة عيد ميلاد ابنة الحاج أحمد نور الدين السمني. طويت الجرنان ووضعته في سيالتي، ومضينا في الشارع العمومي لقيت ولدا ينادي على جريدة المساء فاشتريت واحدة وجعلت أتطلع في لافتاتها ونحن ماشون، وشلة المحس تتغامز عليَّ وتضحك ملء الأشداق وأنا غير حافل بهم ولا بالسيارات المارقة من حوالي.

بش الحاج أحمد نور الدين السمني حين رآني، تملك اليمين كأنه مشتاق وبه لوعة: «يا محس يا ولد». فارتميت في حضنه شاعرا بالطمأنينة من ناحية حلقاتي النظيفة مثله وأكثر. صار العكروت يتحدث عن صدره مبديه ويحدق في وجهي وعيني بنظرات خبيثة ماكرة: «جبت الوجاهة دي كلها منين يا ولد؟ ما شاء الله! ما شاء الله! ربما فتح عليك! أنت على كل حال تستاهل كل خير يا «مقصوف الرقبة»». كان واقفا على باب الشادر ليستقبل ضيوفه وثمة من يصطحب القادمين إلى الداخل. وكان

الشارع قد امتلأ بالسيارات الجميلة ذات المناظر الفاخرة اللامعة. بعضها بلوحات نمر زرقاء وحمراء وبعضها يرفرف على مقدمته الأعلام، ومنها ما يبدو أنه طالع لتوه من الفابريقة. وكان واضحا أن الحاج أحمد نور الدين السمني مشغول بمقدم ناس مهمين؛ إذ كلما هدأت سيارة تقدم ناظرا في داخلها مستعدا للترحيب. طالت وقفتنا والحاج مبسوط بوقوفنا معه بدون مشكل. وقدنا بأس به في استقبال الوافدين. ثم إن سيارة مجنحة مهيبة رست على الضفة المقابلة للشارع ففتح بابها ونزل منه سائق يرتدي بدلة سوداء، تقدم نحو كشك للسجائر وتكلم مع صاحب الكشك ولاحظنا أن صاحب الكشك يشير له نحو الشادر. فركب السائق ولف بالسيارة حتى حاذانا. السيارة بنمر قليلة العدد، ومكتوب عليها ملاكي أسيوط. هب الحاج للاستقبال هاتفا: «يا مرحب يا مرحبا». فنزل السائق مسرعا وفتح الباب الثاني فنزلت منه سيدة ترتدي أفخر الثياب، وفرو الثعلب على كتفيها، رأسها ملفوف بطرحة بيضاء من الحرير الشفاف يشي بوجه كالقمر، سمهرية القوام ممشوقة القد منضبطة الهندام والعود كضابط أنيق مهيب. مدت يدها للحاج السمني، فسلم عليها بحرارة شديدة، وانحنى فقبل يدها. كانت عيناها تخترقان قماش الطرحة وهي تحط علينا واحدا بعد الآخر مع ابتسامة تحية. لكن عينيها عندما وقعتا على وجهي تلكأتا قليلا ثم بان في نورها ما يشبه الدهشة أو المفاجأة، حتى أن العينين بعد أن تحولتا عن وجهي عادتا فنظرتا فيه من جديد بشيء من التأكد والاشتياق، ثم انصرفتا عني نهائيا

قلبي أكلني يا بوي؛ فهذه الساحرة المتنكرة في ثياب الأبهة تخفي وراء هذه الطرحة الحريرية عهرا وصياعة أكثر مني ومن عشرين من أمثال بربش وعزولي وبلال. يبدو يا بوي أن وحدة الصياعة والعربشة المطلة من عينيها هي التي جعلتني أحس لها كأنها ممن يهمني أمرهم. لست أعرف من نظرتها تلك أهي تعتبر عربشتي أم هي تصطادني؟ أم أن مثل هذه النظرة هي نظرة الولد العربيش تقع على معربش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هي مزاج من الخوف ورسائل التحية. على أن الذي استقر في قعر دماغي يا خال هو أن هذه العسساه الساحرة المتخفية تريد أن تصطادني. طبعا يا بوي، فما الذي يجيء بواحدة كهذه من أسيوط إلى هنا بصحبة سائق خصوصي إلا إذا كانت دائرة على حل شعرها حاكمة بأمرها. ولابد أنها في حوزة عنين مكسور العينين مهيض الجناح. أيًا ما كان أمرها يا بوي فقد وجدتني أهرول خلفها مشدودا إليها بمقود خفي، والحاج السني يحاديني ويمسك خلسة بأطراف أصابعي هامسا في تصميم شفقي «بالراحة! بالراحة!». فهدأت من حميري، ولاح لي أن الحاج كان ينتظرها هي فلما وصلت عاد معها. كان واضحا أنه قد تأدب وحط عليه وقار متقن كأنه يمشي في حضرة رئيس البلاد. ملت عليه هامسا في انبهار «من الأميرة هذه يا حاج؟». فمال على أذني هامسا في جدية شديدة: «دي هي الشيخة سعادة! من أعيان محافظة أسيوط لكنها معروفة في كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيرها في مكانها لمشت فوق بساط من الذهب وما مشت على

الأرض قط لكنها زاهدة! تكتفي من متاع الدنيا بستر مظهرها فقط!». وغمزني لأسكت، فقلت في لجاجة «لكن ما شغلتها يا بوي؟ أسألك عن شغلتها!». غمزني مرة أخرى، قال في حدة وعرافة: «لامثيل لها في العالم كله! تقرأ للإنسان كتاب حياته من طقطق لسلامو عليكم!». ثم لكزني وتقدم إلى البوابة الكبيرة ففتحها كي لاتنحني الشيخة سعادة فكأن بوابة الجنة قد انفتحت يا خال. بحر من الأضواء الملونة تسبح في أعماقه ممرات وأبهاء ومدرجات سلالم وحوائط مزدانة بلوحات جدارية، وتماثيل من كل الأحجام معلقة ألوان البسط والسجاجيد حدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهاء والإيوانات والجواري يقدمن الكئوس ويعزفن على الآلات الموسيقية لمشايخ بلهاء بلحى طويلة وطراطير؛ كل ذلك مرسوم على السجاجيد المبسطة على الأرض والجدران ودرجات السلم العريضة التي تئن تحت أقدامنا أنينا عاهرا لوعها طول العمر. لم أعد أعرف في أي طابق من الطوابق صرنا يا خال؛ لكنني أذكر أننا صعدنا طويلا يتقدمنا الحاج السني ومن خلفه الشيخة سعادة تخطر على الدرج كالفراشة كعروس النبي، ومن خلفي شلة النحس التي صارت تتكاتف وتترادف، ويقرصني همسهم بأن الله قد نفخ في صورتي؛ وأنا أكتم الضحك وقد وقر في بالي أنني لابد أن أكون محترما في حضرة الشيخة سعادة بأي شكل؛ لا أدري يا بوي كيف جاءني الوحي بهذا؛ تحلف اليمين أن الوحي قد عرفته؛ فما بين بسطة سلم والأخرى، وبينما تستدير الشيخة سعادة لتجود مع انعطافة السلم كانت تدير رأسها ملقية

قلبي أكلني يا بوي؛ فهذه الساحرة المتنكرة في ثياب الأبهة تختفي وراء هذه الطرحة الحريرية عهرا وصياعة أكثر مني ومن عشرين من أمثال بربش وعزولي وبلال. يبدو يا بوي أن وحدة الصياعة والعربشة المطلة من عينيها هي التي جعلتني أحس لها كأنها ممن يهمني أمرهم. لست أعرف من نظرتها تلك أهي تحتقر عربشتي أم هي تصطادني؟ أم أن مثل هذه النظرة هي نظرة الولد المغربش تقع على مغربش حريف مثله فيتوقف دهشا لبرهة هي مزاج من الخوف ورسائل التحية. على أن الذي استقر في قعر دماغي يا خال هو أن هذه العمساء الساحرة المتخفية تريد أن تصطادني. طبعا يا بوي، فما الذي يجيء بواحدة كهذه من أسيوط إلى هنا بصحبة سائق خصوصي إلا إذا كانت دائرة على حل شعرها حاكمة بأمرها. ولابد أنها في حوزة عجوز مكسور العينين مهيض الجناح. أيًا ما كان أمرها يا بوي فقد وجدتني أهرول خلفها مشدودا إليها بمقود خفي، والحاج السني يحاذيني ويمسك خلسة بأطراف أصابعي هامسا في تصميم شفقي «بالراحة! بالراحة!». فهدأت من حصوري، ولاح لي أن الحاج كان ينتظرها هي فلما وصلت عاد معها. كان واضحا أنه قد تأدب وحط عليه وقار مقلق كأنه يمشي في حضرة رئيس البلاد. ملت عليه هامسا في ابتهار «مين الأميرة هذه يا حاج؟». فمال على أذني هامسا في جدية شديدة: «دي هي الشيخة سعادة! من أعيان محافظة أسيوط لكنها معروفة في كل مكان! صديقة للملوك العرب! لو كانت امرأة غيرها في مكانها لمشت فوق بساط من الذهب وما مشت على

الأرض قط لكنها زاهدة! تكتفي من متاع الدنيا بستر مظهرها فقط!». وعمري ما أسكت، فقلت في لجاجة «لكن ما شغلتها يا بوي؟ أسألك عن شغلتها!» عمري مرة أخرى، قال في حدة «عرافة! لامثيل لها في العالم كله! تقرأ للإنسان كتاب حياته من طقطق لسلامو عليكم!». ثم لكزني وتقدم إلى البوابة الكبيرة فتحها كي لاتنحني الشيخة سعادة فكأن بوابة الجنة قد انفتحت يا خال. بحر من الأضواء الملونة تسبح في أعماقه ممرات وأبهاء ودرجات سلالم وحوائط مزدانة بلوحات جدارية، وتماثيل من كل الأحجام معلقة ألوان البسط والسجاجيد حدائق من الورود والرياحين والقباب والأبهاء والإيوانات والجواري يقدمن الكئوس ويعزفن على الآلات الموسيقية لمشايخ بلهاء بلحى طويلة وطراطير؛ كل ذلك مرسوم على السجاجيد المبسطة على الأرض والجدران ودرجات السلم العريضة التي تئن تحت أقدامنا أنينا عاهرا لوعها طول العمر. لم أعد أعرف في أي طابق من الطوابق صرنا يا خال؛ لكنني أذكر أننا صعدنا طويلا يتقدمنا الحاج السني ومن خلفه الشيخة سعادة تخطر على الدرج كالفراشة كعرس النبي، ومن خلفي شلة النحس التي صارت تتكاتف وتترادف، ويقرصني همسهم بأن الله قد نفخ في صورتي؛ وأنا أكتم الضحك وقد وقر في بالي أنني لابد أن أكون محترما في حضرة الشيخة سعادة بأي شكل؛ لا أدري يا بوي كيف جاءني الوحي بهذا، تحلف اليمين أن الوحي قد عرفته؛ فما بين بسطة سلم والأخرى، وبينما تستدير الشيخة سعادة لتجود مع انعطافة السلم كانت تدير رأسها ملقية

بنظرة مشرقة يحجاب في شعرها عن وجهها قماش الطرحة البيضاء الحريرية ما رأى على وجهها سعادة فائقة، حقا صدق من أسماها الشيخة سعادة..

صرنا في مواجهة بهو كبير ممتد كسرادق عظيم فخم، يحتشد بالأضواء الملونة الخافتة ينبعث منها الهدوء والدفء كأنها شموع خفية، يحتشد كذلك بطنين خافت لكنه عميق تسمع في أعماقه دورة آلات موسيقية خجيبة ودندنة أصوات سرحانة بنفسها و ماكل هذا البشر يا حال؟ تحلف اليمين أنه قاعة السينما أو مسرح الريحاني، كلهم يتجمعون يتقلدون البكوية والبشوية وثمة خدم يلبسون القراطيم والجبب المزركشة بالقصب يمرون بين الجلوس حاملين الصواني الملأى بالكئوس المترعة بجميع أنواع الخمر، ينعطفون نحو الجالسين في حلقات حلقات جماعات جماعات أسر أسر، فإذا بكل واحد من الجالسين يأخذ من فوق الصينية صنفا معينا من المشروب الذي تحفل الصواني بجميع أنواعه ألوانه ماركاته، نساء كجمار النخيل يا حال، ورجال كنوار القطن تتمكى عليهم الأضواء بألوان خلابة، والجميع في شرب ولغو هامس وضحك رنان؛ ضحك النساء هو الأوضح كنقرات الإيقاع كشخللة الدفوف في معزوفة صعيدية بهيجة، تنبعث من كل خميلة شقشقة عصفور أو عصفورين. من الواضح يا حال أن محلا كبيرا من محلات الخمور و لأطعمة والحلواء قد تكفل بإحياء هذا الحفل الكبير أما المقاعد والسجاجيد فكلها ملك الدار وهي راسخة في

مكانها مفصلة على أماكنها، فهذه خميلة من الكنب البلدي الفاخر، وأخرى من الكنب العباسي المطعم بالأصداف على شكل المشربيات، وثالثة من صالونات القصور المذهبة بمساند على شكل التاج الملكي، ورابعة من أسرّة وأرائك فرعونية كالتي نراها في صور توت عنخ آمون ولد بلدي؛ وخامسة من الشلت والبفت الجلدية والحصير الخشبية المنجدة كالتي نراها في معروضات خان الخليلي، وسادسة وسابعة وعاشرة على امتداد بهو طويل عريض تتخلله حواجز رمزية من ستر وعمدان وقوائم خشبية مشغولة كالمشربيات مشجرة

جعلنا نمشي كالبلهاء نتصادم في الخدم والموائد. والحاج ماض أمامنا بنفس مشيته التي يمشيها وهو ذاهب إلى المسجد. محني القامة قليلا مبرزا من بين كتفيه ما يشبه القتب الخفيف، واضعا يديه خلف ظهره فوق مؤخرته تماما، والمسبحة تتدلى بينهما، وشفتاه تبسبسان كالعادة بكل ما عنّ من التسابيح والأوراد، ظلال لحيته الطويلة ترتفع وتنخفض صاعدة هابطة فوق الأجساد والكئوس والأعمدة. واجهنا مربع محدد بسور من الخشب يرتفع عن الأرض بأرض خشبية ارتفاعا مقداره ثلاث درجات سلم، يجلس فوقه فريق من الآلاتية والمغنيين. وفي المنطقة المجاورة لهذا المربع تجلس وجوه كثيرة مشهورة كلها ممن تنشر الصحف صورهم. وكنت أعرف أن وراء هذا المربع المسرحي غرفا صغيرة كغرف الحرملك ومحلات أدب، ووراءها فراغ السقف كشرفات متحدات وأعارير عالية مخروطية

اقتادنا الحاج إلى أكبر شرفة، وهي خلف مربع المسرح مباشرة ويستطيع الجالس في نهايتها قرب الخلاء أن يرى كل ما يدور على المسرح وفي بقية القاعة عبر ممر في عرض المسرح، في حين أن الجالس في القاعة قد لا يتمكن من رؤية الجالس في هذه الشرفة. أما الشرفة فمفروشة بمقاعد وأسرّة لا مثيل لها، لا أحد يعرف إن كانت من الخشب أم من الذهب، منجدة بالقطن أم بريش النعام. ثمة ناس كثار يجلسون متربعين كالعمد ومشايخ العرب. أمامهم الكراسي العباسية فوقها الصواني الفضية تعج بالكئوس والزجاجات من كل الأشكال والألوان. ما إن رأوا الشيخة سعادة مقبلة عليهم حتى انتفضوا جميعا والتصق عابثين دخل عليهم أبوهم المرعب. توقفت الشيخة سعادة لبرهة طويلة، ثم تقدمت لتسلم على أقرب واحد. وصار الحاج من جوارها يبلغها اسم كل من تسلم عليه ووظيفته، وعند الوظيفة العظمى يمسك عن ذكرها ويكتفي بتفخيم الاسم وتضخيمه. فلما جاء عند الرجل الشبيه بأنور السادات الخالق الناطق أشار إليه برعشة خجل مصطنع كهين، قائلا: «محمد بك أبو شناف! طبعا تعرفينه!» فهزت الشيخة سعادة رأسها وكررت السلام بحرارة: «أهلا أهلا وهل يخفى القمر؟!» فاستدرك الحاج: «ولما علم أنك ستشرفيننا الليلة كاد يرقص من الفرح! وقد شرفنا بالحضور وأمله أن تفتحي له الكتاب». قالت الشيخة سعادة: «ربنا يوفقنا في خدمته، إن كتابه مفتوح وليس محتاج إلا لمن يحسن قراءته». ابتسم محمد بك أبو شناف عن حنك واسع وقال: «هذه إذن هي مهمتك!». وبدا

في نبرة صوته كأنه يصدر أمرا بذلك، وكانت زبيبة الصلاة على جبينه للزرق تبدو كالمرسومة بهباب الفرن أو كحبة توت مشبوكة في لحم جبهته المتثنية، أخذت تعلو وتهبط علامة المرح وهو يستدرك: «ولكن عفوا ست الشيخة! إن كتاب حياتي حافل وصعب ومكتوب بكل اللغات!». فقهقه الحاج السني وبعض الحاشية، مما أغرى محمد بك أبو شناف بالقهقهة معهم كأنه قال دررًا نادرة. قالت الشيخة سعادة: «كتاب المرء مقروء إلا لعينيه هو نفسه ونذر من يستطيع قراءة نفسه!». الغمرة ثقبت الزبيبة في جبهة محمد بك أبو شناف فأخذت تنتفض، فيما استدركت الشيخة سعادة بسرعة: «إني على كل حال لست راجمة بالغيب! ولست عالمة به أو بأي شيء من أمره، إنما أملك مرآة ورثتها عن أجداد أجداد أجدادي! وقد وهبني الله حاسة أرهف ونظرة أعمق وأنفذ وعقلا أقدر على ربط الأمور والأشياء ببعضها! قد أصيب وقد أخطئ! لكن الصواب والخطأ إنما يكونان على قدر ما في نفس صاحب الكتاب المقروء من صفاء أو كدر، من روقان أو عبوس! من شفافية أو إعتام! وفقنا الله ووفقكم إلى فهم أنفسنا على خير ما يمكن!».

قالت هذا وهي مطرقة برأسها في قدر من الحياء وكثير من الأدب، فيما كانت الزبيبة على جبين محمد بك أبو شناف قد تجمدت تماما في مكانها، وصدر منه الأسفل يتدلى فيما لا نعرف إن كان يبتسم أم يتلمظ، لكنه قال مشيئا من الشهامة مشيرا إلى

مقعد بجواره «تفضلي بالجلوس!». فاستوت الشيخة سعادة جالسة؛ وكانت قد خطفت قلبي بكلامها. ثم إنني تأهبت للانطلاق إلى الحفل، لكنني ما كدت أستدير في الممر النازل إلى قاعة الاحتفالات حتى رفعت الشيخة سعادة ذراعها مشيرة لي. «تعال ياولدي! ما اسمك؟» «تفقعت من الفرح. «خدامك حسن أبو ضب». هزت رأسها كأنها تقول: «أعرفه» وأحسست أنها تختال ابتسامة شقية بين شفتيها الدقيقتين؛ وتبسم الحاج السني قائلا في شقاوة صبيانية مرحة: «تعرفينه يا ست؟ لنتما بلديات على كل حال». قالت: «أبغي مساعدة لي في مهمتي الليلة؛ وقد توسمت فيه الطهر والعفة». الصياغة كلها لمعت في عيني الحاج السني، فاندفع صائحا ببهجة حادة ذات معنى وهو يهزأ في وجهي: «هذا؟ آه من هذا!» ألقيت إليه نظرة استرحام، لكن الشيخة سعادة ردت مسرعة: «أعرف إنه ربما ارتكب بعض المعاصي تحت ضغط قاهر، لكن من المؤكد لي أن قلبه سليم؛ ودمه نقي؛ وصدره خال من الشوائب والأحقاد؛ وضميره مهيأ للصحو في كل لحظة؛ لولا أن الحاجة أحيانا تكون أقوى منه؛ كفانا الله جميعا شر الحاجة والعوز؛ إن الله سبحانه وتعالى يغفر للمحتاج». الولية تعرفني إذا يا خال، تحلف اليمين كأنها نشأت معي، لكنها يا خال تبدو كما لو كانت تقول كلاما حفظته من قبل وتدربت على نطقه. قال الحاج بنفس الشقاوة: «هات كرسيا يا ولد واجلس بجوار الشيخة لاتبرحها أو تعال فاجلس هاهنا مكاني». وتخلى عن كرسي خشبي مقعد كان يجلس عليه بالعرض، أما أنا فاستويت عليه

طبعا بعد أن عدلته لأتمكن من رؤية الغرفة كلها؛ لكنني بعد أن جلست داخلني الكثير من الكدر والضيق والندم؛ فبعد هذه اللحظة قد حرمت علي كل هذه الخيرات المبثوثة هنا بغير حساب، وقد كنت أمني النفس ببضع كئوس أرطب بها جوفي الصادي، فكيف أشرب الآن يا بوي بعد أن شهدت بي الشيخة سعادة بهذه الأوصاف؟ الحق لله أن حالة من الرضاء عن النفس رطبت جوفي يا بوي. أيمكن أنا إنس وأنا لا أدري؟ كيف يا خال؟ لعن الله الشرب بعد الآن، ولكن لا، فلتكن هذه الليلة هي آخر الليالي التي أعصي فيها عصيانا بسيطا!

ثم ظهر الحاج السني مقبلا من شرفة جانبية خلفه سنيورة كيميت من بنات الحور اللاتي تحكي عنهن الحواديت. فرع من الرأس السرح له بروزات شيقة دقيقة من الخلف والصدر، وعنق من المرمر، ورأس مدبب الذقن كرأس نفرتيتي، أي والله يا خال أميرة فرعونية من سلالة لم تنقرض بعد. تحلف اليمين يا بوي إن الحاج السني لابد أن يكون قد عثر عليها حية في حفرية فاقتناها وألبسها فوق لباس العصر حليها القديمة. قلت لنفسي: لايمكن أن تكون هذه هي ابنته صاحبة هذا الحفل المهيب البهيج؛ في نفس الوقت لايمكن أن تكون من بين الفنانات المشتركات في الحفل؛ فمثل هذا الخلف الصدي لايخرج من صلب هذه القشدة الطازجة؛ والفنانات عندنا ليس يعرف عنهن هذا الوقار الجميل وهذا الكبرياء الشامخ الذي لاشك ورثته كأميرة من ظهر أمير

يا بهو بالي عنها، وهي تتقدم مقبلة، ورائحة عطرها الأرستقراطي يغطي على كافة العطور المنتشرة في القاعة. اقترب الحاج السني من الشيخة سعادة وانحنى مشيرا إلى السنيورة الفارعة "قوت القلوب! ابنتي!". فنهضت الشيخة سعادة وعانقتها وقبلتها في وجنتيها، والحاج السني يواصل الكلام في نبرة راعشة شجية "ما عندي في الدنيا سواها! لا ولد ولا زوجة ولا أحدا بعد أن افتكر الله والدتها حرمت على نفسي الزواج ووهبت كل وقتي وحبي لقوت القلوب! مناي كله أن يأخذ الله بيدها ويفتح لها أبواب السعادة على مصاريعها! تعالي ياقوت القلوب وسلمي على عمك محمد بك أبو شناف". فلمعت الأسنان المعدنية المدردبة في حنك محمد بك أبو شناف وتراقصت الزبيبة على جبينه وهو ينتفض واقفا. ولولا الحياء من الشيخة سعادة لالتهم البنت في أحضانه ومصمصها بشفتيه هاتين الغليظتين الشهوانيتين. يا لهوي يا حاج! أن البنت شعرت بالرعب لما واجهته. فتسمرت في مكانها برهة ثم تقدمت خطوة واحدة على حذر، وانحنت قليلا لتختصر المسافة بينهما، مادة أطراف أصابعها وهي تضحك في حذر، ثم اضطرت للسلام على بعض القريبين منه لأنهم تهيأوا للسلام عليها. قال الحاج السني "مستأذن منك قوت القلوب يا ست الشيخة لتحتفل بصاحباتها وفي آخر الليل تجيء لك لتنفردين بها على رواقة!". هزت الشيخة سعادة رأسها في أريحية "ليلة سعيدة يا قوت القلوب! إن شاء الله نحضر في الليلة الأكبر زفافها القريبة بعون الله وفضله". فضحكت البنت في

خجل وتثاقل، ثم هزت رأسها مستاءة ومضت. تابعت مؤخرتها الساجية حتى اختفت في ممر الشرفة الجانبية. أما الحاج فقد راح يتمكك في الضيوف كالذئب الطليق، ثم ما لبث حتى اختفى. إن هي إلا برهة حتى دعيت الشيخة للعشاء فنهضت ومضت خلف الداعي في ممر الشرفة الجانبية، فانتهزت أنا الفرصة وقمت أطوف حالي أبحث عن شلة النحس. مضيت في نفس الممر، مررت بأكثر من شرفة، هبطت سلما إلى الدور الأسفل، فإذا أنا بقاعة تغص بالموائد العامرة، كلها مستديرة وكل مائدة يلتف حولها عشرة أشخاص، تقوم عليهم مجموعة خدم يرفعون الأطباق ويضعون غيرها حتى يجيء حلو الختام إيذانا لهم بمغادرة المائدة ليتم تنظيفها في الحال ليحتلها عشرة آخرون. كانت شلة النحس منهمكة في غسل أيديها إلا بسبوسة. فقد كان قدما بتوه صاعدا من أسفل احتجستة، ثم جلسنا معا على مائدة واحدة جيء بسلطانيات الشوربة، ثم أطباق الخضار باللحم، ثم أطباق المحشي على مختلف ألوانه، ثم الشعرية بالفراخ، ثم أطباق الأرز بالضلع، ثم أطباق الفاكهة من برتقال وموز وتفاح وتين وبلح وهلم جرا، ثم أطباق خير حلو اسمه الجلاش، ثم المهلبية والأرز باللبن. مسك الختام فانتهض يا بوي في طريقي إلى دورة المياه لغسل يدي لمحت عزولي في نهاية القاعة قرب السلم، فغمز لي بشفتيه وعينيه في اتجاه الصعود، ولما رآني تعثرت في الفهم شوح بذراعه نحو غرفة البرج الفوقانية. هززت رأسي بالفهم والموافقة ومضيت فغسلت يدي بسرعة ثم اتجهت إلى السلم. لاحظت يا

يوى أن الرجل المهيوب قد رفع كل التماثيل والتحف والانتيكات التي كانت متناثرة في كل مكان، لم يبق إلا على اللحمية داخل دواليب زجاجية مغلقة بأقفال خفية. رجل كهين يا بوى وليس سهلا أبدا أبدا أبدا.

ظننت أن شلة الخمس تريد أن تقيم لنفسها قعدة جانبية في غرفة البرج تشوف مزاجها يا بوى، حقها. صعدت السلم يا بوى، مررت في صعودى بضجة الفرح صاعدة من بئر السلم وقد بلغت الصهللة مداها يا بوى، وثمة مغنية من مغنيات الراديو تغنى إيوه آه، وعشرات من الأكف البلهاء تصفق لها على الواحدة، وزغاريد. على السطح فوجئت بحفل آخر، نفس الأصوات، نفس التجهيزات ولكن بستائر ملونة فوقها شلت. والجوز شفافة تبرق باللهب بين مجاميع متعددة، وكل من عرولي وبربش وهندى ممسكا بجوزة ومصفاة نار متوليا سقيا جماعة. كان بسبوسة قد لحق بى على البسطة الأخيرة للسلم وهمس فى أذنى قائلا فيما متباطئا في الصعود:

- مثلنا لايجلس مع العظم الثقيل يا حسن، إنما مبرر وجودنا معهم أن نكون خدما لهم! خدم خدم المهم أن نذوق طعم العلاوة، الحشيش البريمو العالي! الشمبانيا والويسكي والكرفودرنة! هؤلاء الذين تراهم أمامك الآن بين برق الجوزة ولهب الكيف هم صفوة من يملكون الأمر والنهي في البلاد، ليسوا أصحاب مناصب ولا يحرزون، الصحف لاتعرف صورهم ولا أسماءهم؛ كما أنهم لايدخلون معارك انتخابية ولا ديوان؛ يتركون غيرهم يقوم نيابة عنهم بتدبير المكائد ودس الدسائس ولبس الحوازيق النهائية وهم - هؤلاء - جالسون يحششون ويسكرون ويرقصون في أثناء الراقصات في أحلك الليالي في أشد الأزمات التي تمر بها البلاد، يقولون إن الثورة أممت الأراضي والشركات والمصانع وصادرت الباشوات والإقطاعيين، أما هؤلاء الذين يجلسون أمامك الآن فإنهم أمموا الثورة نفسها!! إنهم هتوات التنظيم؛ ترى أبناءهم والأنيشيهم يكتبون افتتاحيات الجرائد ويتكلمون بالإرهاب في الإذاعة ويخطبون بالحماس في سرادقات المحافل ويعيشون نفس الحياة التي كان ينعم بها الباشوات في عز ثرائهم، يلحقون أولادهم بالمدارس الأجنبية يستعيرون لهجة الميوعة والمشروبة تقليد لأبناء الباشوات. إنهم يملكون الأموال والنقود ويمولون كافة المعارك بجميع أنواعها ابتداء من معركة في حارة درب عجور بين اثنين من متسلقي الاتحاد الاشتراكي إلى معركة بين عبدالناصر وعبدالحكيم، ومنهم من يلبس ثياب الثورة وهو من ألد أعدائها! وقد سمعت الحاج السني ذات مرة يقول إنه لا يستبعد أن يكون هؤلاء لهم دخل في المعارك بين أمريكا وروسيا، وبين روسيا والصين! وهم وراء الموارنة والشيعة في لبنان! والأكراد في العراق، والنوبة في الشمال والجنوب في السودان! والإخوان المسلمين والمسيحيين في مصر! هكذا قال الرجل الكهين مصمصة لسانه عن هؤلاء؛ رأيي يا حسن أن نبعد عن هذه المجموعة، فلو عرفوا أسماءنا

وشخصياتنا فلن نقر منهم إلى الأبد! سنبقى مدى الحياة خدما لهم، يفرضوننا بالعتبات الدسم لكن أحذيتهم فوق رؤوسنا!؟ دعنا نكون أذكى منهم فنلتقط الفتات من بعيد لبعيد من وراء ظهورهم! إنهم لابد لهم من إلقاء الفتات في صفائح القمامة مالم يكن هناك من يلتقطه من تحت أقدامهم مباشرة، غرولي وبريش وهدي أرباب سوابق فاقدين جعلوا من أنفسهم صفائح زبالة تلقى فيها كل الفضلات النتنة، تعرف؟ وسمعت الليلة أنك ابن نسل طاهر طيب! وأنا أبشرك! من الليلة ستكون صاحب الحظوة عند الحاج السني وكل أتباعه ومعارفه، هنيئا لك ياعم! فأنا إذن يحلو لي أن أنصحك نصيحة أخ غالية: ابعد عن شلتنا هذه نهائيا، شلة النحس ما أقصد، أنت لست مثلي عدم المؤاخذة! أنا أعرف كيف أسلك معهم دون أن أتلوث بجرائمهم!! ولكن تعال. ففي غرفة البرج ناس أعلى من هؤلاء الذين يملئون السطح وأهم بالنسبة لنا ولابأس أن نكون خدما لهم! إن الخدمة عندهم شرف لنا يعطينا هيبة وأبهة ومهابة! محمد بك أبو شناف الشهير بسندرل نظرا لإفراطه في الأناقة ولبس الشباب رغم أنه عجوز كركوب! ويحب الفتيات الصغيرات! رجل متصل بالرئاسة شخصيا، لا أحد يدري ما شغلته في البلاد بالضبط لكنه وارد في كل مناسبة واسمه مدرج في كل مصيبة، يقال إنه المضحك الخصوصي للرئيس وأن الرئيس يعتمد عليه في كثير من المهمات والمشاوير كما أنه سفير للرئيس في كل مكان يتحرج الرئيس من ارتياده، هو رجل مرأة حل بالك، لكنه خفيف الدم مسمسة، غير أن احترامه من احترام

الرئيس مع الأسف! وهو وزوجته دائران على حل شعرهما في كل مكان لا تقف أمامهما حواجز أو سدود! كل واحد من ناحية، ولهما صداقات عالية المستوى في جميع أنحاء الكرة الأرضية طيال أملك! تعال نقتحم مجلسهم لترى بنفسك!».

كان الكلام قد سرح بنا إلى حافة سور بعيد وقفنا مستندين عليه. ومصر عتيقة من تحتنا سديم هديم ذو قباب ومآذن تسبح في برك القمامة ومياه الصرف والكآبة. وعلى البعد تبدو القاهرة مثل جلابية أمي السوداء تبرقشها نقوش بيضاء وحمراء وخضراء وزرقاء. لحظتها جاءني خاطر يقول لي: خير لك يا ولد أبي ضب أن تنسلخ عن هذه المدارات كلها وتبحث لك عن فلك جديد تربط نفسك في مداره. وجاءني خاطر آخر يقول: وهل تقدر على ذلك يا ولد أبي ضب؟ ألست ترى أن جميع المدارات تؤدي كلها إلى فلك واحد كما أن جميع الأفلاك والمدارات رمت والعران. شعرت يا بوي بهذا الخاطر يقبض على ذراعي يكاد يقرصه بوجهه، لكننا في قبضة بسبوسة ممسكة بذراعي تسحبني إلى غرفة البرج.

رأينا محمد بك أبو شناف جالسا في الصدارة متربعا وسط مجموعة من أتباعه كالعمدة يرتدي جلبابا واسعا من الصوف بأكمام واسعة ومن تحته الصديري الشاهي المقتبر، وفوق رأسه طاقية من الصوف، كالرعموط، وعصاه الأبنوس أم عوجاية مركونة خلف ظهره. أما بقية الأتباع فيرتدون فخر البدلات

وربطات العنق المفكوكة قليلا كما أن أزرار الياقات الحريرية مفتوحة وفوقها الصديريات؛ أما السترات فمعلقة على مشاجب أنيقة مزروعة في الحوائط. أمامهم الصواني الفضية عليها الكئوس مترعة بجميع أنواع المشروبات. وثمة أفندي أنيق غاية الأناقة من الواضح أنه عربجي أصيل رغم الوجاهة والأبهة قد راح يقوم بالواجب خير قيام، تحلف اليمين لا أنا ولا أجدع معي ينشط هكذا. وثمة أفندي أسمر لايقل عنه شياكة ولا أبهة راح يوالي توليع النار وتكسيرها وتحميرها في المصفاة ليغترف منها بالملعقة ويضع على الحجر بحيث لاتتوقف الجوزة عن دورتها لحظة.

بدا أنه لا مكان لنا بسبوسة وأنا؛ شعرت أن وقفتنا على الباب سوف تطول، لكن بسبوسة بوجهه المكشوف دفعني نحو الباب قائلا: سلام عليكم. فإذا بهم يردون السلام ويتبعونه بكلمة: تفضلوا. فما أن دخلنا حتى تقدم بسبوسة دون إحم أو دستور نحو صينية النار، فتقرفص بجوار الأفندي ساحبا الصينية نحوه، ثم التقط الماشة مع المصفاة وورقة التهوية، ثم اندمج في مباشرة العمل. فانزاح عنه الأفندي قائلا: «كتر خيرك من الصبح». وكان عليّ أن أفعل مثل بسبوسة، فعاينت الأفندي الممسك بالجوزة ومددت يدي فوضعتها على الجوزة قائلا: بعد إذن سعادتك. فتركها لي في الحال. فنزعت عنها الحجر المحروق ونفخت دخانها وسلّكتها بسرعة ثم أفرغتها في جردل معد لذلك وملأتها

من جردل آخر به ماء مثلج نظيف. كان الدور على محمد بك أبو شناف، فمددت له البوصة قائلا: مساء الخير. وانحنيت أمامه حتى يشرب براحته. فالتقط البوصة بأطراف أصابعه الطرية السرحة، ووضعها بين شفتيه الغليظتين، وطقطق ثم شد نفسا واحدا كاد يختنق منه الحجر، فعرفت أن أبخرة الويسكي وريق الأفيون يلاحقان الذهنية لدخان حامي الوطيس. أما الأفنديان اللذان كانا يتوليان أمر النار والجوزة فقد توليا أمر المزججات والكئوس بدلا من آخرين كانا يقومان بنفس العمل من نفس المجلس. الأفندي الذي رحب بي تكفل بي، والأفندي القريب من بسبوسة تكفل به. فكأس وراء كأس وحجر يتلوه حجر صرت كأنني مجرد سحابة من هذا الدخان. آخر تمام يا بوي. ورنت الساعة في معصم أحدهم فنظر فيها قائلا: «ألن نرى الفرح؟». قالوا جميعا: «وجيهاه» وتأهبوا للنهوض.

كان طبيعيا أن نبقى، بسبوسة وأنا، كي ننظف المطرح ونلم العدة. إننا يجب أن نحلل أكلنا على الأقل يا بوي. وهكذا نظفنا المطرح ثم رتبنا حساباته. وقد راعني أن وجدت بين شيات المساند قرا لمهاء، ولاعة ذهبية في حجم علبة ثقاب ثقيلة. عليها رسوم ونقوش ... ذهبية كلى رأس ملك الزمان شخصيا. ثقل من ... قطعة حشيش في ورقة مبرومة. ... في الصدر ... قلت أما هذه ففي جيبي وأما الولاعة فتتحى أمامه ... وصح لي في الحال أنها تخص محمد بك أبو شناف

ولابد أنه حبطها من أحد الملوك العرب، وهي لن تفيدني، إذ أنها ستفضحني لو استعملتها أو فكرت في بيعها يا حال؛ المرء لابد أن يحسبها جيدا يا حال؛ وإن فرحة صاحبها بعودتها لأكبر عندي من فرحتي بها يا بوي؛ لأن فرحته هذه ستعلن في الحفل تأكيدا جديدا على طهارة عنصري الذي أعلنته عليهم الليلة الشيخة سعادة. وهكذا اندفعت لاهثا أجري كي أحظى بشرف التبليغ قبل أن يبعث هو من يسأل عنها ويركب على أكتافي. قال بعبوسة في فضول: «ما وجدت يا أبا علي؟». قلت: «تعال!»

هبطت السلم جريا إلى قاعة الاحتفالات في الطابق الثالث من الدار. كان الفرح حابكا، والجميع غائب عن الوعي، وراقصة لعلها سهير زكي، مدملجة مرتطة الجسد كالرخام الشفاف تتلوى على المسرح كعامود من الضوء يتصاعد من حلة موسيقية تغلي بالإيقاعات الحادة الحراقة في نشوة بالغة. فالجميع ثمل حتى سحب الدخان المتصاعدة من السجائر والغلايين. جنة هذه أم جنون يا حال؟ وصلت إلى قرب المسرح أتخبط كالجمل الأعمى من فرط السكر والسطل والهياج. صارت عيني تقع على وجوه الجالسين فلا تعرفهم إلا بعد تدقيق وفحص طويلين. تجاوزت المسرح إلى الشرفة المطلة فما وجدت أحدا؛ فقفلت عائدا أبحلق في وجوه الصفوف القريبة من منصة الرقص. ميزت عيني سعادة تجلس في الصدارة بيدين تستندان على مقبض العصا، وبجانبها مين عيو... عيونها... حرمت عليه مباشرة، فلما اقتربت قربا

منه لاحظت وجود الشيخة سعادة بجواره. عجيب لأنني مررت عليهم من قبل وتوقفت أمامهم فلم أتعرفهم. تقدمت من محمد بك أبو شناف. شيعني بابتسامة استهلال حذرة تشي بخوف غامض خفي من احتكاك أمثالي بمثل هؤلاء الأسياد خاصة إن كانوا أسيادا ضياعا في الأصل كمحمد بك أبو شناف؛ وقد شممت رائحة خوفه تلوح من جوفه حين فوجئ بي أميل على أذنه، التي - مع ذلك - سلمها لي في طواعية، فهمست فيه بكثير من الحرج: «سعادتك نسيت شيئا فوق؟» نظر في وجهي بارتياب شديد؛ طاشت من عينيه طلقات كثيرة متوالية ترميني بالشك والاتهام فأصابني الرعب يا حال. وكنت ممعنيا تماما فخفت أن تصطك ركبتاي ببعضهما فشددتهما وشددت لساني ليتحرك في حلقي؛ قلت على الفور وأنا أبرز الولاعة الذهبية أمام عينيه: «قد وجدت هذه بين المساند». فزوى ما بين حاجبيه متمعنا فيها دون أن يلمسها أو يحفل بها، ولوى شفتيه قائلا: «لا! لا شأن لي بها!» فوضعتها في جيبي. وكانت الحاشية كلها قد لاحظت كل شيء؛ مع ذلك تلكأت في مشيتي في انتظار أن يستوقفني أحدهم قائلا إن الأمانة تخصه؛ لكن شيئا من ذلك لم يحدث يا بوي، فانسللت خارجا من إطار المجلس، أتعثر في الأضواء والموسيقى المهووسة. و... يا بوي واه؛ لقد حدث مني التفاتة عابرة نحو الشيخة سعادة، فتلامست نظرتي بنظرتها عبر الطرحة الحريرية البيضاء فأصابني منها لسع حارق يا حال. تحلف اليمين يا بوي أنها بعينيها نظرة أمي ولسعة البرق هذه لم أعرفها إلا في عيني

أمي لحظة تضيق بأخلاقي وتيأس من صلاحي أرعبتني يا بوي وكنت أقع من طولي! وقد داهمني شعور بالرهبة من أنني أتيت أمرا أغضب الشيخة سعادة. نعم يا بوي، لقد خيبت ظنها بي العمايل التي عملتها في روحي يا بوي، شعرت أن الطريق مسدود وأن لا أمل في عفو الشيخة سعادة إلا بعد لأي شديد شعرت كذلك أن أياما نحوس قادمة سوف تعترضني لا محالة وحطت على كآبة ثقيلة يا خال، وباخ الطل في عيني، وتحولت الراقصة إلى حية رقطاء تتلوى تبخ السم حيثما تريحت لله در الخلق من نفوسهم الأمارة بالسوء. وهكذا يا خال رأيتني أجلس في الشرفة الخلفية وحدي على يميني القاهرة وعلى شمالي الفسطاط وتحت قدمي مصر العتيقة وأمامي نيل الروضة والجيزة قرط من الأضواء الملونة تتشابك أقواسه وتتنافر وتتناثر، معلق في صدر معتمة، تلك العتمة التي تبرك على كيمان من القمامة والأسرار المنتنة. فما لي مالي ولي بذنبي البسيط يا بوي؟

إلا وخطوات تدب من حوالي تنتزعني من وحدتي، كانت الشيخة سعادة مقبلة تعدل هندامها، ومن خلفها موكب جعلت أتبين فيه الحاج السمي ومحمد بك أبو شناف وبقية الحاشية كان الحاج السمي قد شرع يعدل الوسائد ويهيئ للشيخة مجلسا أما هي فقد بدا أنها تتأهب للانصراف؛ فها هي ذي تتأبط حقيبتها الثمينة بحرص وتلفتت طالبة عم رجدي السائق، الذي

كان الطرح لها من لفتتها. وقف الحاج السمي محتجا بشدة «ما ينفع هنا يا ستنا الشيخة؛ نحن لم نجلس مع بعضنا بعد!» قالت الشيخة: «ورائي سفر طويل كما تعرف؛ وعما قريب يكون لي الشرف بزيارة أخرى!». قال محمد بك أبو شناف «وأنا ما مصيري يا ست الشيخة؟ على الأقل خمس دقائق معي أقرأ لي حتى العناوين الكبيرة من كتابي». قالت الشيخة بكبرياء ولباقة «كل العناوين تؤكد أنك الليلة غير مؤهل للقراءة أي شيء فلست وحدي التي ستقرأ كتابك؛ بل إنك الذي سيقرأ، ولست إلا معاونة لك أنا والورق؛ لكنني أعدك يا سيدي الفاضل أنك لو قابلتني في حالة أصح وقلب أخلص ونزعة أطهر فسوف أعدك بأنك تفهم كتاب حياتك سطرا سطرا وتستوعبه معنى معنى! خذ رقم تليفوني من الحاج واتصل بي وقتما تشعر فتحدد لقاءنا هنا!» ثم إنها شفعت بابتسامة مهذبة، ثم استدارت إلى كاتبها في غير حاجة لرد محمد بك أبو شناف وسلطت على نظرتها القاتلة «أما أنت أيها الشقي التعس فلي حساب معك في وقت يعين عما قريب!!»

شعرت والله يا خال كأن الأرض تميد بي، لكنني شعرت مع ذلك أن في أعماق صوت الشيخة نبرة عطف وأنها سوف تحنو على مادامت وصفتني بالتعس، لابد أنها ستشفق لتعاستي، قالت ذلك ثم سلمت على الحاج وعلى محمد بك أبو شناف ثم الحاشية وتوقعت أن تسلم على أنا الآخر، وصدق توقعي يا بوي: فانتثرت على الأرض بددا حسرت أقبل يديها في طلب

العفو والسماح! فربتت بيدها الأخرى على ظهري في حنان حقيقي قائلة بصدق حقيقي استشعرته «ربما يهديك ويطرح البركة فيك! آمين يارب العالمين». فإذا بالجميع يرددون خلفها مثل جماعة المصلين «آمين يارب العالمين». فشعرت والله يا خال أنه سوف يستجيب لابد لهذه الصيحة الجماعية. وقد أصر الجميع على توديع الشيخة سعادة حتى باب السيارة، حيث راح الحاج السني وأبو شناف يوصونها بتبليغ سلامهما إلى السيد المحافظ وشكرهما العميق، وكان عم رهدي السائق يهز رأسه كأنه المعني بالشكر. كلمة من هنا وكلمة من هنا فهمت أن السيارة هي سيارة المحافظ، محافظ أسيوط والله يا خال. وأنه مجاملة منه سماح ولابي شناف تطوع باستدعاء الشيخة سعادة وتوصيلها إليهم بسيارته الخاصة. حاجة تهوس يا بوي وحق الله. بعد أن تحركت السيارة شرعوا ينصرفون. وقبل أن أنصرف شدني الحاج من كم جلبابي قائلا في عشم وسرعة «عليك تحت عيني باستمرار يا ولد يا عكروت! لقد أوصتني الشيخة بك كأنك منها بموصع الأخ الشقيق! فلا تجعلني أسأل عنك بعد الآن!». قلت في عبطة «حاضر يا حاج!». ومضيت أترنح لا أدري كيف الوصول إلى أي شيء في أي مكان.

العاشرة . طيف الخيال

العيال المفتحة ليست بالساهل يا بوي. ولد مثل بسبوسة هذا ملقط ابن ملقطة! يجمع المعرفة والمعلومات بكل سهولة ودون أن يبذل أي مجهود. ولقد يسعى الواحد منا لمعرفة أشياء يعنيها أو معلومة عن شيء معين فيقضي في ذلك شهورا وربما سنوات، وقد لا تجيء هذه المعلومة صحيحة بعد التعب. أما بسبوسة، فيجي عليه باردة، يجيء لك بالخبر اليقين من أيما مكان تريد، هو ولد ناعم، جذاب يا بوي، يدخل في الزوايق دون أن يسبب أي وجع لأحد، وينصت لكل شيء ويجعل باله من كل شيء. ولد واع بحق! مولود ليكون مخبرا، وعلى وجه الخصوص عن بيوت الدعارة، غير أنه يوسع دائرة عمله فيشمل بيوت الدعارة بجميع أنواعها! يجمع الأخبار لا ليبلغها للحكومة بل لينتفع بها عند اللزوم، هو خير من ينتفع بها! هو خبير بأمر إعلانها لا يكشف عنها إلا عند اللزوم، حيث يكون لإعلانها ثمن كبير، هو مع ذلك لا ينسى المعلومة حتى تتعفن وتصبح معروفة! فقبل أن ترمع الحكومة مهاجمة الجوسوسيرة يكون هو أسرع ولو بدقائق تكفي نقص المعلوم وتفويت الفرصة على الحكومة

وآه يا بوي! الكأت تعلمته من ولد الأبالسة هؤلاء، ليس المرء يكون ابن ميل لمجرد أنه يعاشر أولاد الليل أو يفعل أفاعيلهم. الشاهد يا بوي: أن ابن الولد بسبوسة شحل على شفتي مبتسما ابتسامة ملونة يا بوي، قلت: سترك يا رب. صحبته ورائي إلى المطبخ قائلا: «تعال أعمل لنفسك شايا». وقف بجواري يحمل الأكواب على رخامة الحوض وجسده كله يهتز ويترجرج من فوق لتحت ومن تحت لفوق، وأنا به يضحك ضحكا مكتوما مطنا في نفس الوقت. قلت معطيا إياه ظهري فيما أشعل عين البوتاجاز وأضع البراد فوقها: «ما الشغلة عاشة يا ولد الفرطوس؟». فكأنني أعطيته الإذن الشرعي بالانفجار في الضحك يا حال، فصار يترنح ويتمايل من فرط الانبساط والسخسخة، وكان يتكلم خلال ذلك لكن تحلف اليمين ما فهمت منه كلمة واحدة توحد ربها؛ إنما هو مدمج في الهنهنة والقأقأة والبهبهة. كل ما فهمته من كلامه يا بوي أسماء الحاج السمي ومحمد بك أبو شناف والملك فاروق ورجال الثورة والعائلة الخديوية والدنيا والدين وريطة ورنبلبطة. وآه يا بوي، ما الذي لمّ الشامي على المغربي؟ وما الحكاية بالضبط ولد الفرطوس.

*

وكنت أظنها نكتة جديدة الولد بسبوسة بها ليقضي على حسها عصرية ممتعة. مرة به جاءني ببلوى كبيرة يا حال. صرت أجمع نفسي على كومة الشاي وأنا جالس معه في الصالة لعلي أفهم جلية الأمر. فلما كف عن الضحك مسح دموعه وبدأ يفحص الأمر

كأنه المطر للكلام الناشر يأسا من عيني، ديمي بالمنتشر. الكنز الذي عثرت عليه أنت ليلة ميلاد ابنة الحج طلع على فاشوش. منع لا أصطلب؟ قال إنه بصريح العبارة ثم يكن كنز بل هو بلوى سوداء مصيّحة!». قلبي راح يرفرف كطير مذعور في قفص من الجريد المرج، من ريق ناشق كالعصا قلت: «كنز مانا يا ولد الفرطوس؟! تقلمي لقيت كنزا؟!» لكزني صائحا: «لا تستعبط على نفسك! إنني ما قصدت إلا مصلحتك يا صعيدي، يا صعيدي يا لطف! أنت تتلاءم علي؟! أما أنا فما أدري الله على قوله في حالك الله وأجري على الله!». وكنت أفهم ما قد بدأ يرمي إليه الحديث، لكنني والحق يقال تمسكت بالاستهبال لعلي أفهم أكثر دون أن أتورط في اعترافات تضع يدي في الحديد. ولد الفرطوس هؤلاء علموني أن أكون حريصا معهم. بسبوسة نفسه جدير معهم خلاق القلب حين تذكرت بسبوسة المخلصة لي. رويت بنفسي على التلاؤم عليه، لمتها، لكن صوتا في نفسي رن قائلا إن تصدير بسبوسة لي من زمانه لا يمنع من أن أستفيد به في التعامل معه أيضا؛ فهو في النهاية واحد منهم. مرّ في خاطري إلهام بأنني مادمت قد فهمت ما يرمي إليه فخير لي أن تظهر صورتي بريئة كما قد أردتها في ليلة قوت القلوب، رن الصوت في صدري. لقد أظهرت براءتك أربعة وعشرين قيراطا. نزلت ومعك الولاعة وقطعة الحشيش وعرضتهم على الجالسين فلم يعترض عليهما أحد، بل تجاهلوا الأمر من أساسه كأنه لا يخصهم، فلا بأس إذن. وعاد الصوت نفسه ليرن في صدري ثانية. ولكن

الولد بسبوسة ورطك «الآن ولا يصح أن تظهر أمامه في صورة من يريد أن يضرب العواص على اللقية التي التقيتها.

وضع الولد بسبوسة ساقا على ساق، عوج رقبته محوى قائلا في لهجة ذات مغزى «هات نلف سيجارتين من الحلويات التي معك! أم تراك تلهطها وحدك؟! إياك تقول إنها نفدت! تكون أكبر مفترى لو قلت ذلك». وركز بصره في عيني بشكل جعلني كالقرد المقيد بالسلاسل. حاولت الفلفصة فلم أقدر يا بوى، ثم إنه أسرع فأخرج علبة سجائره ودفتر البافرة وشرع يفرط السجائر وينقيها من العيدان الخشنة ويشرشر ورق البافرة، فيما أتابعه أنا في لامبالاة. فلما انتهى من ذلك أبقى الدخان مكوما على ورقة البافرة ثم فرك أصابعه في الهواء أمام عيني كأنما يقول: هات ما ستفركه، فلما أن تلكأت قليلا شخط في مشوحا بذراع مبرومة لا شعر فيها كذراع الأنثى قائلا «ما تجيب يا لوطي!». فبكل هدوء وبساطة قمت ذهبت إلى حجرة النوم فسحبت الحشيشة من بين الكراكيب فوق دولاب الثياب واقتطعت منها قطعة لا بأس بها، ولففت بقيتها فرميت بها مطرح ما كانت، وعدت إلى بسبوسة. رميت بالقطعة أمامه على الطقطوقة، فانقضت عيناه تنقضان النسر على فريسة. ثم أمسكها بأطراف أصابعه قائلا في غبطة شديدة «يا بن الكا...لب!! دي حشيشه طيبة ما أنزل الله من مثلها في الأرض! شف أولاد الكلب والحشيش الذي يشربونه من دوننا. أي عدالة في هذه الأرض بحق الله؟ عدالة الشيطان

وحدها هي التي تجعل هؤلاء القوم وحدهم يشربون أجود حشيش في الدنيا ويضاجعون أحلى نساء البلاد ويفترشون ريش النعام ويأكلون المدى والجمبري والكابوريا! ونحن بعد ذلك نحملهم حتى لا تتلوث أقدامهم بالأرض! ليتنا نحملهم إلى القبر آه لو كنت أستطيع أن أصبح لصا محترفا! إذن لعرفت كيف أحكم هذا البلد!!».

وصار يتحسس التعميرة ويفرك منها حبات سمسم ينثرها فوق الدخان، ويلف السيجارة بحذق ومهارة وأعصاب رائقة، كأنه يتعبد في جامع الكيف، وإذ انتهى من لف السيجارة التي صارت تشبه القرطاس وضعها بين شفتيه بعناية ونظر لي محركا إبهامه فوق زناد وهمي؛ ففهمت أنه يطلب الإشعال. سحبت علبة كبريت من جيبي وجعلت أفتحها؛ فصدني بيده قائلا من بين شفتيه المضمومتين على السيجارة، «لا يا حدق! أشعل بالولاعة الذهب! خليها شبرقة في شبرقة بالمرة! إن هذه التعميرة لا يليق بها الكبريت! مقامها الولاعة الذهب!».

يا ولد الصايعة؟! هكذا قلت في نفسي، ثم شوحت له قائلا «ليس معي ولاعات!». شوح قائلا كأنه يعفي أصحابه من القضية كلها: «بلاش! الكبريت أحسن!». واختطف العلبة من يدي وطش عودا صار يلوح بشعلته في مقدم السيجارة ويشرب بلذة فائقة والسيجارة تنساب في فيه منكمشة على نفسها شيئا فشيئا، فلما شعر أنه انتشى وطرد منها سلمها إلي كانت دخانها في معمريه

وشرع يشرب واحدة أخرى، وقد بدا أنه تخلص من نفس وأخذ تنهيدة كبيرة، قال وهو يشعل الثانية «سأحكي لك حكاية بسيطة لكنها مضحكة ومسلية وفيها موعظة». قلت بغيظ «كلمني أولا فيم جئت تكلمني فيه». قال «لن أكلمك في شيء إلا بعد أن أحكي لك هذه الحكاية البسيطة المضحكة». قلت بضيق «احك!». فاعتدل في قعدته قائلا «لما قامت ثورتنا المباركة وطردت الملك فاروق ووضعت يدها على العرش، وضعت يدها أيضا على كل مجوهرات العائلة المالكة، حلو؟».

قلت: «حلو».

قال: «وكونت لجنة بجرد هذه المجوهرات أعضاؤها كلهم من الضباط الأحرار ومن مجلس قيادة الثورة، حلو؟».

قلت: «حلو».

قال: «مجوهرات العائلة المالكة هذه ليست لعبة، ففيها تحف وحلي وتماثيل وأشياء للاستعمال كالملاعق والأطباق والصواني والسلطانيات والولاعات كلها من الذهب والفضة بعضها مطعم بالأحجار الكريمة كالدر والياقوت والماس، وكل هذه المقتنيات تخص العائلة المالكة من عهد محمد علي حتى الملك فاروق، منها ما صنع خصيصا بتكليف ومنها ما أهدي إلى أحد ملوك العائلة وبعضها نادر لا مثيل له في الدنيا، كلها أشياء لا تقدر بمال. كلها أشياء سلطانية خطيرة، حلو؟».

قلت: «حلو».

قال: «يتناول المتداولون في البلاد في الغرف المغلقة والمنشورات السرية أن اللجنة التي جردت ووضعت اليد على المجوهرات قد قامت بأي مكان يحفظ عليها فيه حتى يعمي العين لو وضعها في الفاصل، هذه اللجنة قد تبخرت في الجرد خبثين، كلهم بالطبع أبناء ناس فقراء في الأصل، بعضهم طمع في قرط ذهبي ثمين فسرقه إلى حبيبه أو زوجته، ومنهم من تحفظ على فرع من الألماظ بعدد أنوار فولاذ في جيبه بيده، ومنهم من جمع في خواتم وساعات، ومنهم من لم يتمكن لحيبته أو حسن أخلاقه من غير شيء فاستعرضه الآخرون بهدية تملأ العين، جميعهم أرادوا شراء ذمم بعضهم بعضا وذمم بعض كبار القوم ممن بأيديهم الحل والربط فأرسلوا لهم بعض الهدايا النادرة ذات التاريخ لكي يسكتوا عنهم إذا جد جديد، ويقال إن بعض أبناء علية القوم ضبط في أوروبا يبيع ماسة أهدتها ملكة إيران ذات يوم لملكة مصر، حلو؟».

قلت: «حلو».

قال: «محمد بك أبو شناف من بين أعضاء اللجنة، وقد احتفظ لنفسه ولكبار وجوه عائلته ببعض التحف الثمينة ومن بينها ولاعة من الذهب الإبريز الخالص المطعمة بالدر والياقوت، وكان الملك فاروق قد تلقى هذه الولاعة من شاه إيران، وقيل إن الذي نقلها أبوه الملك فؤاد، حلو؟».

قلت «حلو!!».

قال: «الطريف يا جدع أن محمد بك أبو شناف هو الذي يتكلم اليوم كثيرا عن مجوهرات العائلة المالكة! وعن الذين نهبوها! يفرح غاية الفرح عندما تظهر إشاعة عن أحد اكتشفوا عنده شيئا من مجوهرات العائلة المالكة، وبعض الناس الأكابر الذين كانوا جالسين على السطح ليلة فوت القلوب وقد حدثتك عنهم ليلتها يقولون إن شيوع الإشاعات حول بعض الناس يبعد الشبهات والأنظار عن محمد بك أبو شناف وإنه لهذا يقف وراء بعض هذه الشائعات! حلو؟!».

قلت «حلو!!».

قال: «محمد بك أبو شناف يسمي نفسه دائما ويضع هذه الولاعة في جيبه ليتباهى بها أمام بعض الناس الذين يحب أن يثبت لهم أن له صلات وثيقة بالملوك والرؤساء وكل الناس الأبهة، حلو؟».

قلت «حلو!!». قال: «ومن شدة هبل محمد بك أبو شناف ومن شدة سطله على الدوام جاء بالولاعة معه إلى حفل عيد ميلاد فوت القلوب ولصق بها أوقية حشيش ليصنع بهما مصيبة في قلب الحفل. شف وساحة الرجل! على فكرة: كل الوسخين دمهم خفيف ولا أعرف السبب في هذا! البنت فوت القلوب مسكينة وقلبها أبيض ومحرومة من حنان الأم ولهذا ربما ستر ليلتها فلم يشعر أحد بشيء سوى نفر قليل! الحاج السني وأنا، أصلي على

علاقة طيبة بالحاج دون شلة النحس كلها! أنا الذي عرفتهم به إنه يحبني جدا ولا يقدر يستغنى عني! يحبني أكثر من المرحومة زوجته! بصراحة إنه يتعشقني؟! هها، أو يقلبني على جوه! حين يحركه: أنا أيضا أتركه يتحسس أشيائي على سبيل المزاح! يطبطب على إليتي من باب الهشم! يكلمني بصوت متهدج! لكن على من؟ إنه يبوح لي بأخطر الأسرار! لو طلبت عينيه لنزعها في الحال وسلمها لي! لكنه إذا كان ولدا صايعا فأنا أصيع منه! إنه لم يجر هاربا وراء عربات الرش ولم يبت في الجرامات مثلي ولم يتشعبط في سلالم الترامواي بحثا عن قرته! ومهد، فأنا أعرف كيف أستفيد منه! إنه سهل وصعب في نفس الوقت! إنه كالمال العام يسيل بين يديك لكنك تدخل السجن إن ضاعت منك قطرة واحدة منه. وأنا ألتصق بالحاج السني لكني لا أتركه يدخلني! فلو دخلني أو دخلته ضاعت حياتي! في كل يوم أرى فيه موعظة! هل تتخيل أنه كان على علم بالمصيبة التي يدبرها محمد بك أبو شناف في حفله في حفل ابنته؟! أخشى أن لا تصدقني إذا قلت لك إن الحماس لإقامة الحفل لم يكن عيد ميلاد البنت فحسب، بل من أجل إتمام «مصيبة» تصور يا ولد يا أنا على أن الشيخة سعادة هي التي شعرت بأن في الحفل جوا غير طبيعي! الواضح أنها شقية من قطاع الطرق! الطع ذراعي إن ما كانت من مطاريد نجع! عندها خبرة وموهبة في معرفة رجال الشرطة السريين تشم رائحتهم عن بعد فلما شعرت بذلك انصرفت قبل أن تقرأ بخت البنت وبخت محمد بك أبو شناف! إنها موهوبة ولديها كتاب عتيق عجيب مليء بالصور

الغريبة المدونة كأوراق اللعب لكي كل واحد من بني آدم يجد نفسه بكل مشاكلها وأوجاعه ملخصا في صورة من صوره التي تقرأها الشيخة سعادة كالبلبل. ظهرت حديثا وقد سمع بها محمد بك أبو شناف والحاج عن طريق ناس من أعيان أسيوط فطلبها من طريق المحافظ الذي تحرى عن مكانها فبعث في طلبها وأرسلها مع سائقه الخصوصي، ابهم يا أبا علي أن مصيبة محمد بك أبو شناف حين فشلت ولا بد أن تكون الشيخة سعادة قد قرأت تعريمة أفشلتها. عاد محمد بك أبو شناف إلى منزله وطلب الحاج السني بالتليفون ليقول له إنه نسي ولاعته في غرفة البرج، شف المهر يا جدع!»

قلت في عبث: «اسمع يا بسبوسة. أنا أحرق عين التعبي، فأنا الذي عثرت على هذه الأمانة وذهبت من فوري إلى حيث يقعد محمد بك أبو شناف وحاشيته والابيشه، وعرضت عليهم الولاعة، بل قلت له بصريح العبارة: يا سعادة البيه هذه الولاعة ضاعت منك؟ أتعرف ماذا فعل يا بسبوسة؟ وطربة أبي نظر لي كأنني لص هجم عليه يسرقه. فكيف تجيء أنت الآن وتقول إنه كلم الحاج في التليفون؟ حاجة من اثنين يا بسبوسة: إما أنك تختلق هذا الكلام بعد أن علمت بالخبر من راوي اعرض الأمانة على الحلة، وإما أن البيك أبو شناف واسع الذمة وقد طمع في الولاعة مدعيا أنها ولاعته!».

انفرط بسبوسة من شدة الضحك يا بوي حتى لم يعد قادرا على أن يضم نفسه من جديد. فخيل لي أن رأسه في مكان ويداه في مكان وكل جزء من أجزاء جسمه في مكان حتى صرته كان ميدانا هو الآخر في ضحك تتخلله حركات بذيئة وشخر ونخيج. وكنت أوشك أن أتبدد مثله، لكنني صحت فيه بغيظ: «أما تثبت يا ولد الفرطوس؟» فمسح دموعه بكم جلبابه وصار يعتقل الضحك بقوة قائلا: «أنت أصلك صعيدي قحف! ياله من منظر. ألم تفهم معنى الورطة التي أوقعت فيها محمد بك أبو شناف؟» ، نورث لمة كبيرة في دماغي يا بوي في ضوئها رأيت الورطة التي أوقعت فيها الرجل. لوحت بأصبعي تجاه موطن عقلي كأني أحييه على نزوله إلى منطقة الضوء، قلت ضاحكا: «نعم نعم يا بن العم، أنا فعلا أحرجت الرجل يا بن العم إحراجا! صاحبنا رلحت منه سريقة مشهورة فجئت أنا بسلامة مخي التعبي لأردها له وسط جمع غفير في حفل كبير! لم يكن ينقصني سوى أن أقول له بالفم المليان: خذ يا سعادة البيه الولاعة التي كنت سرقتها سيادتك من مجوهرات العائلة المالكة، هه؟ كأنما مثل الصعيدي الذي سرق الكلوب المشتعل بالضوء وراح يخبئه في مكان مظلم!!».

وصرت أخبط بكفي على ركبتي في انسجام واستحسان كأنني فهمت شيئا كبيرا يا بوي. تحلف اليمين يا بوي أنني فرحت فرحا غامضا. على أن الولد بسبوسة الملعون عاد يستأنف الضحك من جديد أقوى مما كان، وأنا أشاركه الضحك حينا وأكتفي بالنظر إليه حينا آخر فإذا هو خلال اندماجه في الضحك يبعبص في أصابعه في الهواء، ثم اعتدل في مقعده فلم جسده واتخذ مظهرا

جديا وامعن فوق الترابيزة وراح يفرك السجائر على ما تبقى من قطعة الحشيش، فيما يقول بلهجة حميمة «أنت غشيم يا حسن وعلى نياتك!» ثم أشعل السيجارة واستطرد

ـ تظن أنك فهمت حقيقة المنظر! ولو عرفت الحقيقة لضربت رأسك في الحائط من الدهشة والعجب! محمد بك أبو شناف طماع ولص كما تقول هذه ليست محتاجة لتفتيح مخ! هو يا حدق ليس يفتقر إلى جثث أنت بسلامة نية ورددت له الولاعة! إن وجهه والحمد لله مكشوف على الدوام لفحه هواء القهر والتبجح حتى احترقت دماؤه وتكلست عضلاته مثل القدم الحافية إذا مشت على الأرض بغير حذاء مدة طويلة صنعت لنفسها حذاء بكعب صلب لو خرطته بسكين يلتوى السكين ولا ينفذ فيه! هكذا وجه محمد بك أبو شناف! رحت أخدمه في قعدات كثيرة من سنوات بعيدة عند الحاج السني وغيره! كما قدر لي أن أعرفه منذ طفولتي قبل قيام الثورة حيث كان أبو شناف هذا يعمل في مهن كثيرة! فمرة كان ضابطا في الجيش المصري ورفدوه! وقالوا إنه جاسوس ألماني فاضطهدوه. أول ما تعرفت عليه كنت أسقيه الحشيش في دورة في مدينة السويس! كنت طفلا صغيرا وكان هو سواق عربة نقل كاميون مع شلة من السواقين رماش المطرح! إنني من السويس كما تعرف ولم أستوطن هنا إلا أثناء الهجرة! الحكومة عينتني في الحكومة نظرا للظروف المؤلمة التي عشناها في السويس: حيث فقدت بيوتنا وإخوتنا وآباءنا وأمهاتنا وعقارنا وذكرياتنا وكل شيء

وأخرجنا في أماكن أخرى! فثاني مرة تعرفت فيها على محمد بك أبو شناف اتضح لي أنه في الأصل عتال شغلته تحميل عربات النقل بالبضائع والمنقولات. ثالث مرة كنت أسقيه الحشيش في فيلا في مصر الجديدة يملكها رجل كان أعلى رتبة في الحرس الملكي حيث كانت أمي تعمل دادة ومربية في بيته فكنا أنا وإخوتي ننتهز الفرصة لنجد لأنفسنا أعمالا في البيت وسط العز والنغنغة! اتضح لي في هذه المرة الثالثة أنه ضابط في الجيش حيث قد عاد إليه بعد رفده. ثم بعد ذلك صرت ألتقيه في أماكن كثيرة عن طريق صاحب الفيلا وخدمتي لأصدقائه وزواره تعرفت على أجواء كثيرة مدهشة وانفتحت لي بوابات لو دخلتها أنت لتهت فيها! من حسن حظي أنني رأيت ناسا كثيرين قبل أن نمسك بهم من الضباط الأحرار لكن العجيب أنني كنت أرى الواحد منهم واحدين. أحدهما ضابط وهذا ما لا أراه أبدا والآخر مقاول أو تاجر تحف نادرة أو صاحب محلات وإقطاعيات وعزب! تعودت ألا أندهش من أي شيء! تعودت كذلك ألا أصدق القانون إلا إن كان في مصلحتي! لم أعد أخدم الحكومة وإن كنت أقبض منها ماهية نظير خدمة الفراش! أنا أخدم نفسي أولا ثم أعطي ما فاض مني للحكومة!! إذا كانت الحكومة كلها غارقة لأذنيها في الفسق والنفاق والعهر فبأي وجه أروح لأقبض على بني تعيسة الحظ ليس وراءها أو قدامها معين ولا سند؟ يا بحث من نفع واستنفع! أنا بصراحة أحيي في صف الناس فأحذرهم من الحكومة وهم في المقابل يكافئونني بالحب والإعزاز!!»

وشد السيجارة من شفتيه وقدمها لي وقد احمرت عيناه واربد وجهه، وبدا أن الحشيشة اللعينة قد سرحت بمخه فشردته وبعثرته في كل مكان فصار يلقي ببقع من الضوء الشع في مناطق متعددة من الأمور والنواحي، ربما شفطت النفيسات المتبقية في السيجارة حتى الذبالة وتعشش الدخان في جبهتي تذكرت أن أمر محمد بك أبو شناف لم ينته بعد، وأن الولد بسبوسة قد سرح بي وبعثر مخي أنا الآخر في مكان ألقى عليه لمة ضوء هذا ولد ساحر يا بوي، هذا سربيس حريق كان يجب أن أعرف سربيسته قبل أن يطلقها يا بوي لكنني كنت مبسوطا ومشعششا إلى حد بهيج يا خال! حتى فكرت في التنازل عن قطعة حشيش أخرى تشعل بها هذه الحالة التي صرناها لولا أنني نظرت فالتقيت التعميرة قائمة ما تزال على الترابيزة بين بقايا ورق البافرة ونثارات الدخان مثل بنية كبيرة مرلطة لامعة كالمدهونة بالزيت لاقفاس المكروت سيجارة ملفوفة، سحبت عدة أنفاس متلاحقة كتمت دخانها في منخري تاركا القليل منه يتسرب كأنني أجلو مخي من الداخل بالليفة الخشنة وقلت وأنا أرد له السيجارة متوهجة:

- « فتحت لي موال محمد بك أبو شناف فلم تتمه، أنت حين شرعت تتكلم أوهمتني أنك ستقول شيئا عن محمد بك أبو شناف يبعد عن مداركي ومفهوميتي! ثم نسيت موضوع محمد بك أبو شناف وحكيت لي قصة حياتك!! أعرف أن التعميرة جيدة تسرح بالدماغ لكنني متقطن ما أزال!»

فلمع الذكاء الحاد في عينيه كبرق الشمس، فعاجلته قبل أن يسرح ثانية. «وقلت لي إن محمد بك أبو شناف دبر مصيبة في الحقل ولم تقل لي ما هي هذه المصيبة والعياذ بالله!!» محبا بريق الشمس تحت جفنيه وهو يغلقهما في نشوة جذب الأنفاس. ثم قدم لي بقية السيجارة وقد مال رأسه على كتفيه تاركا سحب الدخان تهدر على صدره. ورفع رأسه قائلا من خلال أنف مدمعة بالمخاط:

«الأمر باختصار أن الورطة التي وقع فيها محمد بك أبو شناف كانت معقدة! لا أنت ولا غيرك لو كان جن مصورا يستطيع أن يفهمها! محمد بك أبو شناف كان يريد أن يدس الولاعة مع قطعة الحشيش على واحد من الأفنديين اللذين كانا يتوليان السلب أثناء حضورنا! الأفندي الذي كان ممسكا بالجوزة! إنه ضابط مخابرات ويقال إنه ذو منصب مهم في تنظيم لم نسمع به من قبل اسمه التنظيم الطليعي من داخل الاتحاد الاشتراكي كما أفهمني الحاج السمي! يكرهه محمد بك أبو شناف لاعتقاده أنه مدسوس عليه لكتابة التقارير عنه والتسجيل له إن أمكن! ومحمد بك أبو شناف يقربه منه ليمص سمومه ويتمكن في نفس الوقت من قطع رقبته!! تشاء الصدفة أنني حين نزلت بعدك من غرفة البرج العلوي اصطدمت في زحام الحفل بهذين الأفنديين جالسين بين جمع من العنيات الملتهبة يسكرون ويدخنون السجائر ملفوفة والدنيا رثيط وكل واحد في حاله. الأفنديان كانا يضحكان بعمق

ويشخران! توقفت خلفهما لعلي أستلقط من حديثهما بعض الأخبار عن البنات اللاتي يجلسن معهما خاصة أن شكلهن ممن يقمن بأعمال لصالح المخابرات! وكنت أرسم على نفسي هيئة من يقف رهن الإشارة لأداء الخدمات باعتباري من أهل المحل! فإذا بي أفهم موضوع حديثهم وسخريتهم! حكى الأفندي الذي كان ممسكا بالجوزة إنه ضبط محمد بك أبو شناف يسرب يده في الخفاء ويسقط في جيبه الولاعة وقطعة الحشيش! فأحس بالذعر والرعشة خاصة أنه كان علم من طرف خفي أن شيئا يدبر له في الخفاء! أيقن أن البوليس واقف يترصده على عتبة الباب لكنه مع ذلك لم يجرؤ على صنع فضيحة مزعجة في المحل! ولو أنه صاح ولفت الأنظار فسوف يزعم محمد أبو شناف بكل بساطة أنه لا يعرف شيئا عن الموضوع! ما صدق صاحبنا أن سحبناه عن الجوزة حتى جلس مستريحا على الشلتة وبصبصة لطافة أخرج المصيبة من جيبه وصار يحركها بيده خلسة حتى حشرها بين المسند و[illegible] محمد بك أبو شناف مباشرة!».

تخلف العبيد يا خال أني شعرت كأن تركيبة الدنيا كلها قد تفككت ولم يعد فيها ما يمسك بالأمر، والهواء يصفر بين الشروخ صفيرا مرعدا مزلزلا. أفي الحياة نحن يا ترى أم في جهنم حمراء اللون كالدم؟ لابد يا خال أن محمد بك أبو شناف هو أحد الزبانية، أو لعله إبليس نفسه. ويبدو أن منظري كان متجمدا على الذهول كأنني انمسخت حجرا بملامح مقفولة فها هو ذا

الولد بسبوسة يغرق في ضحك ماجن لبرهة طويلة فيما يشوح لحوري بيده في غمر انعقد دماغي لبرهة أطول فشعرت كأنه يستجمع كل إدارته ومندوبيه ومراكزه ليعقد اجتماعا طارئا يدين فيها كل بنلوه في هذه الكارثة الكونية المسماة بمحمد بك أبو شناف إنه آفة من آفات الزمن وأسخم من الحج السمي بطوفين، دماغي يا خال صار مزدحما بالعتق وبالأخذ والرد والقاعة والضجيج، ولحظة أن أوشك كيس دماغي يتفرتك ويضيع كل ما فيه سدى، طقت الفكرة في رأسي. فوجدتني أصيح في بسبوسة واضعا ساقا على ساق «لكن من الذي أخبرك يا حنو أن محمد بك أبو شناف كلم الحاج السمي في التليفون ليخبره بأمر الولاعة؟!» نظر إليّ الولد في استهانة شديدة وشوح بجوار رأسه علامة على ضياع مخي، وقال: «تقولوا طور يقولوا احلبوه!» ثم انفجر ضاحكا وراح يمسح دموعه.

على كل حال الحاج السمي قلب عليك الدنيا! وأنت من يوم المحل لم تره وجهك رغم أنه أوصاك بالمجيء! هو على فكرة مقتنع ببراءتك ومقتنع أيضا أن الولاعة في جيبه لأنه واثق أنك لن تستطيع التصرف فيها بأي شكل!».

وكان قد برم آخر سيجارة وقدمها لي لأفتتح إشعالها قائلا في جدية كبيرة «نشرب هذه السيجارة ونتكل على الله إلى عمك الحاج» قلت فيما أسحب الأنفاس مغمض العينين «وماله» ثم سلمته السيجارة معلقتها بين أصبعيه حتى تسترد أنفاسها قائلا

«لا تنس أن تجئ بالولاعة معك». ولم أسترح للهجته في قول هذه الكلمة يا بوي. شئ فيها محسسني كالدبابيس الدقيقة وقال صوت في دماغي: إياك أن تذهب معه الآن يا حسن. مانت لو ذهبت معه الآن على هذه الصورة فسيظهر للحاج الحسني أن بسيوسة هو الذي قبض عليك وجاء بك. ولربما تبجح بسيوسة وغمز للحاج بأنه لولا همته ما رأى الحاج وجهك. وجدتني أرد على هذا الصوت: «باه! أهطل أنا يا بوي؟ ولاد المدينة القحباء يستغفلون الصعايدة؟ كيف يا بوي؟» ثم قلت لبسيوسة بلهجة حشنة: «اسمع يا بسيوسة يا صاحبي! أنا أثبت حبي وأمانتي! والأمانة في الحفظ والصون. ولكن إذا تصورت أنني يمكن أن أذهب معك الآن يكون تصورك كحلم إبليس في الجنة. أنا كنت سأذهب إلى الحاج تلقاء نفسي يا بو العم. لست منتظرا أن يأخذني أحد من يدي ليسحبني إلى الحج! أم أنك تريد أن تتصدر أمام الناس يا بسيوسة يا حوي؟ شف يا بو العم! إذا ما كان الحاج قد استغنيني مرات ثلاثة ما قضيت أعرش! اذهب أنت وسأكون في عقبيك بعد نصف ساعة!».

رأيت الزعل الحقيقي ظاهرا في عينيه، فصعب على والله يا خال. فطيبت خاطره بأن أريته الولاعة. طارت عينه كالنسر وانقضت على الولاعة. بركت فوقها جاحظة مبهورة مندهلة: «يا ابن الكا.. ل.. ب! جوهرة ثمينة لا تقدر بثمن!» وقبض عليها في الحال بيديه فانضغط قلبي. صار يقلبها بتمعن. يرسل اللعي

والاستحسان لدقائق طويلة. كانت على شكل علبة مستطيلة مبطحة لقية تحوطها اللآلئ من جميع الأنحاء على أرض من الذهب الأحمر اللامع. وكنت قد عالجت فتحها برفق حتى عرفت كيف يقدح زنادها. وإنه لعجيبة من العجائب يا خال. فكل ما عليك أن ترفع غطاءها. ولكن عليك الأول أن تعرف أين غطاؤها. إذ أنه مدمج فيها سائح عليها وليس من خط فاصل يشير إلى الغطاء. فالصبر مع الشد والجذب من كل أضلاعها إذا بالغطاء شريحة رقيقة في سمك قطعة الشكلاطة. لا بس في مدى الولاعة بأوصال خلفية، ما إن تجذبه إلى أعلى حتى ترى الشمعة والفتلة مزدهرة كأنها كانت قاعدة تحت الغطاء صاحية. فإذ يحجب عنها الغطاء فهي والفتلة كعين الخاتم السحري قائلة: تبيك. ولقد ظللت ليتداك بطولها يا خال أفرج على الشعلة ثم أغطيها حتى احرقت حرحوشة سجائري. فلما اكتشفت سر اللعبة لبسيوسة ظل هو الآخر يفعلها بغير توان كأنه اكتشف سلوى جديدة رائعة. صحت فيه: «احذر أن تفسدها يا بو العم أو ينفد ما لابد في جوفها من نار وحجارة! ظهر لنا أن نسلمها سليمة من كل عيب يا بسيوسة يا حوي». وطبعت ذلك، مسمعة لطاقة. بأن دحليت يدي فقبضت على الولاعة وناويتها في جيبي، ثم ما لبثت حتى قمت إلى حجرة النوم فواريتها في مكانها الخفي وعدت إلى بسيوسة. لأراه شاردا سابحا في ملكوت الله يا خال.

جلست قبالته واضعا يدي على ركبتي كأني أستحثه على النهوض للفلوكي لكنه أشعل سيجارة وقال

- «هذه بالفعل هدية ثمينة! ثمنها يغنينا جميعا من الفقر شرط أن تبيع خارج البلاد! على فكرة، أنا أعرف عددا كبيرا من تجار الآثار والعاديات بعضهم دون أسماء كبيرة في شغل الصحافة ممن يسافرون كل يوم إلى بلد، جيوبهم عمرانة بالورق الثقيل؛ هم رجال بمعنى الكلمة، وخبراء يعرفون كيف يتصرفون في مثل هذه الهدايا الأثرية الثمينة، ولا يجيء من ورائهم لبط، إذ إنهم يعرفون طرق الأشياء، يعرفون من الذي تنقصه هذه الهدية أو تلك فيذهبون بها إليه في خطة مدروسة يشترون بها ما يشاءون من قواه الندية. والأشياء تتسرب إلى من تليق بهم ويليقون بها؛ بصرف النظر عن مصدرها؛ فلن يسألك أحد من أين جئت بها؛ ولا يعنيه هذا، كل ما في الأمر أن شخصية البائع هي التي تحدد قيمة الشيء ومستواه؛ فلو ذهبت أنت مثلا أيها الصعيدي الفقل لبيعها فلربما طلبوا لك البوليس، غيرك ربما أعطوه فيها بضعة جنيهات وصرفوه؛ وهناك من يعجز نهائيا عن بيعها مهما كان مقتنعا؛ وهناك من يستطيع بيعها في غيبتها بالسعر الذي يشاء، المهم الشخصية؛ والشخصية تكشف الشخصية؛ نحن لا أنت ولا أنا نستطيع الادعاء بأننا شخصيات مهمة؛ فالحوائط التي سنسطح فيه ستفضحك من صراحتنا بعد أول مطمة».

طب ما قولك يا حال أن ولد القرطوس قد أثر علي؟ تعلق اليمين إنه إبليس ونجح في الدخول في مشاشيشي؛ لكنني انتفضت فجأة ثم صحت «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!».

فضحك ولد القرطوس، وأخرج من جيبه قطعة حشيش! اتضح لي في الحال أنه كان قد حصرها جلسة من حشيشتي ودسها إلى جيبه، ثم شرع يفركها على دخان السيجارة قائلا «دع مشيخة الآن بحق النبي!» صحت فيه مازحا «تريد وضعها في تابيته يا بسبوسة؟!» وشوح قائلا «على فكرة أنا أستطيع تخييصك كخروج الشعرة من العجين، أنت أصلا في السيم، ألم تذهب بها إلى محمد بك أبو شماف وتعرضها عليه؟! إذن فقد أصبح معروفا للجميع أنك كنت تبحث عن صاحب ولاعة ضائعة!». ثم استطرد، «سيسألك الحاج السني أين الولاعة التي عثرت عليها في غرفة البرج يا حسن؟ فتقول له بكل بساطة دون أي خوف أخذها صاحبها يا حاج! صاحبها؟ صاحبه من يا ولد؟ هكذا سيقول لك فتقول له بينما كنت أعرضها قائلا يا من ضاع منه شيء ظهر لي أفندي فقال أنها ولاعته فأعطيتها له؛ سيجيئون لك بالأفندية ويعرضونهم عليك! وأنت تستنهي؛ تزعم أن الأفندي ليس بينهم! فيعرفوا أنك وقعت ضحية نصاب! وأن الذي سأتولى ترويج الأمانة في السر ولا من شاف ولا من دري. فما، قلت؟!»

ولد القرطوس لم يكن يمزح يا حال. تعلق اليمين أنني سعرت عيني في عينيه بحثا عن ظل المزاح فلم أجد، ووجدت يا حال أن هذا يخلي عليلي فيه أن أقوم فأضربه حتى يتحرشم ولا يعود بالنصح في مثل هذا الأمر ثانية. لكنني اكتفيت بأن قلت له «كلها مسائل عطلانة يا بسبوسة يا حوي!». مصمص الهواء قائلا في استخفاف ووراية

ـ « خذ!! إن ثمنها كما قلت لك يعيدنا من الفقر في خبطة واحدة! إن ثمنها ليس ثمن ما فيها من ذهب حر! ولا ثمن الأحجار الكريمة من زمرد وياقوت وماس! ولا ثمن الآلة الدقيقة الموجودة في داخلها كل ذلك له ثمن أي نعم! ولكن لا تنس أنها منسُبة! ولها تاريخ وأصل وفصل! وهذا له ثمن كبير! إننا يمكن أن نخبط فيها فوق العشرين ألفا! والتاجر يمكن أن يخبط فيها مائة ألف بالراحة! أنا أعرف رجلا من زبائن الحاج يدفع لنا فيها مثل هذاالمبلغ وأضمن أنه لا يأتي بسيرتنا في أي حديث! إنه دائما يوصيني إن وقعت في يدي مثل هذه التحف أن أخش بها عليه مباشرة!!»..

قلت وقد بدأت أرتعش خوف الوقوع في الورطة: « ربنا يغنيها بالحلال ياولد الفرطوس! حل عني يا شيطان المدينة يا غليظ القلب! ما كنت أظنك واعرا هكذا!!» فقال بحماس شديد: «يا صعيدي يا وجه النحس! إن رجال الثورة الذين توزعوا في كل مكان نهبوا البلاد وباعوا ما قدروا على نهبه! الآثار يبيعونها! مجوهرات العائلة المالكة يتصرفون فيها على راحتهم وكل يوم تظهر قطعة منها في مكان ما من العالم!! ولا أحد يحقق مع أحد! هذه فرصتنا الكبرى! ومحمد بك أبو شناف لن يستطيع أن يفعل معك أي شيء! والبوليس إن تابعك فسيعرف أنك لا شأن لك إذ أنا المسئول فما خوفك؟!»..

سلطت عليه نظرة ثاقبة ذات معنى وقلت له: «بسبوسة! أتتكلم الجد أم تمزح؟! أم لعلك تريد الإيقاع بي في شر أعمالي؟!».

قال بسبوسة: «أتكلم الجد طبعا! ولابد أن تطاوعني الآن! فمن يدريك أن الحاج السني أو محمد بك أبو شناف لم يبلغ الشرطة؟! وقد أخرج من هنا فيطب عليك البوليس من هنا ليأخذك بها متلبسا؟!» ألقتني هذه الغمزة يا بوي، شعرت أنه يلوح مهددا بشيء كالذي قاله! فتضايقت منه يا خال، وأسرعت قائلا: «قبل مجيء البوليس تكون هذه الأمانة في جيب صاحبها! وأحسن شيء تفعله الآن أن تتفضل من غير مطرود! فإن ورائي مشوارا مهما سأفعله قبل ذهابي إلى الحاج، ونهضت، فنهض على مضض شديد، ومضيت أمامه نحو الباب، فمضى في تثاقل يكاد الغيظ يفريه: «مع السلامة يا بسبوسة؟ أشوفك عند الحاج بعد ساعة واحدة »ومددت يدي أسلم عليه، فمد يدا باردة متراخية؛ ظل ينظر لي برهة طويلة، ثم لوى شفتيه مشمئزا وانصرف. أغلقت الباب خلفه ونظرت من العين السحرية فرأيته يطرق باب الجيران فانتظرت حتى انفتح الباب وزرق هو إلى الداخل. فخرجت متسللا على أطراف أصابعي كي أسبقه إلى دار الحاج السني ! فإذا بي أصطدم بسنيورة تبارك الخلاق فيما خلق، تفوح منها العطور الفاغمة وينكسب الجمال على كعبيها وردفيها وخصرها وعنقها ووجهها وجدائل شعرها الأسود الفاحم. المصيبة العظيمة أنها قالت لي: «تصبح بالخير يا حسن!». فكأن الدنيا بذاتها نطقت باسمي على نغم القيثار، وإذا أنا كطفل غرير أندفع صائحا: «يا سيد صباح النور! أهلا ثم نزلت السلم أكاد أتعثر في خجلي وعيوني فيها هي تلوح لي بيدها مودعة.

يا مثبت العقل في الدماغ يا رب؛ فالحاج السنى قد زعزع كل أبراج عقلي يا بوى ـ أقصد يا رب ـ وقد طيرها برجا وراء الآخر. إنه متخصص في سرقة كله من كل أبراجي لنا الآخر، أقصد كل الأفكار فلا تعود إلى ثانية إذ تكون قد ولفت على أبراجه الشامخة التي تجتذب حمام البلاد كلها فإذا هي تولف عليها فلا تعود إلى أصحابها، حتى الحمام النادر الذي يبيعه للغاوين إليه ثانية. الحمام ليس عبيطا يا بوى! كيف يكون عبيطا وهو يرجع إلى مسكنه الأصلي في وطنه مهما طالت به الأميال أو احتجزته الصحارى والوديان بأسرع مما يتخيل البشر؟ البنى آدم منا قد يتوه عن داره إذا شرب حجرين زيادة أو جرع قرعة بوظة. أما الحمام فلا يغترب أبدا. لابد أن يعود إلى بناتيه في المساء كما يعود الفلاح بمواشيه إلى داره. تخيل يا بوى أن هذا الحمام يفهم مثلنا في أمور الحياة، فمثلنا يكره الفقر يهفو إلى العز والنغنغة والعش اللين الطرى، طبعا يا خال. كل الطيور تصنع عشها بنفسها وتتفنن في صنعه ولا أجدع مهندس. إلا الحمام فإنه من فرط الدلال والكبرياء الخارق يترك أمر عشه لمن يقع في هواه لمن يغواه، متقنزح أخر قنزحة على قدر الهوى تكون الغية، والغية في خيال الحمام قصر بلا حدود، وطيرك الذي يولف على غيرك منشؤه الحمام، والحمام سيد من يولف. إنه يموت في الجماعة يا خال، كلما تزايد في تجمع مهيب سعى كل فرد للانضمام إليه والالتحام به في فخامة وشرف ليذهب به الركب الحافل المهيب إلى حيث تشاء طلائعه المتقدمة في اختراق وشموخ وثقة إلى

هدف لاشك معلوم، إلى مسكن وديع أمين أليف بكثرة الجماعة يملاه بالهديل والغزل حتى يتكاثر ويتكاثر يصير نقوشا ملائكية في خيمة السماء. ما حيلة الأبراج الخربة إذا كان الحمام يهفو إلى العز وعزه في التكاثر والتكاثر دينه وديدنه؟! لابد أن الحاج السنى لديه شئ لله لمس به أبراجه العالية هذه حتى أغرى حمام البر كله بالسكن فيها؟!

اقتادني خادم إلى بناية بعيدة خلف الدار الكبيرة كأنها ضريح الحسين مضروبا في عشرين ضعفا. قل يا بوى إنه مجمع أضرحة فخيمة المنظر ترتفع قبابها وتضيق شيئا فشيئا حتى تصير كالمئذنة تشق السحاب، تطل على حوش واسع دائرى، والأبراج والأضرحة ملتحمة كلها ببعضها وإن استقل كل واحد منها مجسدا بكل أضلاعه. فلما صرت في قلب هذا الحوش خيل لي أنني في قلب برج هائل خرافي وإذ رفعت رأسي إلى أعلى شعرت بدوخة عظيمة وخيل لي أنني غاطس في قاع الأرض إلى أعماق بعيدة. عدلت نفسي متطوحا أتساند على الهواء فرأيتني وحدي وقد اختفى الخادم شعرت بخوف مفاجئ يا خال، داهمني شعور كالذي يعترى من يجد نفسه فجأة في قلب مقبرة. كانت الأبراج السبعة الملتحمة ببعضها في دائرة محكمة حول نفسها قد دورت لنفسها سقفا من السماء على قدها، تلقى على فراغ الحوش آلافا من العيون المفتوحة في صفوف دائرية من الأرض إلى السقف لا نهائية ومادية، تفصل بينها وبين بعضها شرائح من

الجدران البيضاء كأنها الجفون التي توشك أن تتسدل. ما إن يسود الهدوء الساكن برهة إلا وتشرخه انطلاقة فرخ من إحدى العيون كرصاصة مدفع. في الحال يتبعه فرخ آخر، سرعان ما تستجيب لندائهما أفراخ أخرى كثيرة تتدفع من العيون السامقة، ليلتئم شمل الجماعة على ناصية الهواء المتناغم. ولقد يؤدي رقصة سريعة خاطفة، تتقارب الرءوس تتشاور لتتسلك في رحلة بعيدة، فيعم الهدوء لبرهة تبدو من عمقها دهراً.

- «أنت يا.. هوه! ماذا تفعل عندك؟ ما وقوفك كاللوح؟!».. كان الخادم واقفاً في باب صغير قصي، صحت فيه:

- «أين أنت يا جدع؟ لقد اختفيت من أمامي!»..

أشار خلفه إلى عمق الباب:

- «قلت إنك تريد لقاء الحاج! ها هو ذا الحاج ينتظرك فادخل». هرولت نحوه. فإذا بالباب الذي كان يبدو من بعيد كباب الخن قد استطال، وإذا هو باب أحد الأبراج، وإذا هو من الداخل دائرة كبيرة تطل على حوش مثل الذي كنت واقفاً فيه؛ وإذا جدران دائرية كلها عيون لا حصر لها من الأرض صعداً إلى عنان السماء. وقضبان حديدية تنتظم بعضها البعض في صفوف متجاورة متقابلة متعاكسة معاً تتصل بقضبان عمودية غاطسة في الأرض تتفرع منها دوائر حديدية بشباك نحو العلو الشاهق بحيث يستطيع أي إنسان أن يصعد بكل راحة وسلام وأمان لتتمكن يده من الدخول في العين للحصيد، حصيد الفراخ أو زبل الحمام الذي

هو أغلى من الفراخ نفسها عند من يسمدون به أراضي البطيخ، هذه مملكة أخرى يا بوي ولسوف أنقلها عن الحاج أحمد نور الدين السني..

كان مندمجاً بنفسه في تنظيف الأعين، وملاعبة الحمام وإغرائه بالمجيء إليه ناثراً أمامه بعض حبوب الدنيبة، إذ هو يعرف أن الحمام يتكفل بكسب قوته بعرق جبينه حيث يسعى إليه زرافات زرافات ولو في أقاصي الأرض البعيدة قال حين رآني تسمرت في مكاني كالأبله متنحلاً بإمبراطورية الحمام هذه:

- «أين كنت يا ولد يا عكروت؟! لم نرك من زمن!»..

- «مشاغل والله يا حاج!».

- «آمر! أي خدمة؟!».

- «آمر أنت يا حاج؟ ألست تسأل عني؟!»

- «أسأل عنك في كل وقت! ولكن ما الذي فكرك بي الآن؟!»

- «فرغت من انشغالي فجئت!».

قال كأنه يطردني بصنعة لطافة:

- «شرفت وآنست! لكني الآن مشغول كما ترى! على كل حال سأفرغ من هذه المشغولية بعد غد في مدخل الليل! فحاول أن تجيء! لك الآن أن تشرب الشاي في استراحة البوابة الكبيرة أو تتغدى إن أحببت! اطلب من الولد ما تشاء في سبيل أن تعذرني على انشغالي عنك الآن!»..

ـ « تشكرا تشكرا لا شاى ولا غيره! كنت أحب أن أكله كلمتين!». كوم زبل الحمام بسيف كفه:

ـ « لك أن تكلمني بدل الكلمة عشرا ولكن بعد غد!».

ثم نفض كفيه في بعضهما ومد يمناه ليسلم على، إه أهلا وسهلا، سلمت عليه وانصرفت مدعيا العبط كما قد بدا أنه يدعيه على لكني قلبي لم يطاوعني، فارتددت إليه مقدما له الولاعة الأثرية، فإذا هو ينظر إليها في دهشة قائلا: « ما هذه يا عكروت؟!» نفضتني رعشة باردة: «هذه هي الولاعة التي ضاعت من محمد بك أبو شناف!» قال الثعلب: « وما شأني أنا بها؟! قلت: لكي تعطيها له لأنه يبحث عنها!» نظر في عيني: أين وجدتها؟!» قلت: « في حجرة البرج عندك يا حاج!» قال: « إذن فخلها معك حتى تسلمها له بنفسك! أنا لا أقبل حفظها عندي لأنها مسئولية! انت الذى وجدتها وعليك أن تسلمها له يدا بيد!» أغرقتني الحيرة: «لكنه يبحث في طلبها يا حاج!» قال الثعلب: «إنما طلبت رؤيتك فحسب! ولم تجئ سيرة الولاعة أبدا! الولد بسبوسة لعب بعقلك! عل كل حال تعال بعد غد وسترى محمد بك أبو شناف بنفسه؟!».

فانصرفت يا خال وأنا من الحيرة في بلبلة

تتوالى اللقاء مع الكتاب الثالث من سيرة الأمالي

(وثالثنا الورق)

وثالثنا الورق